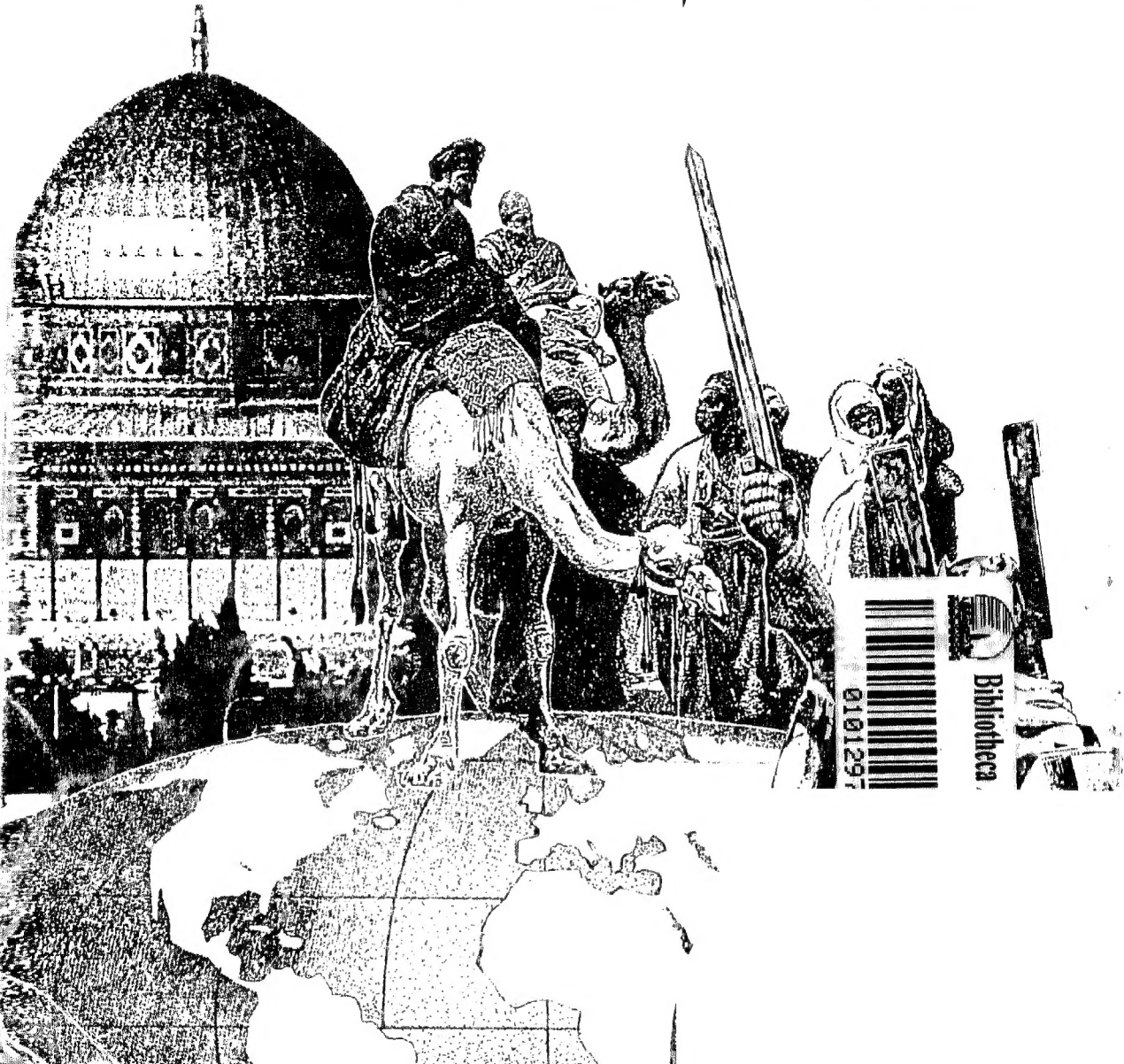




دكتور محمد مؤنس عوض

أجعل أقبوناً والرجال المسلمون

في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية



الجغرافيون والرحالة المسلمون

فى بلاد الشام

فى عصر الحروب الصليبية

إعداد

د. محمد مؤنس أحمد عوض

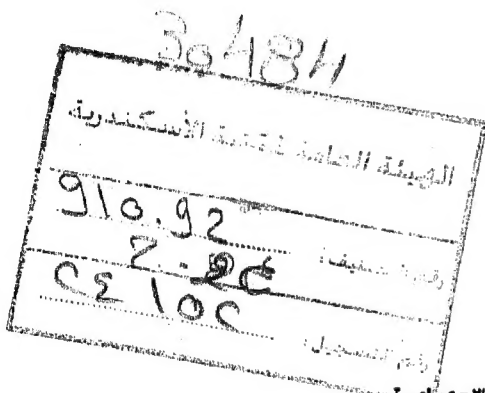
كلية الآداب - جامعة عين شمس

وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - أبها

910-9

mp

ع -



الطبعة الأولى

١٩٩٥



عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES



الناشر :

عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
EAIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES
٦ شارع يوسف فهمي - اسباتس - الهرم - تليفون : ٣٨٥١٢٧٦

المشرف العام : دكتور قاسم عبده قاسم

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الإهداء

إلى مؤرخين فاضلين،
من مؤرخي تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب
في العصور الوسطى،
بكلية الآداب - جامعة عين شمس، وهما :
أ.د. أحمد رمضان أحمد، أ.د. إسحق عبيد.
وفاءً لهما، وتقديرًا لعلمهما،
إذ أن إسهاماتهما العلمية تتحدث عن نفسها.

بسم الله الرحمن الرحيم
﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾
صدق الله العظيم

سافر تجد عرضاً عمن تفارقه
وانصب فإن لزيد العيش في النصب
إنى رأيت وقوف الماء يفسده
إن مال طاب وإن لم يجر لم يطب
والشمس لو وقفت في الفلك دائمة
لملها الناس من عجم ومن عرب

الإمام الشافعي
رضي الله تعالى عنه

المقدمة

يتناول هذا الكتاب بالدراسة الجغرافيين والرحالة المسلمين فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية (القرنان ٦، ٧هـ / ١٢، ١٣م)، وما قدموه فى مؤلفاتهم من جوانب اجتماعية، واقتصادية، وسياسية وغيرها، ولا ريب فى أن ذلك الموضوع يحتل مكانة متميزة من بين موضوعات دراسة تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، وعلى نحو خاص، خلال مرحلة الحروب الصليبية التى شهدت فيها بلاد الشام جانباً وافراً من أحداثها الزاخرة بالصراع بين عالمى الإسلام والمسيحية.

ومكمن الأهمية التى يمكن أن تعلق على موضوع الدراسة، أن المصادر التاريخية التى وصلت إلينا من ذلك العصر، سواء لدى الجانب الإسلامى أو الصليبي اتسمت بالإهتمام بالزوايا السياسية والحربية فى المقام الأول. أما النواحي الحضارية الأخرى - مع عدم إغفال أهمية الجوانب الأولى بالطبع - فإنها لم تحظ عند مؤرخى ذلك العصر، إلا بالقليل من العناية، وإن وردت لدى مؤلفات المؤرخين حينذاك، فهى بصورة ضمنية، وعرضية، ولا تتناسب مع ضخامة ما ورد بشأن الزوايا السياسية والحربية الأخرى.

وهكذا، يمكن أن نقرر أن هناك فجوة ما فى النصوص المصدرة من ذلك العصر، على اعتبار أن تلك الجوانب الحضارية تعد محدودة وسط الكم المتراكم من الأحداث السياسية والحربية الطابع.

وهنا تبدو أهمية مؤلفات الجغرافيين والرحالة المسلمين الذين عاصروا تلك الرحالة المنظمة من تاريخ منطقة الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، إذ أن كتاباتهم تسد جانباً له

شأنه من تلك الفجوة المصدرية لاحتوائها على إشارات قيمة على الأصعدة الاجتماعية، والاقتصادية، والدينية، وغيرها.

زد على ذلك، فإن أولئك الجغرافيين والرحالة قدموا لنا، خاصة أولئك الذين قدموا من خارج بلاد الشام، رؤية مهمة من خلال عيون غريبة وافدة على المنطقة، ولذلك نجد في نصوص مؤلفاتهم زوايا ندر أن تتردد في كتب الحوليات، وتعليل ذلك أن الجغرافي والرحالة الذى تكون عقله فى مجتمع ما بأبعاده المحلية، عندما تطأ أقدامه أرض مجتمع آخر، وبخاصة خلال عصر الصراع العنيف بين عالمى الإسلام، والمسيحية، يحرص الحرس أجمعه على إيراد كل ما تقع عليه عيناه من مظاهر حياتية متعددة ومختلفة، ولا مرء فى أن ذلك كله أدى إلى إثراء مؤلفاتهم، وتميزها بتصورات شخصية ثرية.

فلا عجب، والأمر كذلك، أن قدم أولئك الجغرافيون والرحالة نصوصاً تمتاز بالحيوية المتدفقة بين ثناياها. وكأننا نعيش فعلاً فى ذلك المجتمع الذى وفدوا عليه، على الرغم من انقضاء ثمانية قرون كاملة من الزمان على تلك الوقائع والمظاهر الحضارية التى أوردوا أمرها.

وما عمق تلك الزاوية السابقة، أن أولئك الجغرافيين والرحالة المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام فى ذلك العصر، كانوا فى الغالب موسوعى الثقافة، وضرب عدد منهم يسهم وافر فى العديد من مجالات التأليف العلمى، والأدبى، وتمتعوا - بصفة عامة - بقوة الملاحظة والقدرة على الوصف الحى المتدفق، بالإضافة إلى سلاسة العبارة ذاتها، ولا ريب فى أن كل ذلك قد ضمن لأولئك الجغرافيين، والرحالة وما تركوه من مؤلفات مكانة متميزة من بين المصادر التاريخية لتلك المرحلة.

ومن جهة أخرى، من الضرورة بمكان ملاحظة أن مؤلفات أولئك الجغرافيين

والرحالة المسلمين تقدم لنا نوعاً هاماً من المصادر التي تلتقى فيها الرؤيتان الجغرافية والتاريخية، وهكذا، فليس من الممكن قبول الاعتماد كلية على المصادر التاريخية الصرفة التي تتناول تاريخ القيادات والدول. ونغفل تلك المؤلفات الجغرافية وما كتبه الرحالة المسلمون الذين قدموا إلى بلاد الشام. فإذا ما لاحظنا أن الجغرافية ذاتها توجه التاريخ. وأن التاريخ ذاته - في أحد جوانبه - ما هو إلا صراع على الجغرافيا، أدركنا أهمية تلك المؤلفات، مع عدم إغفال القيمة المتنامية للمصادر التاريخية التقليدية من كتب الحوليات، والتراجم، والوفيات، والطبقات، وغيرها من صنوف الكتابة التاريخية التي وصلت إلينا من ذلك العصر، سواء كانت لدى الجانب الإسلامى أو الصليبي.

وإضافة إلى ذلك، نقدم مؤلفات أولئك الجغرافيين، والرحالة المسلمين رؤية تعكس تصور أحد أطراف المواجهة للطرف الآخر، فمن الأهمية بمكان ملاحظة كيف نظر المسلمون للصليبيين، بسليبتهم وإيجابياتهم، ومظاهر تلك النظرة، وأثر المواجهة الشرسة بين الجانبين المتصارعين على تكوين رؤية أولئك الجغرافيين والرحالة وانعكاسها بالتالى على مؤلفاتهم.

وفى هذا المجال، لدينا أوصاف قيمة تفيض حيوية للكيان الصليبي فى بلاد الشام، من خلال الرحالة المسلمين الذين دخلوا فى ذلك الكيان، ومنهم من عايشه بعمق على مدى مرحلة زمنية طويلة، ومنهم من احتك به على مدى عدة أيام قليلة مركزة، ولا ريب فى أن تناول ذلك الكيان من جانب أولئك الرحالة، ومهما تباينت نظرتهم إليه يكشف لنا بالضرورة عن طبيعة ذلك العصر بتصوراته المختلفة.

كما أن نصوص مؤلفات أولئك الجغرافيين والرحالة المسلمين، الذين جابوا ربوع بلاد الشام فى ذلك العصر، قدمت لنا تصوراتهم الإنسانية دونما تصنع أو مواربة، بعيداً عن الذهاب وراء الأحداث السياسية والحربية، كما قدمت لنا الأبعاد النفسية العميقة مثل القلق والتوتر إلى غيرها من الجوانب الانفعالية، على نحو يقدم للمؤرخ الذى يبحث

عن النصوص الفريدة مادة هامة من انفعالات عصر بأكمله من خلال أولئك الجغرافيين والرحالة، لاسيما عندما وصفوا المدن الإسلامية، وهي خاضعة للسيادة الصليبية، وكذلك القلاع الصليبية التي زرعت في المنطقة بعناية تأكيداً لبطش المحتل وقوته العسكرية، واستعماره - أى استخراجه - للأرض التي قدم من أوروبا خصيصاً للقيام بعمليات نهب منظم لثرواتها تحت شعار الصليب.

ومن جهة أخرى، قدمت مؤلفاتهم نصوصاً هامة عن المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام فى ذلك العصر، مع ملاحظة أن دراسة ذلك المجتمع تحتل أهمية خاصة، على اعتبار أنه المجتمع الذى صد الغزو الصليبي، وواجه تلك الحملات الصليبية الشرسة، وأن تماسكه البنيوي على مدى قرنين من الزمان وانصهاره فى بوتقة الجهاد مع وجود بعض الظروف الدولية الخاصة بالصليبيين أنفسهم أو ارتفاع الغارة الأوروبية ذاتها، قد أدى إلى نجاحه فى دحر الحركة الصليبية على أرضه، مصححاً بذلك خطأ الانقسام والتشردم السياسى الذى كان عليه عشية مقدم الصليبيين إلى المنطقة فى آخريات القرن الخامس هـ/ الحادى عشر م.

وإضافة إلى ما سبق، نجد أمامنا - ولحسن الحظ - امتداد مؤلفات أولئك الجغرافيين والرحالة المسلمين على مدى القرنين السادس والسابع هـ/ الثانى عشر والثالث عشر م. على نحو أفاد تماماً فى تتبع التواصل التاريخى للظواهر الحضارية التى وردت فى كتاباتهم، مع الاستعانة بالمصادر التاريخية الأخرى بطبيعة الحال.

وتجدر الإشارة إلى أننى فى هذا الكتاب أقوم بدراسة عدد من الجغرافيين والرحالة المسلمين، ومنهم من ألف معاجم جغرافية تناولت أوضاع بلاد الشام فى ذلك العصر موضوع الدراسة، ومنهم من كتب مؤلفاً خاصاً ومستقلاً تناول فيه أمر رحلته إلى أقاليم متعددة من دول الإسلام، ومنها بلاد الشام بينما نجد بعضهم الآخر لا يؤلف رحلة مستقلة. بل إن ترحاله إلى تلك البلاد تنثر فى صفحات مؤلفات أخرى مثل الأنساب،

أو المذكرات الشخصية إلى نحو ذلك. وحيث أن أولئك المؤلفين ما ألفوا تلك المؤلفات إلا من خلال ترحالهم إلى بلاد الشام في ذلك العصر، وهذا ما يتضح من خلال تناولهم لها في ثانيا مؤلفاتهم، فلذا تم اعتبارهم رحالة مسلمين وفدوا إلى تلك البلاد.

ومعنى هذا، إننى لا أعتبر «الرحالة» هو كل من ألف كتاباً احتوى عنوانه على تعبير «الرحلة»، بل الذى احتوت مؤلفاته على جوانب حضارية متعددة يعكس اترحاله إلى تلك المنطقة مكان الدراسة، ثم تناوله بالملاحظة والعرض لجوانب هامة من تاريخ بلاد الشام على مدى القرنين ٦، ٧هـ / ١٢، ١٣م، ويدعم التصور السابق موسوعية فكر علماء ذلك العصر وشموليته، وأن بعد الرحلة، والارتمال كان وضاحاً في مؤلفاتهم التى كانت بطبيعتها إفراز عصر عايشوه وشاركوا فيه كل فى مجاله.

ومع ذلك، فهناك نقد يمكن أن يوجه لمؤلفات الجغرافيين والرحالة المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، ويتمثل ذلك النقد فى أن هناك من أولئك الجغرافيين والرحالة من أمضوا فترات قصيرة فى المدن الإسلامية وكذلك الصليبية التى مروا بها، لا تتجاوز أياماً معدودات، وكتبوا انطباعاتهم عما شاهدوه من خلال تلك المدة الزمنية القصيرة، وبالتالي فليس بالإمكان الأخذ تماماً بكل ما ذكروه فى مؤلفاتهم وبخاصة أولئك الذين لم يوردوا إشاراتهم عن المدن المختلفة، من خلال معايشة طويلة.

وعلى الرغم من الوضع السابق، إلا أن من الإنصاف أن نذكر، أن الجغرافيين والرحالة المسلمين عندما أمضوا فترات زمنية قصيرة، فى المواضع التى زاروها كانوا يستشيرون أهلها والمقيمين بها من أجل أن يتثبتوا من انطباعاتهم التى كونوها.

ومن ناحية آخرين من الممكن معالجة الوضع المذكور من خلال المصادر التاريخية المعاصرة الأخرى سواء الإسلامية، أو الصليبية، ومقارنة ما ورد فى مؤلفات الجغرافيين والرحالة المسلمين بتلك المؤلفات التاريخية، بغية الوصول إلى الحقيقة التاريخية قدر

الإمكان. ثم هناك أيضاً منطلق الأحداث التاريخية ذاتها، وطبيعة ما نعرفه عن الصراع الإسلامي - الصليبي. ولا ريب في أنها تغيدنا في التعامل مع ما أورده الجغرافيون، والرحالة المسلمون في مؤلفاتهم عن تلك الرحلة.

ولما كنت قد قدمت من قبل - وفق جهدى المتواضع - دراسة مستقلة خاصة بالرحالة الأوروبيين في مملكة بيت المقدس الصليبية (١٠٩٩/١١٨٧م)، فقد عقدت العزم على تناول الجغرافيين والرحالة المسلمين في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية (القرنان ٦، ٧هـ / ١٢، ١٣م) وذلك بالاعتماد على نصوص مؤلفاتهم، وكذلك دراسات الباحثين المسلمين المحدثين، والغربيين في هذا المجال.

وجدير بالذكر أن هناك عدة مظاهر للافتراق بين الرحالة المسلمين والأوروبيين - سواء من اليهود أو المسيحيين - الذين زاروا بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية.

فمن ناحية؛ نجد أن الرحالة المسلمين، اتسعت المساحة المكانية لرحلاتهم، فشملت مناطق متعددة سواء تحت السيادة السياسية الإسلامية أو المناطق الصليبية، في حين نجد الرحالة الأوروبيين، لاسيما المسيحيين منهم قد اقتصروا في رحلاتهم على الأماكن التي ارتبطت بذكرىات المسيحية في عهدها المبكر، أما الرحالة اليهود، فلا ينطبق عليهم هذا التصور، على اعتبار أنهم تجاوزوا أماكن المزارات المقدسة لليهود في فلسطين، إلى مناطق أبعد مدى وأوسع مجالاً بالمقارنة بالرحالة المسيحيين خلال الرحلة المذكورة.

ومن جهة أخرى. نجد أن الرحالة المسلمين الذين زاروا بلاد الشام خلال ذلك العصر، اتسموا بشكل عام بصفة موسوعية المعرفة، ولذا كان منهم الفقهاء، والأدباء والشعراء، وعلماء الأنساب، الأمر الذي لا نجده لدى الرحالة الأوروبيين في ذات المرحلة الزمنية، ومن نتاج ذلك أن الرحالة المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام ألفوا مؤلفات

متعددة فى مجالات عدة من المعرفة على نحو لا نجد له لدى الرحالة الأوروبيين الذين لم يعرفوا - فى الغالب الأعم - إلا من خلال نصوص رحلاتهم التى ألفوها.

وبالإضافة إلى ذلك، نجد أننا نعرف بدقة - غالباً - تراجم الرحالة المسلمين الذين قصدوا بلاد الشام فى ذلك العصر، وذلك بفضل نمو مناهج الكتابة التاريخية الإسلامية، وتوافر مؤلفات فى مجالات التراجم، والوفيات، والطبقات بالإضافة إلى مؤلفات الحوليات بطبيعة الحال، أما بالنسبة للرحالة الأوروبيين، فنجد أن معلوماتنا عنهم قليلة، ونادرة، ونعرفها على الأرجح من خلال نصوص رحلاتهم نفسها، وهكذا، فإن عمق تجربة الكتابة التاريخية الإسلامية فى ذلك العصر أفاد فى تناول تراجم الرحالة المسلمين حينذاك على نحو كان مقتدراً فى الغرب الأوروبى فى نفس المرحلة الزمنية. ونفس الأمر بالطبع ينطبق على الجغرافيين المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام فى ذلك العصر.

مهما يكن من أمر، فإن هذا الكتاب يتناول بالبحث أحد عشر جغرافياً ورحالة مسلماً قد قدموا إلى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، ونجد أن بعضهم من المشرق الإسلامى، والبعض الآخر قدم من المغرب والأندلس، بل إن منهم من كان من بلاد الشام نفسها. وقد اتجه الرحالة المشارقة وكذلك المغاربة إلى بلاد الشام ذات العمق الحضارى والتاريخى والجاذبية الخاصة لأولئك الجغرافيين والرحالة فى ذلك الحين.

وقد اشتمل الكتاب على بابين. الأول بعنوان «الجغرافيون المسلمون فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية»، واشتمل على عدد من الجغرافيين مثل الإدريسى (ت. ٥٦هـ / ١١٦٢م)، وياقوت الحموى (ت. ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)، والقزوينى (ت. ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م)، وعزازين بن شداد (ت. ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م) وأبو الفداء (ت. ٧٣٢هـ / ١٣٣١م).

أما الباب الثانى فبعنوان «الرحالة المسلمون فى بلاد الشام فى عصر الحروب

الصليبية، واشتمل على عدة فصول، حوت السمعاني (ت. ٥٦٢هـ / ١١٦٧م)،
 وأسامة بن منقذ (ت. ٥٨٢هـ / ١١٨٨م)، الهروى (ت. ٦١١هـ / ١٢١٥م)،
 وابن جبير (ت. ٦١٦ أو ٦١٧هـ / ١٢١٩ أو ١٢٢٠م).

والجدير بالذكر، أنني تابعت المؤلفات البيلوغرافية سواء الأجنبية أو العربية^(١). من
 أجل البحث عن الدراسات التي تناولت الجغرافيين والرحالة المسلمين في بلاد الشام في
 عصر الحروب الصليبية، وهناك العديد من الدراسات عن عدد من أولئك الجغرافيين
 والرحالة كجزء من دراسات عامة عن الجغرافيا والرحلات في الإسلام في العصور
 الوسطى، دون التخصيص المكاني، وأعني به بلاد الشام، والزمانى وأعني به القرنين
 ٦ و٧هـ / ١٢ و١٣م، وقد أفدت بقدر الإمكان والجهد المتواضع من تلك الدراسات
 من أجل تدعيم البحث، ولا ريب في أنها أفادتني فائدة كبيرة.

ومن بعد ذلك، تم تزويد الكتاب بخاتمة تناولت أهم النتائج التي خلصت إليها،
 وكذلك عدداً من الملاحق والخرائط ثم أخيراً قائمة المصادر والمراجع العربية والأجنبية.

ومن الأمور الجديرة بالملاحظة، أن مجال الكتابة عن الجغرافيين والرحالة المسلمين
 في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، مجال خصب، متسع، ويود المؤلف أن يقرر
 أنه مازال يطلب العلم والمعرفة، ومازال يدرس عصر لا يدعى فيه أنه أحاط به إحاطة

(١) عن ذلك أنظر :

Tobler, Bibliographia Geographia Palestinae, Leibzeg 1827; Atiya, The
 Crusades, Historiography and Bibliography, London, 1962; Mayer, Bibliographie
 Zur Geschichte der Kreuzzuges, Hannover, 1965.

قسطنطين زريق «ما ساهم به المؤرخون العرب في المائة السنة الأخيرة في دراسة التاريخ العربى
 عن فترة الحروب الصليبية»، مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية ببيروت، السنة (١٢)، جـ (٢)،
 يونيو ١٩٥٩م؛ محمد مؤنس أحمد عوض، بيلوغرافيا الحروب الصليبية، المراجع العربية والمعربة،
 ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط، المجلد الثانى، ط١، القاهرة ١٩٨٥.

كاملة، ولعل هذا الجهد المبذول، يكون مدعاة لباحثين آخرين أكثر جهداً وعطاءً من أجل المساهمة فى مجال الجغرافيا والرحلة الإسلامية إلى تلك المنطقة الحيوية، والمهمة، فى تاريخ المسلمين فى العصور الوسطى بصفة عامة، وعصر الحروب الصليبية بصفة خاصة.

وأخيراً.. أود أن أعرب عن شكرى وتقديرى العميق للزملاء كافة الذين أسدوا إلى النصيحة، أو قدموا لى يد المساعدة العلمية الصادقة، وتعلمت منهم الكثير سواء فى مصر أو فى المملكة العربية السعودية، كما أتوجه بالشكر للقائمين على مكتبات الجمعية الجغرافية المصرية، ومكتبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ودير الآباء الدومنيكان، ومكتبة كلية الآداب، جامعة عين شمس، ومكتبة جامعة القاهرة، ومكتبة فرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأبها، ومكتبة نادى أبها الأدبى، ومكتبة أبها العامة؛ بحى العزيزة، والمكتبات الخاصة لعدد من الزملاء والأصدقاء.

وختاماً، أتوجه بالشكر إلى زوجتى الفاضلة، وإلى ولدى هانى وداليا، الذين عاصروا زوجاً، وأباً عاكفاً على الأوراق والمداد على مدى ثلاث سنوات؛ من أجل إنجاز هذا الكتاب.

ذلك مبلغى من العلم وأذكر قوله تعالى :

﴿ وفوق كل ذى علم عليم ﴾

محمد مؤنس أحمد عوض

أبها ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م

القسم الأول

**الجغرافيون المسلمون فى بلاد الشام
فى عصر الحروب الصليبية**

١ - الإدريسي

(ت ٥٦٠هـ / ١١٦٤م)

يتناول هذا الفصل بالدراسة؛ أحد أشهر جغرافيين المسلمين فى العصور الوسطى، ونعنى به الشريف الإدريسي^(١) (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٤م) الذى قدم إلى بلاد الشام خلال القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر ميلادى، وتناول فى مؤلفاته الجغرافية، عدة جوانب، من أوضاع تلك البلاد فى ذلك العصر.

والإدريسي، هو محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس، وقد ولد فى سبتة بالمغرب الأقصى عام ٤٩٩هـ / ١١٠٠م، وهو أحد أبناء عائلة الحموديين النبيلة، ونظراً لانتسابه للنبي عليه الصلاة والسلام، فقد حمل لقب الشريف^(٢)، ونجد أنه درس عدداً من علوم عصره فى قرطبة التى كانت حينذاك؛ إحدى حواضر الإسلام المزدهرة، وقد بدأ الإدريسي فى الارتحال الذى ملك عليه فؤاده منذ أن كان فى السادسة عشرة من عمره، وفى هذا المجال طاف ذلك الجغرافى بالأندلس وفرنسا، وإنجلترا، وكذلك أنحاء الشمال الأفريقى واتجه نحو تأدية فريضة الحج، فذهب إلى الحجاز. كما أنه ارتحل إلى مصر، وبلاد الشام، واليونان، التى يقال إنه وصل إليها فى عام ٥١٣هـ / ١١١٦م^(٣). ومع ذلك فيبدو أن التاريخ الذى يقرره البعض لذهابه إلى هناك؛ يعد مبكراً بعض الشيء، ومن المرجح أن ذهابه إلى اليونان تم بعد ذلك التاريخ.

وقد عبر الإدريسي البحر فى عام ٥٣٣هـ / ١٣٣٨م، إلى جزيرة صقلية Sicily حيث بلاط ملكها روجر الثانى Roger II (١١٣٠-١١٥٤م / ٥٢٤-٥٤٨هـ)^(٤)،

فى بالرمو Palermo، وقد اشتهر عن ذلك الملك عشقه الكبير للحضارة الإسلامية، وقد احتضن الإدريسى، وصار وثيق الصلة به إلى وفاته فى عام ١١٥٤م/٥٤٩هـ، وقد طلب روجر الثانى منه أن يقوم بتأليف كتاب يتناول فيه جغرافية العالم^(٥). ووصف بقاعه، وأقاليمه، وبلدانه، وجعل تحت تصرفه إمكانيات دولة النورمان فى صقلية كافة، وكذلك مؤلفات الجغرافيين السابقين، وشهادات التجار الذين تاجروا فى أنحاء نائية. فعكف الإدريسى على تأليف كتابه هناك، بيد أن الأمور تبدلت فى أعقاب وفاة روجر الثانى عام ١١٥٤م/٥٤٩هـ، فلم يحظ ذلك الجغرافى بنفس الرعاية، والاهتمام السابقين^(٦)، وعاد أدراجه فى أيام شيخوخته إلى مسقط رأسه سبته، حيث توفى هناك.

أما تاريخ وفاة الإدريسى، فنعرف أن الحسن الوزان^(٧) (ت ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م) قد ذكر أن ذلك قد وقع عام ٥١٦هـ / ١١٢٢م، بيد أن البارون دى سلام De Slane؛ قد لاحظ أن مثل ذلك التاريخ يعد مصحفاً، على اعتبار أننا نعرف أن ذلك الجغرافى قد ولد أصلاً فى عام ٤٩٩هـ / ١١٠٠م، ومن غير المنطقى تماماً أن يكون قد قام بكافة تلك الأسفار خلال حياته الحافلة بالأحداث خلال تلك الرحلة الزمنية القصيرة، ويبدو أن صحة التاريخ فى الغالب هى ٥٦٠هـ / ١١٦٤م^(٨)، مع ملاحظة أن الحسن الوزان قد ولد عام ٨٩٣هـ / ١٤٨٧-١٤٨٨م، وبينه وبين الإدريسى مساحة زمنية طويلة، تقدر بأكثر من ثلاثة قرون^(٩).

ويرى أحد المستشرقين، أن الإدريسى على الرغم من خلفيته الكوزمو بوليتية، وأهميته كجغرافى، كان محل تجاهل من جانب المؤرخين وكتاب التراجم المسلمين، وربما كان تفسير ذلك - فى اعتقاد صاحب ذلك رأى - قضاء الإدريسى معظم سنوات شبابه، فى خدمة الملك النورمانى، روجر الثانى ملك صقلية فى بالرمو، وأن إخلاصه لذلك الملك المسيحى، وابتعاده عن عالم الإسلام، قد عاد عليه بعدم احترام، ولا مبالاة من جانب المعاصرين له^(١٠).

ومع ذلك، فيبدو أن ذلك الرأي، لا ينطبق على الحقيقة من شيء، على اعتبار أن ضياع سيرة الإدريسي؛ نجد نظيراً لها بالنسبة لعدد من الجغرافيين المسلمين من أولئك الذين لم يتصلوا بالعناصر المسيحية^(١١).

ونجد الإشارة إلى أن الإدريسي؛ قد ألف عدداً من المؤلفات، مثل كتابه نزهة المشتاق في ذكر الأقطار، والبلدان، والجزر والمدائن والآفاق أو الكتاب الروجاري وبعد أهم مؤلفاته الجغرافية، وأوسعها شهرة، ثم كتاب روض الأنس، ونزهة النفس وكتاب أنس المهج وروض الفرج، وكتاب جنى الأزهار من الروض المعطار في عجائب الأقطار^(١٢)، وهناك كتاب آخر له في مجال علم النبات، هو الجامع لصفات أشاتات النبات^(١٣)، ولا مرأى في أن تلك المؤلفات التعددة تعكس عقلية الإدريسي وموهبته التأليفية. بحيث ألف في العديد من العلوم والمعارف على نحو عكس بالضرورة موسوعية تكوينه العقلي.

واهتمامنا الأول، في هذا الفصل ينصب على كتابين من مؤلفات الإدريسي، وهما نزهة المشتاق^(١٤)، وأنس المهج^(١٥)، والبحث عما أورده فيهما عن بلاد الشام، من زوايا متعددة، وجوانب مختلفة.

ومن الممكن أن تثار ناحية جديدة بالأهمية ألا وهي طبيعة ونوعية المصادر التي اعتمد عليها الإدريسي في تأليف كتابه نزهة المشتاق، والواقع أنها تعد ثلاثة مصادر، تتمثل في مشاهداته الشخصية من خلال ترحاله في البلاد المختلفة، بالإضافة إلى التقارير التي وصلت من جانب أولئك الذين أوفدهم روجر الثاني إلى أنحاء مختلفة من العالم؛ لجمع المعلومات اللازمة لذلك العمل الجغرافي الكبير، بالإضافة إلى المصادر الجغرافية المتعددة التي يمكن أن يعتمد بها^(١٦)، مع ملاحظة أن ذلك كله من خلال إمكانيات دولة النورمان في صقلية.

ولا نغفل في هذا المجال حقيقة محورية، تتمثل في أن قدرات الإدريسي، جعلته يحسن الاستفادة من كافة تلك المصادر التي أتاحت له. ومن الممكن أن نعلق على تلك

الزاوية أهمية واضحة أدت بدورها إلى أن يؤلف كتاباته الجغرافية بتلك الصورة التي وصلت إلينا. وهي تعكس في واقعها، إمكانيات عنصر، وإمكانيات جغرافي قدير، أحسن استغلالها.

وقد اتسم كتاب نزهة المشتاق للإدريسي بالشمول، والعمق، على نحو جعل من صاحبه يحتل مكانة كبيرة في تاريخ جهود المسلمين الجغرافية في العصور الوسطى. وقد اعتبره البعض نقطة احتكاك بين الحضارتين الإسلامية والمسيحية^(١٧)، ونظر إليه البعض الآخر على أنه اسطرابون العرب، وأكبر جغرافيينهم^(١٨)، وأن كتابه يعد أفضل رسالة جغرافية في عالم العصور الوسطى^(١٩)، كما أن هناك من اعتبره، مؤسس المدرسة العربية النورمانية^(٢٠).

ومع ذلك، يرى أحد كبار المستشرقين المتخصصين في مجال الجغرافية العربية في تلك العصور، أن الإدريسي «أبعد ما أن يكون أكبر الجغرافيين قاطبة داخل الإطار العام لتطور الأدب الجغرافي العربي، بل لا نستطيع أن نضعه في مصاف العلماء المبرزين الممتازين»^(٢١)، ويرى باحث آخر أن كتاب الإدريسي «ليس بأدق كتب الجغرافيا العربية، وإنما اشتهر بالدرجة الأولى لأنه من تأليف جغرافي عربي قضى معظم عمره في صقلية، أي في بيئة أوروبية تأثرت بالحضارة الإسلامية إلى حد بعيد»^(٢٢).

والواقع أن كلا من الرأيين السابقين يحويان تحاملاً واضحاً على الإدريسي، ومن الممكن تصور أن تلك الآراء المتحاملة عليه قيلت في وقت لم تكن فيه الجهود التحقيقية لنزهة المشتاق قد اكتملت، ولم يكن النص العربي لذلك الكتاب قد ظهر بعد، ومن الممكن القول بأن كتاب «نزهة المشتاق» جعل الإدريسي يحتل تلك المكانة الرقيقة، لأنه اعتمد فيه على الجغرافيين والرحالة المسلمين السابقين مثل الهمداني (ت ٣٣٤هـ / ٩٤٦م)، وابن حوقل (ق ٤هـ / ١٠م)، والمقدسي (ت ٣٩٠هـ / ٩٩٦م)، وغيرهم^(٢٣)، فكتابه «خلاصة الجغرافية العربية في العصور الوسطى»، حتى

القرن السادس هجرى/ الثاني عشر ميلادى، ثم أنه لا يعكس إمكانيات فردية - كشأن مؤلفات الجغرافيين المسلمين السابقين - بل إنه يعكس إمكانيات وقدرات دولة هى دولة النورمان فى صقلية، فإذا أضفنا إلى ذلك سياحات مؤلفه المتعددة نعرف أن الإدريسى، توافرت له إمكانيات لم تتأت لغيره من الجغرافيين المسلمين السابقين. الأمر الذى جعل له تلك المكانة الرفيعة، ولذا يمكن القول - دون اعتساف فى الأحكام - إنه أبرز الجغرافيين المسلمين فى عالم العصور الوسطى.

أما القول بأنه أبعد من أن يكون أكبر الجغرافيين قاطبة داخل الإطار العام لتطور الأدب الجغرافى العربى، فهو رأى متحامل، ولا يقف على قدميه فى مواجهة النظرة العلمية الحديثة سواء لدى الباحثين المسلمين المحدثين أو الباحثين الأوروبيين. وفيما يتعلق بالرأى الآخر، وهوانه كتب مؤلفه فى بيئة أوروبية فحصل على تلك المكانة الرفيعة، فهو قول مردود، إذ أن البيئة الأوروبية لا تضمن البتة للإدريسى تفوقه، ولا تضمن كذلك لكتابه الانتشار الواسع النطاق؛ فى حالة كونه متواضع المستوى من الناحية العلمية، غير أن إمكانيات ذلك الجغرافى العقلية وكذلك الإمكانيات العلمية التى وضعت أمامه ضمنت لذلك الكتاب تلك المكانة الرفيعة.

وإضافة إلى ما سبق؛ نجد أن الإدريسى قد زود كتابه بسبعين خريطة، وعدت خرائطه من أدق ما وصل إلينا من جغرافية المسلمين فى العصور الوسطى، ووصفت بأنها خرائط حقيقية تعطى للناظر إليها تصوراً واضحاً من المواضع التى تصورها، وهى بالتأكيد كانت أدق من خرائط الجغرافيين اليونان القدامى لأنها من عمل «جغرافى خرائطى موهوب»، ومن هنا يكون التقدير للإدريسى، وعمله كله نصاً وخرائط، ويزداد التقدير لمدرسة المسالكين المسلمين الذين يعد الإدريسى الذروة التى بلغت أعمالهم (٢٤).

أما الكتاب الثانى، من مؤلفات الإدريسى الجغرافية فهو أنس المهج، وروض الفرح، وهو لا يزال مخطوطاً، ويفيد فى تكملة صورة بلاد الشام عند ذلك الجغرافى فى عصر الحروب الصليبية؛ ولاسيما خلال القرن السادس الهجرى/ الثاني عشر الميلادى.

ومن الممكن أن تثار زاوية خلافية هامة، وهي تتصل بزيارة الإدريسي لبلاد الشام أو اعتماده على روايات الجغرافيين الآخرين الذين زاروا تلك البلاد، ويعزز كراتشكوفسكى أن الإدريسي زار لشبونة، وسواحل فرنسا، وإنجلترا^(٢٥)، كما أنه زار في عام ١٠١٠هـ/ ١١١٦م - كما ذكرت سلفاً - آسيا الصغرى، ويقرر الظاهر أنه لم ير بقية أفريقيا، وآسيا^(٢٦)، والواقع أن هذا الرأي يمكن تفنيده على أساس عدة اعتبارات :

أولاً : إن وصف الإدريسي لبلاد الشام من خلال كتابيه «نزهة المشتاق»، و«أنس المهج» لا تدع مجالاً للشك في أنه يعبر عن رؤية شاهد عيان معاصر للوجود الصليبي لعدد من المناطق في تلك البلاد خاصة خلال أواسط القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، ومن ثم تميزت نصوصه حول تلك المناطق عن نصوص الجغرافيين المسلمين السابقين، وهو أمر لا يتأتى له إلا بالمشاهدة، والمعاينة، والمعايشة. وهو ما سيتضح لنا من خلال هذا الفصل.

ثانياً : في حالة كون الإدريسي لم ير بلاد الشام، لاعتمد على مؤلفات الجغرافيين المسلمين السابقين، ولأشار بالتالي إلى مؤلفاتهم، الأمر الذي لا نجده في مؤلفاته، على نحو يفند المقولة السابقة، إذ أن ما كتبه عن بلاد الشام يعكس تصورات الشخصية لا تصورات السابقين.

ثالثاً : إن ارتباط الإدريسي بملك صقلية؛ روجر الثاني، يدعونا إلى التصور بأن بلاد الشام كانت من المناطق الهامة التي من الضروري لذلك الجغرافي أن يذهب إليها، إذ أن ذلك الملك كان مسيحياً، ومن الطبيعي أنه أراد معرفة الأماكن المقدسة المسيحية في فلسطين ومن المستبعد أن يعتمد الإدريسي في وصف تلك المناطق على مؤلفات السابقين ولا يراها رؤية عينية، ويؤكد ذلك التصور وصفه لكنيسة القيامة على نحو يعكس أنه كان يوماً ما هناك.

رابعاً : من المستبعد تماماً أن يذهب الإدريسي إلى لشبونة، وسواحل فرنسا، وإنجلترا، ويجد الدافعية لذلك، ولا يرحل إلى بلاد الشام، وهي أصلاً من ديار الإسلام وفي نطاق عالم البحر المتوسط، ولا توجد حواجز دينية أو لغوية تعوق اتصاله بتلك المنطقة الحيوية التي ذهب إليها كافة الجغرافيين المسلمين في العصور الوسطى واحتلت مكانة رفيعة في مؤلفاتهم.

ونخلص من ذلك، أن مقولة كراتشكوفسكى لا تقف على قدميها، إذ أنه رأى مناطق أخرى في آسيا ونعنى بذلك بلاد الشام، وهو ما يعني في هذه الدراسة.

مهما يكن من أمر، فمن الضروري تناول الجوانب التي تعرض لها الإدريسي كافة، واختصت ببلاد الشام، ومن أمثلتها تناول المدن الرئيسية في الساحل الشامي، وكذلك الجوانب الاقتصادية في المدن الشامية، ثم المزارات الدينية والعلاجية في ذلك العصر، ولاسيما المسيحيين، والمسلمين، ثم تعرضه للخريطة المذهبية لبلاد الشام في ذلك الحين، وأخيراً تناوله للقلاع، والحصون هناك.

ونجد الإشارة إلى أن ذلك الجغرافي يمتاز أسلوبه فيما نعرض له من جوانب خاصة ببلاد الشام، بالإيجاز، والاختصار بصفة عامة، ولذا نجد أن عبارته عبارة مركزة مباشرة الدلالة.

وقد اهتم الإدريسي بالساحل الشامي، وحرص على أن يوضح أوضاع كل مدينة فيه من المدن التي خضعت للسيادة الصليبية، ومن المرجح أن كافة تلك المدن قد سيطر عليها الصليبيون، من قبل مقدم الإدريسي إلى بلاد الشام، ونجد أنه قد اهتم بإيراد الوضع السكاني لتلك المدن الشامية الساحلية، ودل ذلك جميعه على إدراكه للأهمية الكبيرة لتلك المنطقة الاستراتيجية والاقتصادية الهامة.

ونجد أنه عندما تناول مدينة عكا^(٢٧)، وهى من المدن الصليبية الرئيسية على الساحل، وصفها بأنها مدينة كبيرة ذات أرجاء متسعة، وضياعها كثيرة، ولها ميناء مأمون من ناحية رسو السفن فيه^(٢٨)، ونظراً لطبيعة تلك المدينة الساحلية التجارية، ووجود جنسيات متعددة فيها تعبيراً عن طبيعة الوجود الصليبي ذاته فى بلاد الشام، حيث تكون من جنسيات مخلفة شملت الإيطاليين، والفرنجة، والإنجليز، والألمان، والدنماركيين، والروس، وغيرهم كثيرون، نجد أن ذلك الجغرافى قد أدرك طبيعة البنية السكانية غير المتجانسة لتلك المدينة الخاضعة للسيادة الصليبية. وفى ذلك قرر أن «أهلها أخلط، وناس شتى»^(٢٩) وفى هذا تعبير صادق عن وصفها الديموغرافى، مع ملاحظة أن ذلك الوضع قد أدى إلى عدم تجانس المجتمع الصليبي، وتصارع عناصره على نحو ساعد على أن يسقط من الداخل؛ قبل أن يسقط من الخارج على أيدي القوى السياسية الإسلامية المجاهدة.

وعندما تناول الإدريسي مدينة حيفا^(٣٠)، نجده قد أشار إلى أنها تحت طرف الكرمل، ولها مرسى جيد لإرساء الأساطيل^(٣١)، وقد أدرك الصلة بين المدن البرية الحبيسة فى بلاد الشام وتلك الساحلية، إذ أن الأخيرة؛ عملت كمنافذ تصدير تجارة تلك المدن البرية الحبيسة، ومن ثم كان هناك الارتباط الوثيق الصلة بين تلك المدن، وقد أدرك الإدريسي، هذه العلاقة النفعية فنجد أنه يقرر أن السويدية (سان سيمون) ميناء انطاكية^(٣٢) وأن أنطربطوس ميناء حمص^(٣٣)، وحيفا ميناء طبرية^(٣٤)، وبافا ميناء بيت المقدس^(٣٥).

ومن الجلى البين، أن ذلك الارتباط السابق قد تأكد مع القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر ميلادى، من خلال إدراكنا للنشاط التجارى المزدهر الذى شهدته مرحلة الحروب الصليبية، ومن المعروف أن مرحلة العصور الوسطى لم تشهد ثورة صناعية، بل شهدت ثورة تجارية، وينطبق ذلك بجلاء على النشاط التجارى الواسع النطاق الذى شهدته

عالم البحر المتوسط فى ذلك الحين، ولاسيما القسم الشرقى منه، ومن ثم فإن وصف الإدريسى لتلك المنطقة يعكس تلك الحقيقة المؤكدة حينذاك ألا وهى ازدهار حركة التجارة هناك.

وهكذا، أوضح عرضه طبيعة الصلات التجارية بين المدن الاشمية، وكذلك مسألة الحج المسيحى، إذ أن الحجاج الأوروبيين احتاجوا تلك الموانئ الساحلية من أجل الوصول عن طريقها إلى المدن الداخلية التى احتوت على المزارات الدينية المقدسة لدى المسيحيين على نحو خاص، وخير مثال دال على ذلك، ميناء يافا الذى كان الحجاج يصلون إليه، ومنه يسبرون فى الطريق البرى الصخرى الوعر^(٣٦)، من أجل الوصول إلى مدينة بيت المقدس.

ومن ناحية أخرى، نجد ذلك الجغرافى، يحرص على الإشارة إلى الكثافة السكانية المرتفعة إذا ما وجدها فى مدينة من مدن الساحل الشامى، ومن أمثلة ذلك إشارته إلى مدينة عرقة، وذكره لها على اعتبار أنها «عامرة بالخلق»^(٣٧)، وهكذا نجد أنه أدرك تلك الكثافة المتزايدة لاسيما لدى عكا وعرقة ومن المرجح أن الدور التجارى لكل منهما أكسبهما تلك الصفة.

أما عسقلان^(٣٨)، فقد زارها الإدريسى بعد عام ٥٤٨هـ / ١١٥٣م، إذ يقرر أن الصليبيين أخضعوها فى ذلك العام، ويفيد هذا القول فى توضيح تاريخ زيارة الإدريسى لبلاد الشام وهى بالتالى وقعت بين عامى ٥٤٨هـ / ١١٥٣م، وعام ٥٦٠هـ / ١١٦٤م - والأخير عام وفاته - وقد أشار إلى أبرز ما فيها كما تصوره وهو أسواقها وأسوارها^(٣٩).

ومن ناحية أخرى، احتوى تناول الإدريسى لبلاد الشام من خلال كتابه نزهة المشتاق، جوانب اقتصادية هامة، وفى هذا المجال نجده يذكر أمر الثروة المعدنية، وكذلك

النشاطين الصناعى، والتجارى فى العديد من المدن الشامية. على نحو يعكس أن ذلك الجغرافى كانت لديه رؤيته الاقتصادية الهامة.

ومن الأمور الجديرة بالملاحظة، أن الإدريسي حرص على إبراز تميز بيروت بالثروة المعدنية لاسيما الحديد، إذ أشار إلى أنه بالقرب منها يوجد جبل فيه معدن الحديد الجيد ويقطع، ويتم استخراجها بكميات كبيرة^(٤٠)، الأمر الذى انعكس بالضرورة على الصناعات التى يدخل فيها ذلك المعدن.

أما الزاوية الصناعية فنجد أنه قد أوضحها بالنسبة لمدينة دمشق، حاضرة الشام الكبرى، وكذلك بالنسبة لبيسان.

وقد أشار إلى أن دمشق تحتوى على ضروب من الصناعات^(٤١)، وأنواع من الملابس مثل الخز، والدياج النفيس الذى أعجب بصناعته إما إعجاب حتى وصفه بأنه «عجيب الصنعة»، وأنه «عديم المثال»^(٤٢)، وقد عقد مقارنة بين الدياج الدمشقى، والعديد من أنواع الثياب فى مدن المشرق الإسلامى الكبرى فوجده يفوقها جميعاً، ومن أمثلة ذلك مقارنته بدياج البيزنطيين؛ وذكر أنه يقارب ديباج تستر، وينافس ديباج أصبهان، ويشف على أعمال طرز نيسابور، وكذلك بديع ثياب تينس، وأنهى تعليقه على الثياب الدمشقية بأنها لا تنافسها ثياب^(٤٣).

وواقع الأمر، أن مقولة الإدريسي السابقة تعكس بجلاء مدى التفوق الذى حققته صناعة الثياب الدمشقية فى عهد السلطان الملك العادل نور الدين محمود، الذى ازدهر الانتاج الصناعى بصفة عامة فى عهده، وشهادة الإدريسي، شهادة رجل قدم من سبته بالمغرب الأقصى، وطاف العديد من بقاع العالم المعمور فى ذلك العصر، وشمل ترحاله قارات أفريقيا، وآسيا، وأوروبا، فهى فريدة من نوعها، وتعكس التفوق العالمى للثياب الدمشقية فى ذلك العصر على غيرها من الثياب.

وكامتداد للجانب الصناعي، نجد أن ذلك الجغرافى، قد ذكر أنه فى مدينة بيسان توجد صناعة الحصر السامانية، ولا يوجد البتة إلا بها، ولا يتوافر فى سائر أنحاء الشام^(٤٤)، ويبدو أن صناعة تلك الحصر لم تكن بالاتقان والروعة التى وجدها ذلك الجغرافى الذواق فى الثياب الدمشقية، ودليلنا على ذلك، أنه على حين كال عبارات المديح والإعجاب الشديد بالديباج الدمشقى، وجدناه لا يمتدح الحصر السامانية. ولم يعقد مقارنة بينها، وبين أنواع الحصر فى المدن الشرقية الأخرى، مما يدل على أنها كانت صناعة محلية، ولم تتطور بحيث تدخل مجال المنافسة العالمية، على عكس أمر الديباج الدمشقى.

وكامتداد لرؤيته الاقتصادية، نجد أن الإدريسى، قدم لنا رؤيته التجارية، وقد حرص على تقديم صورة للأسواق التجارية، وكذلك أنواع السلع المتعددة، من ذلك أنه قرر بشأن مدينة صيدا أنها زاخرة بالأسواق ولاحظ أن أسعار السلع فيها رخيصة^(٤٥). كما وصف مدينة دمشق بأن تجارتها رابحة^(٤٦)، وعكست عبارته مدى الثراء الكبير الذى حققته تلك المدينة، من عوائد النشاط التجارى، وقد ذكر أن ديباجها يحمل منها ليصدر إلى الأرجاء كافة القرية والبعيدة^(٤٧).

ومن المعروف أن الصناعة الدمشقية المتقدمة فى ذلك العصر، أمدت التجارة الدمشقية بزيادة هام للتصدير، وقد دخل الديباج الدمشقى كسلعة هامة، فى التجارة الدولية، فى العصور الوسطى، ومن ثم أتت رواية الإدريسى فى هذا الشأن دالة على ذلك. أما عرقة فهى عنده كثيرة التجارات، وطرابلس وصفها بأنها مقصود إليها بالأمثلة، وضروب الغلات، وصنوف التجارات^(٤٨) مما عكس انتعاشها الاقتصادى.

وتوجد ناحية لا تخلو من طراقة، وهى أن الإدريسى أشار فى معرض حديثه عن صيدا إلى أن بها تجارة نوع معين من الأسماك، يصفه بأنه «طول الأصبع» وله علامات خاصة يعرف بها، يتم صيده ويجفف، ويسحق، ويسف بالماء، وهذا النوع يفيد من

الناحية الجنسية بشكل كبير^(٤٩)، ومن الطريف أن الإدريسي أشار إلى أنه رأى ذلك النوع من الأسماك غير مرة، وإن لم يشر إلى تناوله أو تذوقه وربما منعه حياؤه من أن يذكر ذلك الأمر.

من ناحية أخرى، احتوت جغرافية الإدريسي عن بلاد الشام على إشارات هامة لاسيما فيما يتصل بالمزارات الدينية المسيحية والإسلامية.

وجدير بالذكر، أن الإدريسي يتميز من الجغرافيين المسلمين الآخرين؛ الذين زاروا بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، على مدى القرنين ٦ و٧هـ / ١٢ و١٣م، بأنه أكثرهم تفصيلاً بشأن المزارات المسيحية المقدسة في فلسطين، فعلى حين يجدهم أوردوها بإيجاز بصفة عامة، إلا أن الإدريسي حرص الحرص أكبره على أن يفصل الحديث عنها. ولعل تعليل ذلك أن الكتاب الذي ألفه ونعنى به «نزهة المشتاق» قد ألف أصلاً بناء على طلب روجر الثاني ملك صقلية، وبحكم مسيحيته، فقد كان حريصاً على معرفة رؤية ذلك الجغرافي المسلم لتلك المواقع، ومن ثم حرص الأخير على إيرادها مفصلة في الغالب.

ومثل ذلك التفصيل، تجده يخالف الطابع العام بشأن الرواية الإدريسية عن بلاد الشام في ذلك العصر، إذ أن الطابع العام الغالب عليها، هو طابع الإيجاز والاختصار، وهو أمر يدعونا إلى الاعتقاد بأن ذلك الجغرافي فصل فيما رآه هاماً وجديراً بالتفصيل، وأوجز عندما رأى أن الإيجاز ضروري. وخير مثال دال على ذلك التفصيل موضوع المزارات المسيحية المقدسة في فلسطين.

وقد تعرض الإدريسي لعدد من الكنائس، مثل كنيسة القيامة، وقد أشار إلى مكانتها، وأوضح أنها يتم الحج إليها من جميع بلاد الروم من مشارق الأرض ومغاربها^(٥٠).

ومن المعروف أن الحج المسيحي لم يكن أصلاً من أصول المسيحية المبكرة، وإنما بعد أن قامت هيلانة أم الامبراطور قسطنطين الكبير Constantine The Great بالذهاب إلى بيت المقدس في القرن الرابع الميلادي، صار ذلك تقليداً متبعاً للمسيحيين (٥١)، ولقبت بالقديسة هيلانة St. Helena.

وتوافد الحجاج المسيحيون من بعد ذلك على بيت المقدس، ولدينا العديد من الأشخاص سواء من الرجال أو النساء قاموا برحلات الحج، وتركوا مدونات لرحلاتهم (٥٢)، حتى يطالعها المعاصرون، واللاحقون، واستمرت رحلات الحج إلى هناك بصورة مكثفة، خلال عصر الحروب الصليبية ومن بعده.

مهما يكن الأمر، فإن الإدريسي يصف بدقة تلك الكنيسة، ويقرر أن لها باباً في جهة الشمال، وينزل من خلاله إلى أسفل الكنيسة، ويسمى الباب، «باب شنت مريه» أى القديسة مريم St. Mary، وعند النزول إلى الداخل توجد المقبرة المقدسة العظمى، وهى ذات بابين، وتوجد عليها قبة قد اتقن بنيانها، وهى حصينة التشيد (٥٣).

كذلك تناول كنيسة المهد فى بيت لحم، وقد وصفها وصف المعجب بما فيها من مظاهر الثراء، وبراعة البنيان حتى أنه ذكر أنه «ما أبصر فى جميع الكنائس مثلاً بناءً»، وأشار إلى أنه فى ركن الهيكل من جهة الشمال، توجد المغارة التى ولد فيها السيد المسيح (٥٤).

ويلاحظ أن كنيسة القيامة، والمهد، تعدان أهم الكنائس المسيحية فى المنطقة، وقد حظيتا باهتمام الرحالة الأوروبيين الذين ألفوا مؤلفات خاصة برحلات حجهم إلى هناك، كما اهتم بها الجغرافيون والرحالة المسلمون (٥٥)، وإن لم يسيروا إليها - فى الغالب - يمثل تلك التفاصيل التى نجدتها لدى الإدريسي.

وبالإضافة إلى ذلك، هناك كنائس أخرى مثل كنيسة قدس الأقداس، وكنيسة للسيدة مريم، تعرف بإسم الجسمانية، وكنيسة باطرنة صخرة (٥٦)، وقد أشار إلى وجود

رجال، ونساء مترهنين، أو بنص ذلك الجغرافى «رجال، ونساء محبسون يبتغون بذلك، أجر الله سبحانه» (٥٧).

زد على ذلك، أن هناك تناولاً لأحد المزارات المسيحية الهامة فى ذلك العصر، ونعنى بها عين سلوان (٥٨)، وقد أشار عندها أن السيد المسيح، أبرأ فيها الضرير الأعمى (٥٩)، كما تعرض لعدد من المزارات الدينية مثل ذكره لبيت لحم، وإشارته إلى أنه يوجد فى الطريق الواقع بين بيت لحم، وبيت المقدس، قبر راحيل أم يوسف، وأم بنيامين، ولدى يعقوب عليهم السلام، وقد وصف ذلك القبر بأن عليه قبة معقودة بالصخر (٦٠)، كما تناول قبر اليعازر أو ما يعرف باسم St. Lazarus (٦١). ويعبر عنه الإدريسى بأنه «قبر اليعازر الذى أحياه السيد المسيح».

ثم إن الإدريسى فى موضع آخر، نجده يشير إلى وجود منازل كثيرة محفورة فى الصخر إلى الجنوب من عين سلوان وهى على ما يبدو أديرة «وفىها رجال قد حبسوا أنفسهم فيها عبادة» (٦٢) على حد قوله.

ومعنى ذلك، أن أهم ملامح تناول الإدريسى لتلك الأماكن المقدسة المسيحية، أنه أشار إلى الكنائس الهامة، وكذلك إلى القبور، بالإضافة إلى أنه تعرض للأديرة، وهما من أماكن العبادة الدينية المسيحية.

ولدينا عدة ملاحظات على ذلك تناول :

أولاً : إن الإدريسى عندما تعرض لتلك الأماكن، عبر عنها كأنه رحالة مسيحي. ولم يشأ أن يشير إلى اختلاف عقيدته الإسلامية عن معتقدات المسيحيين، بل إنه عندما تعرض لأمر اليعازر، لم يشر إلى أن السيد المسيح أحياء بإذن الله تبارك وتعالى، كما أنه عندما تناول أمر الأديرة أشار إلى أن أولئك الرجال، والنساء، من الرهبان والراهبات حبسوا أنفسهم من أجل رضا الله تعالى. ويبدو أن التعليل المنطقي لكل ذلك أنه ألف كتابه

لروجر ملك صقلية. ومن ثم تناول الأماكن المقدسة المسيحية، والرهبانية، بتلك العبارات المعتدلة، واللينة، والتي فيها قدر لا يمكن إغفاله من المداواة.

ثانياً : من الممكن - بناء على ما سبق - أن نعتبر كتابة الإدريسي عن الزاوية السابقة نموذجاً للكتابة ذات التوجه الرسمي، على أساس أنه عبر خلالها عن اتجاهات المسيحيين، دون أن يجعل لعقيدته دخلاً في ذلك كله، ومن الأمور الملفتة للنظر هنا أن الإدريسي لم يشر أدنى إشارة عدائية حيال الصليبيين في بلاد الشام؛ على الرغم من أنه مر بمناطق خاضعة لاحتلالهم، ومن المتوقع والمنطقي أن الإدريسي في تجواله في مناطق الصليبيين قد شاهد المسلمين الخاضعين لسيادتهم السياسية واحتلالهم العسكري، بيد أن كتابته لم تتناول أولئك المسلمين البتة. ومرة أخرى من الممكن القول إن الارتباط الرسمي لذلك الجغرافي يمكن أن نتلمس آثاره - أكثر من أية منطقة أخرى - في تعرضه لبلاد الشام خلال أواسط القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي.

ثالثاً : إن أوصاف ذلك الجغرافي الدقيقة للأماكن المقدسة المسيحية في فلسطين تدل بجلاء على أنه كان شاهد عيان لها، وقدم وصفاً من عنده، وهكذا فإنه زار بلاد الشام وقدم ذلك الوصف، ولم يكن كما تصور بعض الباحثين قد اعتمد في وصفه على أوصاف الآخرين، الذين سبقوه إلى تلك البقاع.

أما إذا نحينا ذلك كله جانباً، وتوجهنا إلى تناول الإدريسي للمزارات الإسلامية، فإننا نجد يتعرض للمسجد الأقصى. وقد عمل على عقد مقارنة بينه وبين المسجد الجامع في قرطبة بالأندلس، وأشار إلى أن سقف جامع قرطبة أكبر من سقف الجامع الأقصى. كما أن صحن الأخير أكبر من صحن جامع قرطبة (٦٣).

كما أنه تعرض إلى قبة الصخرة، فعمل على وصفها وامتدح عمارتها التي هما من بناء الخلفاء المسلمين. وذكر أن طول هذه الصخرة مقارب لمرضها، وهي عشرة أذرع في مثلها (٦٤)، ومن الملفت للانتباه أن الإدريسي لا يشير إلى ارتباط تلك الأماكن

بالمعتقدات الإسلامية، وبخاصة ما اتصل بمعجزة الإسراء، والمعراج. كما أنه لا يعبر عن مشاعره الدينية عن تلك المواضع المباركة على الرغم من أن الاحتلال الصليبي للقدس، كان قد ترك صدمة نفسية كبيرة للمسلمين، وكثيراً ما كان خضوع المسجد الأقصى، وقبة الصخرة للسيادة الصليبية في ذلك العصر يحرك مشاعر الجغرافيين، والرحالة المسلمين خاصة أولئك الذين قدموا من أنحاء جد بعيدة سواء من المشرق أو المغرب الإسلاميين، غير أنه في موقف الإدريسي، وجدناه يخفي مشاعره الدينية، ولا يقدم لنا انفعالاً إسلامياً بالمواقع التي يزورها، ومرة أخرى نجد الارتباط الرسمي - على ما يبدو - دافعاً له نحو ذلك التوجه.

ومن جهة أخرى، تعرض الإدريسي للمسجد الأموي بدمشق، وقد أعجب به أشد الإعجاب (٦٥)، ويتضح ذلك من العبارات التي أطلقها عليه، وقد شددت عمارته انتباهه، وبصفة عامة، من الممكن القول بأن كل ما هو دمشقى بهر ذلك الجغرافى، فجعل قلمه يقدم عبارات المديح والإطراء على ما رآه في تلك المدينة، وينطبق ذلك على المسجد الأموي هناك.

ومن المفيد أن نذكر، أن الإدريسي في أوصافه للمزارات الدينية كافة سواء المسيحية أو الإسلامية، يكتفى بتقديم الوصف الموجز، ولا يحرص على أن يمزج بين الوصف، والتاريخ، فلا يقدم لنا عرضاً لتاريخ الأثر الذى يصفه، مما أفقد عرضه جانباً مهماً ومؤثراً من الحيوية المطلوبة في مثل ذلك التناول، وإن لم يفقده قيمته الكبيرة بالطبع.

أضف إلى ذلك، أنه تناول نوعاً آخر من أنواع المزارات ونعنى به المزارات العلاجية، التي يذهب إليها المرضى من أجل العلاج، وفي هذا المقام نجد أنه يتعرض للعيون الساخنة في طبرية، وقد أوضح أنها حارة في الشتاء والصيف، وذكر اسم حمام الدماز، كذلك حمام اللؤلؤ، وحمام المبخرة (٦٦)، مع ملاحظة أنه لا يشير إلى دورهما العلاجي، وهو

أمر سنجده يتردد فيما بعد عصر الإدريسي في كتابات الجغرافيين المسلمين؛ الذين قدموا إلى فلسطين، وعلى نحو خاص منطقة طبرية على امتداد عصر الحروب الصليبية، خلال القرنين ٦ و ٧هـ / ١٢ و ١٣م.

وهناك زاوية هامة، تناولها ذلك الجغرافى، ألا وهى العمران فى المدن الشامية الداخلية الخاضعة لسيطرة المسلمين وكذلك الكثافة السكانية بها، وفى هذا المقام من المفيد أن نذكر أن ذلك الجغرافى حرص على إيراد وفرة المصادر المائية فى مناطق بلاد الشام الداخلية، فعلى سبيل المثال، أشار إلى مياه غوطة دمشق، وذكر أنها تخرج من عين الفيحة، وهى عين فى أعلى جبل، ويرى نزول الماء على قرية أبل حتى ينتهى إلى المدينة فتتفرع منه الأنهار مثل نهر بردى، ونهر نوره، وقناة المزة، ونهر بليتاس، ونهر يشكور (٦٧) وغيرها.

وفىما يتصل بوصفه للعمران البشرى فى تلك المدن الداخلية، نجد أنه تعرض لمدينة دمشق، وأشار إلى الغوطة، وذكر أن بها ضياعاً كالمدن، وقدم أمثلة على ذلك كالْمَزَّة، وداريا، وبردى، وهرشف، وكوكبا، وإيلاس، وكفر سوسنة، وبيت الأهرار (٦٨)، وكتعبير عن الكثافة السكانية أشار إلى أنه فى كل واحدة من تلك الضياع نجد ألفى رجل، إلى ألف، أو أقل، أو أكثر (٦٩).

وتفيد عبارته الأخيرة فى توضيح الكثافة السكانية لدمشق فى ذلك العصر، ومن الواضح أنه لا يقدم أرقاماً إحصائية دقيقة عن الأعداد البشرية الموجودة فى تلك الضياع، ومن المرجح أنها كانت أكثر من ذلك بكثير على اعتبار أن الغزو الصليبي لبلاد الشام ونجاح الصليبيين فى زرع كيانهم الدخيل فى المنطقة، أدى إلى حدوث عمليات طرد سكانى من المناطق المحتلة من جانب الغزاة إلى المدن الشامية الداخلية المسلمة، وبالطبع كانت دمشق إحدى تلك المدن التى نزع إليها المسلمون المنكويون بالغزاة. ومع ذلك ليس من اليسير أن تدعم ذلك بأرقام إحصائية دقيقة نظراً لعدم دقة النصوص المصدرية فى ذلك العصر فيما يتصل بتلك الناحية.

على أية حال، أفادت إشارة الإدريسي في توضيح اتساع حجم العمران البشري لمدينة مثل دمشق، ولاسيما في منطقة القوطة، التي كانت - على ما يبدو - قد شهدت ازدهاراً واضحاً عندما زارها ذلك الجغرافي.

من جهة أخرى. ألقت جغرافية الإدريسي الضوء على الخريطة العقيدية والمذهبية لبلاد الشام في أواسط القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وقد أشار إلى اليهود والمسيحيين، وكذلك عناصر الإسماعيلية النزارية.

وعلى سبيل المثال، نجده في نابلس يقرر أنها مدينة السامرية، وأشار إلى أن أهل بيت المقدس يذكرون أن السامرية لا يوجد أحد منهم إلا في نابلس^(٧٠)، ويبدو أنه لم يكن مقتنعاً بذلك على اعتبار أنه ذكر ذلك القول من باب الزعم، مع ملاحظة أن نابلس في ذلك العصر - وكذلك في العصور التالية وحتى الآن - كانت بالفعل المركز الفعلي لعناصر السامرية، إذ لم يرد في المصادر الجغرافية العربية الأخرى أمر وجودهم في موضع آخر باستثناءها.

وبالنسبة لعناصر المسيحيين المحليين، نجد أن الإدريسي يقرر أن جونبة أهلها مسيحيون يعاقبة^(٧١)، ولا يقدم إشارات أخرى خاصة بباقي العناصر المسيحية في بلاد الشام أو دعم بعضها للوجود الصليبي هناك ضد المسلمين^(٧٢).

وفيما يتعلق بالإسماعيلية النزارية، نجد أن الإدريسي قدم إشارة مقتضبة عنهم عندما ذكر قلعة الخوابي، وقد ذكر أن قلعة الخوابي أهلها حشيشية^(٧٣)، وسفه عقائدهم، وهاجمهم لأنهم في نظره «خوارج عن الإسلام، لا يعقدون شيئاً من البعث، ولا القيامة من بعد الموت»، ومن ثم لعنهم بمذهبهم^(٧٤).

ويعد الإدريسي من أوائل الجغرافيين المسلمين الذين وفدوا على بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، وأشاروا إلى عناصر الإسماعيلية النزارية، مع ملاحظة أن تناوله

الموجز والمقتضب لهم، لا يقدم من خلاله جديداً، وإنما يفيد في أنه يعكس الميول الإسلامية السنية لدى الإدريسي.

وتجدر الإشارة إلى أن الخوابي كانت إحدى قلاع الإسماعيلية النزارية في بلاد الشام، وقد تناثرت تلك القلاع بين الخوابي، ومصيف (٧٥) - وهي المركز الرئيسي للدعوة الإسماعيلية في بلاد الشام في العصر الذي زارها خلالها الإدريسي - والقدموس (٧٦)، والعليقة (٧٧)، والمينقة (٧٨)، والكهف (٧٩)، وجميعها، قد وقع ضمن نطاق كونتية طرابلس الصليبية.

ولا نفعل أن من دلائل قصور تناول الإدريسي للإسماعيلية النزارية أنه لم يشر إلى عمليات الاغتيال التي قاموا بها في ذلك العصر، بيد أنها تفيد في توضيح نظرة الجغرافيين المغاربة لتباين الخريطة العقيدية لبلاد الشام في عصر الحروب الصليبية. وهو أمر سنجدّه يتردد - وباهتمام - على مدى صفحات مؤلفاتهم التي تركوها، يستوى في ذلك الذين قدموا من المغرب أو من الأندلس.

وتبقى ناحية مهمة، أوردتها الإدريسي في تناوله لأنحاء الشام، وهي تتعلق بالجانب الحربي، وما يتصل بالقلاع، والحصون الصليبية.

فمن الأمور الجديرة بالملاحظة، أن الإدريسي قدم إشارة لعلها الأقدم من بين الإشارات التي وصلت إلينا من ذلك العصر من جانب مؤلفات الجغرافيين المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام عن إحدى الهيئات الحربية الصليبية التي قامت بدور بارز في عصر الحروب الصليبية، ونعني بها هيئة الداوية Templars, Templiers، أى فرسان المعبد، ويلاحظ أنه عندما تناول المسجد الأقصى تعرض للحديث عن الجزء المخصص لسكن فرسان الداوية هناك، ومن المعروف أن الصليبيين بعد احتلالهم لمدينة بيت المقدس حولوا قبة الصخرة إلى كنيسة لاتينية أسموها معبد السيد Templum Domini، كما

أنهم استخدموا المسجد الأقصى لصالحهم، وأطلقوا عليه إسم معبد سليمان Templum Solomonis وتم تقسيمه إلى ثلاثة أقسام، فحولوا القسم الأول إلى كنيسة، والقسم الثاني جعلوه لفرسان الداوية، والقسم الثالث تم تحويله لكي يكون مستودعاً للذخائرهم؛ وجعلوا تلك السرايب التي تحت المسجد لتكون اسطبلًا لحيواناتهم (٨٠).

ويلاحظ أن مؤلفات الرحالة الأوروبيين الذين زاروا مملكة بيت المقدس الصليبية خلال القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري (٨١)، تناولت الهيئات الحربية الصليبية مثل الاسبتارية والداوية، ونادر أن نجد إشارات عنهم في مؤلفات الجغرافيين المسلمين في ذلك العصر. وقد أشار الإدريسي إليهم على أنهم خدام بيت الله (٨٢)، وهذا الوصف بالطبع من خلال نظرة الصليبيين أنفسهم لتلك الهيئة الحربية.

ومن المعروف أن هيئة الداوية تأسست عام ١١١٨م / ٥١٢هـ، عندما أسسها فارسان صليبيان هما هيو دي باين Hugh de paynes، وجودفري دي سانت أوامر Godfrey de Saint Omer (٨٣)، وقد وافق البابا على الهيئة وتم تكريسها في مجمع تروى Troy في عام ١١٢٨م / ٥٢٢هـ (٨٤)، وانهالت الهبات، والمنح، والعطايا على الداوية، حتى حققت ثراء عظيمًا، وشاركت في العديد من المعارك الحربية؛ التي خاضها الصليبيون ضد المسلمين في بلاد الشام، كما امتلكت الهيئة المذكورة العديد من القلاع الحربية، التي تنارت على طول امتداد الوجود الصليبي وعرضه هناك.

ومن جهة أخرى، نجد أن ذلك الجغرافي، قد تناول أمر القلاع الصليبية، ومن ذلك تعرضه لتلك القلعة التي أقامها الأمير الصليبي رايموند دي سانت جيل Raymond de Saint Gilles - ويسميه ابن سهيل - في مواجهة طرابلس (٨٥) Tripolis بشمال لبنان.

وجدير بالذكر، أن رايموند دي سانت جيل بعد أن تمكن من إخضاع جبيل

عام ١١٠٤م / ٥٠٠هـ، ازداد إصراره، وقويت عزيمته من أجل إخضاع طرابلس حيث كان يحكمها بنو عمار، من أجل أن يجعلها قاعدة لإمارة صليبية له ولأسرته من بعده.

وفي ظروف صراعه مع طرابلس، عمل على اختيار أكمة صخرية على الضفة اليسرى من نهر أبى على (فاديشا) عرفت باسم تلة الحجاج Mons Pergrimus^(٨٦)، وقد سماها المسلمون باسم قلعة صنجيل نسبة إلى ذلك الأمير الصليبي.

وتجدر الإشارة، إلى أن اختيار الموقع الذى أقيمت فيه القلعة، كان موفقاً لعدة اعتبارات، إذ أن القلعة أقيمت فى مكان يشرف على مدينة طرابلس والأراضى المحيطة بها، حيث يسهل على الجند المرابطين فيه رصد كل النجندات البرية التى تصل إلى طرابلس من خارجها، بالإضافة إلى تحركات قوات طرابلس ذاتها، ومن جهة أخرى، كان من الممكن للصليبيين من خلال قلعته أن يسيطروا على مجرى النهر الذى يقوم بتزويد المدينة، وأرباضها باحتياجاتها من المياه، وكان بالإمكان أن يحصل الصليبيون على المياه عن طريق أبواب القلعة الشرقية الواقعة أسفل سفح التلة، ولا ترتفع عن مجرى النهر إلا بضعة أمتار، فضلاً عن موقع تلك القلعة المرتفع من شأنه أن يكتسب مناعة وتوقفاً عسكرياً على المدينة الساحلية^(٨٧).

ويلاحظ أن راييموند دى سانت جيل قد حصل على دعم من جانب الإمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين Alexius Comnenus (١٠٨٠-١١١٨م)، الذى أرسل له الميرة، والأخشاب، والمعدات التى كان فى احتياج إليها، وذلك من جزيرة قبرص Cyprus^(٨٨) المقابلة للساحل اللبنانى.

ويبدو أن ذلك الأمير الصليبي قد عمل على تدعيم أبنية تلك القلعة، وشحنها بالأموال، والرجال، والسلاح^(٨٩)، وفى عام ١١٠٤م / ٥٠٠هـ، صارت القلعة مكتملة البناء، وصارت حقيقة واقعة، ومثلت تهديداً قائماً، وحقيقياً لبنى عمار؛ حكام طرابلس^(٩٠).

وتجدر الإشارة كذلك إلى أن تلك القلعة التي أقامها راييموند دى سانت جيل كانت بمثابة القلعة الأولى التي أقامها الصليبيون فى المنطقة، ومن بعدها تعددت قلاعهم بأعداد كبيرة فى العديد من أنحاء بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية على مدى القرنين ١٢، ١٣م / ٦، ٧هـ.

زد على ذلك، أنه عندما أشار إلى مدينة عرقة Arqa، ذكر أن لها حصناً كبيراً^(٩١)، ولم يضاف إلى عبارته الموجزة مزيداً من التناول لتلك القلعة الهامة، التى عدت من قلاع إمارة طرابلس الصليبية.

وقد قامت قلعة عرقة على المنحدرات الشمالية من لبنان أسفل الوادى المؤدى إلى حمص وحماة، وبعدت عن بعلبك بمسافة ستة وتسعين ميلاً وعن جزيرة ارواء بمسافة خمسة وأربعين ميلاً^(٩٢)، أما اسمها فإنه يرد فى كتابات الصليبيين على أنه Arqa أو Archas^(٩٣)، وكانت قلعة عرقة على درجة كبيرة من الحصانة على نحو اعترف به المؤرخ المجهول صاحب الجستا Gesta^(٩٤)، فى وقت مبكر من مقدم الصليبيين إلى المنطقة، وقد استولى عليها الصليبيون بقيادة الأمير الصليبي وليسم جوردان William Jordan (١١٠٥-١١٠٨م / ٤٩٨-٥٠١هـ) وذلك فى عام ١١٠٨م / ٥٠٢هـ^(٩٥).

ومن أهم المراحل التى تجدها فى تاريخ قلعة عرقة، عندما عهد الملك الصليبي عمورى الأول Amaury I (١١٦٤-١١٧٦م / ٥٥٩-٥٧١هـ) بأمرها إلى هيئة الإيستارية Hospitallers، وكان ذلك خلال مدة وصايته على إمارة طرابلس، عندما كان راييموند الثالث Raymond III (١١٥٢-١١٨٧م / ٥٤٧-٥٨٣هـ) فى الأسر، وعندما عاد من أسره ثبت تلك المنحة للهيئة المذكورة، وأضاف إليها بعض الامتيازات الجديدة، ويحدد البعض ذلك بأنه تم فى عام ١١٧٠م / ٥٦٦هـ^(٩٦).

وقد أصاب قلعة عرقة الهزات الزلزالية المدمرة التي حلت ببلاد الشام في ذلك العصر، مثلما حدث عام ١١٧٠م / ٥٦٥هـ^(٩٧)، وكذلك عام ١٢٠١م / ٥٩٧هـ^(٩٨)، وقد اتجه فرسان الاستتارية إلى إصلاح ما قد تهدم من أبنيتها من جراء ذلك، لتدعيم حصانتها في مواجهة الصراع مع المسلمين.

وقد ظلت القلعة المذكورة في قبضة القوى الصليبية، إلى أن خضعت لسيطرة المسلمين، وذلك في عهد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس وذلك في عام ١٢٧١م / ٦٦٩هـ^(٩٩).

كما أن الإدريسي أشار إلى قلعة بغراس^(١٠٠)، وهي من قلاع إمارة أنطاكية Antioch الصليبية، وإن لم يذكر شيئاً عن تاريخها ودورها في الصراع الإسلامي/الصليبي.

وجدير بالذكر، أن قلعة بغراس، قد وقعت في مكان فيما بين أنطاكية، وقلبيقية الأرمنية Armenian Cilicia، خلف جبل اللكام الهائل، المعروف باسم أمانوس Ammanus، وبعدت عن أنطاكية بمسافة إثني عشر ميلاً، وبالقرب منها وجد حصن دريساك، إلا أن قلعة بغراس كانت أقرب إلى أنطاكية من دريساك^(١٠١).

وقد حصلت هيئة الداوية على قلعة بغراس، وذلك في عهد الملك الصليبي عموري الأول، وهي سياسة اتبعها منذ عام ١١٦٧م / ٥٦٣هـ، وشاركه نفس التوجه أمراء الإمارات الصليبية الأخرى، وقد اتجه الأمير بوهمند الثالث Bohemond III (١١٦٣-١٢٠١م / ٥٥٨-٥٩٧هـ) إلى إعطاء الداوية العديد من المواقع حول بغراس^(١٠٢)، من أجل تدعيم دفاعات إمارة أنطاكية.

وفي عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، استولى المسلمون على قلعة بغراس وذلك في عام ٥٨٤هـ / ١١٨٨م^(١٠٣)، وأظهر الداوية مقاومة عنيفة في

مواجهة الجيش الأيوبي^(١٠٤)، واتجه صلاح الدين الأيوبي من بعد ذلك إلى تخريب بغراس.

وفيما بعد عادت القلعة المذكورة لسيطرة الصليبيين، ولذا، حرص الأيوبيون على مهاجمتها، ونجد أن الملك العزيز ابن الملك الظاهر صاحب حلب شن هجوماً واسع النطاق عليها وذلك عام ٦٢١هـ / ١٢٢٦م (١٠٥) وعلى مدى سبعة أشهر كاملة، وإن لم يتوصل إلى نتائج حاسمة حيالها بسبب حصانتها ومناعتها، وقد ظلت قلعة بغراس في قبضة الصليبيين إلى أن سقطت في قبضة المسلمين، وذلك في عهد السلطان الظاهر بيبرس وذلك في عام ٦٦١هـ / ١٠٥٢م (١٠٦)، على نحو فقدت معه إمارة أنطاكية الصليبية جانباً حيوياً من قدراتها الدفاعية.

ومن المفيد أن نلاحظ أن كافة القلاع الصليبية السابقة التي أشار إليها الإدريسي. قد بناها الصليبيون من أجل تحقيق أهداف استراتيجية هامة، ولسد ثغرات وعلاج مشكلات ملحة واجهوها بعد مقدمهم إلى بلاد الشام، ولعل أوضح تلك المشكلات؛ مشكلة نقص العنصر البشري، ويلاحظ أن تلك المشكلة طالما أرقّت الصليبيين، نظراً لوجودهم ككيان قليل السكان إذا ما قورن بالمحيط الإسلامي العام الذي اتسم بالكثافة السكانية المرتفعة.

وفي هذا المقام نذكر أن الجيش الصليبي الذي خرج من نيقية عام ١٠٩٧م / ٤٩٠هـ، كان ضمناً إذا ما قورن بالجيوش المعاصرة، لكن الخسائر التي منى بها الصليبيون عند ضورلوبوم كانت مرتفعة أيضاً، ويرجع أن الجيش الصليبي الذي فرض الحصار على مدينة أنطاكية Antioch تراوح بين الخمسين، والمائة ألف، وعندما اقترب الصليبيون من تحقيق هدفهم انسلخ القادة الصليبيون الواحد تلو الآخر بالقوة العسكرية المرافقة له من أجل أن يؤسسوا ممتلكات إقطاعية لهم، وهكذا، يرى البعض أن الجيش الذي وصل إلى بيت المقدس محاصراً لها لم يتجاوز ١٥٠٠ فارس وعشرة أمثالهم من

الجنود المشاة^(١٠٧)، وقد يرى البعض أن هناك الدعم البشرى القادم من الغرب الأوروبى، بيد أن ذلك المدد لم يكن مستمراً، وكان عرضة للتقلبات، وهكذا لم يكن أمام الصليبيين إلا أن يشيدوا القلاع والحصون من أجل تعويض النقص البشرى لديهم، وحتى يدعموا كياناتهم على حساب أراضي المسلمين فى المنطقة.

ولا نفعل أن تلك القلاع التى أقامها الصليبيون على امتداد وجودهم فى بلاد الشام، مثلت أحد أشكال تغيير هوية المنطقة على المستوى الطبوغرافى، وكرست الاحتلال الصليبي لأراضى المسلمين، واستمر الوجود الصليبي قائماً طالما استمرت تلك القلاع والحصون، وعندما سقطت، كان ذلك إشارة إلى سقوط الكيان الصليبي برمته.

وهناك حقيقة مهمة، ألا وهى، أن حرص الجغرافيين المسلمين الذين وفدوا إلى بلاد الشام فى ذلك العصر على إبراز أمر تلك القلاع الصليبية يدل على إدراكهم لخطورة أمرها ودورها فى دعم الكيان الغازى لأراضى المسلمين. ويعد الإدريسي فى إشاراته السالفة الذكر من أوائل الجغرافيين المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام خلال القرنين ٦، ٧هـ / ١٢، ١٣م وأدركوا أهمية دور تلك القلاع ومن ثم تناولها فى كتاباته الجغرافية.

وبعد؛ فذلك كانت إشارات الإدريسي عن بلاد الشام، ولا ريب فى أنها أفادت فى إلقاء المزيد من الأضواء على أوضاع المسلمين والصليبيين هناك خلال القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى، على نحو ضمن لذلك الجغرافى مكانة بارزة من بين الجغرافيين المسلمين الذين قدموا إلى تلك البلاد فى عصر الحروب الصليبية.

وسنخصص الفصل الثانى، لجغرافى آخر، هو ياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ/

الهوامش

(١) عن مصادر ومراجع ترجمة الإدريسي أنظر :

ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، ط. بيروت ب-ت، ص ٥٠١؛ حاجى خليفة، كشف الظنون، فى المكتبة العربية الصقلية، نشر أمارى، ط. لبيزج ١٨٥٧م، ص ٧٠٦؛ محمد مرسى الحريرى، الشريف الإدريسي ودور الرحلة فى جغرافيته، ط. الاسكندرية، ١٩٨٥م، ص ٣-٤؛ حسين مؤنس، الشريف الإدريسي قمة علم الجغرافيا عند المسلمين، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، م (٩)، م (١٠)، مدريد، ١٩٦١-١٩٦٢، ص ٢٥٧-٣٥٧؛ عبدالله كتون، الشريف الإدريسي، سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب، ط. تطوان ب-ت؛ حسين الأمين، الشريف الإدريسي وخريطته المشهورة وكتابه نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، العربى، العدد ١٧٧، أغسطس، ١٩٧٣م، ص ١١١؛ محمد عبالفنى حسن، الشريف الإدريسي أشهر جغرافى العرب والإسلام، ط. القاهرة، ١٩٧١م، ص ٧-٤٩؛ فلورنس أفرا لاغ، «أبو عبدالله محمد بن محمد عبدالله الإدريسي» بحث ضمن كتاب عبقرية الحضارة العربية؛ ن. عبدالكريم محفوق، ط. دمشق، ١٩٨٢م، ص ٤١٩؛ على عبدالله الدفاعة، الشريف الإدريسي، أعظم عالم فى الجغرافيا فى القرون الوسطى، المجلة العربية، السنة (٣)، العدد (٦)، يونيو - يوليو ١٩٧٩م، ص ٨١؛ رواد علم الجغرافيا فى الحضارة العربية والإسلامية، ص. جازان، ١٩٨٩م، ص ١٥١-١٥٢؛ راجى عنایت، الشريف الإدريسي، ط. بيروت، ١٩٧٩م، ص ١٩؛ أحمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون، ط. جدة، ب-ت، ص ١٦١؛ السيد عبدالعزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، ط. الاسكندرية ١٩٨١، ص ١٦٣؛ عبدالحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه، ط. القاهرة، ١٩٨٠، ص ٢٥٣؛ محمد محمود محمدین، الجغرافية والجغرافيون بین الزمان والمكان، ط. الرياض، ١٩٨٣م، ص ٢٣٩؛ قسدرى حافظ طوقان، علماء العرب وما أعطوه للحضارة، ط. الرياض، ب-ت، ص ١٩٧، حاشية (١)؛ فؤاد سزکین، تقديم كتاب أنس المهج وروض الفرج، تصوير معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت، ١٩٨٤، ورقة (١)؛ عبدالرحمن حميدة، أعلام الجغرافیین العرب، ومقتطفات من آثارهم، ط. دمشق، ١٩٨٠م، ص ٣١٦؛ زکى حسن، الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى، ط. بيروت، ١٩٨١، ص ٦٤؛ محمود كامل، الرحالة العرب فى القرون الوسطى، أول من أرسى قواعد الجغرافيا والإرشاد السياحى، العربى، العدد (٢٠١)، أغسطس، ١٩٧٥م، ص ١٤٨؛ جورجى زيدان، تاريخ

آداب اللغة العربية، م ٢، ج ٣، ط. بيروت، ١٩٨٣، ص ٨٨؛ أنور عبدالمليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، ط. الكويت، ١٩٧٩، ص ٤٧؛ كراتشكوفسكى، تاريخ الأدب الجغرافى العربى، ت. صلاح الدين عثمان هاشم، ط. بيروت ١٩٨٧ م، ص ٣٠٤؛ أبو زيد شلبى، تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى، ط. القاهرة، ١٩٦٤ م، ص ٣٦٧؛ زيجريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، أثر الحضارة العربية فى أوروبا، ت. فاروق بيشون، وكمال الدسوقي، ط. بيروت، ١٩٧٩، ص ٤١٧؛

(٢) فلورنس أفالاغ، المرجع السابق، ص ٤١٩؛ محمد السيد غلاب، الجغرافيون المسلمون ودورهم فى تطور الفكر الجغرافى، المؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول، جامعة الإمام محمد بن سعود، م (٣)، الرياض، ١٩٨٤ م، ص ١٤٤.

(٣) كراتشكوفسكى، المرجع السابق، ص ٣٠٤؛ محمد رشيد الفيل، أثر التجارة والرحلات فى تطوير المعرفة الجغرافية عند العرب، المؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، م (٣)، ط. الرياض، ١٩٨٤ م، ص ٤٤٥.

(٤) كراتشكوفسكى، المرجع السابق، ص ٣٠٥.

(٥) عن علاقة الإدريسى بروجر الثانى ملك صقلية أنظر :

الصفدى، الوافى بالوفيات، القسم المنشور فى المكتبة الصقلية، نشر أمارى، ص ٦٥٨؛ حسين فوزى، المعارف الملاحية العربية فى القرون الوسطى وأثرها فى عصر النهضة، ضمن كتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الزوروية، ط. القاهرة، ١٩٧٠ م، ص ٣٤٩؛ على عبدالله الدفاع، واد علم الجغرافيا، ص ١٥٢، أحمد رمضان، المرجع السابق، ص ١٦٢، حسين الأمين، المرجع السابق، ص ١١١؛ زكى حسن، المرجع السابق، ص ٦٥؛ شوقى ضيف، المرجع السابق، ص ١٩؛ عباس العقاد، أثر العرب فى الحضارة الأوروبية، ط. القاهرة، ١٩٧٣ م، ص ٥٠؛ أحمد الشريف، دراسات فى الحضارة الإسلامية، ط. القاهرة، ١٩٧٦، ص ١٨٦؛

والجدير بالذكر أن لايت، قد رأى أن الإدريسى قد ألف كتابه نزهة المشتاق فى بلاط روجر عام ١١٧٣ م/ ٥٦٩ هـ، بيد أن هذا التصور لا ينطبق على الواقع التاريخى؛ إذ أن روجر نفسه قد مات عام ١١٥٤ م/ ٥٤٩ هـ، والمرجع أن الإدريسى قد أتم ذلك الكتاب خلال حياته، إذ أنه بعد ذلك اضطربت الأمور بالنسبة لذلك الجغرافى المسلم الكبير، ولم يعد يحظ بنفس الرعاية التى نالها خلال حياة روجر الثانى ملك صقلية. ويضاف إلى ما سبق، فإن الباحثين يتفقون على أن وفاة

الإدريسي كانت عام ١١٦٢م / ٥٦٠هـ، ولهذا فليس من الممكن قبول ما ذهب إليه الباحث السابق بشأن التحديد الزمني كتابه نزهة المشتاق.

عن رأى ذلك الباحث أنظر :

Lite, A History of geographical discovery and exploration, New York, 1967, p.60.

(٦) حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيون فى الأندلس، ط. القاهرة، ١٩٨٦م، ص ١٩٥.

ومن المفيد فى هذا المجال أن نتعرض بالنقد لما أورده الباحث عبدالله عبدالغنى غانم، الذى يقرر فيما يتصل بعلاقة الإدريسي بروجر الثانى ملك أسبانيا، بينما الواقع التاريخى عكس ذلك؛ إذ أن أسبانيا فى ذلك الوقت لم يكن لها ملك مسيحى واحد، بل تنازعها المسلمون والمسيحيون، بالإضافة إلى أن روجر الثانى كان لقبه ملك الصقليتين أى صقلية، ونابولى، ولم يكن قط ملك أسبانيا، أما فى حديثه عن العلاقة بين الإدريسي وذلك الملك، يقرر ما نصه «اشتغل - أى الإدريسي - بنقل علوم العرب إلى الأوروبيين، ودعاة حكام صقلية، ومدن إيطاليا، وأسبانيا للإسهام فى حركة نقل التراث العربى إلى لغات بلادهم». والواقع أن ذلك القول أبعد ما يكون عن الواقع التاريخى إذ لا يعرف عن ذلك الجغرافى المسلم أنه قام بدور ما فى عملية الترجمة المذكورة. ولم ترد أدنى إشارة عن ذلك الدور فى ما ورد عن الإدريسي فى كتابات المؤرخين المسلمين فى مرحلة العصور الوسطى، ومن المنطقي تصور أن الإدريسي شغل خلال مرحلة ارتباطه بروجر الثانى بتأليف مؤلفاته الجغرافية مثل نزهة المشتاق، وأنس المهج، ومن المستبعد تماماً أنه قام بدوره فى الترجمة التى أورد أمرها الباحث الفاضل، ناهيك عن عدم إيراد أدنى إشارة لذلك. الأمر فيما ألقه الإدريسي نفسه. خاصة فيما اتصل بعلاقته بروجر الثانى، وختاماً فإن عملية نقل التراث العربى إلى لغات أوروبا فى تلك العصور قام بها مترجمون أوروبيون، ولم نسمع البتة عن قيام أعلام مسلمين؛ بالمشاركة فى ذلك الدور. وأمام كافة الاعتبارات السابقة أجدنى اختلف مع الباحث السابق فيما ذهب إليه. عن رأيه أنظر : عبدالله عبدالغنى غانم، الرواد المسلمون، ط. الاسكندرية، ١٩٨٩، ص ١٠٧.

وعن حركة الترجمة فى عهد روجر الثانى، نعرف أنه قد نشطت فى عهده حركة الترجمة من اللغتين اليونانية والعربية إلى اللغة اللاتينية، وقد ساعد على ازدهار تلك الحركة ما نعرفه من ازدهار صقلية بكثير من تراث اليونان القديم.

وقد فاد حركة الترجمة إثنان من رجال الإدارة فى بالرمو هما هنرى ارستيبوس Henricus Aristippus، ويوجين البلرمى، فعندما كان الأول رئيساً لشمامسة قطنانية فى عام ١١٥٦م/

٥٥١هـ قام بترجمة محاورتين من محاورات أفلاطون، كذلك عندما صار ارستطوبس موظفا كبيرا في المجلس الملكي خلال المرحلة من ١١٦٠ إلى ١١٦٢م / ٥٥٥-٥٥٧هـ، قام بترجمة السيرة الذاتية لجريجوري النازيانزي Gregorius Nazianzus (٣٢٩-٣٨٩م). عن حركة الترجمة في عهد روجر الثاني في صقلية أنظر :

Haskins, Studies in the History of medieval science, Cambridge 1927, p. 156.

جمعة الجندی، حکم النورمان فی صقلية (٤٨٤-٥٨٦هـ / ١٠٩١-١١٩٤م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس عام ١٩٨٠، ص ١١٨، عبدالرحمن بدوي، دور العرب في تكون الفكر الأوروبي، ط. القاهرة، ١٩٦٧، ص ٩.

(٧) الحسن الوزان، هو ليو الأفريقي Leo Africanus، وقد ولد في تونس عام ١٤٨٨م / ٨٩١هـ، وعندما بلغ الثلاثين من عمره وقع في أسر القراصنة الأروبيين، وذهب به أسروه إلى إيطاليا، حيث مكث هناك عدة أعوام، وصنف في عام ١٥٢٤م / ٩٢٧هـ، معجما عربيا، عبريا، لاتينيا، وذلك من أجل أحد الأطباء اليهود الذين صادقهم، كما أنه ألف كتابه وصف أفريقيا، وفي عام ١٥٢٦م / ٩٢٩هـ، نعرف أنه أكمل الترجمة الإيطالية لذلك الكتاب، كما أنه قام عام ١٥٢٧م / ٩٣٠هـ بتأليف كتاب باللغة اللاتينية، احتوى على سير ثلاثين من مشاهير العرب في الفلسفة والطب، وعنوان الكتاب المذكور باللاتينية هو :

Libellus de Viris quibusdam illustribus opud Arabes.

وقد استطاع ليو الأفريقي الفرار من إيطاليا، على الرغم من إطلاق سراحه، وذلك في المرحلة من ١٥٢٨، ١٥٣٠م، فقصص تونس، وعاش بها إلى أن أدركته منيته عام ١٥٥٢م، عن عمر يناهز الستين عاما. عن الحسن الوزان أو ليو الأفريقي أنظر :

الحسن الوزان، وصف أفريقيا، ت. عبدالرحمن حميدة، ط. الرياض، ١٣٩٩هـ، مقدمة المترجم بالإضافة إلى ص ١٧-٢٦.

Massignon, "Moroc dans les premieres années du XVI siecle, Tableau géographique d'apres Leon African", memoires de la societe historique Algerienne, Alger 1906.

محمد عبدالله عنان، «الرحالة الأندلسي الحسن الوزان : ليو الأفريقي»، مجلة العربي، عدد (٤٣)، يونيو ١٩٦٢م، ص ٧٣-٧٧، جمال زكريا قاسم، «الحسن بن محمد الوزان، رحالة عربي ومصنف فريحي»، مجلة العربي، العدد ١٦٣، يونيو ١٩٧٢م، ص ٩٤-٩٩، محمد أحمد زوام، «الحسن الوزان، وأهمسية كتابه وصف أفريقيا في جغرافية السودان الغربي»، رسالة ماجستير

غير منشورة، معهد الدراسات الإفريقية، عام ١٣٩٨هـ / ١٩٧٩م؛ عبدالرحمن حميدة، «وصف أفريقيا»، الفصيل، العدد (٢١)، ربيع الأول ١٣٩٩هـ / فبراير ١٩٧٩م، ص ٨٣-٩٠. والحسن بن محمد الوزان الزياتي أو ليون الأفريقي ٨٩٤-٩٦٢هـ / ١٤٨٨-١٥٥٤م، المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول، جامعة الإمام محمد بن سعود، م (٣)، الرياض، ١٩٨٤م، ص ٥٠١-٥٩٩؛ كراتشكوفسكي، المرجع السابق، ص ٤٨٨-٤٩٤.

(٨) حسين مؤنس، الجغرافيا والجغرافيون في الأندلس، ص ١٦٩، هامش (٢).

وتجدر الإشارة إلى أن أحمد رمضان قد ذكر في كتابه أن الإدريسي قد مات في القاهرة في عام ٦٤٩هـ / ١٢٥١م، وذلك اعتماداً على ما أورده السيوطي في حسن المحاضرة. والإدريسي الذي أورده السيوطي ليس الرحالة المسلم الشهير محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس، بل المقصود به محمد بن عبد العزيز الإدريسي الشرفي الفاري، والذي وصف بأنه كان من فضلاء المحدثين وأعيانهم، وألف كتاب المفيد في أخبار الصعيد، وقد ولد في عام ٥٦٨هـ / ١١٧٣م، وتوفي بالقاهرة في عام ٦٤٩هـ / ١٢٥٥م، وقد أورد ترجمته السيوطي؛ وكذلك الأدفوي. ويكمن الخلط بينهما أن كلاهما سمي بالإدريسي كما أنهما كلاهما من الأشراف. عن ترجمة الإدريسي الشرفي (ت ٦٤٩هـ / ١٢٥٥م) أنظر :

السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ح ١، تحقيق محمد أبو الفضل، ط. القاهرة، ١٩٦٧م، ص ٥٥٤؛ الأدفوي، الطالع السعيد الجامع لتجيب مصر والصعيد، تحقيق سعد محمد حسن، ط. القاهرة ١٩٦٦م، ص ٩٣؛

وأنظر إشارة أحمد رمضان السابقة في : الرحلة والرحالة المسلمون، ص ١٦٤.

ومن جهة أخرى، اعتقد زكي العتيبي أن الإدريسي قد توفي عام ٥٤٨هـ / ١١٤٤م، بيد أنه من خلال الاعتبارات السابقة يبدو أنه تصور مبكر، أنظر : تركي العتيبي، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في صقلية الإسلامية، ط. الرياض ١٩٨٧م، ص ٥٥ من المقدمة.

(٩) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص ١٦٩، هامش (٢).

(١٠) فلورنس أفالاغ، المرجع السابق، ص ٤١٩-٤٢٠.

(١١) زكي حسن، المرجع السابق، ص ٦٧.

(١٢) محمد مرسى الحريري، المرجع السابق، ص ٨.

(١٣) على عبدالله الدفاع، إسهام علماء العرب والمسلمين في علم النبات، ط. بيروت، ١٩٨٥، ص ١٩١. وعن بيليوغرافيا مؤلفات الإدريسي أنظر :

Oman, Notizie Bibliografiche sul geografo arabo AlIdrisi (XII secolo) e sulle sue opere. Estratto degli, Annali dell' Istituto Universitato Orientali di Napoli, Roma 1961.

وهي دراسة بيليوغرافية هامة - علم الرغم من إيجازها - وتجدر عرضاً لذلك العمل من جانب حسين مؤنس في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، م (١١)، (١٢)، مدريد، ١٩٦٣-١٩٦٤م، ص ٣٩٢-٣٩٤.

(١٤) عنوان الكتاب هو نزهة المشتاق في اختراق الآفاق.

وبلاحظ أن مخطوطات نزهة المشتاق هي المخطوطة في المكتبة الأهلية B.N. في باريس تحت رقمي ٢٢٢١، ٢٢٢٢ ويصفهما حسين مؤنس على أنهما ليستا كاملتين، وأن المتفق عليه بين الباحثين أن هاتين هما أحسن مخطوطات النزهة، وأكثرهما جدارة بالثقة، كما أوضح إبراهيم شوكة الذي عمل على تحقيق القسم الخاص بسوريا، ولبنان، وفلسطين، والأردن، أن هناك نسخاً أخرى في صورة مخطوط بولوك من إكسفورد Oxford، ومخطوطة مغربية، بالإضافة إلى مخطوطة موصلية. عن ذلك أنظر :

حسين مؤنس، الجغرافية والجغرافيون في الأندلس، ط. مدريد ١٩٦٧م، ص ٢٢٩-٢٣٠؛ إبراهيم شوكة، تقديم تحقيق نزهة المشتاق، الجزء الخاص بوصف سورية ولبنان وفلسطين والأردن، مجلة المجمع العلمي العراقي، م (٣٠) عام ١٩٧٩، ص ٤.

والجدير بالذكر أن الطبعة الوحيدة - كما يقرر كراتشكوفسكي - التي تشتمل على أصل الكتاب طبعت عام ١٥٩٢م أي أواخر القرن السادس عشر الميلادي، بمطبعة الميديشي Medici ونجد فيها الترجمة اللاتينية للعنوان وهو :

Oblectatio desiderantis in descriptione civrtatum principalium et Tractatum et provinciarum et insularum et plagarum, Roma 1592.

ثم ظهرت ترجمة لاتينية لتلك الطبعة، وقد صدرت في باريس عام ١٦١٩م، وقام بها كل من يوحنا الحصري Jaonnis Hesronica، وجيريل الصهيوني Gabriel Sionita، وهي تحمل عنوان : جغرافية النوبي : وعنوان الترجمة اللاتينية هو :

Geographia Nubiensis, id est acuratissima totius oybis in septem climata divin descriptio continans praesentini exactam universiae Asiae et Africae, rerum gue in iis batenus incog - ni Tarum explicatione - Recons ex Arabico in

Latinum versa a gabriele sionita, siriacarum et arabicarum Literarum professore at que in terprete regio, et joanne Hesyonita, earandum regio interprete, Naronitis - parisiis 1619.

عن ذلك أنظر : Oman, Notice, Bibliografiche, p. 50-51.

ويلاحظ أن تسمية جغرافية النوبى أو Geographia Nubiensis، هي تسمية خاطئة، كما يلاحظ كراتشكوفسكى، إذ أن المترجمين، قرروا أن المؤلف نوبى الأصل، وذلك لأنهما قرآ عبارة «أرضها» على أنها «أرضنا» فتصوروا - على عكس الواقع - أن المؤلف من بلاد النوبة فى أقصى صعيد مصر. عن تلك الفكرة أنظر : كراتشكوفسكى، المرجع السابق، ص ٣١١.

ومن جهة أخرى، قام كوندى بنشر القسم الخاص بوصف الإدريسي من خلال الكتاب المذكور، وذلك فى مدريد عام ١٧٩٩م، وعنوان عمله :

Conde, Description de Espana de X erif Aledrisi, conocida per el nubiense, con Traducccion y notas, Madrid 1799.

كما أن ميلر Miller، قام بنشر وصف بلاد الشام من نزهة المشتاق، وصدر عمله فى ليزج Lupzeg عام ١٨٢٨م.

أما الترجمة الكاملة لمثن الإدريسي فى نزهة المشتاق، فقد ظهرت باللغة الفرنسية فى مجلدين عام ١٨٣٦، ١٨٤٠م، على يد جوبير Jubert (١٧٧٩-١٨٤٧م) وهو أحد علماء الحملة الفرنسية على مصر، وعنوان عمله هو :

Geographie d'Edrisi, Traduite de L'Arabe, Par Jubert, Paris 1836-1840.

والجدير بالذكر أن دى ساسى له دراسة هامة عن جهود جوبير السالفة الذكر، تم نشرها فى الجريدة الآسيوية، المجلد الحادى عشر، عام ١٨٤١م. عنها أنظر :

De Sacy, "Geographie d'Idrisi, Traduite en Francais par Mr. Jaubert", J.A., T. XI, Année 1841, pp. 342-387.

وبرى كراتشكوفسكى، أن عمل جوبير يحوى العديد من الأخطاء، التى من الواجب تصويبها دون أن يحدد طبيعتها.

ومن جهة أخرى، قام دوزى Dozy ودى جويه De Goeje بطبع القسم الخاص بوصف المغرب، والأندلس، ومصر، والسودان، وصدر عملهما فى ليدن عام ١٨٦٤م، وعنوان العمل هو:

Dozy et De Goeje, Description de L'Afrique et de L'Espagne, Leyden 1866.

أما أمارى Amari، فإنه قام بنشر القسم الخاص بوصف إيطاليا، وصدر عمله فى روما عام ١٨٨٥م. كما أن جون مستر قام بنشر القسم الخاص بفلسطين وسوريا وصدر عمله فى بون

عام ١٨٨٥م، بعنوان :

Idrisi palestina et Syria arabice ad fidem Librorum manuscriptorum ed. Johm Gildemester, Bonn 1885.

عن طبعات وترجمات أجزاء من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق أنظر :

Ruhricht, Chronologisches Verzeichniss der Auf die yeographie des Heilligen Landes Bezuglichen Literature Von 333 Bis 1878, Berlin 1890, P.36-37.

كراتشكوفسكى، المرجع السابق، ص ٣١١؛ بالنشأ، تاريخ الفكر الأندلسى، ت. حسين مؤنس، ط. القاهرة، ١٩٥٥م، ص ٣١٣؛ نجيب العقيقى، المستشرقون، ج ١، ط. القاهرة ١٩٨٠، ص ٩٩؛ محمد جمال الدين الشيال، التاريخ الإسلامى وأثره فى الفكر التاريخى الأوروبى فى عصر النهضة، ط. بيروت ب-ت، ص ١٠٢، ١١٢؛ فلورنس أفرالاغ، المرجع السابق، ص ٤٢١؛

والواقع أن نظرة فاحصة إلى الجهود التحقيقية التى قام بها محققو الإدريسى، توضح أن الباحثين الفرنسيين، والألمان والإيطاليين، وكذلك الأسبان، عملوا على تحقيق أجزاء معينة من نزهة المشتاق، وأن منهم من حرص على تحقيق القسم الخاص ببلاده، من ذلك الكتاب أو ترجمه إلى لغته المحلية.

يبد أن من الملاحظ أن الباحثين الإيطاليين؛ كانوا أكثر من غيرهم حرصاً على تحقيق كتاب نزهة المشتاق، وإصداره من خلال عمل جماعى قام به عدد من المحققين الإيطاليين، نذكر منهم :

G. Levi Della Vida, E. Cerulli, F. Gabrieli, G. Tucci, L. Petech, A. Bombaci, U. Ruzitano, A. Rubinacci, L. Veccia Vaglieri.

وقد صدر عملهم تحت عنوان : Opus Geographicum . أى «صورة الأرض»، خلال المرحلة من ١٩٧٠-١٩٧٧م، وذلك من جانب معهدين من كبار معاهد الاستشراق فى إيطاليا وهما :

Instituto Universitario Orientale di Napoli, Istituto Italiano Per Il Medio Ed Estremo Oriente.

وبلاحظ أن جهد ذلك الفريق من الباحثين الإيطاليين قد استغرق سنوات عديدة، إذ أن العلامة حسين مؤنس؛ كان قد أشار إلى إعدادهم لذلك العمل منذ عام ١٩٦٣-١٩٦٤م. قبل إصداره عام ١٩٧٧م، عن ذلك أنظر ما ذكره فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد، م (١١)، (١٢) مدريد ١٩٦٣-١٩٦٤م، ص ٣٩٤.

ومن الملاحظ غياب دور الباحثين المسلمين المحدثين في مجال تحقيق نزهة المشتاق أو جزء منه، بيد أن الباحث إبراهيم شوكة قام بتحقيق القسم الخاص بوصف سوريا ولبنان، وفلسطين، والأردن، وصدر عمله في مجلة المجمع العلمي العراقي، في مجلد رقم (٣٠) عام ١٩٧٩.

وبلاحظ أن الباحث الألماني ميلر Miller - كما أسلفت من قبل - كان قد قام بتحقيق ذلك القسم من نزهة المشتاق، وصدر عمله في لبزج Lupzeg عام ١٨٢٨م، ولكن لم يتسن لي مطالعة عمل ميلر؛ كى أقرر حقيقة جهد إبراهيم شوكة، وأوجه تميزه من عمل قرينه الألماني.

ومع ذلك، يؤخذ على تحقيق إبراهيم شوكة؛ أنه اعتبر قسماً مضافاً إلى مخطوطة من المخطوطات التي اتخذها أساساً لدراسته، على أنه أصل من نزهة المشتاق، والجزء المضاف خاص باسترداد جزيرة أرواد وقد أشار إلى حدوث ذلك في عهد السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون، وبلاحظ أنه تولى السلطنة على ثلاث مراحل متقطعة من ٦٩٣هـ / ١٢٩٣م إلى ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م، من ٦٩٨هـ / ١٢٩٨م إلى ٧٠٨هـ / ١٣٠٨م، من ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م إلى ٧٤١هـ / ١٣٤٠. ومن المنطقي تصور أن ذلك القسم يعد دخيلاً على المخطوطة، ومضافاً إليها، على اعتبار أن الإدريسي نفسه - كما أسلفت الإشارة من قبل - قد توفي عام ٥٦٠هـ / ١١٦٢م، ولذا فمن المستبعد تماماً أن يصف أحداً وقعت خلال مدة حكم السلطان المملوكي الناصر محمد. عن ذلك السلطان أنظر :

ابن تغرين بردى، النجوم الزاهرة، ح-٨، ص ١١٥-١١٦؛ سعيد عاشور، مصر والشام في عصر الأمويين والمماليك، ط. بيروت، ب-٣، ص ٢٢٥-٢٢٨، ٢٣١-٢٣٣؛ السيد الباز العريني، المماليك، ط. بيروت ب-٣، ص ٢٦٧؛ على إبراهيم حسن، تاريخ المماليك البحرية، ط. القاهرة، ١٩٦٧م، ص ٦٨-١١٥.

(١٥) أنس المهج وروض الفرج، مخطوط مكتبة حكيم أدغلي تحت رقم ٦٨٨، ومخطوط مكتبة حسن حسنى تحت رقم ١٢٨٩، وقام بتصوير الكتاب اعتماداً على المخطوطتين المذكورتين فؤاد سزكين، وصدر عمله من بجانب معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرانكفورت، ألمانيا الاتحادية عام ١٩٨٤.

ومن المعروف أن المستشرق يوسف صورفيتش Joseph Horovitz، قد اكتشف المخطوطة المذكورة في مكتبة حكيم أدغلي، وعمل عدد من الدارسين على البحث فيها مثل سيبولد C.F. Seybold وكونرا ميلر K. Miller.

وبلاحظ أن الإدريسي في هذا الكتاب يقرر أنه يقتصر فيه «على الاختصار، وترك الهذر والإكثار»، وذلك مع اعتماده على المصادر التي ذكرها في مقدمة كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق.

وقد ذهب فؤاد سزكين إلى القول بأن هذا الكتاب من المحتمل أن الإدريسي قد ألف في أواخر حياته للإمبراطور غليوم الأول (١١٥٤-١١٦٦ م) ولد روجر. عن ذلك أنظر :

تقديم فؤاد سزكين لتصوير المخطوطة المذكورة؛ محمد المنوني، «الجزيرة العربية في الجغرافيات والرحلات المغربية وما إليها»، مجلة المجمع العلمي العراقي، م (٢٩)، عام ١٩٧٨ م، ص ١٦٢.

(١٦) جلال مظهر، حضارة الإسلام وأثرها في الترقى العالمى، ط. القاهرة، ١٩٧٤ م، ص ٤٠٢؛ زغلول النجار والدفاع، إسهام علماء المسلمين الأوائل، ص ٣٧٥؛ كراتشكوفسكى، مع المخطوطات العربية، ط. موسكو-ت، ص ٣٥.

(١٧) نفسه، نفس المرجع، ص ٣٧٤-٣٧٥.

(١٨) بالثنيا، المرجع السابق، ص ٣١٤؛ شوقي ضيف، المرجع السابق، ص ١٩؛ حسين فهم، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، ط. الكويت، ١٩٨٩ م، ص ٩٦؛ عبدالعال عبدالمنعم الشامى، «جهود الجغرافيين المسلمين فى رسم الخرائط الجغرافية»، المؤتمر الإسلامى الجغرافى الأول، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، م (٣)، ط. الرياض، ١٩٨٤ م، ص ٢٨١؛ عبدالمنعم ماجد، الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى، ط. القاهرة، ١٩٧٨ م، ص ٢٣٥؛ شارييف، الفكر الإسلامى منابعه وآثاره، ت. أحمد شلبى، ط. القاهرة، ١٩٧٨ م، ص ١٢٣.

(١٩) عز الدين فراج، فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية، ط. القاهرة، ١٩٧٨ م، ص ١١٢؛ أنور عبدالعليم، المرجع السابق، ص ٤٧.

ومن المفيد فى الواقع أن نتعرض بالرد على ما ذهب إليه الباحث حسن على حسن عندما ذكر ما نصه «إن كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار يعدل كتاب الإدريسي نزهة المشتاق فى الأهمية، والواقع أن هذا التصور يحوى مبالغة جليلة، لعدة اعتبارات، فمؤلف الاستبصار المجهول، ويعتقد أنه رحالة مغربى يعود إلى القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى تطرق فى وصفه لبلاد المغرب، ومصر، والحجاز فى الأساس، ولم يتعرض لمناطق أخرى فى آسيا وأوروبا، وأفريقيا إلا نادراً، على عكس نزهة المشتاق الذى أوضح فيه الإدريسي جوانب هامة عبر القارة الأوروبية ومناطق بها نائية وقل اهتمام الجغرافيين المسلمين السابقين بها، زد على ذلك أن الإدريسي أفاد من تصورات الجغرافيين والرحالة المسلمين السابقين عليه وهو أمر لا يتضح من خلال مطالعة الاستبصار، وأخيراً، فإن نزهة المشتاق يمسك براعة عقلية الإدريسي من خلال توافر إمكانيات دولة النورمان بصقلية، وبالتالي توافرت له إمكانيات يمكن أن توصف بأنها استثنائية، أما كتاب

الاستبصار فيعكس مجهوداً فردياً - مع عدم إغفال دور ما يسمى بالناظر في الكتاب - وليس من اليسير مقارنة الكتاب الأخير بنزعة المشتاق للإدرسي أمام كافة الاعتبارات السابقة. عن الرأي السابق أنظر :

حسن على حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، عصر الرابطين والموحدين، ط. القاهرة ١٩٨٠، ص ٥٠٥.

(٢٠) عبدالفتاح وهبة، جغرافية العرب في العصور الوسطى، الجمعية الجغرافية المصرية، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص ١٧.

(٢١) كراتشكوفسكى، الأدب الجغرافى، ص ٣٠٣.

Lite, A History of geographical discovery and exploration, New York 1967, p. 60.

(٢٢) فؤاد سزكين، تقديم تصوير مخطوط أنس المهج وروض الفرج، ورقة (١).

(٢٣) حسين مؤنس، الجغرافية والجغرافيون في الأندلس، ص ٢١٧.

والهمداني، هو أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني المشهور بابن الحائك، نشأ في أسرة متوسطة الحال، كانت تهتم بأمر الحجيج من المين، وأكثر الهمداني من الأسفار خارج اليمن، مما أعطاه فرصة جيدة من أجل مجالسة العلماء في العديد من المدن والأقطار، وتعرض الهمداني للسجن في عهد الإمام الزيدى أحمد الناصر في عام ٣١٥هـ / ٩٣٧م، وألف العديد من المؤلفات منها كتاب الإكليل، وكتاب سرائر الحكمة، وكتاب القوى في الطب، وكتاب زيج الهمداني، وكتاب صفة جزيرة العرب، وكتاب الجوهرتين العتيقتين الحائقتين الصفراء والبيضاء، وكتاب في الأنساب، وكتاب المسالك والممالك، وقد توفي الهمداني في عام ٣٣٤هـ / ٩٤٦م. عن الهمداني ومؤلفاته أنظر :

الهمداني، الإكليل، تحقيق محب الدين الخطيب، ط. بيروت ١٩٨٧م، ص ١٨-٢٤؛ القفطى، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ط. بيروت ب-ت، ص ١١٣؛ زغلول النجار وعلى عبدالله الدفاع، المرجع السابق، ص ٢٩٦-٣٠٤؛ أحمد رمضان، المرجع السابق، ص ٩٥-١٠٠؛ أيمن فؤاد سيد، مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامى، المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، ط. القاهرة ١٩٧٤م، ص ٦٨-٦٧.

وابن حوقل، هو محمد بن على البغدادي الموصلى، يكنى بأبى القاسم ولقب بابن حوقل، ولا نعرف الكثير عن حياته سوى أنه غادر بغداد في عام ٣٣١هـ / ٩٤٣م، من أجل دراسة

البلاد والشعوب، ورغبة في الارتزاق من خلال التجارة. ولذا طاف أنحاء العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه، ويقال إنه ظل يتجول في أنحاء عالم الإسلام على مدى ثلاثين عاماً، ووصل في تجواله إلى بلغاريا، وأعلى نهر الفولجا، وقد ألف كتابه الشهير صورة الأرض، وقد أفاد من جغرافى مسلم آخر، ألا وهو الاصطخرى فى تخطيط الكتاب، وكذلك فى محتواه ذاته، وقد أضاف أشياء جديدة، كما أن أسلوبه فى الكتابة، امتاز بالسهولة، والوضوح، وتجنب السجع، والمحسنات البدعية، ونظراً لكون ابن حوقل تاجراً، نجد أنه اهتم اهتماماً خاصاً بالتجارة وكذلك الجبايات، وملاحظ أن المستشرق دوزى قد رأى أن ابن حوقل عمل جاسوساً لحساب الفاطميين فى الأندلس، غير أن ذلك التصور لا يتفق مع الواقع، إذ أنه فى مواضيع كثيرة يوجه النقد الشديد للفاطميين، من ذلك أنه عندما كان يورد ذكر بعض المناطق الخيرية فى إفريقية، حرص على أن يشير إلى أن ذلك خبره المبيدون، وهى تسمية لا يوردها إلا أعداء الفاطميين، على نحو نفيد ما ذهب إليه دوزى فى هذا الشأن. عن ابن حوقل أنظر :

ابن حوقل، صورة الأرض، تحقيق دى جويه، ط. ليدن ١٩٦٧م، ص ٣-٤؛ حسين مؤنس، مكان المسلمين فى التاريخ العام لعلم الجغرافيا، ص ٢٤٧، أحمد رمضان، المرجع السابق، ص ١١٧، على عبدالله الدفاع، رواد علم الجغرافى، ص ١٠٨، نفيس أحمد، الفكر الجغرافى فى التراث الإسلامى، ت. فتحي عثمان، ط. الكويت ١٩٧٨م، ص ٦٩، أحمد فؤاد باشا، التراث العلمى للحضارة الإسلامية، ط. القاهرة ١٩٨٣م، ص ١١٦.

والمقدسى، هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبى بكر البناء وعرف باسم المقدسى، حيث ولد بمدينة بيت المقدس فى عام ٣٣٥هـ / ٩٤٥. وقد تلقى تعليماً متميزاً، وأدى فريضة الحج، وهو فى العشرين من عمره، وكرس حياته من أجل دراسة الجغرافيا، ولذا، قام بعدة رحلات استغرقت عشرين عاماً، وذلك من أجل الحصول على المادة العلمية اللازمة لوضع كتابه الشهير أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ويحتوى على وصف عام للدول الإسلامية، مع التخصيص على الجوانب الثقافية والدينية. وقد صنفه فى عام ٣٨٥هـ / ٩٩٥م، وتجد فيه الكثير من الجغرافيا الوصفية لسطح الأرض والأقاليم والأقسام السياسية وذكر المسافات، وكذلك طرق المواصلات، وأيضاً عن الجغرافيا الانسانية التى تتناول طوائف الناس، واللغة، والتجارة، وغيرها، ومن المفيد أن نذكر أن المقدسى يتضح من خلال كتابه أنه دقيق الملاحظة لأنماط الحياة المختلفة فى المناطق التى مر بها، وكذلك ممارسات الناس، ونشاطهم الاقتصادى المتباين، كما أنه تمتع بمنظرة فائقة فى مجال تقدير، وتقييم آداب البلاد التى طاف يربوعها، وقد امتاز منهجه بالاستناد، ولذا نجله مسند المعلومات التى دونها فى كتابه أحسن التقاسيم إلى رايها،

لا سيما في حالة التشكك حتى ولو قليلا، على نحو جعله يتصف بالدقة بصورة واضحة. وتبقى ناحية طريفة عن المقدسي، ألا وهي أنه كثيرا ما غير اسمه من أجل أن يندمج في صفوف الجماهير، حتى يتمكن من دراسة أنماط حياتها المختلفة. وقد توفى ذلك العلم الجغرافي في عام ٣٩٠هـ / ٩٩٥م. عن المقدسي أنظر :

ساجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حـ ١ / ق ١، ط. استانبول ١٩٤١م، ص ١٦؛ شاكر الفحام، حياة المقدسي وعصره، ضمن أعمال الندوة التي عقدت في دمشق في ١١/٨/١٩٩٠م، في الاحتفال بالذكرى الألفية لوفاته؛ صفى الدين أبو العز، الجغرافية الاقتصادية والاجتماعية عند المقدسي، الندوة السابقة؛ عادل عبدالسلام، منهج المقدسي وأسلوبه في البحث، الندوة المذكورة؛ خالد ماغوط، الإنشاءات التراثية المائية أيام المقدسي، الندوة السابقة الذكر؛ محمد نذير سنكري، للملامح البيئية والمائية للوطن العربي عند المقدسي، ضمن أبحاث الندوة المذكورة؛ حسين فهم، المرجع السابق، ص ٧٧، حاشية (٣)؛ أحمد فؤاد باشا، المرجع السابق، ص ١١٤؛ صباح محمود محمد، دراسات في التراث الجغرافي العربي، ط. بغداد ١٩٨١م، ص ٤٤-٤٥؛ على عبدالله الدفاع، رواء علم الجغرافيا، ص ١٢٤؛ زغلول النجار والدفاع، المرجع السابق، ص ٣٤٤؛ آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، حـ ٢. ط. بيروت ١٩٦٧م، ص ١١؛ أحمد رمضان، المرجع السابق، ص ١٢٩؛ زكى حسن، المرجع السابق، ص ٤٤، أنور عبدالعليم، المرجع السابق، ص ٣٥.

(٢٤) حسين مؤنس، الجغرافية والجغرافيون في الأندلس، ص ٢١٧.

وعن دور الإدريسي في مجال علم الخرائط أو الكارتوجرافى Cartography، نعرف أن أكبر إضافة قدمها المسلمون، إلى ذلك العلم، تتمثل في خريطة الإدريسي للعالم، وقد تضمنت خريطته معلومات من كل من الجانبين؛ الغربى المسيحى، والشرقى الإسلامى، وتعود أهمية خريطته بالنسبة للغربيين إلى ثروة المعلومات الخاصة بالجزء الآسيوى، وكذلك منطقة الشرق الأوسط، ووسط آسيا على نحو خاص، وقد رسم الإدريسي خرائط أخرى، ونجد أنه قد استخدم الألوان في رسمها؛ فظهرت البحار باللون الأزرق، بينما نجد أنه قد استخدم اللون الأخضر ليدل على الأنهار، واللون الأحمر والبني والأرجواني ليدل على الجبال، أما المدن؛ فنجد أنه قد جعلها مرسومة بدوائر مذهب. عن دور الإدريسي في هذا المجال أنظر :

محمد محمد سطيحة، الجغرافيا العملية وقراءة الخرائط، ط. بيروت ١٩٧٤م، ص ٣٣-٣٤؛ محمد صبحى عبدالحكيم وماهر الليثى، المرجع السابق، ص ٢٨-٢٩؛ حسين مؤنس، مكان المسلمين في التاريخ العام لعلم الجغرافيا، ضمن كتاب دراسات في الحضارة

الإسلامية، ط. القاهرة ١٩٧٠م، ص ٢٣٩؛ منتجو مري وات، فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ط. القاهرة ١٩٨٦، ص ٣٥؛ على عبدالله الدفاع، رواد علم الجغرافيا، ص ١٥٣؛ أحمد فؤاد باشا، المرجع السابق، ص ١١١.

Wright, The geographical Lore of The Time of The Crusades, Astudy in The History of medieval Science and Tradition in Western Europe, New York 1965, p. 80; Lite, A History of geographical discovery, p. 60.

وبلاحظ أن المستشرق بلوشيه، قد قام بنشر خريطتين من خرائط الإدريسي عن الشمال الأفرقي، وضمنها كتابه عن لدراسة علم الخرائط عند المسلمين، الصادر فى بون عام ١٨٨٨م. عن ذلك أنظر :

Blochet, contribution à L'etude de la cartographie chez les musulmans, Bonn 1888.

عن ذلك أنظر : دائرة المعارف الإسلامية، م (٢)، مادة «الإدريسي»، ص ٤٨٩.

ومن بعد ذلك، قام المستشرق الألماني كونراد ميلر Konrad Miller - وهو من كبار المهتمين بالدراسات الإدريسية لاسيما فى مجال الخرائط - قام بعمل أطلس كامل خاص بخرائط الإدريسي، وقد احتوى على (٧٣) خريطة، وأضاف إليها قائمة تفصيلية بالأسماء التى وردت فيها وذلك فى شتوتجارت عام ١٩٢٦.

وقد صدر عمل ميلر تحت عنوان :

Miller, Mappae Arabicae, Arabische Welt - and Lander Karren I Band. 3 Heft. Die kleine Ldrisikarte Von Johre 1192n Stuttgart 1926.

عن عمل كونراد ميلر أنظر :

شاكر خصباك، الخصائص العلمية للجغرافية العربية الإسلامية القديمة، المؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، م (٣)، ط. الرياض ١٩٨٤م، ص ١٦١؛ وكذلك تقديم فؤاد سزكين لتصوير مخطوط أنس المهج.

وبلاحظ أن صبحى عبدالحكيم وماهر الليثى قد اعتقدا أن عمل كونراد ميلر السالف الذكر، قد صدر عام ١٩٢٨م، والصواب ما أثبتته وهو عام ١٩٢٦م. عن رأيهما أنظر : صبحى عبدالحكيم وماهر الليثى، المرجع السابق، ص ٢٨، حاشية (١).

ومن المهم أن ندرك أن عمل كونراد ميلر قد صدر فى ستة أجزاء، خلال الرحلة من ١٩٢٦ إلى ١٩٣١م.

ومن جهة أخرى، استطاع كونراد ميلر أن يستخرج من مجموعة من خرائط مخطوطات كتاب الإدريسي، خريطة شاملة للعالم كما صورها ذلك الجغرافي والخرائطى الموهوب، وتم طبعها وذلك فى عام ١٩٣٨، ملونة ومزودة بالحروف اللاتينية، وفى عام ١٩٥١م، اهتم المجمع العلمى العراقى بتحقيق تلك الخريطة الهامة، وعمل على إعادتها إلى أصلها العربى، وهناك من يرى أن التصحيح لا يزال قائماً فى الأسماء، ومن زاوية أخرى، نجد أن الاهتمام بتلك الخريطة؛ لم يكن قاصراً على المجمع العلمى العراقى، بل إنه امتد ليشمل نقابة المهندسين العراقيين؛ التى عملت على الاهتمام بطبع تلك الخريطة، وذلك فى عام ١٩٧٠م، وتم اختصارها من ست قطع إلى ثلاثة. عن ذلك أنظر :

عبدالجبار عبدالرحمن، فهرست المطبوعات العراقية، ح-٢، ط. بغداد ١٩٧٩م، ص ٣٦٥؛
على عبدالله الدفاع، رواد علم الجغرافية، ص ١٥٣؛ أحمد رمضان، المرجع السابق، ص ٦٤؛
فلاح شاكر أسود، دور العرب والمسلمين فى رسم الخرائط، المؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول،
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، م (٣)، ط. الرياض ١٩٨٤م، ص ٢١٥؛ محمد
محمود الصياد، منهج العلماء المسلمين فى البحث الجغرافى، المؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول،
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، م (٣)، ط. الرياض ١٩٨٤م، ص ٤٩٤؛ عبدالعال
عبد المنعم الشامى، جهود الجغرافيين المسلمين فى رسم الخرائط، الجمعية الجغرافية الكويتية،
صفر ١٤٠٢هـ / ديسمبر ١٩٨١م، ص ٢٠٢-٢٠٣؛ أحمد فؤاد باشا، المرجع السابق، ص ١٢٠

(٢٥) كراتشكوفسكى، الأدب الجغرافى، ص ٣٠٤.

(٢٦) نفس المرجع والصفحة.

وقد ردد ذات الفكرة محمد عبدالغنى حسن؛ إذ أشار إلى أنه قدم أوصافاً لمدينة صيدا،
وبيروت، وبيت لحم فى فلسطين، ويقول ما نصه «وإن كان لم يتأكد لنا زيارته لتلك البلاد، وهو
هنا ناقل عن أوصاف غيره». أنظر : الشريف الإدريسي، أشهر جغرافى العرب والإسلام،
ص ١٥١.

(٢٧) تكتب عكا، أو عكة، أو عكا. وترد فى المصادر التاريخية الصليبية، Acron, Accoron, Acre
Acra وهو من مدن الساحل الفلسطينى، وبعدت عن قيسارية بمسافة ستة وثلاثون ميلا، وقد
استولى عليها الصليبيون وعلى رأسهم الملك الصليبي بلدوين الأول Baldwin I (١١٠٠-١١١٧م)
فى عام ١١٠٤م/٤٩٧هـ، وغدت مركزاً تجارياً بالغ الأهمية للكيان
الصليبي، وازداد وجود التجار الأوروبيين فيها من كافة الجنسيات من أجل القيام بعمليات

الاستيراد والتصدير. وقد حرص العديد من الرحالة الأوروبيين الذين زاروا مملكة بيت المقدس على مدى المرحلة من عام ١٠٩٩-١١٨٧م، حرصوا على وصف مدينة عكا والازدهار التجارى بها، وتعدد السفن الموجودة فى مينائها، وكذلك الكثافة السكانية بها من أم وأجناس مختلفة، وفيما بعد استردها المسلمون فى عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ، وفيما بعد أخضعها الصليبيون فى ظروف الحملة الصليبية الثالثة؛ وذلك عام ١١٩١م/ ٥٨٧هـ بعد حصار دام نحو عامين، وظلت بمثابة مركز الصليبيين السياسى - بالإضافة إلى مكانتها الاقتصادية - وذلك بعد سقوط مدينة بيت المقدس فى قبضة المسلمين، وفيما بعد استرد عكا المسلمون فى عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون وذلك عام ١٢٩١م/ ٦٩٠هـ. عن عكا أنظر :

المقدس، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ط. ليدن ١٩٦٧م، ص ١٦٢-١٦٣؛ ناصر خسرو، سفرنامه، ترجمة يحيى الخشاب، ط. القاهرة ١٩٤٥م، ص ١٥؛ الإدريسي، أنس المهج، ورقة (٧٦).

Fulcher of Chartres, A History of The expedition to Jerusalem, Trans. by Rita Rvan, Tennessee 1969, p. 176; William of Tyre, A History of The deeds done beyond the sea, Trans. by Bebrok and Krey, Vol. I, p. 454-456; Le Strange, palestine under Islam, London 1890, p. 334.

مكسيموس موزوند، تاريخ الحرب المقدسة المدعوة بحرب الصليب، ت. مكسيموس مظلوم، ح ١، ط. أورشليم ١٨٦٥م، ص ٢٢١-٢٢٢؛ سيد الحريرى، الأخبار السنوية فى الحروب الصليبية، ط. القاهرة، ١٩١١م، ص ٤٩.

(٢٨) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ١٢.

(٢٩) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

ويلاحظ أن هناك من الرحالة الأوروبيين، ممن زاروا عكا خلال القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى، من أشار إلى تزايد أعداد السكان فى مدينة عكا مثل ليودريس وپوحنا فوكاس، أنظر :

Theoderich, Theoderich's Description of the Holy places, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., Vol. V, London 1896, p. 59; Joannes phocas, A Brief Description of the Holy Land, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., Vol. V, London 1896, p. 19.

أيضاً : محمد مؤنس أحمد عوض، الرحالة الأوروبيون فى مملكة بيت المقدس الصليبية (١٠٩٩-١١٨٧م)، ط. القاهرة ١٩٩٢م، ص ١٨٤، ص ٢١٨.

(٣٠) وقعت حيفا على الجزء الجنوبي من أكبر خليج على شاطئ فلسطين، وتعد متفذاً إلى البحر مرج ابن عامر، وهو المرج الوحيد الذي يشق جبال فلسطين الغربية، وهذا المرج يمثل إنحداراً تدريجياً إلى غور الأردن، وتعد حيفا؛ مركزاً لشبكة من الطرق تتجه شمالاً وشرقاً وجنوباً، وقد استولى الصليبيون عليها في عام ١١٠٠م / ٤٩٤هـ، بمساعدة اسطول من البندقية، وقد دافع عنها سكانها ببسالة، وعندما دخلها الصليبيون ارتكبوا فيها مذبحه. وقد استردها المسلمون في عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ. لم من بعد ذلك سقطت في أيديهم بعد أن أخضعها الصليبيون، وكان ذلك في عهد السلطان الظاهر بيبرس عام ١٢٦٥م / ٦٥٥هـ. عن حيفا أنظر :
ابن القلائسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٢٥؛ ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق الخريطر، ط. الرياض ١٩٧٦، ص ٢٣٤.

Fulcher of chartres, p. 142; William of Tyre, Vol. I, p. 399; Stevenson, The Crusaders in The east, Beirut 1968, p.33, p.40, p. 150; Press, Palestina Und Sudsyrien ressehandbuch, Berlin 1921, p. 249-250.

ألكس كرم، تاريخ حيفا في عهد الأتراك العثمانيين ت. تيسير إلياس، جامعة حيفا، المركز اليهودي العربي، معهد دراسات الشرق الأوسط، ط. حيفا ١٩٧٩م، ص ١١-٣٧؛ ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق، ت. إلياس شاهين، ط. موسكو ١٩٨٦م، ص ١٢٩؛ زكي نقاش، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية، ط. بيروت ١٩٥٨، ص ٥٥-٥٦.

(٣١) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٢.

(٣٢) نفسه، أنس المهج، ورقة (١٣٢).

(٣٣) نفسه، زهرة المشتاق، ص ١٩، أنس المهج، ورقة (١٣٢).

(٣٤) نفسه، زهرة المشتاق، ص ١٩.

(٣٥) نفسه، نفس المصدر، ص ٧.

وبلاحظ أن مثل تلك الإشارات تجددها تتكرر في المصادر الجغرافية العربية التالية على عصر الإدريسي؛ من ذلك - على سبيل المثال - أن ابن شاهين، قد أورد أن صيدا - في عصره - تعد ميناء دمشق. عن ذلك أنظر :

ابن شاهين، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسلك، تحقيق بول رافي، ط. باريس ١٩٩٤م، ص ٤٧.

وأيضاً : هايد، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى المصور الوسطى، ج١، ت. أحمد محمد رضا، ط. القاهرة ١٩٨٥م، ص ١٨٥.

(٣٦) عن وصف الطريق الممتد من يافا إلى بيت المقدس، تعرف أنه مر بمناطق ذات طبيعة جبلية، إلى أن يصل إلى السهل الساحلى، ويبلغ امتداده سبعة وستين كم، ويبدأ من غرب بيت المقدس من الباب الغربى لها، والمسعى باب يافا، ويستمر فى هضبة القدس، ثم يعبر دير ياسين، وأبو غوش ثم الرملة، وقد قام الصليبيون بتشييد ستة حصون على امتداد ذلك الطريق. وفى أوائل عهد الصليبيين بالمنطقة، شن المسلمون حرب عصابات على أعدائهم عبر ذلك الطريق الذى وصفه الرحالة الروسى دانيال (١١٠٦-١١٠٧م) بأنه طريق صخرى وخطر وأشاز إلى هجمات المسلمين الفجائية ضد أعدائهم الصليبيين الذين سقطوا قتلى من جراء ذلك.

عن طريق يافا - بيت المقدس أنظر :

Daniel, Pilgrimage of the Rusion Abbot Daniel in The Holy Land, Trans. by Wilson, P.P.T.S., Vol. IV, London, 1895, p. 9.

سيد فرج، القدس عربية إسلامية، الدارة، السنة (٨)، العدد (٢)، يناير ١٩٨٤م، ص ١٢؛ عبدالرحمن زكى، القلاع فى الحروب الصليبية، المجلة التاريخية المصرية، م (١٥)، عام ١٩٦٩م، ص ٦٢؛ فتحي عبدالعزيز عبدالله، دور الكنيسة فى مملكة بيت المقدس اللاتينية حتى عام ١١٨٧م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الزقازيق عام ١٩٨٨م، ص ١٢٢؛ على السيد على، القدس فى العصر المملوكى، ط. القاهرة، ١٩٨٦م، ص ٢١٣.

(٣٧) الإدريسى، المصدر السابق، ص ١٧.

(٣٨) وقعت عسقلان Ascalon على الساحل الفلسطينى على بعد إثني عشر كم إلى الشمال من غزة، وعندما قدم الصليبيون إلى المنطقة فى آخريات القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى كانت عسقلان تابعة للسيادة الفاطمية، ومثلت ميناء تجارياً هاماً، وقاعدة بحرية متقدمة للفاطميين فى فلسطين، ووصفت بأنها عروس الشام، وقد استولى عليها الصليبيون فى عام ١١٥٣م/ ٥٤٨هـ، وذلك بعد حصار طويل، فى عهد الملك الصليبي بلدوين الثالث Baldwin III (١١٤٦-١١٦٣م). عن عسقلان أنظر :

ابن حوقل، صورة الأرض، تحقيق دى جويه، ط. ليدن ١٩٦٧م، ص ١٧٤؛ اليعقوبى، كتاب البلدان، تحقيق دى جويه، ط. لندن، ص ٢٢٩؛ إسحاق بن الحسين، آكام المرجان فى ذكر المدائن المشهورة فى كل مكان، باعتناء فهمى سعد، ط. بيروت ١٩٨٨م، ص ٦٠؛ الإدريسى، أنس المهج، ورقة (٧٥).

William of Tyre, vol. II, pp. 184-234; Baldwin, The Latin States under Baldwin III and Amalric I, in Setton, A History of the crusades, Vol. I, pennsylvania 1958, pp. 546-538.

عبد اللطيف عبدالهادى السيد، السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد بلدوين الثالث (١١٤٦-١١٦٣م)، رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآداب - جامعة عين شمس عام ١٩٩٠م، ص ١٣٨-١٤١؛ قسطنطين خمار، أسماء الأماكن والمواقع والمعالم الطبيعية والبشرية والجغرافية الواردة في فلسطين حتى العام ١٩٤٨م، ط. بيروت ١٩٨٠م، ص ١٦٧؛ فهمى توفيق مقل، الفاطميون والصليبيون، ط. بيروت ب-ت، ص ١١٧-١٢٢؛ أحمد محمود الأحمد، السنوات الأخيرة من حياة صلاح الدين، ط. دمشق ١٣٩٩-١٤٠٠هـ، ص ٢٩؛ بسام العسلى، نور الدين القائد، ط. بيروت ١٩٨٨م، ص ٨٤-٨٩؛ حسين مؤنس، نور الدين محمود، سيرة مجاهد صادق، ط. القاهرة ١٩٥٩م، ص ٢٥٦-٢٥٧.

(٣٩) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٦.

(٤٠) نفسه، نفس المصدر، ص ١٦. وأنظر أيضاً: ابن بطوطة، تحفة النظار في عجائب الأمصار، ط. بيروت ١٩٦٤م، ص ٦٢.

(٤١) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٤؛ على السيد على، أضواء جديدة على العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والفرنج في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية (بلاد المناصقات)، الدارة، العدد (١)، السنة (٨)، شوال - ذو القعدة - ذو الحجة ١٤١٢هـ، ص ١٩٢.

(٤٢) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٤.

ومن المفيد أن نذكر أن مدينة دمشق في العصر الذي زارها فيه الإدريسي عرفت واشتهرت بصناعة الثياب الحريرية التي عرفت باسم الدمسك Damask لدى الأوروبيين، والدمسك من الملابس الزخرفية، وخصص لها سداة واحدة ولحمة واحدة، كلاهما من لون واحد، أو من لونين مختلفين، وتحدث الزخرفة بهذا النوع من المنسوجين من خلال أطلس من السداة، وأطلس من الفضة، في أجزاء الزخرفة من أجل تغطية وإخفاء خيوط السداة تحت ذلك عن ثياب الدمسك أنظر:

البدري، نزهة الأنام في محاسن الشام، ط. بيروت ١٩٨٠م، ص ٢١٤؛ نعمان قسطلالى، الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص ١٢١؛ صلاح العبيدى، الملابس العربية الإسلامية في العصر العباسي من المصادر التاريخية والأثرية، ط. بغداد ١٩٨٠م، ص ٦٩؛ روم لاندو، الإسلامى والعرب، ت. منير البعلبكي، ط. بيروت ١٩٧٧م، ص ٣٣٧.

Serjeant, Islamic Textiles, material for a History up to The Mongul Conquest, Beirut, 1972, p. 117.

(٤٣) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٤.

(٤٤) نفسه، نفس المصدر، ص ٥.

(٤٤) نفسه، نفس المصدر، ص ١٤.

(٤٤) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

ويلاحظ أن من العوامل الهامة التي أدت إلى ازدهار التجارة في المدن الشامية الخاضعة للسيادة الإسلامية في الوقت الذي زارها فيه الإدريسي، ما نلاحظه من اهتمام الدولة النورية بإنعاش النشاط التجاري في الحواضر الشامية الكبرى؛ مثل دمشق، وحلب، وقد أدركت تلك الدولة الأهمية الكبيرة للنشاط التجاري من أجل تدعيم ميزانيتها، حتى تستطيع مواصلة الجهاد ضد الصليبيين في بلاد الشام، ولذلك سعت ما وسعها السعي نحو تنشيط حركة التبادل التجاري بين بلاد الشام والأقاليم المجاورة، ومن أمثلة ذلك، أن نقش باب شاغور الذي يعود إلى عام ١١٥٦ هـ / ١١٥٦ م، نجد فيه إعفاء وإزالة حق التسفير الذي كانت تحصل عليه الدولة على التجار المسافرين إلى المراق، والقادمين منها إلى دمشق حاضرة الشام المزدهرة تجارياً.

عن نقش باب شاغور أنظر :

Comps, Wiet, Sauvaget, Repertoire Chronologie d'epigraphie Arabe, T. IX, p. 16; Wiet, Notes d'epigraphie Syromusulmane, Syria, T. VI, Paris, 1929, p. ; Van Berchem, Inscriptions Arabes de Syrie, M.I.E.T III, Caire 1922, p. 453-454.

(٤٨) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ١٧.

(٤٩) نفسه، نفس المصدر ص ١٥-١٦.

وهناك نص مشابه لما أورده الإدريسي، قدمه لنا مؤرخ متأخر ألا وهو؛ العثماني (ق ٨ هـ / ١٤ م) وقيمة نص الأخير، أنه يوضح ما ذكره الإدريسي وقدم التفاصيل الهامة بشأنه، وهو يقرر صراحة ضمن تناوله لتاريخ صفة، أن من توابعها بلاد الشقيف، ومرج عيون، وحدد قرية تسمى «لول»، ذكر إنه بها يخرج سمك صغير إذا أخذ في شهر فبراير (شباط) وتم استعمال الذكر منه، حيث توجد علامة مميزة له، نفع في الباء نفعا كبيرا، ويقرر العثماني، أن هذا النوع من السمك ذكره الأطباء في كتبهم، وعبروا عنه بسمكة صيدا، وقيل أنه بقرية من قرأها، غير أن ذلك المؤرخ يستدرك ويذكر أنها في وقته من ضمن عمل الشقيف. عن ذلك أنظر : العثماني، تاريخ صفة، تحقيق برنارد لويس، B.S.O.A.S., Vo. XV, 1953, ص ٤٨١.

(٥٠) الإدريسي، للمصدر السابق، ص ٧.

وكنيسة القيامة بتتها هيلانة أم الامبراطور قسطنطين وذلك فى عام ٣٢٥م؛ فوق الجلجة، فى الموضوع الذى تم اكتشاف ما يزعم بأنه الخشبة التى قيل إن السيد المسيح صلب عليها كما يعتقد المسيحيون، وقد قام الفرس - خلال غزوهم للمدينة المقدسة - بإحراقها وذلك فى عهد كسرى عام ٦١٤م، كما أنهم احرقوا كافة الكنائس والأديرة التى وجدت فيها، وتمت إعادة بنائها وذلك على يد الراهب مورسطل فى عام ٦١٧م، وفيما بعد عندما قام الخليفة عمر بن الخطاب بفتح بيت المقدس عام ٦٣٦م، لم يصب كنيسة القيامة بأذى، بل أنه رفض أن يصلى فيها حتى لا يتم تحويلها إلى مسجد، وقد قام الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله بتدميرها فى مرحلة من مراحل عدائه لأهل الذمة، وعمل ابنه الظاهر من بعده على إعادة تعميرها، وعندما خضعت الكنيسة المذكورة لسيادة الصليبيين عملوا على زيادة الاهتمام بها وصارت محل توافد الحجاج الأوروبيين، ويلاحظ أن هناك من الرحالة المسلمين من وصف كنيسة القيامة من قبل الإدريسي، من ذلك أن الرحالة الفارسى ناصر خسرو أشار إلى ما بها من الزخارف العظيمة من الرخام الملون، والنقوش، والصخور، وتحتوى على عدد من الصور الدينية.

عن كنيسة القيامة أنظر :

ناصر خسرو، سفرنامه. ت. يحيى الخشاب، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص ٧٤-٧٦.

Daniel, p.10.

فاروق عز الدين، القدس تاريخياً وجغرافياً، ط. القاهرة ١٩٨١م، ص ٧٤-٧٥، عبدالمعالم عبدالرحمن خضر، التطور العمرانى لمدينة القدس، ط. الرياض ١٩٨١م، ص ١٢٩-١٣٠؛ عماد الدين خليل، فلسطين فى الأب الجغرافى العربى، ضمن كتاب دراسات تاريخية، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص ١٣٩؛ مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، ح ١٩، ق ٢، ط. بيروت ١٩٧٥م، ص ٣٠١؛ فيليب حتى، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ط. ت. جورج حداد وعبدالمعالم رافق، ط. بيروت ١٩٥٨م، ص ٤٠٥؛ شفيق جاسر، تاريخ القدس والعلاقة بين المسلمين والمسيحيين حتى الحروب الصليبية، ط. عمان ١٩٨٩م، ص ٧٤-٧٥؛ محمد عبدالله عنان، مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، ط. القاهرة ١٩٦٩م، ص ١١.

(٥١) عن القديسة هيلانة ودورها فى هذا العهد أنظر :

Eusebius, Extraits from Eusebius Life of constantine, Trans. by John Bernard, P.P.T.S., Vol. I, London 1896, p. 11; Attwater, Apenguin dictionary of saints, London 1978, p. 166; Runciman, The pilgrimage to palestine before 1095, in setton, A History of the crusades, Vol. I, Pennsylvania 1952, p. 69, A History of The Crusades, penguin Books, Vol. I, London 1978, p. 39.

إسحق عبيد، قصة عشور القديسة هيلانة على خشبة الصليب، أسطورة أم حقيقة، مجلة كلية الآداب - جامعة عين شمس، م (١٧)، عام ١٩٧٠م، ص ٥-٢١، شفيق جاسر، المرجع السابق، ص ٧٤، هنرى كتن، القدس الشريف، ت. نور الدين كثنانة، ط. عمان ١٩٨٩م، ص ٥٨، حاشية (٢٠).

(٥٢) عنها أنظر :

The tinerary of the Bordeaux pilgrim, Trans. by Stewart, P.P.T.S., vol. I, London 1896; The pilgrimage of the Holy paula, by St. Jerome, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., Vol. I, London 1896; The Letter of paula and Eustochium to Marcella about the Holy places, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., Vol. I, London 1896; Autonius Martyr, The Holy places visited by Antonius Martyr, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., Vol. II, London 1896; A domnan of Lona, in Wilkinson, Jerusalem pilgrims before the Crusades, London 1977; Wilibald, Hodoeporicon, Tans. by Brownlow, in P.P.T.S., Vol. III, London 1892.

(٥٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٧.

(٥٤) نفسه، نفس المصدر، ص ١٠.

(٥٥) أنظر الفصول التالية من هذا البحث.

(٥٦) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٩.

(٥٧) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٥٨) وقعت عين سلوان فى وادى قدرون، وهو جزء من الوادى الممتد شرق بيت المقدس، وتعرف بالبركة الحمراء وتكتسب قداسة خاصة نظراً لما يقال من أن السيد المسيح عليه السلام قد أرسل رجلاً كفيفاً إليها، وأمره أن يمتثل من مائها، فعاد إليه بصره بإذن الله تبارك وتعالى. وقد قدم راييموندا جيل Raymond d, Aguiliers تناولاً هاماً لعين سلوان وذكر أنها عبارة عن نبع كبير يتدفق مرة كل ثلاثة أيام، ويقرر السكان المحليون أنها تتدفق يوم السبت فقط، أما باقى الأيام فهي عبارة عن مستنقع، وقد ذكر أن التدافع الجنونى العنيف من أجل شرب الماء جعل الكثيرين يلقون بأنفسهم فى البركة، وقد تسبب ذلك فى هلاك الكثير من الدواب، كذلك نجد أن الرحالة الألمانى يوحنا الورزبرجى John of Wurzburg، قد ذكر أن عين سلوان؛ ليس لها مصدر للمياه سوى جوف الأرض، وعندما زار الرحالة اليهودى الأسبانى بنيامين النطولى Benjamin of Tudela المدينة؛ أشار إلى تلك العين، وذكر أنه لا يوجد بها إلا أقل القليل من الماء، وتجدر الإشارة إلى أن المنهاجى السيوطى قد ذكر العديد من الفضائل الخاصة بها. عن عين سلوان أنظر :

ابن تحوّل، المصدر السابق، ص ١٧١، المقدسى، المصدر السابق، ص ١٧١؛ أبو العلا المعرى، لزوم ما لا يلزم، ج ٢، ط. بيروت ١٩٦١ ك. ص ٤٦٨؛ ناصر خسرو، المصدر السابق، ص ٥٥؛ رايغونديج، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ت. حسين عطية، ط. الاسكندرية ١٩٩٠ م، ص ٢٣٧؛ بنيامين التطيلي، الرحلة، ت. عزرا حداد، ط. بغداد ١٩٤٥، ص ١٠٢، حاشية (٢)، المنهاجي السيوطي، إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، ق ١، تحقيق أحمد رمضان، ط. القاهرة، ١٩٨٢ م، ص ٢١١-٢٢٤.

John of Wurzburg, Description of The Holy Land, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., Vol. V, London 1896, p.51.

فاروق عز الدين، المرجع السابق، ص ٥٣؛ مرمرجي الدومنيكي، المرجع السابق، ص ٤٢-٤٣؛ عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، ط. القاهرة ١٩٧٤ م، ص ١٧؛ كامل العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ط. عمان ١٩٨٢ م، ص ١٠٣؛ مصطفى الدباع، بلادنا فلسطين، ج ١/٨، ط. بيروت ١٩٧٤ م، ص ١٥١-١٥٢؛ محمد عبد الجواد القاياتي، نفحة البشام في رحلة الشام، ط. بيروت ١٩٨١ م، ص ٩٥.

(٥٩) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ١٠.

(٦٠) نفسه، نفس المصدر، والصفحة.

(٦١) القديس لازاروس St. Lazarus، يظهره العهد الجديد على أن السيد المسيح قد أعاد إليه الحياة - وذلك بإذن الله تبارك وتعالى. بعد أن مات، وعاش لازاروس مع اختيه مريم، ومرتا في قرية بيتاني بالقرب من بيت المقدس، ويقال إن قبره في قرية العازرية (بيت عنا) على قارعة الطريق المؤدية إلى أريحا Jerico. عن لازاروس أنظر :

يوحنا، الاصحاح (١١)، من ١ إلى ٥٢؛ الاصحاح ١٢ من ١ إلى ١١.

Bernard The Wise, The Tinerary of Bermard The Wise, Trans. by J.D. Bernard, P.P.T.S., Vol. III, London 1893, p.9; Attwater, Op. Crt., p. 216, p. 238.

مرمجي الدومنيكي، المرجع السابق، ص ٢١٩، كامل العسلي، ثراث فلسطين في كتابات عبدالله مخلص، ط. عمان ١٩٨٧ م، ص ١٩٣-١٩٤.

(٦٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ١٠.

(٦٣) نفسه، نفس المصدر، ص ٨. وعن المسجد الجامع في قرطبة أنظر :

المقرى، نفع الطيب من حصن الأندلس الرطيب، ج ٢، تحقيق إحسان عباس، ط. بيروت

١٩٦٨م، ص ٥٦١؛ محمد عبدالله عنان، الآثار الأندلسية الباقية في أسبانيا والبرتغال، ط. القاهرة ١٩٦١م، ص ٢٠-٣٦؛ إبراهيم ياسر الدروى، عبدالرحمن الداخل في الأندلس وسياسته الخارجية والداخلية، ط. بغداد ١٩٨٢م، ص ٢٧٦-٢٨٧؛ السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربى حتى سقوط الخلافة بقرطبة، ط. الاسكندرية ١٩٦١م، ص ٣٧٧-٤٠٠؛ قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ط. بيروت ١٩٧١م، ص ٢٦٩، ٣٥٥.

والجدير بالذكر أن مساحة المسجد الجامع في قرطبة تبلغ الآتى : الطول ١٨٠م × العرض ١٣٥م، المساحة : ٢٤٣٠٠ متراً مربعاً. عن ذلك :

محمد عبدالله عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص ٢٢؛ أما المسجد الأموى بدمشق فمساحته تبلغ : الطول ١٣١م × العرض ٣٨م، المساحة : ٤٩٧٨ متراً مربعاً.

عن ذلك : محمد على، الرحلة الشامية، ط. بيروت ١٩٨١م، ص ٨٧.

(٦٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٨.

(٦٥) نفسه، نفس المصدر، ص ٦٣.

(٦٦) نفسه، نفس المصدر، ص ١١.

(٦٧) نفسه، نفس المصدر، ص ١٣.

(٦٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٦٩) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٧٠) نفسه، نفس المصدر، ص ٦.

والجدير بالذكر، أن السامرة ينسبون إلى سبط يوسف، ويعملون سبب إنشقاقهم عن باقى اليهود خلاف دينى نشأ بينهم وبين هذه الأسباط، ويلاحظ أنهم يصفون أنفسهم على أساس أنهم «المحافظون»، على اعتبار أنهم حافظوا ولا يزالون على أدق الشعائر سواء فى مجال العبادات أو الشريعة، ولعل أوضح مجالات الخلاف بين السامريين واليهود، موضع القبلة؛ إذ أن السامريين، يرون أن جبل جرزيم بمثابة الجبل المقدس، ويعتقدون أن عيد الفصح وقرابينه، لا تجوز إلا فى هذا الجبل، الذى لا يتجاوز محدوده الجغرافية مدينة نابلس فى الضفة الغربية لنهر الأردن. عن وجود السامرة فى نابلس وعقائدهم أنظر :

ابن حوقل، المصدر السابق، ص ١٧٢، اليعقوبى، كتاب البلدان، تحقيق دى جويه، ط. ليدن

١٩٦٧م، ص ٣٢٨-٣٢٩؛ الاصطخرى، مسالك الممالك، تحقيق دى جويه، ط. ليدن

١٩٦٧م، ص ٥٨؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، تحقيق رينو ودى سلان، ط. باريس ١٨٣٨م، ص ٢٩٢-٢٩٣؛ شيخ الرهوة الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، تحقيق مهران، ط. بطرسبرج ١٨٣٥م، ص ٢٠١؛ كرد على، خطط الشام، ح ٦، ط. دمشق ١٩٨٣م، ص ٢١٢-٢١٩؛ أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص ٦١-٦٢؛ فضل الله فارس أبي حلقة، مختصر في الجغرافية، ط. بيروت ١٨٩٠م، ص ١٥١.

(٧١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ١٦.

(٧٢) من أمثلة ذلك؛ دعم الموارنة في لبنان للوجود الصليبي، حيث عملوا كأدلاء ومرشدين، وكذلك كأطباء وفراجم. واشتركوا في بعض المعارك الحربية لدعم الصليبيين ضد المسلمين عن ذلك بالتفصيل أنظر :

William of Tyre, Vol. II, p.458; Salibi, The Maronites of Lebanon under the Frankish and Manlula rule R.E.A., T. IV, Année 1957, p. 289; Mayer, The Crusades, Trans. by Gillingham, Oxford 1972, p. 276; Smail, The Crusaders in Syria and The Holy Land, London 1974, p. 161; Churchill, The Druzes and Maronites, London 1862, p. 18.

هنري لامنس، تسريح الأبصار في ما يحوى لبنان من الآثار، ح ٢، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص ٥٥-٥٦.

(٧٣) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٩.

وقد وقعت قلعة الخوايى في شمال غرب صافيتا وجنوب شرق قلعة المرقب، وهى جزء من قلاع الدعوة الإسماعيلية عنها أنظر :

ابن سعيد المغربى، بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق خوان خميس، نطوان ١٩٥٨م، ص ٨٦؛ أسامة زكى زيد، الصليبيون وإسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية (القرن ١٢م/ ٦هـ)، ط. الاسكندرية ١٩٨٠م، ص ٩٥.

(٧٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ١٩.

(٧٥) تسمى مصياف، أو مصياب، أو مصيات، أو مصياء، وقد وقعت فوق تل متدرج الانحدار في الشهاب الواقعة إلى الشرق من جبال النصيرية، وهى بالتالى وقعت إلى الجنوب من قلعة الرصافة وإلى الشرق كذلك من قلعة القدموس، ووصفت مصياف بأنها كانت محصنة تحصيناً بالغاً على نحو يثير العجب، وتتجسد فيها عملية استغلال المعالم الطبوغرافية، استغلالاً كاملاً، وهناك من

يقرر أنها وجدت منذ العهد البيزنطي، وفي العصر الإسلامي سيطر عليها فرع من الأسرة المرداسية. وقد حاصرها السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، وذلك في عام ٥٧١هـ/ ١١٧٦م، بسبب محاولة عناصر الاسماعيلية النزارية اغتياله، ولكن تم عقد الصلح بين الجانبين فتم رفع الحصار، وفي عام ٦١٥هـ/ ١٢٢٠م، تمت عدة إصلاحات بالقلعة وتجديدات وهذا ما تكشف عنه النقوش الأثرية التي عثر عليها بداخلها، وقد تعرضت قلعة مصياف إلى سيطرة المغول وذلك في عام ٦٥٥هـ/ ١٢٦٠م حيث أخضعوها لنفوذهم مرحلة من الزمن وقاموا بتخريبها، وكان سقوطها النهائي في قبضة المسلمين في عهد السلطان الظاهر بيبرس في عام ٦٦٠هـ/ ١٢٧٠م. عن قلعة مصياف أنظر :

ابن القلانيس، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق زميدورز، ط. بيروت ١٩٠٨م، ص ٢٧٢؛ أسامة بن منقذ، الاعتبار، تحقيق قليب حتى، ط. برنستون ١٩٣٠م، ص ١٤٨، حاشية (٢)؛ جوزيف نسيم يوسف، العدوان الصليبي على بلاد الشام، هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة، ط. بيروت ١٩٨١م، ص ٢١٩، حاشية (١)؛ مولر، القلاع أيام الحروب الصليبية، ت. محمد وليد الجلاء، ط. دمشق ١٩٨٤م، ص ٨٨-٨٩.

Van Berchem, Epigraphie des Assassins, J.A., T. IX, Annie 1897, p. 481.

بسام المسلي، فن الحرب الإسلامي أيام الحروب الصليبية، ح ٤، ط. بيروت ١٩٨٨م، ص ٥٤٧-٥٥٦.

(٧٦) وقعت القدموس إلى الشرق من قلعة المرقب فيما بين قلعتي مصياف والكهف، وقد تمكن الاسماعيلية النزارية من الاستيلاء عليها؛ من صاحبها سيف الدين ابن عسرون، عام ١١١٢-١١١٣م/ ٥٠٦هـ، واستفادوا من موقعها؛ ضمن إقليم بانياس، من أجل مهاجمة المسلمين، والصليبيين، على حد سواء، وذلك من أجل تحقيق مصالحهم العليا. عنها أنظر :

ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، ح ٢، تحقيق سامي الدهان، ط. دمشق ١٩٥٤م، ص ٥١، ص ٢٥٢؛ القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشاء، ح ٤، ط. القاهرة ١٩١٢م، ص ١٤٧؛ رنسيمن، تاريخ الحروب الصليبية، ح ٣، ت. السيد الباز العربي، ط. بيروت ١٩٠٩م، ص ٣٠٩؛ زكي نقاش، الحشاشون وأثرهم في السياسة والاجتماع، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة عام ١٩٥٠م، ص ١٣٣؛ برنارد لويس، الدعوة الاسماعيلية الجديدة، ت. سهيل زكار، ط. دمشق ١٩٧١م، ص ١٢٥؛ عبدالكريم حناملة، صلاح الدين الأيوبي وموقفه من القوى المناوئة في بلاد الشام، الدارة، السنة (١٢)، العدد (٢)، سبتمبر ١٩٨٦م، ص ١٦٢.

(٧٧) وقعت العليقة إلى الشمال من قلعة المتيقة وجنوب شرق جبلة، عنها أنظر :
القلقشندي، المصدر السابق، ح-٢، ص ١٤٧؛ إلياس ديب، العقود الدرية في تاريخ المملكة
السورية، ط. بيروت ١٨٧٤م، ص ٩٢؛ سالم، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ط.
الاسكندرية ١٩٦٦م، ص ٣١٦.

Le Strange, Palestine, p. 352.

(٧٨) وقعت المتيقة شمال قلعة الكهف إلى الغرب من قلعة القدموس عندها أنظر :
ابن بطوطة، الرحلة، ط. بيروت ١٩٦٤م، ص ٧٦، شيخ الربوة، المصدر السابق، ص ٢٠٨؛
عارف تامر، سنان وصلاح الدين، ط. بيروت ١٩٥٦م، ص ٧١.

(٧٩) وقعت قلعة الكهف جنوب قلعة المتيقة وإلى الشمال من قلعة الخوابي، عنها. أنظر :
القلقشندي، المصدر السابق، ح-٤، ص ١٤٧.

Runciman, The Crusades, Vol. II, p. 200.

(٨٠) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٩؛ عارف العارف، تاريخ القدس، ط. القاهرة ١٩٥١م، ص
٧١-٧٢؛ جوزيف نسيم يوسف، الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبي، ط.
الاسكندرية ١٩٦٦م، ص ١٦. العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، ط.
الاسكندرية ١٩٨٣م، ص ٢٦٣.

(٨١) عن ذلك أنظر :

Fetellus, Description of the Holy Land, Trans. by J.R. Macpherson, P.P.T.S., Vol. V, London 1896, p. 39; Benjamin of Tudela, Travels of Benjamin of Tudela, in wright, early Travels in Palestine, London 1848, p. 83; John of Wurzburg, p. 21; Theoderich, Theoderich's Description of the Holy places, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., Vol. V, London 1896, p. 30; Peters, Jerusalem, The Holy city in the eyes of chronicles, visitors, pilgrims and prophets From the days of Abraham to the beginnings of modern Times, Princeton 1985, p. 328.

(٨٢) الإدريسي، المصدر السابق، ص ٩.

William of Tyre, Vol. II, p. 81.

(٨٣)

إبراهيم خميس، العلاقات السياسية بين جماعة الفرسان الداوية والمسلمين في مصر والشام
(١١٩٣-١٢٩١م / ٥٨٩-٦٩٠هـ)، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة
الاسكندرية عام ١٩٨٧م، ص ٤٧.

Runciman, A History of The Crusades, Vol. II, p. 157.

William of Tyre, Vol. I, p. 81.

(٨٤)

محمد مؤنس أحمد عوض، التنظيمات الدينية الإسلامية والمسيحية في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، عام ١٩٨٤م، ص ٣٧٩. وعن هيئة الداوية بصفة عامة أنظر :

Fetellus, p. 29; John of Wurzburg, p. 2; Benjamin of Tudela, p. 83; Theoderich, p. 30; Northup, The Knights Templars in The Holy Land (1118-1187), Thesis of master of Arts, University of California, 1943; Barber, The Trial of Templars, London; Lamb, The Crusades, The Flame of Islam, London 1943, p. 269.

عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس الصليبية، ط. الاسكندرية، ١٩٥٨م، ص ١٠٦.

(٨٥) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٧.

وعن تلك القلعة التي لاتزال بقاياها قائمة في طرابلس بشمال لبنان أنظر :

Fulcher of Chartres, p. 194; William of Tyre, Vol., I, p. 454; Fedden, Crusader Castles, Beirut 1957, p. 24.

عمر عبدالسلام تدمري، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، عصر الصراع العربي، البيزنطي والحروب الصليبية، ط. بيروت ١٩٨٤م، ص ٤٠٨؛ مولر، القلاع أيام الحروب الصليبية، ت. محمد وليد الجلال، ط. دمشق ١٩٨٤م، ص ١٥؛ السيد عبدالعزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ط. الاسكندرية ١٩٦٦م، ص ٩٥؛ محمد محمد الشيخ، الإمارات العربية في بلاد الشام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادى، ط. الاسكندرية ١٩٨٠م، ص ٢٣٩؛ سعيد برجواي، الحروب الصليبية في المشرق، ط. بيروت ١٩٨٤م، ص ٢٠٣.

William of Tyre, Vol. I, p. 454. (٨٦)

(٨٧) عمر عبدالسلام تدمري، المرجع السابق، ص ٤٠٨.

(٨٨) ونسيمان، المرجع السابق، ج ٢، ص ٩٩، محمد محمد الشيخ، المرجع السابق، ص ٢٤٠؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج ١، ص ٣٦٠؛ عمر عبدالسلام تدمري، المرجع السابق، ص ٤٠٨.

(٨٩) عمر عبدالسلام تدمري، المرجع السابق، ص ٤١١.

(٩٠) الإدريسي، المصدر السابق، ص ٣.

(٩١) عن موقع قلعة عرفة أنظر :

أبو الفداء، تقويم البلدان، تحقيق رينو ودي سلان، ط. باريس ١٨٤٨م، ص ٢٥٤-٢٥٥؛ ابن

شداد الحلبي، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ح-٢، تحقيق سامي الدهان، ح-١، دمشق ١٩٥٤م، ص ٩٣؛ ابن شاهين، المصدر السابق، ص ٤٨؛ شيخ الربوة، المصدر السابق، ص ٢٠٨؛ إلياس ديب، المرجع السابق، ص ٩٤؛ فيليب، دي طرازي، أصدق ما كان من تاريخ لبنان، ح-١، ط. بيروت ب-٢، ص ٢٥.

Nantet, Histoire de Leban, Paris 1963, p. 61; Stevenson, The Crusaders, p. 31;

Anonymous, The deeds of The Franks and other pilgrims, Trans. by Hill, (٩٢) New York, 1962, p. 83.

سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ح-٢، ط. القاهرة، ١٩٦٦م، ص ١٢٨٦.

Anonymous, The deeds of The Franks, p. 83. (٩٣)

(٩٤) ابن القلاسي، المصدر السابق، ص ١٦٢؛ ابن ظافر الأزدی، أخبار الدول المنقطعة، تحقيق أندريه فريه، ط. القاهرة، ١٩٩٠م، ص ٨٧؛ الذهبي، دول الإسلام، ح-٢، تحقيق فهم شلتوت، ومحمد مصطفى، ط. القاهرة ١٩٧٠م، ص ٢٠؛ العبر في خبر من غير، ح-٤، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط. الكويت ١٩٦٣م، ص ١٠.

Runciman, The Crusades, Vol. II, p. 389. (٩٥)

(٩٦) عاشور، الحركة الصليبية، ح-٢، ص ٧١٤.

(٩٧) عن زلزال عام ١١٧٠م / ٥٦٥هـ أنظر :

الأصفهاني، البستان الجامع لجميع تواريخ الزمان، تحقيق كلوركا هن B.E.O., T. 1957-1958, VII-VIII, Année, ص ١٣٨؛ الفتح البنداري، سنا البرق الشامي، تحقيق فتحية النبراوي، ط. القاهرة ١٩٧٩م، ص ٤٧؛ ابن الأثير، الكامل، ح-١١، ط. بيروت ب-٢، ص ١٤٣؛ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبدالقادر طليمات، ط. القاهرة ١٩٦٣م، ص ١٤٥؛ ابن العديم، المصدر السابق، ح-٢، ص ٣٣٠؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ح-٩، ط. حيدر آباد الدكن ١٣٥٩هـ، ص ٢٣٠؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ح-٥، ط. بيروت ١٩٦٠م، ص ٦٦؛ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ق ١/ ح-٨، ط. حيدر آباد الدكن ١٩٥١م، ص ٢٧٩-٢٨٠؛ المقرئ، إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ح-١، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، ط. القاهرة ١٩٧٣م، ص ٣١٨؛ الذهبي، دول الإسلام، ح-٢، تحقيق شلتوت وزميله، ط. القاهرة ١٩٧٠م،

ص ٧٨؛ ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، م (٤)، حـ (١)، تحقيق الشماع، ط. البرة ١٩٧٦ م
ص ٩٤-٩٥؛ ابن قاضي شعبة، المصدر السابق، ص ١٨٩.

William of Tyre, Vol. II, p. 370; Michael The Syrian, Chronicle, T. III, ed. by chabot, Paris 1910, p. 339; Ruhricht, Geschichte des Kenigreichs Jerusalem, Innsbruch 1892, p. 348; Stevenson, The Crusaders, p. 348.

شاكر أبو بدر، الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ط. بيروت، ب-ت، ص ١٨، سالم، دراسة
في تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، ط. بيروت ١٩٧٠ م ص ١١٢؛ عماد الدين خليل،
نور الدين محمود وتجارته الإسلامية، ط. دمشق ١٩٨٧ م ص ١٨؛ أشتور، التاريخ الاقتصادي
والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ت. عبدالهادي أبو عجلة، ط. دمشق ١٩٨٥ م
ص ٢٨١؛ كردعلى، غوطة دمشق، ط. القاهرة ١٩٥٠ م، ص ٢١٥؛ عبدالله يوسف الغنيم،
أسباب الزلازل وأحداثها في التراث العربي، مجلة المجمع العلمي العراقي، م (٣٢)، حـ (٢)،
ط. بغداد ١٩٨٤ م، ص ٢٣٥-٢٣٦.

(٩٨) عن زلزال عام ١٢٠١ م / ٥٩٧ هـ أنظر :

ابن الأثير، الكامل، حـ ٩، ط. بيروت ب-ت، ص ٢٥٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية،
حـ ١٣، ط. القاهرة ب-ت، ص ٢٧-٢٨؛ ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري تلخيص
الكشف والبيان في حوادث الزمان، تحقيق أبو العيد دودر، ط. دمشق ١٩٨١ م، ص ٢٥.

(٩٩) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص ٢٥١؛ ابن شداد الحلبي، المصدر السابق، حـ ٢، ص ٩٥؛ ابن
بهدار، فتوح النصر، حـ ١، ورقة (١٠٩).

(١٠٠) الإدريسي، أنس المهج، ورقة (١٣٤).

(١٠١) عن موقع بغراس أنظر :

أبو الفداء، المصدر السابق، ص ٢٥٨-٢٥٩؛ ابن عبدالحق البغدادي، مراض الاطلاع على
أسماء الأمكنة والبقاع، حـ ١، تحقيق البجاوي، ط. القاهرة ١٩٥٤ م، ص ٢٠٩؛ العمري،
التعريف بالمصطلح الشريف، ط. القاهرة ب-ت، ص ١٩٥؛ الخالدي، المقصد الرفيع المنشأ، ورقة
(٩٢)؛ مرمرجي الدومنيكي، المرجع السابق، ص ١٧٢.

Le Strange, palestine, p. 407; Runciman, Vol. II, p. 47.

(١٠٢) عاشور، الحركة الصليبية، حـ ٢، ط. القاهرة ١٩٦٦ م، ص ٦٩٣؛ حامد غنيم، الجبهة
الإسلامية في عصر الحروب الصليبية، حـ ٢، ط. القاهرة ١٩٧٢ م، ص ٦١.

(١٠٣) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، ط. القاهرة ١٩٦٤م، ص ٩٣ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ح-٣، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، ط. القاهرة ١٩٤٨م، ص ١٩٢؛ ابن العديم، بغية الطلب، ح-٢، ورقة (٢٢٩)؛ الحريري، الإعلام والتبيين، ورقة (١٥)؛ الذهبي، دول الإسلام، ح-٢، ص ٩٦، محيى الدين الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ح-١، تحقيق محمد بهر العلوم، ط. النجف، ص ٣٥٤.

(١٠٤) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٩٣.

(١٠٥) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص ٣٢٦؛ عاشور، المرجع السابق، ح-٢، ص ١٠٢٦.

وبلاحظ أن ابن بهادر اعتقد أن ذلك تم في عهد الظاهر غازي صاحب حلب، أنظر المخطوط السابق، ح-١، ورقة (١١٣).

والواقع أن قوله ينطوى على مغالطة واضحة؛ ذلك أن الظاهر غازي قد توفي عام ٦١٣هـ / ١٢١٦م (أنظر، ابن واصل، مفرج الكروب، ح-٣، ص ٢٤١)، والخليفة ابنه الملك العزيز قام بذلك الدور.

(١٠٦) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص ٣٢٥؛ الذهبي، دول الإسلام، ح-٢، ص ١٧٠؛ المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، ح-١، ق ٢، تحقيق مصطفى زيادة، ط. القاهرة، ص ٥٧١؛ ابن بهادر، المصدر السابق، ح-١، ورقة (١١٣)؛ عاشور المرجع السابق، ح-٢، ص ١١٥٠؛ الظاهر بيبرس، سلسلة أعلام العرب، ط. القاهرة ١٩٦٣م، ص ٧٣؛ الماليك داوية الإسلام، مجلة العربى، العدد (٢٧٧) لعام ١٩٨١م، ص ٥٧.

(١٠٧) محمود الحويرى، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين ١٢، ١٣م، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص ١٨٥-١٨٦. وعن مشكلة نقص العنصر البشرى بصفة عامة أنظر :

Praver, The Settlement of the latins in Jerusalem, Speculum, Vol. XXVII, pp. 449-503; Russell, The population of the crusader states, in setton, A History of the Crusades, Vol. V, Madison 1985, pp. 295-314; Fedden, Crusader Castles, p. 13

سميد عاشور، الحركة الصليبية، ح-١، ط. القاهرة ١٩٧٨م، ص ٣٢٢.

٢ - ياقوت الحموى

(٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)

يتعرض هذا الفصل بالدراسة؛ لأحد كبار الجغرافيين المسلمين، ونعنى به ياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)^(١). وقد قدم تناولاً هاماً لبلاد الشام وأوضاعها فى عصر الحروب الصليبية، وذلك من خلال قدرة على الملاحظة وبراعة الوصف مع ثراء التفاصيل المهمة، الأمر الذى سيتضح من خلال السطور التالية.

وياقوت الحموى؛ هو أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله^(٢)، ولد فى عام ٥٧٤ أو ٥٧٥هـ / ١١٧٨ أو ١١٧٩م^(٣)، وهو رومى الجنس والمولد^(٤)، وقد تم أسره فى إحدى المعارك الحربية وابتاعه أحد التجار ببغداد يسمى عسكر بن أبى نصر إبراهيم الحموى، وجعله فى الكتاب من أجل أن ينتفع به فى تجارته^(٥).

وحدثت خلافات بين ياقوت، ومولاه عسكر، على نحو أدى إلى عتقه عام ٥٩٦هـ / ١١٩٩م، وقد قام بإشراكه فى تجارته، وفى هذا المجال تم إرساله إلى أقاليم متعددة ومناطق نائية من أجل مباشرة النشاط التجارى، ثم فيما بعد؛ اشتغل بنسخ الكتب، واحترف الوراقة^(٦) وقد أفاده ذلك عندما اتجه إلى تأليف مؤلفاته.

وتجدر الإشارة إلى أن ياقوت فى مرحلة من مراحل حياته قد تأثر بأفكار الخوارج، وتعصب على الإمام على كرم الله وجهه، وعندما اتجه إلى دمشق عام ٦١٣هـ / ١٢١٦م، تناقش مع بعض من يتعصب للإمام فثار الناس عليه حتى كادوا يفتكون به، وعلى أثر ذلك غادر المدينة^(٧).

وقد ساج ياقوت فى العديد من الأقاليم والأصقاع؛ فطاف فى آسيا الصغرى، وبلاد الشام، ومصر، وبلاد المغرب، وإيران، وبلاد ما وراء النهر^(٨)، واستقر فى خوارزم (خجوه حالياً)، وعلى أثر الغزو المغولى لها قام بمغادرتها واتجه إلى بلاد الشام. واستقر فى حلب^(٩) حتى مات بها عام ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م^(١٠)، وهو فى ذلك يتشابه مع أحد الرحالة المسلمين السابقين، ونعنى به السائح الهروى (ت ٦١١هـ / ١٢١٤م)، الذى توفى فى تلك المدينة؛ التى عدت من حواضر شمال الشام الهامة والتى حرص الجغرافيون والرحالة المسلمون فى ذلك العصر على القدوم إليها وتناولها فى مؤلفاتهم.

وقد ألف ياقوت الحموى عدداً وافراً من المؤلفات على نحو يعكس علو مكانته العلمية، ومنها، معجم البلدان، ومعجم الأدياء، ومعجم الشعراء، والمشارك وضعاً والمفترق صعباً، والمبتدأ والمآل فى التاريخ، وكتاب الدول، ومجموع كلام أبى على الفارسى، والمقتضب فى النسب يذكر فيه أنساب العرب^(١١).

ويرى أحد الباحثين أن «الصفة الغالبة على القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى هى انعدام الخلق فى الفكر العربى، واهتمام العلماء والأدياء بوضع موسوعات، ومعاجم، تتناول جهد الأسبقين فى مختلف الموضوعات والبحوث، ولعل أبرز من يمثل هذا الاتجاه فى هذا الصنف هو ياقوت الحموى»^(١٢).

والواقع أن مثل هذا التصور يحوى مغالطة واضحة، وسوف توضح الصفحات التالية مدى قدرة ذلك العلم من أعلام الحضارة الإسلامية على التحليل، والنقد، والعرض الذكى لجغرافية العالم المعمور فى ذلك العصر، ومن الإنصاف أن نقرر أن ياقوت الحموى ما هو إلا امتداد لعبقريّة القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر ميلادى الذى ظهرت فيه كوكبة من العلماء والمفكرين من كافة المجالات والعلوم، والفنون، وينصفه البعض عندما يقررون أنه يتميز عن كثير من المؤلفين من أبناء عصره بملكة النقد^(١٣).

وتجدر الإشارة إلى أن ياقوت لم يقدّر بتدوين أخبار تنقلاته، غير أنه ما شاهده في أسفاره، وما قام بجمعه من خزائن المشرق الإسلامي، والتي نهل منها، قد أفاده في تأليف مؤلفاته الجغرافية التي ألفها^(١٤).

وأهم المؤلفات الجغرافية التي ألفها ياقوت الحموي هي معجم البلدان^(١٥)، والمشتراك وضعاً والمفترق صفحاً^(١٦)، وتجدر الإشارة إلى أن الكتاب الأول، قد رتبته أبجدياً، وأورد فيه وصفاً حيويًا، وهاماً لكل ما أمكن أن يصل إليه علمه عن المدن، والمواضع من ديار الإسلام من الأندلس غرباً إلى بلاد ما وراء النهر، والهند شرقاً، كما كانت عليه تلك المناطق في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي^(١٧).

ولكى ندرك عظم شأن هذا الكتاب، نعرف أنه وقع في ثمانى مجلدات، وبلغت أعداد صفحاته (٣٨٩٤) صفحة، أما الشواهد الشعرية فيه فإنها بلغت ٥٠٠٠ بيتاً من الشعر^(١٨). ويقيمه البعض على أنه اشتمل على الدين، والحضارة، والإثنولوجيا Ethnology أى علم الأعراق والفصائل البشرية، والأدب الشعبي Folklore، والأدب الفنى، وذلك فى القرون الستة الأولى من الهجرة^(١٩)، وهكذا يمكن أن نتفق مع ما قدره البعض، من أن معجم البلدان، يعد منجماً غنياً للمعرفة، ولا يوجد له نظير فى سائر اللغات^(٢٠).

ولا نزاع فى أن هذا الكتاب يعد وبحق ثمرة جهد ضخم، قام به المؤلف فى الارتحال، وكذلك المطالعة، ثم تسجيل كل ما وصل إلى علمه عن المناطق التى أشار إليها فى معرض كتابه، وهكذا، فلا عجب إذا ما عرفنا أنه قد بدأ فى تأليفه عام ٦١٢هـ / ١٢١٥م، وأنه عام ٦٢١هـ / ١٢٢٤م^(٢١) أى أن قرابة عشر سنوات استغرقها فى إعداد تلك الموسوعة الجغرافية الهامة، ونعنى بها «معجم البلدان».

وهناك ناحية هامة يمكن أن نقررها بشأن ياقوت الحموي، ألا وهى أن ثقافته كانت ثقافة شخصية أى أنه لم يتلق من خلال الشيوخ، ولكن عن طريق الجهد

الشخصي، وقد أفاد من النسخ والمتاجرة بالكتب في أمهات المدن الإسلامية، في كافة أنحاء العالم الإسلامي، ومن هنا كانت ثقافته الواسعة التي ضمنها كتابه معجم البلدان على نحو خاص بالإضافة إلى مؤلفاته الأخرى بطبيعة الحال.

وبلاحظ أن قيمة ذلك الكتاب أيضاً تتمثل في أنه يعكس - صورة ضمنية - ثراء مكتبات المشرق الإسلامي، خاصة قبل أن تدمر على أيدي جيوش المغول، ولا ننسى أن ياقوت كان شديد الاعتزاز بمكتبات مرو، وقد امتدح محتوياتها، أو أنه استعار منها مئات المجلدات لازمت داره^(٢٢)، دون أن تتأثر - على ما يبدو - باستعارة ذلك العدد الضخم من المؤلفات، ومن جانب شخص واحد، فقط. على نحو عكس ثراءها بأضعاف ذلك العدد من الكتب.

أما الكتاب الثالث، فهو المشترك وضعاً والمفترق صعباً؛ وفيه يحدد ياقوت الأسماء الجغرافية الواحدة الموجودة في أكثر من إقليم، وقد عكس ذلك مدى براعته، وتفوقه في هذا المجال، في عصر كان التوصل فيه إلى مثل تلك المعلومات الجغرافية لا يتم إلا بالارتحال، والانتقال بالدواب، ومجالسة العلماء مع ملاحظة تناثرهم في مناطق متباعدة ومتباعدة مع إسراع رفعة الدولة الإسلامية حينذاك.

أما المصادر التي استقى منها ياقوت مادة مؤلفاته الجغرافية، فهي مؤلفات الأقدمين الجغرافية، وكذلك مؤلفات المسلمين ولاسيما كتب الرحلات، وأيضاً دواوين الشعراء، هذا بالإضافة ما شاهده هو نفسه، وما سمعه من التجار، والعلماء، وأهل البلاد التي ساج فيها^(٢٣).

وفيما يتعلق بمصادره عن بلاد الشام على نحو خاص، نجد أنه أفاد من مؤلفات الجغرافيين والرحالة المسلمين السابقين الذين زاروا المناطق الشامية، مثل السمعاني^(٢٤) (ت ٥٦٢هـ / ١١٦٧م) والسائح الهروي^(٢٥) (ت ٦١١هـ / ١٢١٥م) وغيرهما، بالإضافة إلى عنصر المشاهدة الشخصية؛ وهي هامة للغاية بالطبع. إذ أن تناول المدن التي

تعرض لها تبين لنا كيف أنه احتك بها، وكون رأيه الشخصى عنها من خلال اتصاله بها مكاناً وسكاناً. وعلى مدى زمنى ليس بالقصير على نحو ممكن من تكوين رؤية واقعية للمواقع التى أورد ذكرها وكان قد اتصل بها من قبل.

ويلاحظ أن ياقوت قد تعرض للعديد من الجوانب المتصلة بأوضاع بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، فمن ذلك تناوله لمدن الساحل الشامى، ذات الأهمية الخاصة، وكذلك الوضع السكنى للمدن الشامية، والجوانب الاقتصادية سواء مصادر المياه، أو الأنشطة الزراعية والصناعية، والتجارية، ثم العمائر الحربية والمزارات الدينية، ولا ريب فى أن تعدد كافة تلك العناصر التى نعرض لها ذلك الجغرافى، تعكس مدى اهتمامه ببلاد الشام، وعنايته بها من خلال ما ألف، وإدراكه لضرورة أن يتعرض لها بذلك القدر الوافر من التفاصيل الهامة.

أما إذا ما نظرنا إلى تناول ياقوت الحموى للساحل الشامى، فإننا نجده يعطيه أهمية خاصة فى معجم البلدان، ويتضح ذلك بجلاء من تناول العديد من المدن الساحلية الشامية، وبصفة عامة نجده يحرص الحرص أجمعه على أن يتعرض لتاريخ المدن الهامة منه، من أجل أن يمزج بين التاريخ والجغرافيا؛ تدعيماً لوجودها، وتأكيداً لأهميتها، وإثباتاً - على ما يبدو - للعلاقة الوطيدة بين علمى التاريخ والجغرافيا الذى يكمل كل منهما الآخر.

ونجد المثال الجلى الدال على ذلك؛ فى صورة مدينة عكا؛ إذ أنه قدم لنا تناولاً تاريخياً لسيطرة الصليبيين عليها، وذلك فى عام ٤٩٧هـ / ١١٠١م، ثم استمرار السيطرة الصليبية عليها حتى استطاع المسلمون فى عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي انتزاعها، وذلك فى عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م^(٢٦) فى أعقاب الانتصار على الصليبيين فى ذلك العام، ثم يفرض لجهود الصليبيين حيالها خلال الحملة الصليبية الثالثة، وإخضاعهم لها مرة ثانية بعد معارك طاحنة.

وفى مجال مدينة عكا، نجد أن ياقوتاً لا يخفى إعجابه بها إذ أنه يقرر أنها «من أحسن بلاد الساحل فى أيامنا هذه وأعمرها»^(٢٧)، وتدل عبارته على أن العمران الذى كان قد شاهده من قبل الإدريسي (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٢م)، من المرجح أنه قد ازداد بصورة واضحة فيما بعد، حتى أن ياقوت الحموى عندما زار عكا، وجدها أكثر عمراناً وحسناً، مع ملاحظة أنه لم يجعلها أحسن بلاد الساحل قاطبة، بل أنها من أحسن البلاد. وفى هذا دلالة وضاحة على أن هناك مدناً أخرى إلى جانب عكا، حققت درجة كبيرة من العمران والازدهار، على نحو جعل ياقوتاً يذكر الأمر بمثل هذه الصورة، مع ملاحظة أن عكا فى ذلك الوقت كانت خاضعة للسيادة الصليبية، وأنها مثلت القلب التجارى للكيان الصليبي وذلك إلى جانب بيت المقدس التى مثلت القلب الدينى أو الروحى، مع ملاحظة أن المدينة الأخيرة كانت لاتزال خاضعة للسيادة الإسلامية حتى زمن وفاة ياقوت.

أما مدينة عسقلان؛ فإنه حدد موقعها على اعتبار أنها على ساحل البحر، بين غزة وبين جرير، وتوصف بأنها عروس الشام مثلما يطلق نفس اللقب على دمشق حاضرة الشام الكبرى. وقد قام لنا عرضاً تاريخياً لسيطرة الصليبيين عليها فى عام ٥٤٨هـ / ١١٥٣م إلى أن استردها المسلمون من قبضتهم عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م بعد جهد^(٢٨)، ولكن فيما بعد ضربها صلاح الدين الأيوبي؛ وذلك فى عام ٥٨٧هـ / ١١٩٢م، ومن الواضح أن ذلك جاء تنفيذاً لمخطط عسكري محدد حتى لا تقع فى قبضة الصليبيين ويتقروا بها.

ونجد ياقوت يتناول مدينة صور اللبنانية فيشير إلى حصانتها، وأنها داخلة فى البحر مثل الكف، وأنه يحيط بها من جميع جوانبها إلا أحد الأقسام، وقد أشار إلى أنه لا يمكن إخضاعها إلا بالخدلان^(٢٩)، ثم يقدم لنا نبذة عن تاريخها وسقوطها فى قبضة الصليبيين عام ٥١٥هـ / ١١٢٦م، وأشار إلى أنها لاتزال فى قبضتهم^(٣٠). ونفس الأمر

بالنسبة لأرسوف التي وقعت على ساحل البحر بين قيسارية ويافا وتناول خضوعها لسيطرة الصليبيين عام ٤٩٤هـ / ١١٠٠م، وهي في زمانه لم تزل في قبضتهم^(٣١) كجزء من إحكام سيطرتهم الحربية على الساحل الشامى ذى الموقع الاستراتيجى. أما بيروت، فهي عنده من أعمال دمشق، ويتحدث عن خضوعها للصليبيين عام ٥٠٣هـ / ١١٠٩م، إلى أن استردها المسلمون فى عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م^(٣٢). أما فيما يتعلق بانطربوس^(٣٣) وبلنياس^(٣٤)، نجد يكتفى بتحديد موقعهما الجغرافى دون أن يقدم لنا جانباً عن تاريخهما، وسيطرة الصليبيين عليهما، على الرغم من أهميتهما بوصفهما منافذ بحرية للمدن البرية الداخلية الحبيسة.

ونخلص من العرض السابق، أن ياقوت الحموى عندما كان يدرك أهمية مدينة معينة، كان يمزج التاريخ والجغرافيا معاً خاصة من خلال تناوله للصراع الإسلامى/ الصليبي بشأنها، والعكس بالنسبة لبعض المدن الأخرى التى لم ير فيها ذات الأهمية.

ومع ذلك فإن تناوله للساحل الشامى لا نجد فيه الأبعاد الاقتصادية لاسيما التجارية، وهى أساسية للغاية عند تناول ذلك الامتداد الطولى الفريد استراتيجياً واقتصادياً بالنسبة لاقتصاديات بلاد الشام، وعلاقات الوجود الصليبي بالغرب الأوروبى حينذاك وعلاقته بالكيان الإسلامى ذاته.

ومن جهة أخرى، نجد أن ياقوت الحموى يقدم لنا إشارات هامة عن الوضع الديموغرافى أو السكانى لبعض المدن الشامية فى عصره، من حيث كثافتها الكبيرة وازدحامها بالعنصر البشرى، أو عكس ذلك، ونجد مثلاً دالاً على الحالة الأولى من خلال تناوله لدمشق حيث أوضح أن كثرة أهلها وبالتالي فإن هناك «أزمة» فى الإسكان بها، فيشير صراحة إلى أن «المساكن بها عزيزة»^(٣٥) والسبب فى ذلك من وجهة نظره هو «كثرة أهلها، والمساكنين بها، وضيق رفعتها»^(٣٦)، ومن المنطقى أن نلاحظ أن إتساع عمران دمشق، وتزايد أعداد سكانها ارتبطا معاً ارتباطاً وثيقاً، وينبغى ألا نتصور أن تعبيره

بشأن ضيق رقعتها، يعنى أنها كانت مدينة صغيرة إذ أن أوصاف الجغرافيين المسلمين الآخرين على امتداد القرنين ٦، ٧هـ / ١٢، ١٣م؛ تنفى ذلك التصور البتة، بيد أن المقصود بمقولته أن التزايد السكاني بها استمر بصورة تفوق المعروض من مساكن للأهالي، ومن ثم فإن المساكن بها عزيزة على حد قوله.

وكنموذج للحالة الثانية نذكر مدينة على الساحل ونعنى بها قيسارية، إذ أن ياقوتا يشير إلى أنها كانت فى السابق كثيرة الخير والأهل، ولكنها فى وقته ليست كذلك^(٣٧)، وهذا عني أن بعض المدن أحياناً اضطربت أوضاعها على نحو انعكس على بنيتها السكانية بصورة متدهورة.

وهناك ناحية هامة أخرى يورد ذكرها ياقوت الحموى خاصة بالجانب العمراني، فمن الملاحظ أنه لا يوضح العمران بالنسبة لداخل المدن الشامية الكبرى مثل دمشق، بل إنه يتعرض للعمران الريفى، واتساع نطاقه حول بعض المدن الأخرى.

ومن أمثلة ذلك؛ أنه يقرر أن هناك فى حلب، ثمانمائة، ونيّف، وعشرون قرية، ملك لأهلها، ونحو مائتين ونيّف قرية مناصفة بين الرعية والسلطان^(٣٨)، والأمر المؤكد أن ذلك التحديد الدقيق الذى قدمه ياقوت فى أعداد القرى، والتي بلغ عددها نحو ألف قرية، جاورت وأحاطت حلب، يدل على دقته من ناحية، ويدل أيضاً على النمو السكاني على المستوى الريفى فى بلاد الشام فى ذلك العصر. وإشارته فى هذا المجال تعكس تشابهها مع رواية متماثلة قدمها الإدريسي عن الضياع الموجودة فى غوطة دمشق، على نحو يفيد فى تصور الامتداد الحضارى والعمرانى لحواضر الشام الكبرى مع ملاحظة الفاصل الزمنى بين وقت قيام الإدريسي بزيارته إلى هناك وكذلك الأمر بالنسبة لياقوت.

ولا نزاع فى أن ذلك الجغرافى، وجد من الضرورة بمكان إيراد مثل تلك الأرقام؛ من أجل تأكيد ثراء تلك المدينة، ومن خلال موقعها الهام على المستوى التجارى لا نستبعد صحة تلك الأرقام، وحيث أنه استقر فى حلب وعاش فيها عدة سنوات فى

آخريات حياته، فمن ثم له مثل تلك المعلومات الدقيقة بشأنها على نحو دعم روايته في هذا الصدد.

وهكذا، يمكن القول إن ذلك الجغرافى، كان شاهداً على مدى إتساع حلب، وزيادة عمرانها الحضري في ذلك العصر شأنها في ذلك شأن باقى حواضر الشام الكبرى التى سارت ذات المسيرة العمرانية على ما هو متوقع وإن كان بنسب متفاوتة.

ويضاف إلى ما سبق، أن ياقوت الحموى كانت له رؤيته الاقتصادية من خلال تناوله لمصادر الثروة المائية والنشاط الاقتصادى، ونجد أن ذلك الجغرافى، قد أعطى اهتمامه لمصادر المياه في بلاد الشام، سواء الأنهار، أو الأمطار، أو العيون، والينابيع، وفي هذا المجال يجده يذكر أن دمشق بها مياه الأنهار وافرة، ونجده يشير إلى نهر بردى ومخرجه من قرية يقال لها فتوة من كورة الزبدانى، وتبعد خمسة فراسخ عن دمشق، وقد أعجب ياقوت بجريان الماء في قنوات دمشق، وفي ذلك يقرر أنه ندر أن يمر المرء بحائط إلا ويجد الماء يخرج منه في أنبوب إلى حوض من أحواض الشرب، ويسقى الوارد والصادر^(٣٩).

أما في حلب، فهناك نهر قويق^(٤٠)، أضف إلى ذلك، نهر العاصى، ويجعله نهر حماة وحمص، ويوضح أن له أسماء متعددة، فهو يعرف بالميماس، أما قرب أنطاكية فاسمه الأرند، أما اسم العاصى فسبب ذلك - فى تقديره - أن أكثر الأنهار تتجه نحو الجنوب، أما ذلك النهر، فيتجه نحو الشمال^(٤١)، وإن كان من المعروف أن الجغرافيين المسلمين قد أطلقوا ذلك الاسم عليه لأنه يعصى أمر المسلمين، ويدخل ديار الكفار، أما طرسوس، فعندها نجد نهر البردان.

وبالإضافة إلى ذلك، هناك بحيرة قدس، وهى بين حمص وجبل لبنان، وتنصب إليها مياه تلك الجبال، ثم تخرج منها لكى تصبح نهراً كبيراً ألا وهو نهر العاصى السابق الذكر^(٤٢)، كما أن هناك بحيرة طبرية وهى تحيطها الجبال، وتنصب فيها فضلات عدة أنهار كثيرة، تجى من ناحية بانياس، والساحل، والأردن. وقد قرر ياقوت أنه رآها مرات

عديدة. ولا أدل على ذلك من أنه قرر أن ماءها عذب صالح للشرب بيد أنه ليس بصادق الحلاوة ثقيل^(٤٣). ومن ناحية أخرى وصف سمكها وأوضح أن مذاقه لا يعجب إلا أهل طبرية، وفي هذا قدرة كبيرة على تحسين مظاهر المكان الذى يمر به الجغرافى بحيث يجعله عى مرأى بصر القارئ، وتوضيح تباين المشاعر النفسية حيال الأماكن باختلافها.

ويضاف إلى الأنهار، والبحيرات، مياه الأمطار، ومن أمثلة المناطق التى تعتمد على مياه الأمطار يذكر معرة النعمان، وكذلك مدينة بيت المقدس، وفي المدينة الأخيرة يقرر أن أهلها يعتمدون فى شربهم على مياه الأمطار^(٤٤)، كما أن بها ثلاث برك عظيمة، هى بركة بنى إسرائيل، وبركة سليمان عليه السلام، وبركة عياض، وعلى تلك البرك توجد حمامات أهلها^(٤٥)، ونفس الأمر يتكرر فى مدينة أخرى، ألا وهى معرة النعمان التى تعتمد أيضاً على الأمطار^(٤٦) فى شرب أهلها وكذلك فى رى مزرعاتها.

ومن جهة أخرى، قدم ياقوت الحموى مادة علمية هامة عن النشاط الاقتصادى فى المدن الشامية الكبرى، لاسيما تلك الخاضعة للسيادة الإسلامية، ومن الجلى البين أن عمل ذلك الجغرافى فى المجال التجارى قد أفاده بصورة واضحة فى اهتمامه الشخصى بذلك النشاط فى المدن الشامية المختلفة من خلال خبرته العريضة التى تكونت على مدى عدة أعوام عندما كان ياقوت الحموى يعمل فى تجارة مولاة عسكر. وهذه الناحية - بصورة خاصة - تميز ياقوت الحموى عن غيره من الجغرافيين المسلمين الذين وفدوا إلى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، إذ لا أعلم أن أحداً منهم عمل فى التجارة قبل تصديه للتأليف فى المجال الجغرافى مثله. وهو أمر نجده لدى أحد جغرافيين القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى من المسلمين ونعنى به الجغرافى ابن حوقل النصيبى (ق ٤هـ / ١٠م) مؤلف كتاب صورة الأرض الذى وصف بأنه كان تاجراً هو الآخر بما انعكس على كتاباته الجغرافية ذاتها.

والجدير بالذكر، أن ياقوت الحموى على حين اهتم بإبراز النشاط التجارى للمدن الإسلامية، فإنه أغفل ذلك فيما يتصل بالمدن الخاضعة لسيطرة الصليبيين، على نحو يدعونا إلى افتراض التصور بأنه على حين دخل المدن الأولى وعاش فيها مدة زمنية كافية، فإنه على ما يبدو لم يدخل المدن الخاضعة لسيطرة القوى السياسية الصليبية يمثل تلك الصورة، وإن مر بها فإنه لم يقيم بها بنفس الدرجة التى وجدناها له فى المدن الإسلامية.

مهما يكن من أمر، ففى المجال الاقتصادى بصفة عامة، نجد يشير إلى الناحية الزراعية، وقد أوضح - على سبيل المثال - أن مدينة حلب عرفت زراعة عدد من المحاصيل الزراعية مثل القطن، والسمن، والبطيخ، والخيار، والدخن، والكروم، والذرة، والمشمش، والتين، والتفاح، وذلك اعتماداً على مياه الأمطار^(٤٧). ويقدم رؤيته النقدية للأمر بعقلية التاجر الذكى، عندما يقرر أن الإنتاج الزراعى بها من تلك المحاصيل يتفوق ما ينتج اعتماداً على المياه التى تأتى من مصادر أخرى غير مياه الأمطار^(٤٨).

أما على المستوى التجارى، فنجده يتبع الأسواق التى فى العديد من المدن الشامية، ومن أمثلة ذلك إشارته إلى أن أسواق حماة، وخصبة الأسعار متسعة فى رقعتها. ويظهر السور المحيط بحماة حاضر متسع للغاية فيه أسواق عديدة^(٤٩)، كما ذكر وجود أسواق حسنة فى كفر سوت من الأعمال الحلبية بالغرب من منطقة تسمى يهسنا^(٥٠)، أما بيت المقدس فيرى أن أسواقها كثيرة^(٥١)، دون أن يذكر صفة أخرى مميزة لها. مع ملاحظة أن وضعها كمدينة مقدسة للأديان الثلاثة أفاد دورها التجارى، كذلك ذكر سوقاً يعقد بصفة سنوية، وهو السوق الذى يعقد عند جبل الطور، الذى يطل على طبرية، وإن لم يحدد إن كان ذلك السوق شهرياً أو موسميّاً.

زد على ذلك، أنه قدم إشارات هامة عن حجم التعامل النقدى فى مدينة حلب بشمال الشام، مع ملاحظة أن تلك المدينة على نحو خاص احتلت موقعاً متميزاً من

الناحية الاقتصادية التجارية بحكم أنها تمثل مفتاح شمال الشام، وواقعة على خطوط التجارة التي تربط شمال الشام بشمال العراق؛ ناهيك عن قربها من الأسواق التجارية في آسيا الصغرى، بالإضافة إلى أنها واقعة على امتداد خطوط التجارة القادمة من شرق ووسط آسيا، وتصب في شرق البحر المتوسط؛ حيث يتم تصريفها إلى الأسواق التجارية الأوروبية^(٥٢).

ولا ريب في أن مدينة ذلك هو طابعها التجاري؛ من المنطقي تماماً أن تحظى باهتمام جغرافي تاجر طاف العديد من الأقطار والبلدان مثل ياقوت الحموي، وفي هذا المجال ذكر أن من عجائبها أن في قيسارية البز عشرين دكاناً للوكلاء، ويقومون بالبيع كل يوم متاعاً، مقداره عشرون ألفاً من الدنانير، والأمر مستمر على ذلك منذ عشرين عاماً، حتى زمان ياقوت^(٥٣)، ومعنى ذلك أن تعامل تلك القيسارية بمفردها يبلغ شهرياً ٦٠٠,٠٠٠ دينار أى ما يزيد على النصف مليون من الدنانير، فإذا ما لاحظنا أن هناك قياسر أخرى في تلك المدينة، لبيع سلع ومنتجات أخرى، لأدركنا حجم الشراء الضخم الذى حظيت به تجارة تلك المدينة على نحو خاص.

والجدير بالذكر أن ياقوتا اختص مدينة حلب بتلك الإشارة الهامة، الأمر الذى لم نجده بالنسبة لتناوله للمدن الشامية الأخرى، على نحو يعكس دلالات هامة. ويميز تلك المدينة على غيرها من المدن التى تناولها فى كتابه ووقعت ضمن النطاق الشامى.

من ناحية أخرى، نجد أن ذلك الجغرافى لا يكتفى بتوضيح ظاهرة معينة، بل إنه يسمى ما رصده السعى، نحو تحليل تلك الظاهرة قدر الاستطاعة، ويبحث فى أسبابها ودوافعها، ومن أمثلة ذلك تحليله الواعى لتفوق مدينة حلب على نحو خاص فى المجال التجارى، وفى هذا الصدد نجده يقرر أن أهلها لهم عناية خاصة بترسيم الأموال، وأنهم يتوارثون تلك الصفات بصورة كبيرة، فقل من أهلها من لا يكون على ذلك الحال. وكنيتجة طبيعية لذلك الوضع، نجد أن حلب تسودها ظاهرة الأسرات التجارية العريقة

المعروفة، وفي ذلك يقرر أمر «بيوتات قديمة معروفة بالثروة»^(٥٤) ويحرص الأبناء في المحافظة على تراث الآباء، ويقرر ياقوت نفسه، على الرغم من أنه مر في أقطار متعددة إلا أنه لاحظ ذلك في مدينة حلب؛ على نحو يخالف ما وجدته في سائر البلاد^(٥٥).

ويبدو أن تحليل ياقوت الواعى لتفوق تلك المدينة على نحو خاص في المجال التجارى، ساعده عليه إقامته بها ومعرفته الوثيقة بما يحدث فيها، ومن ثم قدم لنا ذلك التحليل، وهو يكشف لنا عن قدرة عميقة على الاستقصاء والتحليل، وبالتالي فليس من السهل قبول آراء بعض المتحاملين عليه الذين حاولوا النيل من جهده العلمى، وصفه بأنه مجرد جماع دون أن يتكرر، إذ أن مثل تلك الجوانب في كتابه تكشف عن عقلية محللة ناقدة لا ترصد الظواهر فقط بل تتجه نحو تحليلها. وبالتالي يمكن أن نعتبره جغرافياً ذا نزعة عقلية محللة لا ناقلة دون وعى. إذ أن نصوص معجم البلدان تنفى ذلك التصور وترفضه وتدعم نقيضه.

ويضاف إلى الجوانب السابقة، أننا نجد أن ياقوت الحموى، قد حرص على إبراز العديد من القلاع والحصون التى انتشرت فى كافة أنحاء بلاد الشام، ولعبت أدواراً تاريخية هامة فى عصر الصراع بين المسلمين والصليبيين. وفى هذا المجال تناول بالحديث قلاع الصليبيين الحصينة التى كانت بمثابة شوكة فى جنب المسلمين، كما أنه أشار إلى قلاع الأخيرين، وكان تناوله فى هذا الصدد أوفر حظاً من تناول الإدريسى.

أما بالنسبة للقلاع الصليبية، فقد تفاوتت إشارات بشأنها بين الإطالة والقصر، وذلك وفق أهمية القلعة، ودورها فى الصراع الإسلامى / الصليبي، وعندما كان يلاحظ أهمية الدور الذى لعبته إحدى القلاع كان يلجأ إلى الزاوية التاريخية من أجل أن يوضح للقراء أهمية تلك القلعة فى ذلك الحين، ويوصل دورها على المستوى التاريخى.

أما أمثلة الإشارات المفصلة بشأن القلاع، ما ذكره فيما يختص بقلعة صهيون^(٥٦)، وقد أشار إلى حصانتها وأوضح أنها من أعمال حمص، وفى طرف جبل،

وخنادقها أودية واسعة عميقة، ولا يوجد بها خندق محفور إلا من جهة واحدة، ويبلغ طوله ستون ذراعاً، ومحفور في الجبل، ولها ثلاثة أسوار، وقد سيطر عليها الصليبيون إلى أن أخضعها المسلمون بقيادة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٤هـ / ١١٨٨م، ولم تزل قلعة صهيون في أيدي الصليبيين حتى وقت كتابة ياقوت الحموي لمعجم البلدان^(٥٧).

ويلاحظ أن ما أورده ياقوت عن قلعة صهيون، هو إجمال ما نعرفه عن تلك القلعة التي لعبت دوراً هاماً في عصر الحروب الصليبية، وقد اشتملت إشاراته في هذا المجال على موقعها، وحصانتها، وتكوينها المعماري ثم تاريخها في ذلك العصر.

وتجدر الإشارة إلى أن قلعة صهيون، عرفت بعدة أسماء، فكان الصليبيون يسمونها سايون Saone^(٥٨)، أو قصر ساون^(٥٩)، وهناك تسمية لها مازالت حتى الآن موجودة وهي، قلعة صلاح الدين الأيوبي^(٦٠).

وعدت قلعة صهيون من أعمال حمص، وهي تطل على مدينة اللاذقية، حيث وقعت بينها وبين حماة^(٦١)، وتمتعت بموقع استراتيجي هام، إذ أنها كانت تستر المداخل الجنوبية الشرقية، المؤدية إلى إمارة أنطاكية الصليبية^(٦٢).

وامتازت بأنها وقعت على طرف جبل له أودية واسعة عميقة^(٦٣)، كما وصفت بأنها كانت شاهقة الارتفاع^(٦٤)، وقد حفر الصليبيون من حولها خندقاً بلغ عمقه ثلاثين متراً، وعرضه اثني عشر متراً، وأحاط بها عدة أسوار كما جهزت بأدوات القتال المختلفة^(٦٥). واحتوت على نظام السقاطات^(٦٦). وكان لكل ذلك أثره في اعتقاد الكثيرين بصعوبة اقتحامها^(٦٧).

ويلاحظ أن قلعة صهيون؛ سيطر فرسان الاستبارية عليها، وقد حاصرها المسلمون في عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، وتمكنوا من إسقاطها، وذلك في جمادى الآخر عام ٥٨٤هـ / ٢٩ يونيو ١١٨٨م^(٦٨).

أما الإشارات الموجزة التي أوردها ياقوت الحموي عن القلاع الصليبية، فمن أمثلتها قلعة بيت جبرين، والتي لا يقدم عنها سوى أنها وقعت بين بيت المقدس، وعسقلان^(٦٩).

والجدير بالذكر أن قلعة بيت جبرين كانت تسمى بيت جبرين أو بيت جبريل، وعرفت من قبل باسم الثيروبوليس Eletheropolis^(٧٠)، وعرفت عند الصليبيين خطأ باسم Beursheba^(٧١). أى بئر سبع. وقد وقعت قلعة بيت جبرين بين بيت المقدس وغزة، وكذلك بين بيت المقدس وعسقلان^(٧٢)، الأمر الذى أعطى لها موقعاً استراتيجياً هاماً.

وبلاحظ أنه فى خلال محاولة الصليبيين إسقاط مدينة عسقلان التى طالما قاومتهم، وشكلت حاميتها الفاطمية خطراً عليهم، حرص الصليبيون على تشييد عدد من القلاع الحصينة من أجل تسهيل مهمة إسقاط تلك المدينة، وكانت قلعة بيت جبرين واحدة من ثلاث قلاع تحت إقامتها خلال المرحلة من ١١٣٦ إلى ١١٤٩م^(٧٣) / ٥٣١-٥٤٤هـ، وهناك من يقرر أنه تم بناؤها عام ١١٣٤م^(٧٤) / ٥٢٩هـ. وقد عهد إلى الاستتارية بأمر قلعة بيت جبرين؛ وذلك فى عام ١١٣٦م^(٧٥) / ٥٣١هـ أى بعد تشييدها بعامين فقط، نظراً لاحتياج المملكة الصليبية للكون الحربى القوى، المقدم من جانب فرق الرهبان الفرسان مثل الاستتارية والدواوية لمواجهة الخطر الإسلامى المتنامى حينذاك.

وقد وصفت قلعة بيت جبرين من جانب المصادر العربية بالحصانة^(٧٦)، على نحو تؤكد على مدى تاريخها ودورها فى قتال المسلمين، والدفاع عن المنطقة التى وجدت فيها.

وبلاحظ أن الفاطميين عملوا على مهاجمة القلعة المذكورة وذلك فى عام ١١٥٨م / ٥٥٣هـ، إذ قامت سرية من قوات الجيش الفاطمى بمهاجمتها، وغنمت

منها، وعادت بالتغنايم^(٧٧) كما تكررت تلك الهجمات، وعاد المهاجمون بالمغانم والأسلاب^(٧٨). وقد سقطت القلعة فى عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ^(٧٩). وإن تمكن الصليبيون من استردادها فيما بعد إلى أن عادت للسيادة الإسلامية فى عهد السلطان الظاهر بيبرس عام ١٢٤٤م^(٨٠) / ٦٤٢هـ.

ومن الإشارات الأخرى التى قدمها ياقوت الحموى عن القلاع الصليبية ما ذكره بشأن قلعة عرقة، وقد تناولناها بالتفصيل فى موضع سابق من هذا البحث. وقد ذكر أنه على جبلها (أى عرقة) قلعة لها^(٨١).

كما تعرض ياقوت لقلعة صليبية هامة أخرى، ونعنى بها قلعة المرقب، وقد قرر أنها تشرف على ساحل البحر وعلى مدينة بلنياس، وعبر عن ضخمتها من خلال إشارته إلى أن كل من يراه يحدث نفسه بأنه لم يجد له نظيراً^(٨٢).

وتجدر الإشارة إلى أن قلعة المرقب كانت تسمى فى اللاتينية مركاثوم Marghatum، أما فى الحوليات الصليبية فإننا نجد الاسم كاستروم مارجاثوم Castrum Margatum^(٨٣)، وفى العربية مرقب؛ على اعتبار أن الأهلة منه ترقى وترقب^(٨٤).

وقد وقعت قلعة المرقب إلى الجنوب الشرقى من مدينة بانياس، بالغرب من ساحل البحر المتوسط، وبالتالي وصفت بأنها وقعت على ساحل جبلة^(٨٥) وبنيت القلعة المذكورة من أحجار سوداء قديمة، وفى ذلك تشابهت مع برج نور الدين محمود فى دمشق الذى بنى أيضاً من الأحجار القديمة^(٨٦) واحتوت على أسوار مزدوجة تتخللها الأبراج المستديرة الشكل^(٨٧)، وامتازت الأبراج بالارتفاع الشاهق^(٨٨)، وفى داخلها وجدت كنيسة مربعة الشكل، وبسيطة فى تكوينها المعماري^(٨٩)، وكذلك كانت هناك الحمامات وصهاريج للمياه، ومخازن للمؤن، ويقال إنها كانت تكفى حاميتها لعدة سنوات. ومساكن عديدة تكفى لحامية صليبية قدر عددها بألفين من الرجال^(٩٠).

ويلاحظ أن ذلك القسم الذى احتوى على كافة تلك المرافق الحيوية قد وقع فى الجانب الجنوبى من القلعة^(٩١).

وقد حاول السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي إسقاط المرقب بمحاصرته عام ١١٨٨م / ٥٨٣هـ. بيد أن الجيش الأيوبي عجز عن تحقيق هدفه^(٩٢)، ويعبر أحد المعاصرين فى رواية له عن الموقف مبرراً إياه بوصفه للقلعة على أنها «من حصونهم التى لا ترام، ولا يحدث أحد نفسه بتملكها نظراً لعلوها، وامتناعها»^(٩٣). كما حاول الظاهر غازى صاحب حلب إسقاط القلعة عام ١٢٠٥م / ٦٠٢هـ^(٩٤)، دون جدوى هو الآخر، وإن حصل من جراء عملياته على مغائم وفيرة.

بيد أن سقوط المرقب كان فى عهد المنصور قلاوون فى عام ١٢٨٥م / ٦٨٤هـ^(٩٥)، وهناك من يرى أن سقوطها كان فى عهد الظاهر بيبرس^(٩٦)، بيد أن ذلك لا يجد دعماً من المصادر التاريخية المعاصرة، واللاحقة، والكتابات الأكاديمية فى مجال القلاع الصليبية.

أما فيما يتصل بالقلاع الإسلامية، نجد أن ياقوت أشار إلى قلاع حلب، وحماة، والطور، أما قلعة حلب فنجدده بصفها بدقة متناهية حيث شيدت على «جبل عال مدرر صحيح التدوير»^(٩٧) والمدينة حول ذلك الجبل وللقلعة خندق كبير، ولها سبعة أبواب حددتها بمسمياتها^(٩٨)، وأشار إلى التجديدات التى أقامها الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين الأيوبي، وأنه عمل على حفر خندقها، وبناء رصيفها بالحجارة، غير أن المنية عاجلته؛ فلم يتمكن من إكمال مشروعه نحو تجديدها^(٩٩).

وهكذا، فإن إشارة ياقوت الحموى فى هذا الصدد اقتصر على الجهد الذى قام به الظاهر غازى فى أمر تجديدها؛ ولم يقدم لنا تناولاً للمراحل الأخرى التى مرت بها تلك القلعة فى المرحلة السابقة فى عهده.

والجدير بالذكر، أن قلعة حلب قد وقعت فوق مرتفع طبيعي بوسط المدينة، وكانت تتألف من برج أمامي، وبرج خلفي ضخم، ووجد خندق واسع عرضه ٢٦ متراً، تم حفره وأحاطها، ولها سفح يشرف عليه مصفح بالحجارة المنحوتة، وبصفة عامة تمتاز القلعة بمدخلها الحصينة التي تمثل أرقى ما وصل إليه فن التحصين الحربي في ذلك العصر^(١٠٠).

ومن الممكن ملاحظة أن البرجين سالفى الذكر، كان يتم الاتصال بينهما عن طريق جسر مائل فوق الخندق يقوم على ثمانى قناطر، واتصل بالبرج الأمامى عن طريق جسر خشبي متحرك^(١٠١).

وقد عمل الملك العادل نور الدين محمود على تدعيم قلعة حلب وشيد لها سوراً، ومسجداً^(١٠٢)، وفي العصر الأيوبي، نجد أن الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين الأيوبي غطى سفح الجبل الذى تقع عليه القلعة بالحجارة، وشيد بابها، وكان ذلك فى عام ٦٠٠هـ / ١٢٠٣، ١٢٠٤م، وعمل له قنطرة، أو جسراً يمتد إلى حلب، كما أنه قام ببناء برجين على الباب، وجعل للقلعة خمسة أبواب، وشيد أماكن مخصصة للجنود وكبار موظفى الدولة^(١٠٣).

وتجدر الإشارة إلى أن قلعة حلب قد تم ترميمها لاسيما فى عهد دولة سلاطين المماليك، وذلك فى خلال حكم فلاوون، وقايتباى، وقانصوه الغورى^(١٠٤).

أما قلعة حماة، فنجد أن ياقوتا لم يفصل الحديث بالنسبة لها واكتفى بأن أوضح أنه فى طرف المدينة توجد تلك القلعة، التى وصفها بالعظمة، وأنها متقنة العمارة^(١٠٥).

أما قلعة الطور؛ فقد أعطى لها أهميتها، إذ أنه ذكر أن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل، قام بينائها، وصارت قلعة حصينة، وقد أغدق عليها الأموال الوفيرة، وذلك من أجل أن يواجه الأطماع الصليبية الموجهة إلى المنطقة بعد رحيل السلطان الناصر

صلاح الدين الأيوبي، غير أن الأمور تطورت في عام ٦١٥هـ / ١٢١٩م، فعندما قدم الصليبيون إلى المنطقة، وأحس بالخطر، وخشى أن تسقط تلك القلعة في قبضتهم عمل على تخريبها (١٠٦).

وهكذا، نجد أن ياقوت الحموي قد حرص على إيراد عدد من القلاع الصليبية، والإسلامية، من أجل توضيح دورها حينذاك، بيد أن معالجته اختلفت من قلعة إلى أخرى أو بصفة عامة تعد إشاراته عن قلعة صهيون كإحدى القلاع الصليبية، وقلعة حلب كإحدى القلاع الإسلامية نموذجاً للتفاصيل الهامة التي أوردها بشأن القلاع في ذلك العصر.

ويلاحظ أنه اهتم بإيراد التحصينات الدفاعية حتى للمدن الأخرى، من أمثلة ذلك أنطاكية التي أشار إلى أن سورها به ثلاثمائة وستون برجاً (١٠٧)، ودل ذلك على اهتمامه بصفة عامة بإيراد التحصينات الدفاعية سواء لدى القلاع، أو لدى المدن الموجودة في بلاد الشام بصفة عامة. وكان من الطبيعي أن يتعرض لنموذج أنطاكية على اعتبار أن تلك المدينة على نحو خاص اشتهرت بمناعتها وحصانتها وقد تزايدت وتناثرت روايات مؤرخي الحروب الصليبية التي تعكس حصانة تلك المدينة على نحو خاص.

ومن جهة أخرى، تناول ياقوت جانباً هاماً عن بلاد الشام ونعنى به المزارات الدينية سواء الإسلامية أو المسيحية. ومن أمثلة المزارات الدينية الإسلامية، المسجد الأقصى (١٠٨). وقد فصل الحديث بشأنه بيد أنه لم يخرج به عن حدود أوصاف الجغرافيين المسلمين السابقين، كما أن دمشق تحتوى على قبور لعدد من الصحابة والتابعين، من أمثلة ذلك ما يقال من أن قبر أم عاتكة أخت عمر بن الخطاب رضى الله عنها موجود هناك، وكذلك قبر صهيبي الرومي وأخيه (١٠٩)، ويبدو أن ياقوتاً لم يكن يقبل فكرة وجود قبر أخت عمر بن الخطاب، بدليل أنه ذكر ذلك من قبيل الزعم، بالإضافة ذكره لجبل قاسيون وما به من القبور الخاصة بالصالحين (١١٠).

زد على ذلك، أننا نجده يذكر وجود عدد من المشاهد والقبور في حمص، فيقرر أن بحمص مشهد الإمام علي بن أبي طالب، كما أن بها دار خالد بن الوليد، وقبره فيما يقال، وكذلك قبر عياض بن غنم القرشي فاتح بلاد الجزيرة، وكذلك قبر زوجة خالد بن الوليد، وقبر ابنه عبدالرحمن، بالإضافة إلى مشهد لأبي الدرداء^(١١١).

وتجدر الإشارة إلى أن ياقوت لم يقبل فكرة دفن خالد بن الوليد في حمص، بل إنه ذكر أنه مات بالمدينة المنورة ودفن بها ويرى أن هذا هو الأصح^(١١٢)، ومعنى هذا أنه لم يقبل كل ما يقال له بشأن دفن الصحابة في تلك المناطق.

أما المزارات الدينية المسيحية، فهناك كنيسة القيامة، ويقرر أنها موجودة في وسط بيت المقدس، وأن هناك مقبرة يسميها المسيحيون القيامة، ويصف الكنيسة بصفة عامة على اعتبار أنها أعظم كنيسة للنصارى في بيت المقدس وبها مظاهر الحسن والثراء^(١١٣).

وهناك أيضاً عين سلوان، وهي في ريف بيت المقدس، وهي عين عذبة ويتم التبرك بها، ويقرر ياقوت أن هناك اعتقاداً بأن ماء زمزم يزور ماء سلوان وذلك كل ليلة عرفة^(١١٤)، ومن الواضح عدم اعتقاده في ذلك بدليل أنه اعتبر ذلك من قبيل الزعم، أو من خلال المعتقدات الشعبية الساذجة. وإن أفادت إشارته في تسليط الضوء على ذلك الجانب الفولكلوري.

وبالإضافة إلى تلك المزارات الدينية المسيحية، يشير ياقوت إلى عدد كبير من الأديرة المسيحية في كافة أنحاء الشام سواء في دمشق، وحلب، وبالس، وأنطاكية، وعزاز، وفي الأردن، وعند جبل الطور، والرملة.

ومن أديرة دمشق، دير صليبا، ودير الخصيان، ودير سمعان ودير يونا، ودير فطرس، ودير بولس، ودير قانون، ودير هند^(١١٥)، ومن أديرة حلب حافر، وحشيان، وعمان، ودير

بلاض^(١١٦)، أما في أنطاكية فهناك دير سمعان^(١١٧)، وفي عزاز هناك دير شيع^(١١٨)، وفي الأردن هناك دير فاخور^(١١٩) في الموضع الذي عهد فيه يوحنا المعمدان^(١٢٠) السيد المسيح. وفي الطور يوجد دير التجلي^(١٢١) الذي يزعم المسيحيون أن السيد المسيح قد علا عليهم فيه. أما الرملة ففيها دير البلوط، وكذلك دير بولس.

وتجدر الإشارة إلى أن هناك أديرة، معينة من بين التي أوردتها تحتل مكانة خاصة لدى نفوس المسيحيين، ومن أمثلة ذلك دير التجلي، ويلاحظ أنه على جبل الطور، ويقصده الناس من كافة المواضع، ويوصف الدير بالانساع والمناعة في البناء، واشتمل على موضع مخصص لاستقبال الحجاج المسيحيين واستضافتهم، كما أنه احتوى على كنيسة عرفت بكنيسة المخلص^(١٢٢).

وبصفة عامة كانت تلك الأديرة على درجة كبيرة من الثراء، ومن أمثلة ذلك إشارة ياقوت نفسه إلى أن دير سمعان بظاهر أنطاكية يبلغ دخله في العام أربعمئة ألف دينار^(١٢٣)، ومن الطبيعي ملاحظة أن الأديرة التي وقعت في قبضة الصليبيين مثل أنطاكية والرملة كانت أكثر ثراء من تلك الأديرة الواقعة في دمشق، وحلب، وعزاز، على اعتبار أن جموع الحجاج المسيحيين، كانوا يقدمون إليها كل النفائس والتبرعات المالية على نحو أدى إلى ثرائها بصورة متزايدة.

والجدير بالذكر، أن إيراد ياقوت الحموي لكل تلك الأديرة في بلاد الشام، والعديد منها خاضع للسيادة الإسلامية. يعكس حقيقة جليلة لا تقبل الجدل ألا وهي أن مناطق المسلمين، احتضنت أماكن العبادة المسيحية، ومنها الأديرة على مدى قرون عديدة من القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي حتى أخريات القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وذلك في حرية كاملة، ومن ثم فإن القول بأن الحملات الصليبية جاءت إلى المنطقة العربية بوصفها حملات إنقاذ للمسيحيين الشرقيين من اضطهاد المسلمين،

تفنده تلك الإشارات الثرية، التي قدمها ياقوت الحموي عن كثرة أعداد الأديرة المسيحية المنتشرة في أنحاء بلاد الشام، وخاصة في المناطق الإسلامية.

ومن ناحية أخرى، فإن إيراد ياقوت الحموي لأديرة المسيحيين، يعكس بجلاء مدى التسامح الذي أبداه المسلمون تجاه أهل الذمة، على نحو جعلهم يخصصون صفحات كاملة من مؤلفاتهم للحديث عن تلك المؤسسات المعمارية الدينية المسيحية، وفي هذا دليل واضح آخر إن لم تكن هناك «مشكلة ما» في التعامل بين المسلمين والمسيحيين لا على المستوى الرسمي، ولا على مستوى الكتابة التاريخية عن الطرف الآخر المخالف في الدين من جانب الجغرافيين المسلمين في ذلك العصر، ويمثل ياقوت الحموي خير دليل على ذلك.

ومن جهة أخرى، نجد ذلك الجغرافي يعنى بتوضيح المزارات العلاجية، في بلاد الشام، ومن أمثلتها عيون طبرية، وفي هذا المجال نجده يستفيد من نص للسائح الهروي، ويؤكد على أهمية قرية الحسينية، ويصف الماء هناك بأنه شديد الحرارة للغاية، كما أنه صافٍ، وعذب، وطيب الرائحة^(١٢٤). ومن الواضح أن تلك القرية لقيت اهتماماً كبيراً من جانب الجغرافيين المسلمين الذين زاروا بلاد الشام في ذلك العصر.

وأخيراً، فإن ياقوت الحموي حرص على ذكر جوانب من الخريطة العقائدية لبلاد الشام، وفي هذا الصدد أشار إلى وجود عناصر الاسماعيلية في حلب، وخاصة في جبل السماق الذي احتوى على عدد كبير من المدن، والقرى والقلاع^(١٢٥). وقد أوضح أن غالبية الاسماعيلية هناك تحت طاعة الأيوبيين^(١٢٦)، ويعنى ذلك أن عناصر أخرى منهم كانت تناصب السلطة الأيوبية في حلب العداء ولكن دون فعاليات حقيقية خطرت بدليل عدم إشارته إلى تلك العناصر إلا بتلك الصورة الموجزة.

كذلك فإنه أوضح وجود عناصرهم في كفر لانا في سطح جبل عاملية بين نواحي حلب^(١٢٧)، مع ملاحظة أن مناطق حلب كانت مركزاً تقليدياً للوجود الاسماعيلي

منذ آخريات القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى. ومع ذلك فإنه لم يشر إلى قيامهم بأية اغتيالات ويبدو أن شوكتهم قد كسرت نهائياً من خلال القبضة الأيوبية.

أضف إلى ذلك، أنه تناول عناصر النصيرية فى حمص^(١٢٨). وأشار إلى أن كثيراً من أهلها من عناصرهم، ومن الطبيعى أن يجده يشن عليهم الهجوم؛ نظراً لعقائدهم، وأفكارهم الباطلة، حيث اعتبروا من غلاة الشيعة.

ولا ريب فى أن ياقوت يواصل بذلك توضيح أماكن توزيعات العناصر الشيعية فى ذلك العصر. مع ملاحظة أن تلك العناصر فى العصر الذى كان فيه ذلك الجغرافى، لم تكن بنفس قوتهم خلال النصف الأول من القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى.

وهكذا، قدم لنا ياقوت الحموى من خلال مؤلفاته الجغرافية التى تناول خلالها أنحاء الشام، صورة عامة عن بلاد الشام خلال عصره، وهى بالتأكيد صورة ثرية وهامة ومع ذلك يمكن أن توجه له بعض جوانب النقد ومنها :

أولاً : إن اهتمام ياقوت بالمدن الخاضعة للسيادة الإسلامية فاق بكثير اهتمامه بتلك الخاضعة للسيادة الصليبية، بل إنه أحياناً فى المدن الأخيرة اكتفى بإيراد اسمها فقط، دون أن يعمق رؤيته بشأنها، إذ أن رؤية تلك المدن المعادية من خلال عيون إسلامية يثرى تلك الرؤية إلى حد كبير، بيد أنه لم يفعل ذلك.

ثانياً : إن مدن الساحل الشامى، وهى التى لها شأنها الكبير على المستوى الاستراتيجى، والاقتصادى التجارى، غلبت الزاوية التاريخية على شقيقتها الجغرافية عند معالجة ياقوت الحموى لها، حقيقة أن الفاصل بين الجانبين ليس بالكبير، وأن

التاريخ ما هو إلا صراع على الجغرافية، إلا أن ياقوت الحموي عالج تلك المنطقة من خلال اهتمامه بتصوير تاريخ الصراع الإسلامي / الصليبي بشأنها، بيد أن ذلك الجانب؛ خصصت له كتب الحوليات التاريخية العربية أجزاء هامة منها.

ومع ذلك؛ فإن النقد السابق، ينبغي ألا يقلل من قيمة ذلك العلم الجغرافي والأديب والمؤرخ المتميز، خاصة إذا ما لاحظنا أن الرحالة الأوروبيين الذين زاروا تلك المدن من خلال اهتمامهم بإيراد أوضاع المدن الخاضعة للصليبيين حينذاك.

الهوامش

(١) عن مصادر ومراجع ترجمة ياقوت الحموي أنظر :

ابن المستوفى، تاريخ أربل، ح١، تحقيق سامي الصفار، ط. بغداد ١٩٨٠م، ص٣١٩-٣٢٤؛ ابن خلكان، وفیات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ح٦، ط. بيروت ١٩٧٨م، ص١٢٧-١٣٩؛ الذهبي، المعبر في خبر من غير، ح٥، ص١٠٦؛ اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ح٤، ط. حيدر أباد الدكن ١٣٤٨هـ، ص٥٩؛ عبدالستار فراج، معجم البلدان لياقوت الحموي، مجلة العربي، العدد (١٤١)، أغسطس ١٩٧٠م، ص٧٨؛ صلاح الدين المنجد، من أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب، ح١، ط. بيروت ١٩٧٨م، ص٦٣؛ محمد محمود محمد، الجغرافيا والجغرافيون بين الزمان والمكان، ص١٥٦؛ زكي حسن، الرحالة المسلمون، ص١٠٢؛ صلاح الدين الشامي، الفكر الجغرافي سيرة ومسيرة، ص٢٥١، حاشية (١)؛ أحمد أحمد بدوي، الحياة الفعلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ط. القاهرة، ب-ت، ص٢٨٥؛ عبدالرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، ط. دمشق ١٩٨٤م، ص٤٤٧-٤٤٨؛ علي أدهم، بعض مؤرخي الإسلام، ط. بيروت ١٩٧٤م، ص١٥١؛ علي عبدالله الدفاع، الموجز في التراث العلمي العربي الإسلامي، ط. نيويورك ١٩٧٩م، ص٤٣؛ أحمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون، ص١٧٧؛ زغلول النجار والدفاع، إسهام علماء المسلمين الأوائل في تطور علم الأرض، ص٣٩٢-٣٩٣؛ يسرى الجوهري، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، ط. الاسكندرية ١٩٧٩م، ص١٢٧؛ عبدالفتاح وهبة، جغرافية العرب في العصور الوسطى، ص١٨؛ عبدالرحمن زكي، أعلام العرب في الجغرافيا، المجلة العربية، السنة (٣)، العدد الأول، ديسمبر ١٩٧٨م، ص٥٣؛ عمر رضا كحالة، معجم مصنفى الكتب العربية في التاريخ والتراجم والجغرافيا والرحلات، ط. بيروت ١٩٨٦م، ص٦٦٧-٦٧٠؛ مصطفى الشكعة، مناهج التأليف عند العلماء العرب، قسم الأدب، ط. بيروت ١٩٩١م، ص٥٦٣-٥٦٥.

Brockelmann, Geschichte der Arabischen Literature, T.I., p. 479 Suppl., T.I., p. 880; Ruhricht, Chronologisches, p. 50.

(٢) ابن المستوفى، المصدر السابق، ح١، ص٣١٩.

(٣) نفسه، نفس المصدر، ح٦، ص١٣٩.

(٤) نفسه، نفس المصدر، ح٦، ص١٢٧، ويرى يسرى الجوهري، أن ياقوت قد ولد في اليونان عام ١١٧٩م / ٥٧٥هـ، ولكن هذا الرأي لا تدعمه المصادر الأصلية لأن المؤرخين يذكرون أنه رومي الجنس والمولد، ومعنى هذا أنه ولد في موقع ما من أملاك الامبراطورية البيزنطية التي أطلق عليها المسلمون تعبير دولة الروم، أما التحديد بأنه ولد في اليونان، فهو أمر لا يجد سنداً من الدعم المصدري، ويبقى مجرد احتمال لا أكثر. أنظر رأيه في الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، ص١٢٧.

(٥) ابن خلكان، المصدر السابق، ح٦، ص١٢٧؛ أحمد رمضان، المرجع السابق، ص١٧٧.

(٦) نفسه، نفس المرجع، والصفحة.

(٧) ابن خلكان، المصدر السابق، ح٦، ص١٢٧-١٢٨.

(٨) السيد عبدالعزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، ص١٩٦.

(٩) ويلاحظ أن زغلول النجار وعبدالله الدفاع قد ذكرا أن ياقوتاً عندما اتجه إلى حلب كان يحكمها الحمدانيون، أو كما ورد في نص كتابيهما «هي إذن حاضرة الحمدانيين». عن ذلك أنظر: إسهام علماء المسلمين الأوائل في تطور علم الأرض، ص٣٩٤.

غير أن هذا القول، لا ينطبق على الواقع التاريخي، على اعتبار أن الحلبيين، حكموا حلب خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وكانوا على النحو التالي :

أبو الحسن علي، سيف الدولة ٣٢٣-٣٥٦هـ / ٩٤٤-٩٦٧م، الحمدان؛ سعد الدولة، أبو المعالي شريف ٣٥٦-٣٨١هـ / ٩٦٧-٩٩١م، الحمداني؛ سعيد الدولة أبو الفضائل سعيد ٣٨١-٣٩٢هـ / ٩٩١-١٠٠١م، الحمداني؛ أبو احسن علي، أبو المعالي شريف الثاني، ٣٩٢-٣٩٤هـ / ١٠٠١-١٠٠٣م.

ولما كان ياقوت الحموي قد عاش خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي وتوفي عام ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م، فمن الواضح عدم صحة القول السابق. عن تسلسل حكم الحمدانيين وتاريخهم أنظر :

Canard, Histoire de la dynastie de Hamadanides de Jaziraet et Syrie, Paris, 1951.

زبوار، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ح٢، ت. زكي حسن وآخرون، ط. القاهرة ١٩٥٢م، ص٢٠١؛ ستانلي لين بول، طبقات سلاطين الإسلام، ط. بيروت ١٩٨٥م، ص١٠٩؛ محمود سعيد عمران، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ط. بيروت ١٩٨١م، ص٣٧٢؛ السيد الباز العريني، الدولة البيزنطية، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص٩١٦.

وعن مصادر تاريخ الحمدانيين بصفة عامة أنظر : النصوص الهامة التى أوردها المستشرق
الفرنسى كنار فى كتابه التالى :

Canard, Sayf Al Daula, recueil de Textes relatifs d L'emir Sayf al Daula Le
Hamdanids avec annotations, Alger 1934.

وفيه نجد النصوص العربية والتعليقات بالفرنسية التى قام بها كنار. وأنظر أيضاً : مصطفى
الشكعة، سيف الدولة الحمداني، أو مملكة السيف ودولة الأقاليم، ط. القاهرة ب-ت.

(١٠) ابن خلكان، المصدر السابق، ج٦، ص١٣٩، عبدالرحمن زكى، المرجع السابق، ص٥٣،
عبدالمستار فراج، المرجع السابق، ص٧٨، العبادى وزيادة والعدوى، الدولة الإسلامية، تاريخها
وحضارتها، ط. القاهرة ب-ت، ص٥١.

(١١) ابن المستوفى، المصدر السابق، ج١، ص٣٢٤.

(١٢) نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، ط. بيروت ١٩٦٢م، ص٦١.

(١٣) محمد الحسينى عبدالعزيز، الحياة العلمية فى الدولة الإسلامية، ط. الكويت ١٩٧٣م، ص١٧٦.
وأيضاً، حمد الجاسر، «نظرات فى معجم البلدان»، مجلة العرب، ج (٩)، (١٠)، الربيعان
١٤١٤هـ، ص٥٧٨، خوداتجيش، الحضارة الإسلامية، ت. على حسنى الخربوطلى، ط. القاهرة
١٩٦٠م، ص١٨٠.

(١٤) عبدالرحمن حميدة، المرجع السابق، ص٤٢٨.

(١٥) يلاحظ أن معجم البلدان، قد نشره وستنفيلد Wustenfield فى ستة أجزاء فى المرحلة من
١٨٦٦ إلى ١٨٧١م، وقد صدر عمله تحت عنوان :

Wustenfield, Jacut's geographischer wörterbuch aus den Handschriften zu
Berlin, St. petersburg und pairs.. hrsg von Ferdinand I-VI Lebziz 1866-1870.

وضمن ذلك العمل، هناك جزء مخصص للفهارس، كذلك صدرت فى القاهرة فى عام
١٣٢٣-١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م، بمثابة الشنقيطى طبعة أخرى من معجم البلدان وقعت فى ثمانية
مجلدات، مع زيادات تحت عنوان «منجم العمران فى المستدرك على معجم البلدان»، لحمد أمين
الخاتجى، الجزء التاسع والعاشر، القاهرة ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م. وفيما بعد ظهرت طبعة
أخرى من الكتاب المذكور فى بيروت فى عام ١٩٧٧م، وهى التى اعتمدت عليها فى إعداد
هذا الفصل.

ومن المفيد أن نذكر أن هناك من رأى أن عمل ذلك المستشرق الألماني، في تحقيق معجم البلدان، يعد أكبر عمل اضطلع به مستشرق بمفرده، وبذلك يكون قد قدم للعلم خدمة لا يمكن أن تقدر بثمن. عن ذلك أنظر :

صلاح الدين عثمان هاشم، المستشرقون والجغرافية العربية، ضمن كتاب مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، ج ٢. ط. الرياض ١٤٠٥هـ، ص ٧٨. آثار في الجغرافية الإسلامية تنتظر النشر، المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول، جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية، م (٣)، ط. الرياض ١٩٨٤م، ص ٧.

والجدير بالذكر، أن كتاب ياقوت قد أدرك المؤرخون المسلمون أهمية اختصاره من أجل تقليل حجمه. وذلك على الرغم من أن ياقوت بنفسه قد أوصى في مقدمة كتابه بالآلا يختصر حتى لا تقلل فائدته.

وقد قام صفى الدين بن عبد الحق البغدادي (ت ٧٣٩هـ / ١٣٤٠م) باختصاره تحت عنوان مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، وقد قام جوينبول بتحقيقه، وطبعه في أربعة أجزاء، وقد صدر عمله في لندن عام ١٨٥٣م : كما أن السيوطي (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) اختصر هو الآخر كتاب ياقوت تحت عنوان مختصر معجم البلدان. عن اختصار معجم البلدان أنظر : حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ٢، ق ٢، ص ١٧٣٣.

ويرى أحمد رمضان، أن مراصد الإطلاع من مؤلفات ياقوت الحموي، وأن عبدالمؤمن بن عبدالحق قد اختصره. بيد أن هذا الرأي يخالف الواقع، لأن ياقوتا لم يؤلف البتة كتاباً بهذا العنوان، أما كتاب مراصد الإطلاع، فما هو إلا اختصار ابن عبدالحق البغدادي لكتاب ياقوت معجم البلدان، أنظر رأيه : الرحلة والرحالة المسلمون، ص ١٧٩.

كما أن صلاح الدين الشامي قرر أن عبدالمؤمن البغدادي قد اختصر هذا المعجم وأضاف إليه، بيد أن هذا القول، هو الآخر لا يتفق مع واقع الأمر، لأن عبدالمؤمن لم يضيف إلى كتاب ياقوت، بل اختصره، لأنه في حالة افتراضنا جدلاً أنه أضاف إليه لما فكر أصلاً في أن يختصره، ويلاحظ أن اختصاره كان على عكس نصيحة ياقوت، لمن يأتي من بعده من المؤرخين، والجغرافيين، إذ أنه نصح بعدم اختصاره حتى لا تضعف فائدته، أنظر رأى الباحث السابق في : الإسلام والفكر الجغرافي العربي، ط. الاسكندرية، ١٩٧٨م، ص ١٣٧، حاشية (٢).

(١٦) حققه وستيفيلد Wustenfield اعتماداً على نسختي قتيانا، ولیدن، وصدر عمله في جوتنجن عام ١٨٤٦م، وأعيد نشره كما هو، من جانب عالم الكتب في بيروت عام ١٩٨٦م. وقد صدر تحقيق وستيفيلد بعنوان :

Jacut's Moschtarik, das isti Lexicon geographischer Homonyme, Göttingen 1846.

وبلاحظ أن عنوان كتاب ياقوت قد استوحاه محمد عبدالله بليهد عندما ألف كتابه ما تقارب سماعه وتباينت أمكنته وبقاعه. ط. الرياض ١٤٠٢هـ.

(١٧) خليل إبراهيم السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي، دراسة في أحواله السياسية (٩٥-٣١٦هـ/ ٧١٤-٩٢٨م)، ط. بغداد ١٩٧٦م، ص ٢٦؛ صلاح الدين الشامي، الفكر الجغرافي سيرة ومسيرة، ص ٢٥١.

(١٨) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٣٥٩؛ محمد محمود محمددين وطه الفراء، المدخل إلى علم الجغرافيا، ط. الرياض ١٩٨٢م، ص ٢٥؛ محمد محمود محمددين، دراسات في الأسماء الجغرافية العربية، الدارة، العدد (٤)، السنة (٤)، محرم ١٣٩٩هـ/ ديسمبر ١٩٧٨م، ص ٢٢٧؛ محمد السيد غلاب، الجغرافيون المسلمون ودورهم في تطور الفكر الجغرافي، المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، م (٣)، ط. الرياض ١٩٨٤م، ص ١٤٦.

(١٩) كراتشكوفسكي، المرجع السابق، ص ٣٥٩.

(٢٠) عبدالرحمن زكي، المرجع السابق، ص ٥٣.

(٢١) ياقوت، معجم البلدان، ح ٥، ط. بيروت ١٩٧٧م، ص ٤٥٧؛ صلاح الدين المنجد، المرجع السابق، ح ١، ص ٧٠.

(٢٢) ياقوت، المصدر السابق، ح ١١٤. ويقول ما نصه ولا يفارق منزلي منها مائتا مجلد وأكثر بنير رهن، ومرو، مدينتان من مدن المشرق الإسلامي وهناك مرو الشاهجان أى روح الملك، وهى مرو العظمى، التى عدت أشهر مدن خراسان، وقصبتها، أما مرو الثانية فهى مرو الروة، وهى مدينة صغيرة بالمقارنة بمرو الشاهجان التى كانت أكبر منها، ويمتدح ياقوت مرو الشاهجان على اعتبار أنها أخرجت من الأعيان وعلماء الدين والأركان عددا لا يحصى، ووصفت مرو من جانب القزويني، بأنها كثيرة الخيرات وافرة الغلات، كما امتدح الجغرافيون المسلمون فى العصور الوسطى، أهل مرو؛ من حيث رقتهم، وحسن معاشرتهم. عن مرو أنظر :

النرخشي، تاريخ بخارى، ت. أمين عبدالمجيد بدوى ونصر الله مبشر الطرازي، ط. القاهرة ب-ت، ص ٩٤-٩٥؛ ياقوت، معجم البلدان، ح ٥، ط. بيروت ١٩٥٧م، ص ١١٣؛ القزويني، أنار البلاد، ص ٤٥٦-٤٦٠؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٤٥٦؛ محمود شيت خطاب،

أفغانستان قبل الفتح الإسلامي وفي أيامه، مجلة المجمع العلمي العراقي، م (٣١)، ح (٣)، ط. بغداد ١٩٨٠م، ص ٤٧؛ لستراخ، بلدان الخلافة الشرقية، ت. بشير فرنسيس وكوركيس عواد، ط. بيروت ١٩٨٥م، ص ٤٤٩-٤٥٢؛ طه ندا، فصول في تاريخ الحضارة الإسلامية، ط. بيروت ١٩٧٦م، ص ١٥٩.

Bosworth, "The political and dynastic History of The Franian World", in C.H.I., Vol. V, Cambridge 1968, p.65, p.163.

(٢٣) على أدهم، المرجع السابق، ص ١٥٥-١٥٦.

(٢٤) عبدالرحمن حميدة، المرجع السابق، ص ٣٩١.

(٢٥) باقوت، المصدر السابق، ح ٤، ص ١٨.

(٢٦) نفسه، نفس المصدر، ح ٤، ص ١٤٤.

(٢٧) نفسه، نفس المصدر، ح ٤، ص ١٤٣.

(٢٨) نفسه، نفس المصدر، ح ٤، ص ١٢٢. عن معركة حطين أنظر :

ابن شداد، النواذر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، ط. القاهرة ١٩٦٦م، ص ٧٥-٧٦؛ العماد الأصفهاني، الفتح القسسى فى الفتح القدسى، ط. القاهرة، ص ٨١؛ ابن الأثير، الكامل، ح ٩، ص ١٧٩، مجهول، الاستبصار فى عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبدالحميد، ط. الاسكندرية ١٩٥٨م، ص ١٠٥؛ مصطفى زيادة، يوم حطين اليوم الفاصل بين المسلمين والصليبيين، العربى، العدد (٥٩) أكتوبر ١٩٦٣م، ص ٣٦-٤٦؛ محمد زهير، معركة حطين من التمزق إلى الوحدة، مجلة المؤرخ العربى، العدد (٣٩)، السنة (١٥)، عام ١٩٨٩م، ص ١٦٥-١٧٦؛ الحبيب الجنحاني، حطين رمز الوحدة والتحرر، مجلة المؤرخ العربى، العدد (٣٩)، السنة (١٥)، عام ١٩٨٩م، ص ١٧٧-١٨٥؛ ديفيد جاكسون، معركة حطين والاستيلاء على القدس، ضمن كتاب حطين صلاح الدين والعمل العربى الموحد، ط. القاهرة ١٩٨٩م، ص ٨٦-١٠٠؛ جوزيف نسيم يوسف، معركة حطين، خلفياتها ودلائلها، عالم الفكر، م (٢٠)، العدد (١)، أبريل، مايو، يونيو ١٩٨٩م، ص ٢٣٢-٢٥١؛ جوزيف داهموس، سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى، ت. محمد فتحي الشاعر، ط. القاهرة ١٩٨٧م، ص ١٠٣-١٢١؛ محمود رزق محمود، العلاقة بين أرنأط أمير حصن الكرك وصلاح الدين الأيوبي حتى موقعة حطين عام ١١٨٧م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس عام ١٩٧٣م، ص ١٥٥-١٦٠؛ أمين توفيق الطيبي، وقعتا حطين والأرك

نصران متوازيان على الغزاة الصليبيين في المشرق والمغرب، مجلة البحوث التاريخية، السنة (١٠)، العدد (٩١) يناير ١٩٨١ م، ص ٥١-٦٤؛ بسام العسلى، الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية، ط. بيروت ١٩٧٨ م، ص ٦٥-١١٢.

Richard, "La bataille de Hittlin, Saladin defeat L'Occident", L'Histoire, T. XL VII, année 1987, pp. 104-111, AAn account of the battle of Hattin referring to the Frankish mercenaries in Oriental maslem states", Speculum, T. XXXII, pp. 168-175.

(٢٩) نفسه، نفس المصدر، ح-٣، ص ٤٣٣. وعن حصانة صور أنظر :

ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٧٤، المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ١٦٢-١٦٤؛ ابن جبير، الرحلة، ص ٢٧٧-٢٧٨؛ ياقوت، المشترك وصفًا، ص ٢٨٦؛ سر الختم عثمان، صور في القرنين ١٢، ١٣ م، ص ٤-٧؛ محسن محمد حسين، مسئولية صلاح الدين في فشل حصار صور، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، م (٧)، العدد (٢٦)، الكويت ١٩٨٧ م، ص ٣٢.

(٣٠) ياقوت، معجم البلدان، ح-٣، ص ٤٣٣.

(٣١) نفسه، نفس المصدر، ح-١، ص ١٥١-١٥٢.

وقد وقعت أرسوف، وهى فى المصادر الصليبية ترد بأشكال متعددة، مثل Arsuf, Azotus، على بعد عشرة أميال إلى الشمال من يافا على ساحل فلسطين، وبينها وبين قيسارية نحو ثمانية عشر ميلاً، وبينها وبين الرملة اثنتى عشر ميلاً، ومن المحتمل أن اسم أرسوف Arsuf، مشتق من اسم الإله السامى رسيف Reseph، ويلاحظ أنه خلال القرون الأولى من عهد الخلافة، عدت أرسوف واحدة من المدن الحصنة الرئيسية فى فلسطين، وقد احتلها الصليبيون فى عهد الملك الصليبي بلدوين الأول Baldwin I (١١٠٠-١١١٧ م) وذلك فى عام ١١٠١ م/ ٤٩٥ هـ، وفيما بعد استردها المسلمون فى عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي؛ فى عام ١١٨٧ م/ ٥٨٣ هـ، ووقعت عندها معركة أرسوف الشهيرة خلال أحداث الحملة الصليبية الثالثة عام ١١٩١ م/ ٥٨٧ هـ، والتي انتصر فيها الصليبيون بقيادة الملك الانجليزى ريتشارد الأول Richard I (١١٨٩-١١٩٩ م)، وفيما بعد أخضعها الصليبيون لسيادتهم السياسية، وسقطت أرسوف بصورة نهائية فى قبضة المسلمين فى عهد السلطان الظاهر بيبرس؛ وذلك فى عام ١٢٧٨ م/ ٦٧٧ هـ. عن أرسوف أنظر :

المقدسى، المصدر السابق، ص ١٧٤؛ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٢٥؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٥٢٨-٥٢٩؛ شافع بن على، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة

الظاهرة، تحقيق عبدالعزيز الخويطر، ط. الرياض ١٩٧٦م، ص ٨٩-٩٠.

Fulcher of Chartres, p. 12, p. 29; William of Tyre, Vol. I, p. 434.

كشاف البلدان الفلسطينية، ط. القاهرة ١٩٧٩م، ص ٩٦؛ عبدالحفيظ محمد على، الحياة السياسية والاجتماعية عند الصليبيين في الشرق الأدنى في القرنين ١٢، ١٣م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة عام ١٩٧٥م، ص ٢١؛ عبدالهادي شعيرة، الرحلة ورباطاتها السبعة، المجلة التاريخية المصرية، م (١٥)، عام ١٩٦٩م، ص ٤٣؛ صابر دياب، سياسة الدولة الإسلامية في حوض البحر المتوسط، ط. القاهرة ١٩٧١م، ص ٢٩١-٢٩٢؛ مرمجى الدومنيكي، بلدانية فلسطين العربية، ص ٢٠-٢١؛ قدرس قلمجي، صلاح الدين الأيوبي، قصة الصراع بين الشرق والغرب خلال القرنين ١٢، ١٣م، ط. بيروت ١٩٧٩م، ص ٤٠٥-٤٠٦.

(٣٢) ياقوت، معجم البلدان، ح ١، ص ٥٢٥.

(٣٣) نفسه، نفس المصدر، ح ١، ص ٢٧٠.

(٣٤) نفسه، نفس المصدر، ح ١، ص ٤٨٩.

(٣٥) نفسه، نفس المصدر، ح ٢، ص ٤٦٥.

(٣٦) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٣٧) نفسه، نفس المصدر، ح ٤، ص ٤٢١.

(٣٨) نفسه، نفس المصدر، ح ٢، ص ٢٨٥.

(٣٩) نفسه، نفس المصدر، ح ٢، ص ٤٦٥.

(٤٠) نفسه، نفس المصدر، ح ٢، ص ٢٨٣.

(٤١) نفسه، نفس المصدر، ح ٤، ص ٦٧-٦٨.

وتجدر الإشارة إلى أن نهر العاصي Orontes، قد سماه أحد الرحالة الأوروبيين الذين زاروا المنطقة، وبالتحديد مملكة بيت المقدس الصليبية، ألا وهو فتيلوس (١١١٨-١١٣٠م) Pharphar أو Far Far، وقد ذكر عنه أنه ينبع من أسفل جبل لبنان، واخترق مجراه مناطق متعددة من بلاد الشام مثل أنطاكية، وامتد غربها إلى البحر المتوسط حيث توجد مدينة سوليم Solim أو القديسي سيمون St. Simeon أو السويدية. عن ذلك : Fetellus, p. 24-25.

(٤٢) ياقوت، المصدر السابق، ح ١، ص ٣٥٢.

(٤٣) نفسه، نفس المصدر، ج١، ص ٣٥١-٣٥٢

(٤٤) نفسه، نفس المصدر، ج٥، ص ١٦٨

(٤٥) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٤٦) نفسه، نفس المصدر، ج٥، ص ١٥٦.

(٤٧) نفسه، نفس المصدر، ج١، ص ٢٨٤.

(٤٨) نفسه، نفس المصدر، ج١، ص ٢٨٥.

(٤٩) نفسه، نفس المصدر، ج٢، ص ٣٠٠.

(٥٠) نفسه، نفس المصدر، ج٤، ص ٤٦٩.

(٥١) نفسه، نفس المصدر، ج٥، ص ١٦٨.

(٥٢) نفسه، نفس المصدر، ج٤، ص ٤٧.

ويلاحظ أن جبل الطور أطلق عليه طابور Tabor، ويقع في إقليم الجليل، وطل على مرج بن عامر، وارتفع عن سطح البحر بنحو خمسمائة وثمانية وثمانين متراً، واحتل موقعاً استراتيجياً هاماً، وكان موضع اهتمام وإعجاب الصليبيين، ولدينا وصف هام لذلك الجبل من جانب الرحالة الروسي دانيال Daniel، ويقرر أنه من عجيب صنع الله، على نحو يعجز المرء عن وصفه، وهو بالغ الجمال والروعة، ومنعزل عما سواه من الجبال، وهناك نهر يجري في الوادي الذي يقع أسفل الجبل وتنمو فوق الجبل كافة أنواع الأشجار المثمرة مثل الزيتون والتين وغيرها من أشجار الفاكهة، ويقرر نفس الرحالة أنه من الصعوبة بمكان تسلق ذلك الجبل نظراً لتكويناته الصخرية الوعرة، عن جبل الطور. أنظر :

Anonymous, The deeds of The Franks, p. 100; Daniel, p. 66-67; Fulcher of Chartres, p. 272.

الشاهشتي، الديارات، تحقيق كوركيس عواد، ط. بغداد ١٩٥١م، ص ١٣٢؛ ابن عبدالحق البغدادي، مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ج٢، ص ٨٩٦؛ أندراوس كرشه وأبيض، الثمار الشهية في جغرافية المملكة العثمانية، ط. طرابلس الشام ١٩١٢م، ص ١٧٨-١٧٩؛ مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٧، ق٢، ص ١٣؛ طه تلجي الطراونة، تاريخ مملكة صغد في عهد الماليك، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص ٧٥-٧٦؛ أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام، ص ١٦، سعيد البيشاوي، الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية (١٠٩٩-١٢٩١م)، ط. الاسكندرية، ١٩٩٠م، ص ٦٩، حاشية (٢)

- (٥٣) ياقوت، المصدر السابق، ح-٢، ص ٢٨٤.
- (٥٤) نفسه، نفس المصدر، ح-٢، ص ٢٨٦.
- (٥٥) نفسه، نفس المصدر والصفحة.
- (٥٦) نفسه، نفس المصدر، ح-٣، ص ٤٣٦-٤٣٧.
- (٥٧) نفسه، نفس المصدر والصفحة.
- (٥٨) شيخو، جولة في الدولة العلوية، ص ٤٩١.
- (٥٩) محمد عبدالله عنان، قلاع الصليبيين والمسلمين في سوريا ولبنان، ص ٥٥٠.
- (٦٠) صبحي الصواف، الكتابات العربية في قلعة حلب، مجلة عاديات حلب، معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب عام ١٩٧٥ م، ص ٢٨٢.
- (٦١) ياقوت، المصدر السابق، ح-٣، ص ٣٣٨؛ ابن سعيد المغربي، بسط الأرض في الطول والمرض، ص ٨٦؛ ابن الشحنة، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تحقيق مركيس، ط. بيروت ١٩٠٩ م، ص ٢٦٧؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ح-٤، ص ١٤٥، الخالدي، المقصد الرفيع المنشأ، ورقة (٩٥).
- (٦٢) عبدالرحمن زكي، القلاع في الحروب الصليبية، ص ٥٦.
- (٦٣) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٧٣؛ ابن الأثير، الكامل، ح-١٢، ص ١٠؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ح-٢، ص ٢٦١؛ سعداوي، التاريخ الحربي المصري في عصر صلاح الدين، ص ٢٠٨.
- (٦٤) ابن واصل، المصدر السابق، ح-٢، ص ٢٦١.
- (٦٥) شنجو، المرجع السابق، ص ٤٩١.
- (٦٦) أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام، ص ٣٢٥.
- (٦٧) رنسيما، تاريخ الحروب الصليبية، ح-٢، ص ٧٦٠-٧٦١.
- (٦٨) العماد الأصفيهاني، الفتح القسي، ص ٢٤٢-٢٤٣؛ ابن شداد، المصدر السابق، ص ٩٠؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ح-١٢، ص ٤-٥؛ ابن المديم، زبدة الحلب، ح-٣، ص ١٠٣؛ عاشور، الحركة الصليبية، ح-٢، ص ٨٢٩-٨٣٠؛ حامد غنيم، للجبهة الإسلامية، ح-٢، ص ١٢٥؛ زكي نقاش، العلاقات، ص ٥٩.

Runciman, The Crusades, Vol. II, p. 470.

(٦٩) ياقوت، المصدر السابق، ح-٢، ص ١٠١.

(٧٠) . Fetellus, p. 41, note (2)

(٧١) William of Tyre, Vol. II, p. 132.

رنسيمان، المرجع السابق، ح-٢، ص ٣٦٩؛ السيد الباز العرينى، الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٦٣ م، ص ٣٧٤؛ آدم سميث، الجغرافية التاريخية للأرض المقدسة، ط. بيروت ب-٢، ص ١٩٢.

(٧٢) شيخ الربوة الدمشقى، نخبة الدهر، ص ٢١؛ عاشور، الحركة الصليبية، ح-٢، ص ٦٠١؛ حسن عبدالقادر، أسماء المواقع الجغرافية فى الأردن وفلسطين، ط. عمان ١٩٧٣ م، ص ١٩؛ نبيلة مقامى، فرق الرهبان الفرنسان فى بلاد الشام فى القرنين ١٢، ١٣ م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة عام ١٩٧٤ م، ص ٨٢.

Le Strange, Palestine, p. 414.

(٧٣) Smail, Crusading Warfare, p. 211.

(٧٤) دائرة المعارف الإسلامية، مادة «بيت جبرين»، ص ٤٩٧.

(٧٥) Prawer, The Latin Kingdom of Jerusalem, London 1973, p. 265.

Riley-Smith, History of The Order of St. John of Jerusalem, London 1967, p. 52; Smail, The Crusaders in Syria and The Holy Land, London 1974, p. 54.

سامى سلطان سعد، الاستبارة فى رودس، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، عام ١٩٧٠ م، ص ٢٥.

(٧٦) ياقوت، المصدر السابق، ح-١، ص ٧٧٦.

(٧٧) ابن ميسر، أخبار مصر ٤٧٢، T. III, p. 472, R.H.C.

(٧٨) أسامة بنمنقذ الاعتبار، تحقيق فيليب متى، ط. برنستون ١٩٣٠ م، ص ١٧.

(٧٩) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٨٠؛ ابن واصل، المصدر السابق، ح-٢، ص ٢١٠؛ ابن العديم، المصدر السابق، ح-٣، ص ٩٨.

Le Strange, Palestine, p. 414.

- (٨٠) دائرة المعارف الإسلامية، مادة «بيت جرين»، ص ٤٩٧؛ نبيلة مقامى، المرجع السابق، ص ٨٢.
- (٨١) ياقوت، المصدر السابق، ح ٤، ص ١٠٩.
- (٨٢) نفسه، نفس المصدر، ح ٥، ص ١٠٨.
- (٨٣) فرديناند توتل، زيارة إلى قلعة المرقب، مجلة المشرق، م (٣٣)، ح (٤)، عام ١٩٣٥م، ص ٥٣٥.
- (٨٤) ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، ط. القاهرة ١٩٦١م، ص ٨٥.
- (٨٥) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٥٥؛ ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٨٥؛ القلقشندي، المصدر السابق، ح ٤، ص ١٤٥-١٤٦؛ ابن الشحنة، المصدر السابق، ص ٢٦٧.
- (٨٦) وقع هذا البرج في أطراف الجنوبي الغربي من سور دمشق وبناءه الملك العادل نور الدين محمود عام ٥٦٤هـ / ١١٦٨م، ويلاحظ أنه بنى بأحجار قديمة مستعملة؛ أخذت كما يعتقد من سور مدينة دمشق. عن ذلك أنظر: سليم عادل، مشاهد دمشق الأثرية، ط. دمشق ١٩٥٠م، ص ٤.
- (٨٧) نبيلة مقامى، المرجع السابق، ص ٨٧.
- (٨٨) محمود الحويرى، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص ٢٢٣.
- (٨٩) فرديناند توتل، المرجع السابق، ص ٥٣٢؛ يوسف سمارة، جولة في الإقليم الشمالى، ص ٧٣.
- (٩٠) Rey, Les colonies Franques de Syrie aux XIIe et XIIIe siecles, Paris 1883, p.120.
- إبراهيم المحمود، فن الحرب عند العرب، ط. بغداد، ب-ت، ص ٣٦٣-٣٦٤.
- (٩١) فرديناند توتل، المرجع السابق، ص ٥٣٢.
- (٩٢) ابن الأثير، المصدر السابق، ح ١٢، ص ٤؛ ابن واصل، المصدر السابق، ح ٢، ص ٢٥٧؛ عاشور، الحركة الصليبية، ح ٢، ص ٨٢٨؛ الناصر صلاح الدين الأيوبي، ط. القاهرة ١٩٦٥م، ص ٢١٠.
- (٩٣) العماد الأصفهاني، الفتح القسى، ص ١٠٢. أيضاً أنظر :

- (٩٤) ابن واصل، المصدر السابق، ح-٣، ص ١٦٥.
- (٩٥) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص ٨٦؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد أمين، ط. القاهرة ١٩٧٦م، ص ٩٦؛ اليونيني اليعلبكى، ذيل مرآة الزمان، ح-٢، ص ٤٤٧-٤٤٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ح-١، ط. القاهرة، ١٨٩٤م، ص ١١٦؛ محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون، ط. القاهرة، ١٩٤٧م، ص ٢٣٨.
- Siada, "The Mamluk Sultan to 1293", in Setton, A History of the Crusades, Vol. II, ponnsylvania, 1955, p. 752.
- (٩٦) أبو الفرج القش، آثارنا فى الإقليم السورى، ص ٩٤.
- (٩٧) ياقوت، المصدر السابق، ح-٢، ص ٢٨٥.
- (٩٨) وهى باب الأربعين، وباب اليهود، وباب النصر، وباب الجنان، وباب أنطاكية، وباب قنسرين، وباب العراق، وباب السرا، المصدر السابق، ح-٢، ص ٢٨٦.
- (٩٩) ياقوت، المصدر السابق، ح-٢، ص ٢٨٦.
- (١٠٠) حسن الباشا، مدخل إلى الآثار الإسلامية، ط. القاهرة ب-ت، ص ١٨١.
- (١٠١) نفسه، نفس المرجع والصفحة.
- (١٠٢) عبدالرحمن زكى، قلاع العالم العربى فى العصر الوسيط، الدارة، العدد الأول، السنة (٢)، ربيع الأول ١٣٩٦هـ / مارس ١٩٧٦م، ص ٨٦.
- (١٠٣) ابن الشحنة، الدر المنتخب، تحقيق كيلر أومان، ط. طوكيو ١٩٩٠م، ص ٤٠.
- (١٠٤) حسن الباشا، المرجع السابق، ص ١٨١.
- (١٠٥) ياقوت، المصدر السابق، ح-١، ص ٣٠٠.
- (١٠٦) نفسه، نفس المصدر، ح-٤، ص ٤٧. وعن قلعة الطور أنظر :
- ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، تلخيص الكشف والبيان فى حوادث الزمان، ص ٦٣؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ح-٣، تحقيق جمال الدين الشيال، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص ٢١٦؛ أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص ٧٠؛ محمود الحويرى، العادل الأيوبي، صفحة من تاريخ الدولة الأيوبية، ط. القاهرة ١٩٨٠م، ص ٨٤-٨٥؛ على عودة الغامدى، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى (٥٨٩-٦٥٧هـ / ١١٩٣-١٢٥٩م)، ط. مكة المكرمة ١٩٨٨م،

ص ٢٢٧؛ محمود سعيد عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ط. الاسكندرية ١٩٧٨م، ص ١٠١.

Duggan, The Story of The Crusades, London 1961, p. 212.

(١٠٧) ياقوت، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٦٧.

(١٠٨) نفسه، نفس المصدر، ج ٥، ص ١٦١.

(١٠٩) نفسه، نفس المصدر، ج ٤، ص ٢٩٥.

(١١٠) نفسه، نفس المصدر، ج ٤، ص ٢٩٥.

(١١١) نفسه، نفس المصدر، ج ١، ص ٣٠٣.

(١١٢) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١١٣) نفسه، نفس المصدر، ج ٤، ص ٣٥٦.

(١١٤) نفسه، نفس المصدر، ج ٣، ص ٢٤١. أنظر أيضاً : الفصل الأول، حاشية (٥٨).

(١١٥) ياقوت، المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٩٥، ٤٩٩، ٥٠٢، ٥١٧، ٥٣٨، ٥٤٣، ٥٢٥، ٥٢٦.

(١١٦) نفسه، نفس المصدر، ج ١، ص ٥٠١، ٥٢٤، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٧.

(١١٧) نفسه، نفس المصدر، ج ٢، ص ٥١٧.

وبلاحظ أن النابلسي يشير إلى دير آخر بنفس الاسم؛ أي دير سمعان؛ ويوجد في نواحي طرابلس بلبنان، عنه أنظر :

النابلسي، التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية، تحقيق هريرت بوسه، ط. بيروت ١٩٧١م، ص ٢٧.

(١١٨) نفسه، نفس المصدر، ج ١، ص ٥١٨.

(١١٩) نفسه، نفس المصدر، ج ١، ص ٥٢٥.

(١٢٠) يوحنا المعمدان، هو أحد رجال الدين من يهودا، عاش في خلال المرحلة التي سبقت ظهور السيد المسيح عليه السلام مباشرة، وكان والده يدعى زكريا، وهو كاهن يهودي، وأخذ يوحنا يقوم بدوره في التبشير بالسيد المسيح، وقام بتعميده، ويرى البعض أن تعاليم يوحنا كان لها أثرها الهام على المعاصرين، وقد لقي مصرعه على يد هيرودى، وبلاحظ أن العهد الجديد، لاسيما انجيل متى، ومرقص، يحتوي على إشارات هامة عن دوره التبشيري، عنه أنظر :

متى، الإصحاح (١)، من ١ : ٦، الإصحاح (٣)، من ١٢ : ١٧، مرقس، الإصحاح (٦) من ١٤ : ٢٩، الإصحاح (٨)، من ٧ : ٩.

Hastings, Dictionary of The Bible, New York 1952, p. 509-510; Grant, Historical introduction to the new testament, New York 1963, pp. 309-312; Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago 1944, p. 599-600.

سامى سعد الأسعد، تاريخ فلسطين القديم، ط. بغداد ١٩٨٩م، ص ٣٧١-٣٧٢.

(١٢١) ياقوت، المصدر السابق، ح-٢، ص ٥٠٢.

(١٢٢) الشاهشتى، المصدر السابق، ص ١٣٢، الممرى، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، ح-١، تحقيق أحمد زكى، ط. القاهرة ١٩٢٤م، ص ٣٣٧.

وبلاحظ أن ذلك الدير، كان أحد ثلاثة أديرة موجودة فوق جبل الطور، وهى دير التجلى، ودير الياس، ودير موسى، وقد احتلت مكانة كبيرة فى منطقة الجليل بشمال فلسطين وصارت هدفاً لزيارة الحجاج المسيحيين فى العصور الوسطى. عن تلك الأديرة أنظر :

Daniel, p. 66-67; William of Tyre, Vol. II, p. 495.

لىلى طرشوبى، إقليم الجليل فترة الحروب الصليبية فى القرن الثانى عشر الميلادى، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة عام ١٩٨٧م، ص ١٩٧-٢٠٦.

(١٢٣) ياقوت، المصدر السابق، ح-٢، ص ٥١٧.

(١٢٤) نفسه، نفس المصدر، ح-١، ص ١٨.

(١٢٥) نفسه، نفس المصدر، ح-١، ص ١٠٢.

(١٢٦) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١٢٧) نفسه، نفس المصدر، ح-٤، ص ٤٧٠.

(١٢٨) نفسه، نفس المصدر، ح-٢، ص ١٠٤.

٣ - القزويني

(ت ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م)

يتناول هذا الفصل بالدراسة؛ التعريف بالجغرافي القزويني^(١) (ت ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م)، وأهم ما تناوله في مؤلفاته عن بلاد الشام خلال عصر الحروب الصليبية، ومن الواضح أن ذلك العلم الجغرافي قد أفاد في إلقاء الضوء على أوضاع تلك البلاد من كافة الجوانب، الأمر الذي سيعنى هذا الفصل بتوضيحه.

والقزويني هو زكريا بن محمد بن محمود القزويني، ولد في عام ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م في بلدة قزوین الواقعة في شمال إيران، وهو ينتمي إلى إحدى الأسرات العربية التي استقرت في العراق العجمي منذ أمد بعيد^(٢)، ويقال إن نسبه يصل إلى الإمام مالك^(٣)، وقد تنقل القزويني بين أنحاء متعددة من أقاليم المشرق الإسلامي، ونعلم أنه رحل إلى العراق من أجل أن يتعلم على أيدي كبار العلماء هناك، وقد تولى منصب القضاء في مدينتي واسط، والحلة، في العراق، ووصف بأنه كان حجة في المجال القضائي، وقد ظل يشغل ذلك المنصب حتى مقدم المغول إلى عاصمة الخلافة العباسية بغداد، عام ٦٥٦هـ / ١٢٦١م، ومن بعد ذلك ارتحل إلى بلاد الشام؛ حيث توفي في مدينة دمشق عام ٦٨٢هـ / ١٢٨٧م^(٤).

ومن المنطقي تصور أن حياة القزويني وتنقله بين العدد من أقاليم المشرق الإسلامي، ثم معاصرته لمرحلة تاريخية خطيرة متمثلة في الغزو المغولي للمشرق الإسلامي، وعمله في الجانب القضائي، كل ذلك أثقل تجربته الإنسانية، وعمق خبرته، على نحو انعكس

بالضرورة على معالجته، ووصفه، لما كتب عنه من أقاليم، ومناطق جغرافية متعددة ومنها بلاد الشام بطبيعة الحال.

وقد ألف القزويني كتابين هامين في المجال الجغرافي، حققا له ذبوعاً في الصيت، ومكانة علمية رفيعة، وهما : آثار البلاد وأخبار العباد^(٥)، وعجائب المخلوقات وغرائب الموجودات^(٦)، والكتاب الأول، وهو الأكثر فائدة لنا في دراستنا. نجد القزويني فيه لا يعطى اهتمامه للمسالك فقط، بل إنه يهتم كذلك بأوضاع المناطق التي يتناولها، وكذلك عناصر السكان^(٧)، أما كتابه الثاني، فيندرج تحت الجغرافيا الفلكية، والرياضية، أو ما يطلق عليه في الوقت الحالي تعبير الكوزموجرافى Cosmography، أى وصف الكون^(٨).

ومن الضرورة بمكان معرفة المصادر التي استقى منه القزويني مادته الجغرافية عن بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، والواقع أنه أفاد من ترحاله ومشاهداته الشخصية في ربوع بلاد الشام، كما أنه أفاد من كتابات بعض الجغرافيين والرحالة المسلمين مثل السائح الهروي^(٩) (ت ٦١١هـ / ١٢١٥م) وكذلك ياقوت الحموي^(١٠) (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)، ولا نزاع في أن مؤلفاتهما، كانت متوافرة لدى القزويني عندما تصدى بالتأليف لكتابه السابقين، على نحو دعم رؤيته الجغرافية لتلك البلاد.

ولا نزاع، في أن الوضع السابق يعكس حقيقة جليلة ألا وهي أن الجغرافيين المسلمين بنيت معارفهم من خلال جهود زملائهم السابقين، وأضافوا من بعد ذلك إليها تصوراتهم الشخصية، وهي ظاهرة ندركها بوضوح طوال مرحلة العصور الوسطى، على نحو أفاد الباحثين المحدثين في تتبع تطور الفكر الجغرافي لدى المسلمين في تلك العصور ذات الثراء العلمى الإسلامى الواضح.

وجدير بالذكر، أن القزويني تعرض للعديد من الجوانب ضمن تناوله لبلاد الشام. فمن ذلك ذكره للساحل الشامي بمدنه المتعددة ومظاهر أوضاعها الحضارية، كذلك تعرض للخريطة العقائدية لبلاد الشام، سواء بالنسبة للمسلمين، أو أهل الذمة مثل اليهود. ثم أنه تصدى للحدث عن المزارات الدينية هناك لاتباع الأديان السماوية الثلاثة : اليهودية، والمسيحية، والإسلام، ثم أنه تعرض لمناطق الاستشفاء، أو السياحة العلاجية. وبالإضافة إلى ذلك تناول الجانب الاقتصادي، من ذلك تعرضه لمصادر الثروة المائية المتعددة في بلاد الشام، وكذلك النشاط الاقتصادي لاسيما التجاري، وأوضاع الأسواق والعملة النقدية، وزيادة على كافة الجوانب السابقة، نجد أنه يتعرض للحياة الاجتماعية في بعض المدن الشامية.

ويلاحظ أن القزويني في رؤيته لبلاد الشام، يعطى اهتماماً خاصاً لمدن الساحل الشامي، ذات الأهمية الاقتصادية التجارية الفائقة، وهو في ذلك يشترك في نفس التوجه لدى غيره من الجغرافيين المسلمين ورحالهم، وكذلك الأوروبيين الذين وفدوا على المنطقة في عصر الحروب الصليبية، ونجد - على سبيل المثال - يذكر مدينة عكا ويقرر أنها مدينة تقع على ساحل بحر الشام^(١١)، ويصفها بأنها في أيامه أحسن بلاد الساحل وأعمرها^(١٢)، ومن الواضح أن تلك المدينة البالغة الأهمية، والتي تصارع من أجل السيطرة عليها المسلمون، ونجد ذلك بصورة جلية خلال أحداث الحملة الصليبية الثالثة ومن الواضح أن مدينة عكا ازدادت في نشاطها التجاري ومن ثم توسع عمرانها على عصر القزويني بصورة كبيرة، وعلى نحو جعله يصفها بمثل ذلك الوصف الذي يستشعر من خلاله انعدام منافسة أية مدينة على الساحل الشامي لعكا، في تميزها الاقتصادي لاسيما التجاري، وكذلك في توسعها العمراني، وبالتالي اختلفت رؤيته لها عن رؤية ياقوت الحموي الذي لم يصورها أحسن مدن الساحل بل من أحسنها.

ومن جهة أخرى؛ ومن خلال إدراك ذلك الجغرافى لأهميتها نجد أنه يورد لنا نبذة موجزة عن تاريخها، تدعيماً لأهميتها، ولدورها التجارى، وحتى يمزج بين الرؤية الجغرافية، والرؤية التاريخية، وقد قرر استيلاء الصليبيين عليها عام ٤٩٧هـ / ١١٠٣م^(١٣). واستمرار سيطرتهم عليها إلى أن انتزعها المسلمون مرة أخرى فى عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م^(١٤)، فى أعقاب انتصارهم فى معركة حطين، فى نفس العام^(١٥). وهو فى ذلك يتفق مع منهج ياقوت الحموى بين الجغرافيا والتاريخ.

وإضافة إلى ذلك، نجد القزوينى يعطى أهمية لمدينة ساحلية أخرى من مدن الساحل الشامى، ونعنى بها عسقلان Ascalon، وقد أشار إلى أهميتها، وذكر ظروف استيلاء الصليبيين عليها، وذلك فى عام ٥٤٨هـ / ١١٥٣م، واستمرار سيادتهم عليها، حتى تم استردادها لصالح المسلمين فى عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م^(١٦) فى أعقاب المعركة المظفرة السابقة.

ومن المعروف أن عسقلان سقطت فى عهد الملك الصليبي بلدوين الثالث Baldwin III (١١٤٣-١١٦٣م) بعد حصار طويل، وذلك فى عام ١١٥٣م / ٥٤٨هـ^(١٧)، وسقوطها سقطت آخر المعاقل الفاطمية فى فلسطين^(١٨)، واكتملت السيادة الصليبية على الساحل الشمالى^(١٩) الذى امتد من سان سيمون St. Simeon (السويدية) ميناء أنطاكية Antioch فى الشمال، حتى غزة Gaza فى الجنوب بامتداد أربع مائة ميلاً.

وقد أشار القزوينى إلى مرحلة هامة من مراحل تاريخ عسقلان عندما اضطر السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي إلى تدميرها وتخريبها وذلك فى عام ٥٨٧هـ / ١١٩١م^(٢٠)، وذلك فى ظروف أحداث الحملة الصليبية الثالثة، ويلاحظ أن أمر تخريبها قد نص عليه صلح الرملة الذى وقع بين السلطان الأيوبي والملك الإنجليزي ريتشارد الأول Richard I (١١٨٩-١١٩٩م / ٥٨٥-٥٩٥هـ).

كذلك نجده يتعرض لإحدى المدن الساحلية اللبنانية الهامة، ونعني بها مدينة صور Tyre، وقد قرر أنها مدينة ذاتمة الصيت، على طرف بحر الشام^(٢١)، وأوضح أمر استدارة حائطها على مينائها «استدارة عجيبة»^(٢٢)، ومن الواضح أن حصانة تلك المدينة قد استرعت انتباه القزويني، ومن المحتمل أن يكون وصفه لها دليلاً على أنه رآها بالفعل، بيد أن تأكيد ذلك ليس في الاستطاعة لعدم إفصاح النص الذي قدمه في هذا الشأن.

ونجدر الإشارة إلى أن حصانة مدينة صور، قد جعلت العديد من الرحالة المسلمين والأوروبيين يتناولونها بالذكر، حتى صار أمراً تقليدياً عندما ترد تلك المدينة في نصوص الجغرافيين والرحالة التي وصلت إلينا من عصر الحروب الصليبية أن تجد ذكر حصانتها التي أدخلتها إلى تاريخ الحروب الصليبية بجدارة لاسيما في أعقاب معركة حطين ولجوء فلول الصليبيين إليها ثم تعاقب أحداث الحملة الصليبية المذكورة. ويلاحظ أن وصف القزويني لها يعد موجزاً، ومختصراً، إذا ما قورن بوصف أحد الرحالة المسلمين الذين وفدوا على بلاد الشام خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ونعني به ابن جبير وهو ما سنتناوله في الفصل المخصص له من هذه الدراسة.

كما أنه يتناول بالإشارة مدينة ساحلية هامة أخرى وهي اللاذقية Ladacia، التي ذكر أنها مدينة من سواحل بحر الشام، وذكر أنها «عتيقة»^(٢٣) وتفيد الإشارة الأخيرة في مزج القزويني الماهر بين الرؤيتين الجغرافية والتاريخية، وحرصه على إبراز صفة القدم على بعض المدن دون الأخرى، على نحو عكس رؤيته الخاصة في هذا المجال، وإن لم يضيف ما يدعم تلك الزاوية التي أشار إليها.

وقد قرر أن الصليبيين استولوا عليها، فيما ملكوه من بلاد الساحل في حدود عام ٥٠٠هـ / ١١٠٦م، وأن المسلمين استردوها في عام ٥٨٤هـ / ١١٨٨م^(٢٤)، في عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي.

ومن الملاحظ في عرض القزويني للساحل الشامى، أنه لم يورد كافة المدن الموجودة به، وإنما أورد نماذج محددة معينة، عكست اهتمامه بالدور الاقتصادى التجارى الذى لعبته تلك المنطقة الحيوية، والهامة من بلاد الشام. وهو فى هذا المجال يتشابه مع ما أورده الرحالة المسلمون والأوروبيون سواء المسيحيين أو اليهود، وإن اتسمت إشاراته فى ذلك المجال بطابع يميل نحو الاختصار إلى حد ما، دون أن يقدم لنا التفاصيل الضافية التى يتوق إليها الباحثون.

ومن جهة أخرى، نجد أن القزوينى، اهتم بأن يقدم لنا جانباً من الخريطة العقائدية التى كانت عليها بلاد الشام، فهو يحرص على إيراد توزيعات العناصر السنية، وكذلك الشيعية، وأيضاً أماكن وجود اليهود فى مناطق معينة فى بلاد الشام، فعلى سبيل المثال؛ أورد لنا أن مدينة حلب - حاضرة شمال الشام الهامة - «أهلها سنية وشيعية»^(٢٥)، أما فى حمص فقد لاحظ وجود العناصر النصيرية فيها^(٢٦)، وقد قرر أنه من الأمور التى تثير العجب أنهم كانوا من أكثر الناس شدة على الإمام على كرم الله وجهه، ولكن فيما بعد صاروا من غلاة الشيعة^(٢٧). ووصل بهم الأمر، أن صاروا أكثرية فى حمص^(٢٨) كما يقرر نفس الجغرافى.

ويستمر القزوينى فى عرضه للخريطة العقائدية لبلاد الشام؛ فيقرر أن جبل السماق، وهو من أعمال حلب، يشتمل على مدن وقرى أغلبها للعناصر الاسماعيلية^(٢٩). وهو أمر أورده من قبل ياقوت الحموى، ومن الواضح أن ذلك الجبل عد منطقة تركيز تقليدى لهم.

وتجدر الإشارة إلى أن الوجود الاسماعيلى النزارى فى بلاد الشام فى عصر القزوينى، قد خفت حدته، ولم يحتفظ الاسماعيلية حينذاك بنفس قوتهم فى عمليات الاغتيال التى روعوا بها الأهلىين، لاسيما عمليات الاغتيال التى قاموا بها ضد قادة حركة الجهاد الإسلامى مثل اغتيال شرف الدين مودود عام ٥٠٥هـ / ١١١١م^(٣٠)،

وكذلك سنقر البرسقى عام ٥٥١هـ / ١١٢٦م^(٣١)، واغتيال بعض أمراء الشام مثل جناح الدولة حسين صاحب حمص، عام ٤٩٧هـ / ١١٠٣م^(٣٢)، وخلف بن ملاعب صاحب أفاميه، عام ٤٩٩هـ / ١١٠٥م^(٣٣)، وكذلك محاولتين لاغتيال صلاح الدين الأيوبي، وقد أقر القزوينى نفسه بأنهم «قتلوا جمعا من العظماء على يد الفداوية»^(٣٤).

وقد أورد القزوينى إشارات تفيد بأنه فى عهد الملك العادل نور الدين محمود، أنكر وجود ملك الإسماعيلية، فى مناطق وسط بلاده، فجاءه من أجل محاربتة، ولما نزل عليه فى الليلة الأولى أصبح فوجد رسالة تهديد وسكيناً عند رأسه^(٣٥)، والمرجع أن هذه الرواية لا أساس لها من الواقع التاريخى، ويبدو أنها من نسج الخيال الشعبى، ويظهر أن القزوينى قد أدرك ذلك إذ جعل الرواية على اعتبار أنه «حكى»، ويدعم تصورى هذا، أن المصادر التاريخية المعاصرة لنور الدين محمود؛ لا تشير البتة إلى محاولته الاستيلاء على مناطق الاسماعيلية النزارية، خاصة أنه جعل همه الأكبر مواجهة القوى الصليبية ممثلة فى إمارة أنطاكية وكذلك إمارة طرابلس، ومملكة بيت المقدس الصليبية، وأمام صمت المصادر المعاصرة عن تلك الحادثة نتصور أنها واهية دونما دعم مصدرى.

أما بالنسبة للوجود اليهودى فى المدن الشامية، نجد أن القزوينى قد أشار إلى وجود اليهود فى مدينة نابلس، وقرر أن بها اجماع السامرة^(٣٦)، وأوضح أن اليهود يرون فيهم أنهم مبتدعون أحيانا^(٣٧)، وأحيانا أخرى نجد من العناصر اليهودية من يرى أنهم خارجون عن العقيدة اليهودية^(٣٨)، مع ملاحظة أنه غض الطرف عن وجود اليهود فى المدن الإسلامية الشامية، مثل دمشق، وحلب وغيرها. الأمر الذى جعل روايته محدودة الأهمية فى هذا الشأن.

فإذا نحيننا ذلك جانباً، وتوجهنا إلى زاوية أخرى من الزوايا التى تعرض لها القزوينى فى بلاد الشام، نجد أنه حرص على إبراد أمر المزارات الدينية التى تعددت فى أنحاء متفرقة

سواء في مناطق المسلمين أو الصليبيين، وفي تقديري أن إطلاع القزويني على ما ألفه الهروي عن الزيارات ربما جعله يعنى بإيراد تلك المواضع، وهي توضح أن منها ما كان لليهود. ثم هناك مزارات للمسيحيين، كما توافرت مواضع زيارة من جانب المسلمين، وكذلك مزارات مشتركة اشترك فيها أصحاب الديانات الثلاث، اليهودية، والمسيحية، والإسلام.

فبالنسبة لليهود، نجد أنه أورد وجود عين تحت كهف في نابلس عظمتها عناصر السامرة، وبالمنطقة بيت عبادة خاص بالسامرة^(٣٩)، أما العناصر المسيحية، فنجد أنه أورد أمر كنيسة القيامة في بيت المقدس، وأشار إلى أنها كنيسة عظيمة لدى المسيحيين^(٤٠). كما ذكر أمر عين سلوان التي يتم التبرك بها^(٤١)، وفي بيت لحم يوجد ماء يقال له المعمودية وهو «عظيم القدر» عندهم^(٤٢)، أما بالنسبة للمزارات الخاصة بالمسلمين، فقد ذكر وجود مشاهد رأس الحسين عليه السلام في عسقلان، ويقدم إليه الناس من كافة الأنحاء^(٤٣)، أما مسجد حبيب النجار فإنه في أنطاكية وفيه قبره، ويزوره الناس^(٤٤)، أما أنطربطوس، ففيها مصحف عثمان بن عفان، وقد أشار إلى أن الناس يذهبون إليه تبركا به^(٤٥).

وإلى جانب تلك المزارات السابقة الخاصة بأصحاب كل دين من الأديان السماوية الثلاثة سواء اليهود، أو المسيحيين، أو المسلمين، أشار القزويني إلى وجود مزار قرب عكا يعرف بعين البقر، يقدم إليه أصحاب الأديان الثلاثة^(٤٦). وقد ذكر أيضاً وجود مشهد على العين منسوب إلى الإمام علي بن أبي طالب^(٤٧). ومن المتوقع أن العناصر المسلمة فقط هي التي توجهت إلى المشهد الأخير وخاصة الشيعة منهم.

وهكذا، فإن القزويني، يورد عدداً وافراً من المزارات الدينية المتناثرة في ربوع بلاد الشام، وهنا نجد أنه يختلف عن ياقوت الحموي الذي أورد عدداً منها في كتابه معجم البلدان، فعلى حين نجد أن ياقوتاً يقرر صراحة أن بعض مواضع الزيارات غير صحيحة، أو

أن أصحابها دفنوا في أماكن أخرى^(٤٨)، إلا أن القزويني يؤثر السلامة، ولا يشير إلى ذلك البتة، وهذا يعكس لنا ناحية هامة، ألا وهي، أن الجغرافيين المسلمين اختلفوا في معالجة أمر تلك المزارات الدينية، وأن منهم من عارضها في شجاعة نادرة، والبعض الآخر أثر السلامة، ولم يشأ أن يعارض عقائد العامة، والحس الشعبي العام في ذلك العصر الذي تزايدت فيه ظاهرة المزارات والاعتقاد بأصحابها، والتبرك بأضرحتهم، وكل ذلك يمكن رصده من خلال تعاطم ظاهرة التصوف التي تسيدت ذلك العصر.

والى جانب المزارات الدينية السابقة، أوضح القزويني وجود مزارات بغرض الاستشفاء، مثل تلك العيون الموجودة في منطقة طبرية، وخاصة موضع يقال له «الحسنية»^(٤٩) حيث يأتي إليه المرضى من أجل العلاج، ويلاحظ أن الإدريسي قد أشار من قبل إلى تلك الظاهرة العلاجية الهامة في نفس تلك المنطقة، وكان من أوائل الجغرافيين المسلمين الذين وفدوا على بلاد الشام وأشار إلى ذلك في خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر ميلادي، ويلاحظ أن القزويني - على ما يبدو - كان شديد الإعجاب بذلك الموضع العلاجي الذي سمي بالحسنية، حتى أنه عده من «عجائب الدنيا»^(٥٠) الأمر الذي يعكس الفعالية العلاجية لتلك المنطقة، ويبدو أنه عبر بذلك عن اعتقادات المعاصرين أنفسهم في هذا الشأن.

ومن جهة أخرى، احتوت إشارات القزويني على رؤية اقتصادية هامة لبلاد الشام في ذلك العصر، وتتمثل رؤيته في هذا الشأن في حرصه على تناول مصادر الثروة المائية التي هي عصب النشاط الاقتصادي والعمراني، ثم تعرضه للأسواق التجارية وكذلك العملة النقدية المتداولة حينذاك.

وفي مجال الثروة المائية، والتي شهدت في عصر الحروب الصليبية تنافساً، وتصارعاً عنيفاً بين المسلمين، والصليبيين، من أجل تدعيم السيادة الاقتصادية، والسياسية بالتالي، نجد أن القزويني يورد أن غوطة دمشق تمتد فيها عدة أنهر^(٥١)، الأمر الذي وفر لتلك

المنطقة ثراء زراعياً مشهوداً، أما بيت المقدس فإنها تعتمد على مياه الأمطار، ولذا فكل بيت فيها يملك صهريجاً من أجل تخزين المياه^(٥٢)، كما ذكر أن بها ثلاث برك، وهى بركة بنى إسرائيل، وبركة سليمان، ثم بركة عياض^(٥٣)، وفى فيج أشار إلى أن أهلها يشربون من قننى تسبح على وجه الأرض^(٥٤)، وفى كفر طاب لاحظ أنها فى برية معطشة، وأن المياه نادرة بها، ولذا يشرب أهلها من مياه الأمطار^(٥٥).

وبدل عرضه السابق على تنوع مصادر المياه بالنسبة لأهل الشام من أنهار وأمطار وعيون ثم استعمال وسائل تخزين المياه خاصة الصهاريج، كما أن ما أورده يعكس أن بلاد الشام كانت تعاني فى بعض الأحيان من مشكلة نقص المياه خاصة فى المناطق التى لم تتوافر بها الأنهار.

أما الأسواق، فنجد أنه يحرص على إبراد بعض أسواق المدن التجارية الشامية، والتى ازدهرت فيه العديد من الصناعات، والسلع التجارية، ومن أمثلة ذلك؛ ذكره لأسواق مدينة حلب بشمال الشام، وقد أعجب القزوينى بسوق الزجاج بها^(٥٦)، ورأى أن المرء إذا اجتاز بها لا يريد أن يغادر ذلك السوق وذلك لكثرة ما يشاهده من مصنوعات متقنة^(٥٧). وأشار إلى أن تلك المصنوعات الزجاجية الحلبية يتم تصديرها إلى مختلف البلاد^(٥٨). على نحو عكس تفوقها بحيث صارت سلعة تجارية تدخل فى نطاق التصدير للدول الأخرى.

ومن المعروف أن صناعة المنتجات الزجاجية قد ازدهرت فى عصر الحروب الصليبية فى العديد من المدن الشامية، ومن المدن الأخرى التى يمكن أن تذكر فى هذا المجال صور^(٥٩)، وعكا^(٦٠)، حيث أشار المؤرخون الصليبيون المعاصرون مثل وليم الصورى، وكذلك ما ألفه الرحالة الأوروبيون؛ الذين زاروا بلاد الشام فى ذلك العصر لاسيما اليهود مثل بنيامين التطيلي الذى أشار إلى تفوق مثل تلك المدن فى الصناعات الزجاجية^(٦١).

كما أن القزويني أعجب بأحد أسواق حلب الطريقة ونعنى بها سوق المزوقين، وقد وصفها بأن فيها «آلات عجيبة ومزوقة»^(٦٢)، ويبدو أن هذين السوقين كانا أكثر الأسواق التي لفتت انتباه ذلك الجغرافى على الرغم من أن منها ما كان من الكماليات، مع عدم إغفال أسواق هامة أخرى للعديد من السلع التجارية لم يشر إليها القزويني، وإذا كان هذا هو حال مدينة حلب فى شمال الشام، فإن مدينة دمشق كانت أكثر ثراء وازدهاراً على المستوى الحرفى والتجارى. وهذا يتضح لنا بجلاء من خلال كتابات المؤرخين السابقين على عصر القزويني الذين قدموا لنا وصفاً طبوغرافياً للمدينة المذكورة اشتمل على أسواقها المتعددة.

ومن جهة أخرى، نجد أن القزويني اهتم بإيراد أمر العملة المتداولة فى عصره فى بلاد الشام، وفى هذا المجال أشار إلى الدينار الصوريه التى سكّت فى مدينة صور الساحلية، وذكر أن تلك الدينار يتعامل عليها أهل الشام، والعراق^(٦٣).

وتجدر الإشارة إلى أن الدينار الصوريه كانت من أكثر أنواع العملات النقدية التى اتسع نطاق التعامل النقدي بها فى عصر الحروب الصليبية وهى عبارة عن عملة ذهبية عليها نقوش عربية وآيات قرآنية^(٦٤).

فإذا غادرنا تلك الناحية الاقتصادية ضمن إشارات القزويني عن بلاد الشام، وجدنا أنه قدم لنا رؤية طريفة، لبعض مظاهر الحياة الاجتماعية فى مدن الشام الكبرى مثل دمشق وحلب، وهى التى يمكن وصفها بأنها من وسائل التسلية وإدخال المرح على النفوس، وفى هذا المجال نجلده يقرر أن أهل دمشق يجمعون من كل يوم سبت أمر الاشتغال باللهو، واللعب، يستوى فى ذلك الرجال، والنساء، والأطفال، حيث يلتقون بأصدقائهم، ويخرجون إلى البساتين، ويتجه القوم إلى الميدان الأخضر، الذى تحيطه مظاهر الخضرة وكذلك المياه الجارية^(٦٥).

وقد أوضح أن فى ذلك اليوم يوجد المغنون، والساخرة، والمصارعون^(٦٦)، الذين يؤدون ألعابهم، وأدوارهم التمثيلية من أجل إدخال البهجة على نفوس الأهلىن، على نحو عكس أن ذلك المجتمع، لم يعدم وسائل التسلية على الرغم من جو الحرب الذى عاشه بصفة عامة.

أما إذا توجهنا إلى مدينة حلب، فنجد أنهم يحددون مناسبة مثل تلك السابقة لدى أهل دمشق، ونعنى بها أول الربيع وتسمى الشلاق، حيث يخرجون إلى ظاهر المدينة وقد انقسموا إلى فرقتين متقاتلتين متصارعتين^(٦٧).

ويعنى هذا كله، أن المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام لم يعدم وجود العديد من وسائل التسلية^(٦٨)، والترويح عن النفس، وأن الصراع بين المسلمين والصليبيين، لم يحل دون توافر مثل تلك الوسائل التى عكست انتعاش الحياة الاجتماعية فى المدن الإسلامية الشامية، وقيمة ما أورده القزوينى فى ذلك المجال أن المصادر المعاصرة نادراً ما تشير إلى تلك الزوايا الاجتماعية.

وهكذا، احتوت مؤلفات القزوينى على جوانب هامة عن بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، وتناول المنطقة الساحلية الهامة على المستوى الاقتصادى لاسيما التجارى، وكذلك الخريطة العقائدية لبلاد الشام، سواء العناصر السنية أو الشيعية وكذلك اليهودية، ثم تناوله للمزارات الدينية لمعتقى الأديان السماوية الثلاثة بالإضافة إلى إشاراته الاقتصادية والاجتماعية.

الهوامش

(١) عن القزويني أنظر :

ابن القوطي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق مصطفى جواد، ط. بغداد ١٣٥١هـ، ص ١٢٨-١٣٠؛ تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، ح ٤/٢، تحقيق مصطفى جودة، ط. دمشق ١٩٦٧م، ص ٧٢٥-٧٢٦؛ على عبدالله الدفاع، علوم الكون في الإسلام : القزويني، الدارة، العدد (٣)، السنة (٧)، ربيع الثاني ١٤٠٢هـ / فبراير ١٩٨٢م، ص ٢٢٧؛ محمد محمود محمد، شمولية الفكر الجغرافي في كتب التراث، الدارة، العدد (٤)، السنة (٩)، رجب ١٤٠٤هـ / أبريل ١٩٨٤م، ص ١٧٣؛ أحمد عيسى، تاريخ النباتات عند العرب، ط. القاهرة ١٩٤٤م، ص ١١٥؛ محمد مفيد آل ياسين، الحياة الفكرية في العراق في القرن السابع الهجري، ط. بغداد، ١٩٧٩م، ص ٣١٦-٣١٧؛ عبدالرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، ص ٤٠٤-٤٠٥؛ زغلول التجار والدفاع، إسهام علماء المسلمين الأوائل في علم الأرض، ص ٤٠٧؛ شوقي ضيف، الرحلات، ص ٢١؛ محمد أحمد العقيلي، جهود الجغرافيين المسلمين في رسم الخرائط، الدارة، العدد (٢)، السنة (٥)، المحرم ١٤٠٠هـ / ديسمبر ١٩٧٩م، ص ١٦٩؛ عمر فروح، تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، ط. بيروت ١٩٧٢م، ص ٥٥٩؛ أحمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٢٩٧؛ صلاح الشامي، الإسلام والفكر الجغرافي العربي، ص ١٣٠؛ محمد أمين فرشوخ، موسوعة عباقرة الإسلام في العلم والفكر والأدب والقيادة، ط. بيروت ١٩٩٢م، ص ٥٥؛ الفاضل العبيد عمر، الطب الإسلامي عبر القرون، ط. الرياض ١٩٨٩م. ص ٣٩٢.

Ruhricht, Chronologisches, p. 60.

(٢) عبدالرحمن حميدة، المرجع السابق، ص ٤٠٤.

(٣) عبدالحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، ط. القاهرة ١٩٧٣م، ص ٢٤٧.

محمد محمود محمد، الجغرافيا والجغرافيون بين الزمان والمكان، ص ١٦٦.

(٤) على عبدالله الدفاع، رواد علم الجغرافيا، ص ١١٥؛ محمد محمود محمد، المرجع السابق، ص ١٦٦.

(٥) حقق المستشرق وستفيلد Wustenfield كتاب آثار البلاد وأخبار العباد، وصدر عمله في توبنجن عام ١٨٤٨م، وعنوان عمله هو :

Wustenfield, Zakarija Ben Muhammed Ben Mahmud El-Cazwini's Kosmographie Zweiter Theil Die der Lander, hrsg- Von F. Wustenfield, Gottingen 1848.

وهناك طبعة أخرى من آثار البلاد وأخبار العباد، صدرت في بيروت بدون تاريخ، وهي التي اعتمدت عليها في إعداد هذا الفصل.

(٦) حقق المستشرق وستفيلد كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، وصدر عمله في توبنجن عام ١٨٤٩م، وعنوان عمله هو :

Wustenfield, Zakarija Ben Muhammed el. Cazwinis die kosmographie erster Theil Wunder der Schopfunghrsg. Von. F. Wustenfield, Gottingen 1849.

والجدير بالذكر هنا، أن الطبعة الثانية للكتاب المذكور قد صدرت في القاهرة في عام ١٨٩٢م، ثم صدرت عدة طبعات تجارية أخرى بهامش كتاب حياة الحيوان الكبرى للدميري، كما نشرت ترجمة له إلى الفارسية في لكتاو عام ١٨٠٥م، ثم صدرت له ترجمة تركية، كما يلاحظ أن للكتاب المذكور ملخصاً قام به الباتوني (ت ٨٠٦هـ / ١٤٠٤م) تحت عنوان الآثار من عجائب المخلوقات. عن ذلك أنظر : مصطفى النجار والدفاع، المرجع السابق، ص ٤١١.

ومن المهم أن نلاحظ أن التأليف في مجال العجائب خاصة في الزاوية الجغرافية، يمثل توجهاً وجد من قبل القزويني واستمر من بعده، من ذلك أننا نعرف أن محمد علي بن حسين المسعودي (ت ٣٤٦هـ / ٩٩١م) قد ألف كتاباً بعنوان عجائب الدنيا، كما أن أبا جعفر أحمد بن إبراهيم (ت ٤٠٠هـ / ١٠٤٥م) قد ألف كتاب عجائب البلدان، أضف إلى ذلك وجود كتاب بعنوان عجائب المخلوقات، وهو فارسي، ل محمد بن محمود بن أحمد الطوسي، السلماني، وقد ألفه عام ٥٥٥هـ / ١١٦٠م، ثم كتاب عجائب المخلوقات، وهو تركي، لمؤلف اسمه أحمد المعروف ببيجان، وقد ألفه ببلدة كليبولي في عام ٨٥٧هـ / ١٤٥٨م، وأخيراً، هناك كتاب عجائب البحر للمولى علمشاه عبدالرحمن بن صاحبلى أمير (ت ٩٨٧هـ / ١٥٨٨م)، ومن قبل ألف في ذات العنوان على بن عيسى الحراني كتاباً للخليفة المقتدر. عن ذلك أنظر :

حاجي خليفة، كشف الظنون، ح-٢ / ق ١، ص ١١٢٦-١١٢٧.

وعلى الرغم من اشتها القزويني بتأليف كتابيه، آثار البلاد وأخبار العباد، وكذلك عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، إلا أن حاجي خليفة يشير في كتابه إلى أن القزويني قد ألف كتاب عجائب البلدان، وقد أشار إلى أنه جعل أوله «العز لك، والجلال لكبريائك»، وبالمبحث اتضح أن

هذه هي بداية كتاب آثار البلاد وأخبار العباد، مما يدعوني إلى الاعتقاد بأن حاجي خليفة تصور أن كتاب القزويني عجائب البلدان كتاب ثالث، بينما في الواقع أن القزويني لم يؤلف كتاباً - على الأرجح - بذلك العنوان لتطابق بدايته مع ما أورده في مقدمة آثار البلاد. عن إشارة حاجي خليفة أنظر :

كشف الظنون، ح-٢ / ١، ص ١١٢٦.

وقد أشار صالح دياب هندي، إلى أن من مؤلفات القزويني كتاب صفة الأرض، بيد أن ذلك لم يرد في المؤلفات المتخصصة في مجال الرحالة والجغرافيين المسلمين في العصور الوسطى، أنظر ما ذكره :

صالح دياب هندي، دراسات في الثقافة الإسلامية، ط. عمان ١٩٨٢م، ص ٢٣٠.

(٧) شوقي ضيف، المرجع السابق، ص ٢١.

(٨) حسين مؤنس، مكان المسلمين في التاريخ العام لعلم الجغرافية، ص ٢٣٤.

(٩) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ط. بيروت ب-ت، ص ١٤١، وهذا تجده من خلال وصفه لطبرية.

(١٠) نفسه، نفس المصدر، ص ٤٠٨، وهو ما تجده من خلال وصفه لطرابلس الشام.

(١١) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٢٣.

(١٢) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١٣) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٢٤.

(١٤) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١٥) عن ذلك أنظر : الفصل الرابع، حاشية (١٢).

(١٦) القزويني، المصدر السابق، ص ٢٢٥.

(١٧) عن ذلك أنظر : الفصل الأول، حاشية (٣٨).

(١٨) محمد مؤنس أحمد عوض، التنظيمات الدينية، ص ٤٨٠؛ حسين مؤنس، نور الدين محمود،

ص ٢٥٧.

(١٩) عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ٦٦٥.

Northop, The Knights Templars, p. 45.

(٢٠) القزويني، المصدر السابق، ص ٢٢١.

(٢١) نفسه، نفس المصدر، ص ٢١٧.

(٢٢) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٢٣) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٥٨.

(٢٤) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٥٩.

(٢٥) نفسه، نفس المصدر، ص ١٨٣.

(٢٦) نفسه، نفس المصدر، ص ١٨٥.

والنصيرية، فرقة شيعية متطرفة نسبت إلى نصير مولى الإمام على بن أبي طالب، رضى الله تعالى عنه، وقد زعموا أن الله تبارك وتعالى حل في الإمام. ويعتقدون أن الشمس وقفت له كما وقفت ليوشع بن نون من قبل، وتصوروا فكرة الفيض الإلهي الذي حل في شكل سلم متدرج من الناس على رأسهم كان الإمام على. عن عقائد النصيرية أنظر بالتفصيل :

الرازي، اعتقادات فرق المسلمين والمشركون، تحقيق النشار، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص ٦١؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ط. القاهرة ب-ت، ص ١٨١-١٨٩؛ الحسيني عبد الله، الجذور التاريخية للنصيرية العلوية، ط. القاهرة ١٩٨٠م، ص ٢٧-٦٥؛ سليمان الحلبي، طائفة النصيرية، ط. القاهرة ١٩٨٢م.

Dussaud, Histoire et religion des Nusairis, Paris 1900; Cahen, "Note Sur Les Origines de la Communité Syrienne de Nusayrie", R.E.I, T. XXX VIII, Année 1978, pp. 243-249; Hammer, "Tableau genealogique des Sixante Treize sectes de L'Islam", J.A., Vol. VII, Année 1915, p. 44.

(٢٧) القزويني، آثار البلاد، ص ١٨٥.

(٢٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٢٩) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٠٨؛ عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ط. بيروت ب-ت،

ص ١٥٣-١٥٤

(٣٠) من اغتيال شرف الدين مودود أنظر :

ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق أمين روتر، ص ١٨٧، ابن عساكر، ولاية دمشق في العصر السلجوقي، تحقيق صلاح الدين المنجد، مجلة المجمع العلمي بدمشق، م (٢٤)، حـ (٤)، عام ١٩٤٩م، ص ٥٥١؛ كمال بن ماسي، العلاقة بين الموصل وحلب ودورها في الحرب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس عام ١٩٩١م، ص ٢٠٦؛ عفاف صبرة، الأمير مودود بن التوتكين اتابك الموصل ودوره في حركة الجهاد الإسلامي، الدارة، العدد (٢)، السنة (١٢٠)، المحرم ١٤٠٧هـ / سبتمبر ١٩٨٦م، ص ١٣٠؛ عبدالغنى رمضان، شرف الدين مودود اتابك الموصل والجزيرة، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، م (٤)، عام ١٩٧٦م، ص ١٤٨؛ شاكور مصطفى، طفتكين رأس الأسرة البورية، مجلة كلية الآداب، جامعة الكويت، العدد (١) عام ١٩٧٢م، ص ٦١؛ عثمان عشري، الاسماعيليون في بلاد الشام في القرنين ١٢، ١٣م، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة عام ١٩٧٥م، ص ٧٥؛ حامد زيان، الصراع السياسى والعسكرى بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٨٣م، ص ٩٤؛ عماد الدين خليل، المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، عصر ولاية السلاجقة في الموصل (٤٨٩-٥٢١هـ / ١٠٩٥-١١٢٧م)، ط. الرياض ١٩٨١م، ص ١٠٥.

Fink, "Mawdud of Mosul, precursor of Saladin", M.W., Vol. XLIII, 1953, p. 26.

(٣١) عن اغتيال آقسنقر البرسقى أنظر :

ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٢١٤؛ ابن الأثير، الباهر، ص ١٥؛ ابن العديم، زبدة الحلب، حـ ١، ص ٢٣٢؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، حـ ١، ص ٢٤٢-٢٤٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، حـ ١٢، ص ١٩٥؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٠٢؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، حـ ٤، ص ٦١؛ العماد الأصفهاني، البستان الجامع لجميع تواريخ الزمان، ص ١٢٠؛ زكى نقاش، الحشاشون وأثرهم فى السياسة والاجتماع، ص ١٢٦، ١٣٢؛ حسن حبشى، نور الدين والصليبيون. ط. القاهرة ١٩٤٨م، ص ٢٢؛ رشيد الجميلي، دولة الأتابكة بالموصل بعد عماد الدين زنكى، ط. بغداد، ص ٤٤؛ ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٦٦م، ص ١٥٤؛ سعيد الديوجي، الموصل فى العهد الأتابكي، ط. بغداد ١٩٥٨م، ص ١٩.

Chen, La Syrie du nord à L'époque des croisades, Paris 1940, p. 304;
Lewis, The Assassins, p. 109; Runciman, A History of The Crusades, Vol. II,
p. 118; Stevenson, The Crusaders in the east, p. 118.

(٣٢) ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، تراجم الأمراء السلاجقة، تحقيق على سوييم، ط. أنقرة
١٩٧٦م، ص ١٢٢-١٢٣.

Gibb, The Damassus chronicle of the Crusades, London 1958, p. 27;
Lewis, "The Ismailites and The Assassins", in Setton, A History of The
Crusades, Vol. I, pennsylvania 1955, p.111.

(٣٣) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٢، ص ١٥١-١٥٢؛ ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج ٥،
ص ١٩٢؛ السيد العزاوي، فرقة النزارية، تعاليمها ورجالها على ضوء المراجع الفارسية، ط. القاهرة
١٩٧٠م، ص ١٠٧.

(٣٤) القزويني، المصدر السابق، ص ٣٠١.

(٣٥) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٠٧. وعن علاقة نور الدين محمود بالاسماعيلية النزارية أنظر :

ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٥٣٤؛ ابن الحنيلي الحلبي، الزيد والضرب في تاريخ
حلب، تحقيق محمد التوتنجي، ط. الكويت ١٩٨٨م، ص ٢٨.

Khayat, "The Sirte rebellions in Aleppo in the 6th A.H./ 12th A.D.
century", R.D.S.O., Vol. XLVI, 1971, p. 180-181.

(٣٦) القزويني، آثار البلاد، ص ٢٧٧.

(٣٧) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٣٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٣٩) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٤٠) نفسه، نفس المصدر، ص ١٦٣.

(٤١) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٤٢) نفسه، نفس المصدر، ص ١٥٩.

(٤٣) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٢٣؛ عواد مجيد الأعظمي، معالم التراث العربي الإسلامي في
فلسطين، ط. بتد ١٩٧٥م، ص ١٠٩.

(٤٤) القزويني، المصدر السابق، ص ١٥١.

- (٤٥) نفسه، نفس المصدر والصفحة.
 (٤٦) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٢٤.
 (٤٧) نفسه، نفس المصدر والصفحة.
 (٤٨) أنظر الفصل الخاص بياقوت الحموي.
 (٤٩) القزويني، المصدر السابق، ص ٢٦٨.
 (٥٠) نفسه، نفس المصدر والصفحة.
 (٥١) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٣٢.
 (٥٢) نفسه، نفس المصدر، ص ١٦٠.
 (٥٣) نفسه، نفس المصدر والصفحة.
 (٥٤) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٧٤.
 (٥٥) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٤٨.
 (٥٦) نفسه، نفس المصدر، ص ١٨٣-١٨٤.
 (٥٧) نفسه، نفس المصدر والصفحة.
 (٥٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.
 (٥٩) عن مكانة صور في الصناعات الزجاجية أنظر :

William of Tyre, Vol. II, p. 9

سر الختم عثمان، صور في القرنين ١٢، ١٣م، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، عام ١٩٧١م، ص ٢٩٦-٢٩٧.

Jacques de Vitry, The History of Jerusalem, p. 92-93. (٦٠)

Benjamin of Tudela, The Travels of Benjamin of Tudela, in Wright, The early Travels in palestine, London 1848, p. 80.

وليم الصوري William of Tyre، هو المؤرخ الرسمي لمملكة بيت المقدس الصليبية خلال القرن الثاني عشر الميلادي، ولد في بيت المقدس في عام ١١٢٧م أو ١١٣٠م، وذلك بعد أن أخضعها الصليبيون لسيادتهم السياسية، وينبغي أن نفرق بين اثنين من الاشخاص يحملان

نفس الاسم وليم الصوري، وهم انجليزى شغل وظيفة حارس للقبر المقدس The Holy Sepulchre فى بيت المقدس، ويلاحظ أن وليم الصوري مؤلف التاريخ الشهير المعروف باسم تاريخ الأعمال التى جرت فيما وراء البحر، وهو باللاتينية :

Historia rerum impartibus Transmarinis gestarum.

وترجمته بالإجليزية :

History of The deeds done beyond The sea.

كان عارفاً بالرجل الانجليزى الذى حمل نفس اسمه، وقد أورد ذكره فى كتابه، وقد أظهر وليم الصوري منذ نعومة أظفاره حباً للعلم والتحصيل، ومن المتصور أنه التحق ببعض المدارس، التى كانت ملحقة بالأديرة والكنائس، والبعث منها بقصر الملك الصليبي، وقد أظهر ولماً كبيراً باللاهوت المسيحى، على نحو جذب إليه أنظار العديد من رجال الكنيسة، ووصل فى تدرجه إلى وظيفة رئيس أساقفة صور Archbishop of Tyre، وأجاد عدة لغات مثل اللاتينية واليونانية والعربية، وأفاده ذلك فى إثراء كتابته التاريخية، وصار متصلاً بالملك الصليبي عمورى الأول Amaury I (١١٦٣-١١٧٤م) ودعاه إلى تأليف تاريخه السالف الذكر، وله كتاب آخر مفقود، وهو خاص بتاريخ الأمراء الشرقيين وينتهى تاريخه الخاص بالأعمال التى جرت فيما وراء البحر بحوادث ما قبل معركة حطين ١١٨٧م / ٥٨٣هـ، ويقال إن وليم الصوري قد مات مسموماً فى عام ١١٨٤م / ٥٨٠هـ. عن وليم الصوري أنظر :

Krey, "William of Tyre, The making of an historian in The middle ages", Speculum, Vol. XVI, 1941, pp. 149-166; Edbury, "William of Tyre, A Historian of The Crusades and The kingdom of Jerusalem (1130-1184)", B.F.A.A.U., 1988, pp. 43-52.

عمر كمال توفيق، المؤرخ وليم الصوري، مجلة كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، م (٢١)، عام ١٩٦٧م، ص ١٨١-٢٠٠، تقديم حسن حبشى للترجمة العربية لتاريخ وليم الصوري الحروب الصليبية، ح ١، ت. حسن حبشى، ط. القاهرة ١٩٩١م، ص ١٠-٤٠؛ السيد الباز العربى، مؤرخو الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٦٢م، ص ١٠١؛ سر الختم عثمان، صور فى القرنين ١٢، ١٣م، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة عام ١٩٧١م، ص ٣٣٩-٣٤٠؛ سمائلى، المؤرخون فى العصور الوسطى، ت. قاسم عبده قاسم، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص ١٨٦-١٨٧؛ جمال الدين الشيال، التاريخ الإسلامى وأثره فى الفكر التاريخى الأوروبى فى عصر النهضة، ط. بيروت ب-ت، ص ٧٠-٧٤؛ حسين عطية، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون (١١٧١-١٢٦٨م / ٥٦٧-٦٦٦هـ)، ط. الاسكندرية ١٩٨٩م، ص ٣٤، حاشية (١٧).

أما بنيامين التطيلي Benjamin of Tudela، فهو الربى بنيامين Benjamin، ووالده يدعى يونا، وقد ارتحل إلى الشرق من مدينة طليطلة Tudelo، وقام بالتجوال في مناطق جنوب فرنسا، وإيطاليا، واليونان، ومصر واليمن والشام وغيرها من البلاد، ثم عاد أدراجه إلى أسبانيا في عام ١١٧٣م، ويقال إنه خلال ما يقرب من خمسة عشر عاماً زار ما يقرب من ثلاثمائة موضع في مختلف بقاع العالم المعمور حينذاك، وقد اهتم بنيامين التطيلي في رحلته، بعرض أوضاع اليهود في مختلف البقاع التي زارها، ونشاطهم الاقتصادي لاسيما التجاري، والحرفي، وبعد بصفة عامة، أشهر رحلة يهودى في العصور الوسطى، عن بنيامين التطيلي ورحلته أنظر :

The Universal Eney., "Benjamin of Tudela", Vol. II, New York 1969, p. 180; E.J., "Benjamin of Tudela", Vol. IV, Jerusalem 1973, pp. 535-538; Wright, Early Travels in Palestine, London 1848, p. 63; Roth, A. Short History of The Jewish people, London 1953, p. 216; Tobler, Bibliographia geographia palestinae, Leipzig 1867, p. 17; Rührich, Chronologisches Verzeichis der Auf die geographische der Herligen Landes Bezuglichen Literatur, Von 333, Bis 1878, pp. 37-38; Mayer, Bibliographie Zur Geschichte der Kreuzzuge, hannover 1965, p. 65; Asher, The Tinerary of Rabbi Benjamin of Tudela, Vol. I, London 1840, pp 1-24.

وبلاحظ أن عزرا حداد قام بترجمة رحلة بنيامين التطيلي، إلى اللغة العربية، وصدرت الترجمة المذكورة في بغداد عام ١٩٤٣، وهى ترجمة لانزال تحتفظ بجانب كبير من أهميتها على الرغم من مرور نحو نصف قرن على صدورها، وذلك نتيجة للتعليقات الثرية التى أوردها عزرا حداد فى هوامش الترجمة على نحو أفاد الباحثين بشكل واضح، ومع ذلك، فإن رحلة بنيامين التطيلي تحتاج إلى دراسة أكاديمية عربية متخصصة لمعالجة كافة الجوانب التى تناولها ذلك الرحالة اليهودى لاسيما عن منطقة الشرق الأدنى فى عصر الحروب الصليبية.

والجدير بالذكر، أن صناعة الزجاج، لم تكن قاصرة على المناطق الخاضعة لسيادة الصليبيين السياسية مثل صور، وعكا، بل إن المدن الإسلامية هى الأخرى ازدهرت بها تلك الصناعة، وتجذ أنه فى القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى؛ أشار ابن عساكر إلى وجود مسبك للزجاج فى دمشق، وقد صنع من نوع خاص من الصخور الرملية، واحتاجت الأنواع البللورية منه إلى نسب ومقادير مختلفة من أكاسيد الرصاص، وبلاحظ أن بلاد الشام بصفة عامة احتوت على مواد صالحة للغاية لصناعة الزجاج استعملت منذ العصور القديمة. ومن أكثر المدن التى نشطت بها تلك الصناعة فى عصر الحروب الصليبية، دمشق وحلب، وتمت صناعة ألواح زجاجية بأشكال هندسية جميلة. وتم تكوينها بألوان عديدة، وفى بعض الأحيان تم تزويقها بخيوط من الذهب والفضة. ولذلك سمعنا عن الزجاج المذهب، ومن الزجاج صنعت الأقداح

والأواني والمشكوات ونحو ذلك ويوجد فى المتحف الوطنى بدمشق العديد منها. عن ذلك أنظر :

ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، م (٢)، ص ٦٢؛ أبو الفرج العشى، المتحف الوطنى بدمشق، ط. دمشق ١٩٦٩م، ص ٣٠١؛ أشتور، التاريخ الاقتصادى والاجتماعى، ص ٣٠٨؛ كرسى، تراث الإسلام، ح ٢، ت. زكى حسن، ط. القاهرة ١٩٣٦م، ص ٥٣-٥٤؛ ديماند، الفنون الإسلامية، ت. أحمد عيسى، ط. القاهرة ١٩٥٤م، ص ٢٣٥؛ أحمد فكرى، فن العمارة والتحف الفنية، ضمن كتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوروبية، ط. القاهرة، ١٩٧٠م، ص ٤٤١؛ جابر الشكرى، نخات من مآثر العراق العلمية فى الكيمياء، ط. بغداد ١٩٨٥م، ص ٣٩؛ عبدالعزيز الدورى وناجى معروف، موجز تاريخ الحضارة العربية، ط. بغداد ١٩٥٢م، ص ٨٠؛ أحمد كمال الدين حلمى، السلاجقة فى التاريخ والحضارة، ط. الكويت ١٩٧٥م، ص ٢٤٥.

(٦٢) القزوينى، المصدر السابق، ص ١٨٤.

(٦٣) نفسه، نفس المصدر، ص ١٩١.

(٦٤) عن الدينار الصورى أنظر :

أسامة سيد على، الساحل الشامى فى القرن الثانى عشر للميلاد/ الاسدس الهجرى ودوره فى الصراع الإسلامى الصليبي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس عام ١٩٩٢م، ص ١٩٦؛ مصطفى الكنانى، العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامى (١١٧١-١٢٩١م/ ٥٦٧-٦٩٠هـ)، ط. الاسكندرية ١٩٨١م، ص ٣١١-٣١٥؛ حسان حلاق، العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ص ٢٢٢.

(٦٥) القزوينى، المصدر السابق، ص ١٩١؛ جميل نخلة مدور، حضارة الإسلام فى دار السلام، ط. القاهرة ب-ت، ص ٢٢١.

(٦٦) القزوينى، المصدر السابق، ص ١٩١.

(٦٧) نفسه، نفس المصدر، ص ١٨٤.

(٦٨) عن وسائل التسلية فى المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام فى ذلك العصر أنظر :

ابن دانيال، خيال الظل، تحقيق ماهر حمادة، ط. القاهرة، أحمد رمضان، المجتمع الإسلامى، ص ٢٩٠-٣٠٦؛ عبد الحميد يونس، خيال الظل، ط. القاهرة ١٩٩٤م، ص ٩-١١.

٤ - ابن شداد

(ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م)

يتصدى هذا الفصل بالدراسة لأحد الجغرافيين المسلمين البارزين، الذين انجبتهم بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، ونعنى به عز الدين بن شداد الحلبى^(١) (ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م)، ويتطرق الفصل إلى العديد من الجوانب تتعلق بحياة ابن شداد، وتطورها بين الشام، ومصر، وأهم مؤلفاته، وكذلك الجوانب المختلفة التى تعرض فيها لأوضاع بلاد الشام خلال تلك المرحلة الهامة والمؤثرة من تاريخها فى العصور الوسطى.

وابن شداد، هو عز الدين محمد بن على بن إبراهيم بن شداد بن خليفة بن شداد بن إبراهيم بن شداد، أبو عبدالله الأنصارى الحلبى، وقد ولد فى مدينة حلب بشمال الشام، وذلك فى عام ٦١٣هـ / ١٢١٦م، وظل هناك حتى تعرضت بلاد الشام لكارثة الغزو المغولى لها، وعندما واجهت حلب ذلك الخطر الداهم عام ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م، لاذ عز الدين بن شداد بالفرار^(٢)، ولجأ إلى مصر.

وجدير بالذكر، أن ابن شداد، قد شغل فى سنوات شبابه المبكرة مناصب إدارية لدى الأيوبيين، ووصف بأنه كان خبيراً بالجوانب المتعلقة بالميزانية، والمالية^(٣)، الأمر الذى أفاده بشكل واضح عندما تصدى بالكتابة عن الجوانب الجغرافية المتصلة ببلاد الشام.

مهما يكن من أمر، فإن ابن شداد، قد حظى فى مصر برعاية سلاطين المماليك مثل الظاهر بيبرس^(٤)، والمنصور قلاوون، وقد زار دمشق فى عام ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م، ثم ما لبث أن عاد أدراجه إلى القاهرة حيث توفى بها عام ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م^(٥).

وقد ألف ابن شداد عدداً من المؤلفات ذات الطابع التاريخى، أو الجغرافى، من ذلك كتابه جنى الجنتين فى أخبار الدولتين^(٦). ثم كتاب تاريخ العز ابن شداد فى سيرة السلطان الملك الظاهر بيبرس^(٧). وكذلك كتاب القرعة الشدادية الحميرية، أو تحفة الزمن فى طرائف أهل اليمن^(٨)، ثم كتاب كروم الذهانى فى تفسير السبع المثاني^(٩) - وهو كتاب فى مجال التفسير كما يتضح من عنوانه - بالإضافة إلى كتابه الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة^(١٠).

والواقع إن نظرة متأنية لتلك المؤلفات تكشف لنا عن تعدد المواهب التأليفية لابن شداد، إذ أنه ألف مؤلفات فى التاريخ، والجغرافيا التاريخية، والتفسير، وتعددت المجالات الجغرافية الإقليمية لمؤلفاته، فقد تناول بلاد الشام والجزيرة، وكذلك اليمن، ولم يجعلها قاصرة على نطاق جغرافى محدود، كما أنه تجاوز عصره وانتقل إلى العصور القديمة.

وبصفة عامة، فإن أهم مؤلفات ابن شداد التى تفيدنا فى دراستنا هذه، كتابه الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة، وقد استغرق فى تأليفه مدة زمنية طويلة خلال الرحلة الواقعة من عام ٦٧١هـ / ١٢٧٢م إلى عام ٦٨٠هـ / ١٢٨١م^(١١)، وهو فى ذلك، يتشابه مع ياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)، الذى ألف كتابه الشهير معجم البلدان بعد عشر سنوات من البحث والتقصى^(١٢).

وكتاب الأعلاق الخطيرة، ليس هو الأول من نوعه من بين المؤلفات الجغرافية العربية الذى يكون عنوانه «الأعلاق» فمن قبل ذلك نجد أحد الجغرافيين المسلمين ونعنى به ابن رسته، قد ألف كتابه بعنوان «الأعلاق النفيسة»^(١٣). وإن كان تغبير

«الخطيرة» فى عنوان ما ألفه عز الدين بن شداد يعكس - أول ما يعكس - ثقة مؤلفه فى ما ألفه خاصة أنه استغرق منه فى تأليفه قرابة العقد من الأعوام.

ويلاحظ أن ذلك الكتاب اهتم فيه مؤلفه بوصف الظواهر الجغرافية، والطوبوغرافية، ثم تبع ذلك تناول التاريخ السياسى؛ لتلك المناطق التى تصدى بالكتابة عنها.

وبرى أحد المستشرقين ما نصه «أن التأثير النشط الذى خلطته خبرات الصليبيين التاريخية عن الحياة الفكرية فى سوريا تجلّى فى مؤلف آخر عن التاريخ الهللى السورى ألا وهو، أعلام الحاضرة فى أمراء وحكام الشام والجزيرة لابن شداد»^(١٤).

والواقع أن هذا التصور لا ينطبق على الواقع فى شئ لعدة اعتبارات، إذ أن الصليبيين لم تتفوق لديهم المعارف التاريخية بالصورة التى تجعل المسلمين يفيدون منها، بل إن الأمر المعاكس هو الذى حدث، إذ أنهم أفادوا من تجربة المسلمين التاريخية ويتجلى ذلك بصورة واضحة لدى مؤرخهم الأشهر، وليم الصورى William of Tyre، الذى كان يجيد اللغة العربية واطلع على المؤلفات التاريخية العربية وأفاد منها. بالإضافة إلى أن الصليبيين أصلاً قدموا إلى المنطقة كغزاة محاربين لا كأصحاب توجه فكرى أصيل، ويعكس الرأى السابق رغبة ذلك الباحث فى اضمفاء قيمة فكرية على تجربة الاستيطان الصليبي فى بلاد الشام الأمر الذى تنكره الوقائع التاريخية، ناهيك عن أن ذلك الباحث أورد عنوان ما ألفه ابن شداد خطأ، والصواب ما أسلفت ذكره، ألا وهو الأعلام الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة.

أيًا كان الأمر، فهناك زاوية أخرى تتصل بكتاب الأعلام الخطيرة، ألا وهى أن عدداً من الباحثين قد جعلوه لمؤرخ آخر، وهو بهاء الدين بن شداد (ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٩م)^(١٥) مؤلف النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين^(١٦). والواقع أن ذلك التصور جانبى الصواب تماماً، لأن بهاء الدين بن شداد لم يطل به العمر حتى عصر الظاهر بيبرس، وإنما عاصر السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، أى أن

بهاء الدين بن شداد ينتمى إلى العصر الأيوبي، بينما عز الدين بن شداد ينتمى إلى العصر المملوكي ثم إن الأول عاش خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وجزء من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي؛ بينما عاصر الثاني القرن السابع الهجري/ الثالث عشر ميلادي فقط.

على أية حال، فإن هناك ناحية هامة يتطلب الأمر التعرض لها، ألا وهي المصادر التي اعتمد عليها عز الدين بن شداد في تأليفه لكتابه الأعلام الخطيرة، ولا نزاع في أن كتاباً متعدد الأجزاء يستغرق من مؤلفه نحو عشر سنوات؛ من أجل تأليفه؛ من المنطقي تصور تعدد وتشعب المصادر التي اعتمد عليها ذلك المؤلف؛ من أجل انجازه في النهاية بالصورة التي وصلت إلينا.

ومن الممكن تقسيم المصادر التي اعتمد عليها ذلك الجغرافي والمؤرخ من أجل تأليف كتابه إلى ثلاثة أقسام رئيسية؛ وهي المصادر المكتوبة، والمصادر الشفهية، ثم المعاينة، والمشاهدة، وأكثر المصادر أهمية في كتاب هي المصادر المكتوبة، إذ اعتمد على كم كبير من المؤلفات الجغرافية، والتاريخية السابقة على عصره، والمعاصرة له، أما المصادر الشفهية فقد جعلها مستمدة من كبار العلماء، والفقهاء، ورجال الحكم مما عكس أهميتها، وفيما يتعلق بالمعاينة، نجد أنه جعلها بصورة ما مرتبطة بالمزارات، وأماكن المقدسات الدينية.

وبالإضافة إلى المصادر السابقة، هناك ما يمكن وصفه بمصادر مجهولة اعتمد عليها عز الدين بن شداد؛ دون أن يحددها، وإن كانت مصادر مكتوبة أو شفهية.

أما المصادر المكتوبة، فهناك مصادر جغرافية؛ ثم مصادر تاريخية، ومن أمثلة المصادر الجغرافية، هناك اليعقوبي^(١٧)، وكتابه البلدان، ثم البيروني^(١٨)، وكتاب القانون المسعودي، ثم المهبي^(١٩)، وما ألفه تحت عنوان المسالك والممالك، هذا بالإضافة إلى

الهروى (ت ٦١١هـ / ١٢١٥م)، وكتابه الإشارات إلى معرفة الزيارات، ثم ابن جبير (٢٠) (ت ٦١٦ أو ٦١٧هـ / ١٢١٩ أو ١٢٢٠م) ورحلته الشهيرة.

زد على ذلك، أمر المصادر التاريخية وهي متنوعة، سواء من عصر سابق على عصر عز الدين بن شداد أو من جانب مؤرخين ارتبطوا بالقرنين ٦، ٧هـ / ١٢، ١٣م.

وفي هذا المجال، نجد أفاد من محبوب بن قسطنطين في صورة تاريخه^(٢١)، ثم أنه استعان بما ألفه البلاذرى في صورة كتابه فتوح البلدان^(٢٢)، ثم العظمى^(٢٣) (ت ٥٥٨هـ / ١١٦٣م) في تاريخه، كذلك ابن عساكر^(٢٤) (ت ٥٧١هـ / ١١٧٦م) صاحب تاريخ مدينة دمشق، بالإضافة إلى إفادته من ابن العديم الحلبي (ت ٦٦٠هـ / ١٢٦١م) وكتابه زبدة الحلب من تاريخ حلب، ثم ابن أبى طى (ت ق ٧هـ / ١٣م) في مؤلفاته مثل تاريخ حلب، وعقود الجواهر في سيرة الملك الظاهر، كذلك أفاد عز الدين بن شداد من الكامل لابن الأثير الجزرى^(٢٥) (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٨م).

وهكذا تعددت مصادر ذلك الجغرافى المكتوبة، على نحو أثرى كتابه بصورة واضحة، ومع ذلك يثير المستشرق الروسى كراتشكوفسكى ناحية لا تخلو من أهمية، ويقول ما نصه «إنه - أى عز الدين بن شداد - لم يكن له علم فيما يبدو بمعجم ياقوت، ومهما يكن من شئ فإنه لم يشر إليه ولو مرة واحدة»^(٢٦).

والواقع أن كراتشكوفسكى قد أثار تساؤلا ولم يقدم التعليل له. كما أنه تصور أمراً من الممكن الاختلاف معه بشأنه.

فمن المستبعد تماماً، أن يكون كتاب معجم البلدان لياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) مجهولاً لعز الدين بن شداد (ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م)، وكل منها شامى الإقامة لاسيما فى حلب حاضرة شمال الشام الكبرى، وإن امتاز عز الدين بن شداد عن

ياقوت بأنه ولد، ونشأ في حلب، كما أن المرحلة الزمنية بينها لم تكن طويلة، ومن المرجح أن كتاب ياقوت معجم البلدان كان متوافراً في عدة نسخ مخطوطة عندما تصدى عز الدين بن شداد لكتابه الأعلام الخطيرة، وبالتالي فإن تصور ذلك المستشرق ليس من اليسير قبوله أو تصوره منطقياً، خاصة إذا ما لاحظنا أن أبا الفداء (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م). ولا يوجد فارق زمني كبير بينه، وبين عز الدين بن شداد نجده يستعين بما ألفه ياقوت الحموي.

نخلص من ذلك إلى القول، إن معجم البلدان كان متوافراً في بلاد الشام، والمرجح أن عز الدين بن شداد كان عارفاً به - وهو العلم الجغرافي الذي أفاد من عشرات المؤلفات الجغرافية السابقة عليه والمعاصرة له - مع عدم إغفال أهمية المصادر التاريخية بالطبع وإن تعمد - على ما يبدو - عدم الاستعانة به، وتعليل ذلك أنه أراد ألا يكثر من الإفادة به فلا يكرر معجم البلدان، أو لعله أراد أن ينافس ياقوت في كتابه بتأليف كتاب آخر خاص ببلاد الشام، والجزيرة، ورأى أن الأفضل تجنب الإشارة إلى معجم البلدان، ولعل في ذلك التعليل المرجح لعدم استعانة عز الدين بن شداد بمعجم البلدان الدائع الصيت.

أما المصادر الشفهية، فنجد أمثلتها في صورة أنه يذكر على سبيل المثال حكي القاضي الحسن بن موج القوسي^(٢٧)، أو أخبرني زين الدين عبد الملك بن عبد الرحمن ابن العجمي الحلبي^(٢٨)، أو أخبرني الرئيس بهاء الدين أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن الخشاب الحلبي^(٢٩).

ومن الجلي الواضح أن المصادر الشفهية؛ جاءت قليلة بالنسبة للمصادر المكتوبة الثرية التفاصيل.

وإذا توجهنا إلى المعينة والملاحظة نجدها في زاوية المزارات وفي هذا المجال نجده يقرر عند حديثه عن قبر أبي عبيدة بن الجراح في غور نابلس «وقد زناه بطبرية»^(٣٠).

وبالإضافة إلى ذلك، هناك مصادر مجهولة، غير محددة وذلك بنجده بالنسبة للكتب وكذلك للرواة، يقول فى أحد المواضع «وجدت فى بعض الكتب» (٣١) أو «ذكر أرباب التواريخ» (٣٢) دون أن يحدد عنوان الكتاب ومؤلفه، أو أن يقول «ذكر بعض جماعة» (٣٣) ومع ذلك فمثل تلك المصادر قليلة ونادرة. وبصفة عامة حرص عز الدين بن شداد على إيراد أسماء الكتب ومؤلفيها بدقة ونادراً ما لجأ إلى المصادر المجهولة سواء كانت مكتوبة أو شفوية.

وبصفة عامة، نجد أن عز الدين بن شداد حرص على إيراد العديد من القصائد الشعرية ضمن تناوله للأحداث التاريخية المختلفة، ولذا من الممكن القول إن الشعر يعد أحد الجوانب المهمة فى منهجية عز الدين بن شداد فى كتابه الأعلام الخطيرة، ومن أمثلة ذلك إirاده لقصيدة أبى بكر الصنوبرى فى مدحه لمدينة حلب وذكره فيها المسجد الجامع (٣٤). ويبدو أنه نفسه كان ذواقاً للشعر؛ دون أن نعرف أقرضه أم لا، بدليل كثرة الشواهد الشعرية فى كتابه.

ومن جهة أخرى، نجد أن ذلك الجغرافى والمؤرخ قد حرص على استخدام الجانب الوثائقى فى كتابته نظراً لإدراكه لأهمية الوثائق فى كتابة التاريخ، مع ملاحظة أن منهجيته ارتبطت بنوع من الكتابة توصف بأنها جغرافيا تاريخية لمناطق بلاد الشام والجزيرة، وفى هذا المجال، نجد أنه استعان ببعض الوثائق، ومن أمثلتها رسالة القاضى الفاضل عبدالرحيم بن على البيسانى؛ فى فتح بيت المقدس عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م (٣٥)، وكذلك خطبة القاضى محيى الدين بن الزنكى حين تم فتح القدس من الناصر داود (٣٦)، ثم نص إحدى الرسائل المرسلة إلى الخليفة المستنصر العباسى (٣٧)، إلى غير ذلك من النصوص الوثائقية الهامة.

الصفة البارزة بالنسبة لكتابة عز الدين بن شداد أنه يوصف بالأمانة العلمية، والدقة فى التحرى، والتوثيق المصدري، إذ أنه عندما لا يجد ضالته فى المصادر المتوافرة تحت

يديه؛ يعلن ذلك صراحة دونما مواربة، من ذلك أنه عندما يتحدث عن طرابلس في مرحلة من مراحل تاريخها أشار إلى أن عدداً من ولايتها «لم يتصل بى مدد إقامتهم فى الولايات» (٣٨)، كذلك عندما كان يبحث عن تاريخ حصن من الحصون ولم يحالفه التوفيق فى تتبع أصوله الأولى يصرح بأنه «لم أعثر له على ذكر فى كتاب من كتب التواريخ المصنفة فى صدر الإسلام» (٣٩).

وبصفة عامة، نجد أن عز الدين بن شداد قد تناول العديد من الجوانب المتصلة ببلاد الشام على نحو جعله وبحق واحداً من أهم الجغرافيين المسلمين فى بلاد الشام على مدى القرنين السادس والسابع الهجرى/ الثانى عشر، والثالث عشر الميلادى.

ومن أمثلة ذلك تناوله لمدن الساحل الشامى المتعددة، ثم النشاط الاقتصادى فى بلاد الشام من كافة جوانبه، وكذلك المعارك والعمائر الحربية فى صورة القلاع والحصون، سواء الإسلامية أو الصليبية، ثم المزارات الدينية المختلفة، والخريطة المذهبية لبلاد الشام فى ذلك العصر، ثم العمائر الدينية والتعليمية.

وقد احتل الساحل الشامى أهميته الخاصة الجديرة به، لدى عز الدين بن شداد، شأنه فى ذلك شأن غيره من الجغرافيين المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام أو الذين أنجبهم أصلاً تلك البلاد، ومن الملاحظ هنا أن ذلك الجغرافى ظهرت بجلاء عاطفته الدينية خاصة عند تناوله للمدن التى كانت خاضعة لسيادة المسلمين السياسية ثم أخضعها الصليبيون من بعد ذلك، وظلت فى قبضتهم، ومن ثم ظهرت عباراته الداعية إلى أن تعود ضمن ديار الإسلام من جديد، فعبّر بذلك عن شعور إسلامى عام.

ونجد أنه تعرض لمدينة عكا فأشار إلى إتساع أرجائها، وكثرة ضياعها، وأن لها ميناء مأموناً^(٤٠)؛ وقد عبّر تعبيراً دقيقاً عن أهميتها ومكانتها من خلال قوله أنها «قفل بلاد الساحل وقصبتها ما فيه من الحصون والمعاقل»^(٤١)، فإذا ما لاحظنا أن ذلك الجغرافى

يكتب تلك العبارات في سبعينات القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى، أدركنا أن تلك المدينة كقلب تجارى للكيان الصليبي ظلت تتمتع بتلك المكانة المتميزة دون أن تنازعها مدينة أخرى وذلك على امتداد تاريخ الوجود الصليبي فى بلاد الشام.

وعز الدين بن شداد جغرافى نتاج عصره، بأحاسيسه الدينية الجياشة، وتشوقه للجهاد، ويتضح ذلك بجلاء من خلال تناوله لمدينة عكا إذ يذكر أنها لانزال فى قبضة الصليبيين وقت تأليفه لكتابه الأعلام الخطيرة، وينهى عبارته بقوله : «يسر الله فتحها، وسنى للملة الإسلامية، نجحها» (٤٢).

كذلك تعرض لعدد من المدن الشامية الساحلية بدرجات متفاوتة من الأهمية، من ذلك تناوله لمدينة صور وإشارته الضمنية لمناعتها التقليدية عندما ذكر أن البحر يحف بها بثلاث جهات (٤٣). وقد أشار إلى استمرار خضوعها للصليبيين وتمنى لها ذات الأمانة التى تمنها من قبل لعكا (٤٤).

وكامتداد لتناوله لحصانة صور، وجدناه يشير إلى مناعة وحصانة كل من يافا، وقيسارية، فوصف الأولى بأن لها سوراً محكم البناء (٤٥)، أما الثانية فوصفها بالمنعة (٤٦).

وبلاحظ أن ذلك الجغرافى الحلبى حريص على إيراد إتساع مظاهر العمران فى المدن الساحلية الشامية، من ذلك أنه عندما تعرض لمدينة صيدا بجنوب لبنان أشار إلى أن لها أربعة أقاليم وأنها متصلة بجبل لبنان واشتملت على نيف وستمائة ضيعة (٤٧)، وتفيد إشارته فى توضيح أن تلك المدن الساحلية لم تكن مراكز تجارية فقط بل أنها مثلت أهمية أخرى من خلال كونها مراكز عمرانية هامة ذات ثقل فى حجم كثافتها السكانية المرتفعة نسبياً كما هو متوقع.

وهناك ناحية هامة، أوردها عز الدين بن شداد بشأن الساحل الشامى، ألا وهى أن

مدنه عدت موانئ تصدير للمدن الشامية البرية الحبيسة، وهو أمر أوضحه من قبل في القرن السادس هـ/ الثاني عشر م الإدريسي، وفي هذا الصدد أشار عز الدين بن شداد إلى أن حيفا، تعد في زمانه ميناء طبرية^(٤٨)، وهكذا أكد في القرن السابع هـ/ الثالث عشر م. استمرار تلك الظاهرة الحيوية التي أعنى بها ارتباط المدن الشامية البرية والساحلية مع بعضها البعض من خلال المصالح المتبادلة المشتركة، وتكرر ذات الأمر من خلال أن بيروت عدت ميناء دمشق^(٤٩) مثلما أوضح ذلك في الأعلام الخطيرة.

أما الزوايا الاقتصادية لدى ذلك الجغرافي فهي تعد قليلة ونادرة؛ إذا ما قارنا أمرها بالجوانب الأخرى التي فصل الحديث بشأنها، وإشارات في هذا المجال توصف بأنها عرضية موجزة، من ذلك تناوله للنشاط الزراعي في طرابلس وذكره لزراعة قصب السكر في طرابلس^(٥٠)، ومن المعروف أن الصليبيين قد عرفوا قصب السكر؛ في تلك المنطقة وأفادوا منه في تصنيع السكر. أما الثروة المعدنية فقد أشار إلى توافر معدن الحديد بالقرب من بيروت^(٥١) وهي إشارة تقليدية طالما تكررت في مصادر ذلك العصر الجغرافية.

أما على المستوى الصناعي فقد أشار إلى صناعة الزجاج في صور، وقد وصفه بأنه «محكم»^(٥٢)، وكذلك صناعة الفخار بها^(٥٣)، وهو أمر كان قد أشار إليه من قبل، ياقوت الحموي في معجم البلدان.

وفيما يتصل بالزاوية التجارية نجد أنه أشار إلى ثراء بعض المدن الشامية الداخلية نتيجة اشتغال أهلها بالتجارة بالطبع ومن أمثلة ذلك مرة مصرين إذ وصفها أهلها بأنهم «ذوو يسار، وأموال، وأملاك»^(٥٤)، ومنطقي أن ذلك تأتي لهم من خلال اشتغالهم بالتجارة مع المدن الشامية الداخلية الأخرى.

زد على ذلك، أن عز الدين بن شداد، قد أشار ضمناً إلى تجارة معينة في صيدا في جنوب لبنان وهي خاصة بنوع الأسماك الذي يفيد في الناحية الجنسية^(٥٥)، ويكاد

نصه فى هذا الصدد يتطابق مع نص الإدريسى؛ الذى أورده فى نزهة المشتاق^(٥٦)، وهكذا فإن بعض المظاهر التى ردها الجغرافيون المسلمون فى القرن السابق، على عصر عز الدين بن شداد ونعنى به القرن السادس هـ/ الثانى عشر م، وجدناها تتأكد، وتتكرر فى القرن التالى، ونعنى به القرن السابع هـ/ الثالث عشر م؛ على نحو أكد شهرة ذلك النوع من الأسماك كسلعة تجارية أثبتت جودتها بشهادة الجغرافيين المسلمين وعلى مدى طويل.

وهكذا، جاءت إشارات عز الدين بن شداد للجوانب الاقتصادية محدودة، وإن لم تفتقد الأهمية، خاصة أنها أكدت رؤية سابقة لجغرافيين مسلمين؛ قدموا إلى بلاد الشام فى مرحلة سابقة على عصر ذلك الجغرافى الحلبى.

أما إذا ما انتقلنا إلى جانب آخر من الجوانب الهامة التى أوردها عز الدين بن شداد عن بلاد الشام، خلال ذلك العصر، فهناك الجانب الحربى، سواء ما اتصل بالمعارك الحربية، أو القلاع، والحصون لدى الجانبين الإسلامى، والصليبي.

وفى هذا الصدد نجد أن عز الدين بن شداد قد أورد عدداً من المواجهات الحربية بين المسلمين والصليبيين لاسيما خلال عهد السلطان نور الدين محمود ومواجهته للصليبيين.

ولعل أهم الأحداث الحربية التى أوردها فى هذا الصدد تناول عز الدين بن شداد لمعركة أنب عام ٥٤٤هـ / ١١٥٩م^(٥٧)، وكذلك أسر الأمير الصليبي جوسلين الثانى عام ٥٤٥هـ / ١١٦٠م^(٥٨)، ثم معركة حارم عام ٥٥٩هـ / ١١٦٤م^(٥٩).

وبلاحظ أن تناول ذلك الجغرافى لتلك الأحداث قد اعتمد فيه على المصادر المعاصرة، ولذا فلم يورد إضافات جديدة تذكر عما قد ورد بشأنها، ومع ذلك من المهم أن نذكر أهم ملامحها لما لها من فائدة.

وتعد معركة أنبا^(٦٠) من المعارك الهامة في صراع السلطان نور الدين محمود ضد إمارة أنطاكية الصليبية، وقد جرت وقائعها في صفر عام ٥٤٤هـ / يونيو ١١٤٩م، وفيها تم النصر للمسلمين وهزم الصليبيون، وقتل راييموند دى بواتيه أمير أنطاكية، وعدد من كبار القادة الصليبيين^(٦١)، ومن الملاحظ أن نور الدين محمود قد تلقى دعماً عسكرياً من جانب دمشق، وإن وقفت عناصر الاسماعيلية النزارية إلى جانب الصليبيين، ولقى قائدهم علي بن وفاء مصرعه في ساحة المعركة^(٦٢).

وجدير بالذكر، أن انتصار أنب يعد من أهم انتصارات ذلك القائد المسلم خلال تلك المرحلة المبكرة من حكمه، ويعدّه البعض نقطة تحول في صراعه مع الصليبيين وقد أكسبه انتصاره حيناً كبيراً.

أما فيما يتصل بأسر أمير الرها جوسلين الثانى عام ٥٤٥هـ / ١١٦٠م، ومن المعروف أن تلك القيادة الصليبية كثيراً ما واجهت نور الدين محمود وأوجدت مقاومة صليبية ضد المسلمين، وقد وقع صدام حربي بين نور الدين وجوسلين الثانى عندما حاول الاستيلاء على أملاكه الصليبية وتمكن الأخير من إلحاق الهزيمة بنور الدين محمود عام ٥٤٥هـ / ١١٥٠م، بل إنه أسر بعض قادة الجيش النورى، ويلاحظ أن المصادر الرسمية العربية لا تقدم إشارات كافية عن تلك الهزيمة على نحو يدعو للاعتقاد بأنها كانت فادحة.

وقد أدركت القيادة النورية خلال تلك الأحداث ضرورة حرمان الصليبيين من قيادة جوسلين الثانى بأن يتم أسره، وبالفعل تم ذلك في نفس العام ٥٤٥هـ / ١١٥٠م^(٦٣)، وتم تسميل عينيه، وأودع السجن، وأمضى فيه نحو تسعة أعوام، أدركته منيته بعدها عام ٥٥٤هـ / ١١٥٩م^(٦٤).

ولا ريب، في أن أسر جوسلين الثانى يعد من الأحداث الهامة في صراع نور الدين

مع الإمارات الصليبية، حيث عرفت عنه البسالة في قتال المسلمين، وكانت النتيجة المباشرة لأسره هي سقوط أملاكه مثل تل باشر، وعين تاب، واعزاز، وتل خالد، وقورس، والراوندان، وبرج الرصاص، ودلوك، ومرعش وغيرها من الأملاك^(٦٥). في قبضة الجيش النورى.

وقد اختلف المؤرخون في تحديد المدة الزمنية التي استغرقها إسقاط قلاع وحصون وأملاك جوسلين الثانى، فذكر البعض أن ذلك حدث فى أيام يسيرة^(٦٦)، بينما تصور آخرون أنه حدث خلال عام^(٦٧)، وقرر ابن الوردي أنها مدة يسيرة^(٦٨) ولكن اعتماداً على نص صريح لابن العديم، أمكن الاعتقاد أن ذلك استغرق عدة سنوات، ربما بلغت الخمس، يقول «فى ثامن عشر ربيع الأول سنة خمس وأربعين وخمسمائة فتح تل باشر، وتل خالد، وفتح عين تاب سنة خمسین، وفتح قورس والراوندان وبرج الرصاص...»^(٦٩) وما يدعم هذا أن المصادر المعاصرة مثل ابن القلانسی والعماد الأصفهانی، لا يبرزان إلا سقوط عزاز عام ٥٤٥هـ / ١١٥٠م^(٧٠)، مما يدل على أن القلاع والمناطق الأخرى سقطت - على الأرجح - بعد ذلك، ثم أن دلوك مثلاً استولى عليها نور الدين عام ٥٤٧هـ / ١١٥٢^(٧١).

أما معركة حارم عام ٥٥٩هـ / ١١٦٣م^(٧٢)، فهي من أعنف المواجهات الحربية بين نور الدين محمود، والصليبيين، ومن حالفهم، وقد اشتركت في مواجهة المسلمين، القوى الصليبية والبيزنطية، والأرمنية.

ومن الملاحظ أن اشتراك القوى الصليبية مرجعه الرغبة في تحجيم خطر نور الدين الذى تزايد من خلال هجماته على إمارة أنطاكية، كما أن الامبراطورية البيزنطية قد سعت إلى المشاركة فى مواجهة نور الدين نظراً لأطماعها بأنطاكية من قبل الغزو الصليبي للمنطقة فى أواخر القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، وأراد الأرمن هم أيضاً، جنى ثمار مشاركتهم فى المعركة فى حالة الظفر.

وقد اغتنم نور الدين محمود فرصة غياب الملك عمورى الأول فى مصر لتنفيذ مشروعه الصليبي هناك، وهاجم إمارة أنطاكية^(٧٣)، وطبيعى أنها حرمت من العون العسكرى الكبير الذى كان من الممكن أن يقدمه لها، ويقال - وفقاً لرواية ابن عساكر وغيره - إن القوات المتحالفة بلغت ثلاثين ألفاً^(٧٤) - وعلى الرغم من طابع المبالغة الرقمية الذى اعتادته المصادر التاريخية خلال ذلك العصر، إلا أن ذلك الرقم عكس الأهمية التى علقها التحالف المسيحي على الصدام مع الدولة النورية حينذاك، وقد تلقى نور الدين دعماً قوياً من المناطق المجاورة، وبخاصة من جانب أخويه نصرة الدين وقطب الدين وكذلك من زيد الدين كوجك حاكم أربيل وحاكم سنجار وابن عم مجد الدين وسيف الدين صاحب فيج^(٧٥)، وقد كلل جهد الجيش النورى بالنجاح وأنزل هزيمة كبيرة بالقوات المعادية وبلغ عدد القتلى نحو عشرة آلاف^(٧٦)، ويقال إن الأسرى قد بلغوا ستة آلاف من كبارهم^(٧٧) ومن بينهم أمير أنطاكية بوهيمند الثالث Bohemond III (١١٦٣-١٢٠١ م / ٥٥٨-٥٩٧ هـ) وأمير طرابلس ريموند الثالث Raymond III (١١٥٢-١١٨٧ م / ٥٤٣-٥٨٣ هـ) وأمير تل باشر جوسلين الثالث Joselin III، وأمير قليقية Cilicia قسطنطين كارلومان Constantine Carloman، وهيو دى لوزينيان^(٧٨)، بينما فر تورس الأرمني من ساحة القتال عندما أيقن تفوق المسلمين، ولم ينصت الصليبيون إلى نصحه لهم بانتظار مقدم الملك عمورى من مصر^(٧٩).

ولا نزاع فى أن موقعة حارم أثرت على نطاق متسع على العلاقات النورية - الأنطاكية، فقد مثلت انتصاراً لنور الدين ضد الوجود الصليبي فى شمال الشام، وفقدت الإمارة الكثير من فرسانها بين قتيل وجريح، وسلبتها قيادات هامة، وحق لكلود كاهن أن يصفها بأنها كارثة^(٨٠)، وقد حقق نور الدين من جرائها العديد من المكاسب، إذ استولى على حارم، وعمل على الإغارة على مناطق أنطاكية بعد أن أيقن عدم وجود مقاومة حقيقية ضده، وبلغت قواته اللاذقية وسعى إلى اكتساب مغنم وفيرة من

أعدائه^(٨١)، وانتهاز فرصة غياب عمورى فى مصر واستولى على بانياس بعد ذلك بشهرين^(٨٢).

ومن جهة أخرى، تعرض عز الدين بن شداد لأمر القلاع سواء الصليبية أو الإسلامية فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، وقد حرص على التعرض لتكوينها الأثرى، بالإضافة إلى تعاقب القوى السياسية المسيطرة عليها، وفى هذا المجال تجده يتميز بصورة واضحة عن غيره من الجغرافيين المسلمين فى بلاد الشام فى ذلك العصر، الذين قدموا مجرد إشارات موجزة، ونادرة، عن تلك القلاع، والحصون على الرغم من أهميتها المتزايدة فى ذلك العصر، وفى قضية المواجهة الحربية الإسلامية/ الصليبية.

والجدير بالذكر هنا، أن قيمة عز الدين بن شداد فى إبراز العمائر الحربية تجعله، لا يتفوق على الجغرافيين المسلمين فى ذلك العصر، بل وحتى مؤلفات الرحالة الأوروبيين الذين قدموا إشارات بالغة الاقتضاب والندرة بشأن تلك القلاع، ولا ريب فى أن ذلك كله من شأنه أن يزيد من قيمة النصوص التى أوردها ذلك الجغرافى الحلبى بشأن تلك القلاع، والحصون؛ وعلى نحو يعكس أيضاً إدراكه الشخصى لأهمية دورها فى المواجهة بين المسلمين، والصليبيين فى ذلك العصر.

مهما يكن من أمر، فإن عز الدين بن شداد قد أورد تناولاً هاماً لأحد الحصون الصليبية البارزة، ونفى به حصن الأكراد Crac des chevaliers، وقد ذكر أمر حصانته بأن أشار إلى أن له ثلاثة أسوار وثلاث باشورات^(٨٣)، كما أوضح أن الفرخ كانوا فيه لا يكثرثون بالجيش مهما كان عددها، ومنه كانوا يشنون الغارات تلو الغارات، ويدركون الثارات^(٨٤).

ومن المعروف أن حصن الأكراد قد وقع على طريق القوافل الواقعة فى الشمال من حمص، وحماة من جهة، وطرابلس وأنطرسوس من جهة أخرى^(٨٥)، وذلك فى وادى النهر الكبير^(٨٦)، ووقع على بعد مائتين وأربعين كيلو متراً من مدينة دمشق، ومائة

وأربعين كيلو متراً من طرابلس^(٨٧)، وأربعين كيلو متراً من حمص^(٨٨)، وبذلك احتل موقعاً استراتيجياً ممتازاً.

وهناك من يقرر أن حصن الأكراد سمي بتلك التسمية نسبة إلى صلاح الدين ورجاله وهم من الأكراد^(٨٩)، بيد أن هذا الرأي لا ينطبق على الواقع في شيء، إذ أن التسمية ذاتها كانت موجودة حتى من قبل العصر الأيوبي ونجدها تتردد في مصادر تاريخية سابقة زمنياً على ذلك العصر^(٩٠). ومن المرجح أنها وجدت منذ عهد المرداسيين عندما عهدوا بأمر ذلك الحصن لمجموعة من الأكراد فعرف بحصن الأكراد.

وقد اتصف حصن الأكراد بالحصانة والمنعة واحتوى على ثلاثة أسوار^(٩١)، وثلاث باشورات^(٩٢)، وقد استولى الصليبيون على الحصن المذكور في عام ١١١٠م/ ٥٠٣هـ^(٩٣)، الأمر الذي أدى إلى زيادة قوتهم في المنطقة التي وقع فيها ذلك الحصن.

وقد حصلت هيئة الاسبتارية Hospitallers على حصن الأكراد في عام ١١٤٢م/ ٥٣٧هـ على الأرجح^(٩٤)، وحاول الأيوبيون إخضاعه دون جدوى، وكان سقوطه في قبضة المسلمين في عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقداري وذلك في شعبان عام ٦٦٩هـ/ أبريل ١٢٧١م^(٩٥).

والجدير بالذكر أن عز الدين بن شداد يقدم لنا مادة تاريخية قيمة فيما يتصل بظروف سقوط حصن الإكراه، وذلك من خلال معاصرته لتلك الأحداث وارتباطه بالسلطان الظاهر بيبرس الذي خصه برعايته مثلما أسلفت الإشارة من قبل.

وقد ذكر أن السلطان الظاهر بيبرس نزل على الحصن المذكور، ونصب عليه المجانيق^(٩٦) وغيرها من أدوات الحصار وواصل مواجهة الصليبيين به إلى أن تمكن المسلمون من هدم الأسوار، ثم أعقب ذلك، سقوط الباشورات^(٩٧)، ويشير ذلك

الجغرافى إلى أن العساكر قد دخلوا الحصن بالسيف «وقتلوا من فيه من الاستيمار» (٩٨) وقام السلطان بالعمى عن عناصر الفلاحين وذلك من أجل القيام بإعادة تعمير المنطقة التى (٩٩) أصابها التخريب من خلال المواجهة الحربية بين المماليك والصليبيين.

وبالإضافة إلى ذلك، تناول ذلك الجغرافى أحد الحصون الصليبية الهامة فى جنوب مملكة بيت المقدس الصليبية ونعنى به حصن الكرك، وقد أوضح أنه كان ديراً للمسيحيين (١٠٠)، وأن الصليبيين زادوه تحصيناً، وتناول مناعته، وحصانته، وذكر أن له ريش عليه سور، وأن الحصن وريضة على جبل، ومن مظاهر مناعته أنه بينه وبين ريشه خندق عميق يبلغ نحو ستين ذراعاً (١٠١)، كما ذكر خطورته من حيث أن الصليبيين فيه كانوا يشنون الغارات على ما داناهم من القرى والضياع المسلمة للقيام بعمليات السلب والنهب (١٠٢).

ومن المعروف أن حصن الكرك أو Krak de Montrial، قد وقع عند الطرف الجنوبى من البحر الميت، وذلك على بعد مائة وواحد وعشرين كيلو متراً جنوبى مدينة حماة، ويبلغ ارتفاعه فوق سطح البحر ثلاثة الاف ومائة من الأقدام، فى موقع حصين، وقد أحاطت به أجراف طبيعية من الجهات الشرقية والغربية والجنوبية، أما الجهة الشمالية، فقد أحاط به خندق اصطناعى ثم حفره فى الصخر الصلد (١٠٣).

ويلاحظ أن للحصن المذكور أربعة أبراج، يشرف كل برج منها على أحد المداخل التى كانت تؤدى إلى المدينة، وتآلف الحصن من قاعات، وغرف، وكذلك اسطبلات للخيل، وسجون وأماكن مخصصة للراحة (١٠٤).

وقد استولى الصليبيون على ذلك الحصن، وأضافوا إليه عدداً من التحصينات، فى عام ١١٤٢م / ٥٣٧هـ، وتولى ذلك الأمير باين ساقى الملك فولك آنجو Fulk of Anjou (١١٣١-١١٤٤م / ٥٢٦-٥٣٩هـ) ملك بيت المقدس الصليبية (١٠٥).

كذلك تعرض عز الدين بن شداد لقلعة تبنين أو Toron في المصادر التاريخية الصليبية، ووصفها بالمنعة والحصانة^(١٠٦).

والجدير بالذكر أن قلعة تبنين، وقعت على بعد سبعة عشر ميلاً من بانياس، الداخلية إلى الجنوب الشرقي منها في مواجهة ساحل صور^(١٠٧)، وقد تم بناء تلك القلعة في عام ١١٠٤م / ٤٩٨هـ من أجل القيام ببعض العمليات العسكرية الموجهة إلى مدينة صور، وذلك اعتماداً على ما أورده وليم الصوري William of Tyre^(١٠٨)، وقد حصل الاستبارة عليها في عام ١١٥٧م / ٥٥٢هـ عندما أعطاها لهم الأمير همفري أوف تبنين^(١٠٩) Humphry of Toron .

وقد امتازت قلعة تبنين بخصائصها، ومناعتها^(١١٠)، وتمكن المسلمون من إسقاطها عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م^(١١١)، وفيما بعد أعطاها الصالح إسماعيل للصليبيين، وذلك في ظروف صراعه مع السلطان نجم الدين أيوب نظير مساعدتهم له ضد مصر وحلفائها^(١١٢)، وظلت في أيديهم إلى أن تمكن السلطان الظاهر بيبرس من استردادها في عام ٦٦٤هـ / ١٢٦٦^(١١٣).

ومن جهة أخرى، أشار عز الدين بن شداد، إلى حصن شقيف أرنون^(١١٤)، وهو من الحصون الصليبية المنيع.

وقد وقع الحصن المذكور على جبل عاملة في القسم الشمالي منه حيث يفصله نهر الليطاني شمالي فلسطين^(١١٥)، وقد هيا له موقعه، القيام بدور دفاعي عن أملاك الصليبيين في المنطقة المجاورة له، حيث وقع بالقرب من مدينة صيدا^(١١٦).

وقد احتوى حصن الشقيف على تكوينات معمارية هامة، جعلته واحداً من أحسن القلاع والحصون الصليبية في بلاد الشام، وكان شكله مثلث الزوايا، وبلغ طوله مائة وسبعين متراً أما عرضه فقد بلغ سبعين متراً وقد حفرت عنده صهاريج المياه من

أجل توفيرها للمدافعين، كما حفرت آبار في الصخور، بالإضافة إلى وجود آبار في داخل القلعة لتوفير المياه عن طريق الأمطار الساقطة، وفي جنوب الحصن وجدت آثار خندق محفور ليعوق تقدم المهاجمين، كذلك كانت هناك حظائر للخيل ودواب الفرسان^(١١٧). وبالإضافة إلى كل ذلك، نعرف أن الحصن قد احتوى على عدة أبراج بارزة وعلى عنصر السقاطات عند الأسوار والأبراج، وبذلك تشابه مع وضع حصن الأكراد.

وتجدر الإشارة إلى أن حصن الشفيف قد سقط في قبضة المسلمين في أعقاب معركة حطين عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م، بيد أنه عاد فيما بعد للسيطرة الصليبية، وإن أخضعه المسلمون نهائياً لهم في عهد السلطان الظاهر بيبرس عام ٦٦٦هـ / ١٢٦٨م^(١١٨).

من جهة أخرى، أشار عز الدين بن شداد لقلعة صفد^(١١٩)، وتناول حصانتها، وسيطرة هيئة الداوية عليها، كما تناول تفاصيل استيلاء المسلمين بقيادة الظاهر بيبرس عليها.

وقد وقعت قلعة صفد على بعد ثمانية أميال من بحيرة طبرية، وهياً لها موقعها الإشراف على كافة الأراضي الواقعة في منطقة الجليل بشمال فلسطين، ثم أنها كانت في منطقة واقعة بين مدينة عكا على الساحل الفلسطيني، ودمشق^(١٢٠)، وقد هياً لها ذلك الموقع أهمية استراتيجية خاصة.

وقد وقع خلاف بين المؤرخين بشأن قلعة صفد، فعلى الرغم من أن المملكة اللاتينية قد عهدت بأمرها لهيئة الداوية إلا أن التحديد الزمني لذلك ثار بشأنه الخلاف، وقد أشار عز الدين بن شداد إلى أن قلعة صفد قد بناها الداوية عام ٤٩٥هـ / ١١٠١م^(١٢١)، ونقل عنه العثماني تلك الرواية دونما تمحيص^(١٢٢). ولكن من

الواضح تماماً أن كلا منهما قد وقع فى الخطأ، إذ أن تنظيم الداوية لم يكن قد ظهر بعد إلى حيز الوجود حينذاك؛ لأن ذلك التنظيم قد تأسس عام ١١١٩م / ٥١٣هـ.

وقد اختلف الباحثون فى تاريخ حصول الداوية على قلعة صفد، فهناك من رأى أن ذلك قد وقع عام ١١٦٧م / ٥٦٣هـ (١٢٣)، أما برار، فقد رأى أن ذلك تم عام ١٢٤٠م / ٦٣٨هـ (١٢٤)، وفى تقديرى أن رأى الأول هو الأصح، إذ أنه خلال ذلك الحين عهدت مملكة بيت المقدس الصليبية فى عهد الملك الصليبي عمورى بالعديد من القلاع والحصون لتلك الهيئات الحربية مثل الداوية والاستتارية، ومن المستبعد منطقياً أن تنتظر المملكة حتى قرب منتصف القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى من أجل القيام بذلك، إذ أن احتياجاتها الأمنية الملحة خلال القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى من خلال اشتداد أمر حركة المقاومة الإسلامية، هى التى جعلتها تقوم بذلك خلال القرن المذكور.

والجدير بالذكر، أن السقوط النهائى لقلعة صفد فى قبضة المسلمين حدث فى عهد السلطان الظاهر بيبرس فى عام ٦٦٤هـ / ١٢٦٦م (١٢٥).

أما القلاع الإسلامية، فقد أشار عز الدين بن شداد إلى قلعتى حلب والطور، وقدم تفاصيل هامة عنهما.

ويرتبط فى وصفه لقلعة حلب جانبان هامان هما الجانب الأثرى، والجانب التاريخى، ونجده يذكر التطورات المعمارية التى طرأت على القلعة مع تعاقب القوى السياسية؛ على حكم المدينة، وكل ذلك بتفاصيل ثرية لم نعهد لها فى كتابات الجغرافيين المسلمين فى ذلك العصر، وتفوق فى هذا المجال على الإشارات التى قدمها ياقوت الحموى على الرغم من ارتباط الأخير بحلب.

وقد أشار إلى أن سيف الدولة الحمداني قد أقام بها بعض المواضع عندما قام ببناء سور المدينة (١٢٦)، كما أن المرداسيين أقاموا هم أيضاً بها دوراً وجددوا أسوارها (١٢٧)، بيد أن التطور البارز في أمر عمارة قلعة حلب ارتبط بعهد الملك الظاهر غازي ابن صلاح الدين الأيوبي، إذ أنه أقام جسراً ممتداً من القلعة إلى البلد وبنى يرجين لم يتم بناء مثلهما من قبل، وأقام للقلعة كذلك ثلاثة أبواب حديدية. وأقام بها أماكن مخصصة للجند وأرباب الدولة، وخصص فيها مكان لآلات الحرب، بالإضافة إلى أنه فتح في سورها باباً سماه باب الجبل (١٢٨).

وبالإضافة إلى كافة تلك التجديدات، نعرف من خلال ذلك الجغرافي الحلبي أن الملك الظاهر غازي أقام بالقلعة مصفاً كبيراً للماء وكذلك مخازن للغلال، وقام بسفح تل القلعة وبناه بحجر يسمى الهرقلي، وقام بتعليق بابها، وكان من قبل قريباً من أرض المدينة (١٢٩).

وهكذا قدم لنا عز الدين بن شداد عرضاً مهماً لتطور عمارة قلعة حلب، وكان من الطبيعي أن تنال منه اهتماماً خاصاً مع ارتباطه بتلك المدينة مولداً ونشأة. ومن الواضح كذلك أن عهد الملك الظاهر غازي يعد وبحق أهم مرحلة من مراحل تطور تلك القلعة الحصينة.

أما قلعة الطور، فقد أوضح أن الملك العادل أبو بكر قام ببنائها على جبل الطور، وكانت توصف بالحصانة، والمنعة، ثم خربها من بعد ذلك (١٣٠).

وهكذا، قدم عز الدين بن شداد، تناولاً هاماً للقلاع الصليبية والإسلامية في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، ومن الجلي البين أنه اهتم بعنصر القلاع اهتماماً خاصاً، ولا أدل على ذلك من أنها شملت قسماً كبيراً من كتابه وفصل أمرها، فجاء تناوله عوضاً عن الإشارات المقتضبة التي وجدناها لدى الجغرافيين المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام في ذلك العصر.

وبالإضافة إلى كافة الجوانب السابقة التي تعرض لها ذلك الجغرافى هناك أيضاً جانب هام يتصل بالمزارات الدينية وقد أوضحها بالنسبة للأديان الثلاثة، اليهودية، والمسيحية، والإسلام.

ومن أمثلة المزارات اليهودية إشارته إلى وجود قبر يوشع بن نون فى مشهد هناك، وقد ذكر أن الملك الظاهر غازى قام بتجديد عمارته (١٣١).

أما المزارات المسيحية، فهناك، كنيسة القيامة والتي وصفها بأنها «الكنيسة العظمى»، وأشار إلى أنها من عجائب الدنيا من الناحية المعمارية (١٣٢). كذلك تعرض لكنيسة اليعاقبة بالقدس. وقد ذكر أنه يقال إن السيد المسيح عليه السلام قد اغتسل بها (١٣٣)، وكذلك عين سلوان التي شبه ماءها بماء زمزم (١٣٤). وكنيسة السليق التي أشار إلى أن السيد المسيح رُفِعَ منها إلى السماء (١٣٥)، ثم كنيسة صهيون التي ذكر أن المائدة نزلت على المسيح والحواريين بها (١٣٦)، أما وادى جهنم فقد أشار إلى أن به قبر السيدة مريم العذراء أم المسيح (١٣٧).

ومن الملاحظ بشأن المزارات التي أوردها عز الدين بن شداد، وخاصة المزارات اليهودية، والمسيحية، أنه أوجز الحديث فيها، ولم يقدم وصفاً مفصلاً لأحد تلك المزارات، وذلك على عكس الإدريسي الذى قدم وصفاً مهماً لعدد من الكنائس المسيحية فى فلسطين فى القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى.

أما المزارات الإسلامية؛ فقد أشار إلى أن بمدينة غزة قبر هاشم بن عبدمناف (١٣٨)، وهو أمر كثيراً ما أشار إليه الجغرافيون المسلمون فى ذلك العصر. كما ذكر وجود مشهد يونس، ومشهد الحسين، ومشهد الثلج، وكذلك مقام إبراهيم، ومشهد الخضر فى حلب (١٣٩) وقد حرص على إيراد العديد من المشاهد والمقامات التي يقوم الأهليون بزيارتها تبركاً فى ذلك الحين، لاسيما فى حلب بشمال الشام حيث اهتم عز الدين ابن شداد بمزاراتها على نحو خاص.

وهناك ناحية جديدة بالدراسة، تتعلق بموقف عز الدين بن شداد من تلك المزارات، ومدى تأييده لوجود بعضها وصحة ذلك من عدمه، وفي هذا المجال نجد يشير إلى الوضع الذي يتشكك أصلاً في صحته على اعتبار أنه «زعم»، ومن الأمثلة الدالة على ذلك أنه عندما تناول قبر يوشع بن نون في معرة النعمان ذكر الأمر على أنه «فيما زعموا»^(١٤٠)، وتكرر الموقف عندما أشار إلى أحد المزارات الإسلامية في حلب ونعني به مسجد الفوث إذ ذكر أن به كتابة «يزعم» البعض أنها من خط الإمام علي بن أبي طالب^(١٤١).

ولم يقف الأمر عند ذلك الجغرافى إلى هذا الحد، بل إنه كان يصحح المعتقدات والآراء، ففي إشارته إلى وجود قبر مالك بن الأشتر النخعى في بعلبك ذكر ذلك ثم أشار مباشرة إلى أن «الأصح أنه بالمدينة»، وهو يتشابه في كل ذلك مع موقف ياقوت الحموى في معجم البلدان عندما اتجه إلى نقد مواضع بعض المزارات التي قصدها العامة، وعمل على تصحيح ذلك.

وبالإضافة إلى ذلك، هناك المزارات العلاجية، وفي هذا المجال أشار إلى حمامات طبرية؛ ذات المياه الحارة، وذكر قدرتها العلاجية على علاج المجذومين وأصحاب العاهات^(١٤٢)، وتعتبر إشارته في هذا المجال أكثر تفصيلاً مما أورده الإدريسي، وبصفة عامة حظيت مياه حمامات طبرية بشهرة واسعة في ذلك العصر؛ على نحو جعل كافة الجغرافيين المسلمين يشيرون إليها بصورة مختلفة بين الاقتضاب تارة والتفصيل تارة أخرى.

أما ما اتصل بالخريطة العقائدية لبلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، ونجده قد أشار إلى عناصر الاسماعيلية النزارية وذكر دور بهرام الاستراباذى مقدم الاسماعيلية وقدرته على الاختفاء والاستقرار، واتصاله بظهير الدين طغتكين أنابك دمشق الذى سلمه بانياس^(١٤٣). كما تعرض لدور الاسماعيلية في الصدام الحربي مع عناصر الدروز وذلك

عام ٥٢٢هـ / ١١٢٧م^(١٤٤)، كما تعرض عز الدين بن شداد لمحاولة الاسماعيلية النزارية اغتيال السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي في اعزاز عام ٥٧١هـ / ١١٧٥م^(١٤٥)، وفشل تلك المحاولة.

والواقع أن بهرام الاسترأبادي مثل أحد القيادات الاسماعيلية في بلاد الشام، لاسيما في مدينة دمشق، ويكاد يجمع المؤرخون على تمتعه بقدرة هائلة على التحرك والنشاط السري متخفياً بتغيير ثيابه، وملامحه، وتوافرت لديه القدرة على التستر^(١٤٦)، الأمر الذي جعله «يطوف البلاد والمعقل، ولا يعرف شخصه»^(١٤٧).

ومن الملاحظ أن الأتابك ظهير الدين طغتكين - أتابك دمشق - تعاون مع بهرام ومثل معه نفس الدور الذي لعبه أتابك حلب رضوان بن تتش مع مقدم الاسماعيلية الحكيم المنجم الباطني، كما أن إحدى الشخصيات السياسية الهامة حينذاك وهو الوزير المزدقاني بذلت جهدها من أجل مساعدة الاسماعيلية النزارية^(١٤٨)، وأدى ذلك بدوره إلى ازدياد نفوذهم مما ترتب عليه زيادة السخط في نفوس المسلمين السنيين في دمشق^(١٤٩)، وأدركوا أن الباطنية يسيطرون على مقدرات الحياة السياسية في دمشق.

وعندما أدرك بهرام الاسترأبادي تزايد السخط عليه وعلى أتباعه، أراد أن يجد له مركزاً هاماً محصناً ليكون بديلاً عن دمشق في حالة طرد الإسماعيلية منها، أو من أجل أن يوازن بين قوة أتباعه في دمشق وفي المركز الجديد، ولذا نجده قد طلب من طغتكين إعطاءه بانياس^(١٥٠)، ويبدو أنه أراد استغلال موقعها الاستراتيجي من أجل أن يقدمها للصليبيين كورقة رابحة من أجل أن يحصل على أية مكاسب سياسية من وراء ذلك. وبالفعل قدم له أتابك دمشق بانياس وذلك عام ٥٢٠هـ / ١١٢٥م^(١٥١).

ويزعم أحد المؤرخين الاسماعيليين المحدثين أن هدف الباطنية من الاستيلاء على بانياس، هو رغبتهم في إيجاد إمارة تقف في وجه الصليبيين^(١٥٢)، غير أن هذا القول لا يستند إلى أي أساس من الواقع التاريخي، لسبب بسيط، وهو أن الباطنية عندما

تعرضوا للضغوط الإسلامية السنية في مذبحة دمشق - فيما بعد - سرعان ما قاموا بتسليم بانياس للصليبيين مما عكس حقيقة واضحة وهي أن الصليبيين في ذلك الحين لم يكن لهم أى وضع فى مخططات السياسة الإسماعيلية، ولم يفكر الإسماعيلية فى معاداتهم خلال تلك المرحلة.

أما فيما يتصل بالصدام الحربى بين الإسماعيلية، والدروز، عام ٥٢٢هـ / ١١٢٧م فقد كشف عن مواجهة عنيفة بينهما، وكان وادى التيم قد شهد نشاطاً واضحاً للعناصر الدرزية، ومن بين الأسرار الحاكمة حينذاك كانت أسرة درزية هامة وهى الأسرة الجندلية، وعلى رأسها الضحاك بن جندل البقاعى الذى انتهت إليه رئاسة وادى التيم حينئذ، وبسبب الصراع التقليدى على قضية الأخذ بالثأر، تقدم بهرام الاستراباذى إلى هناك، فتصدى له الضحاك، وتمكن الأخير من إلحاق الهزيمة بعناصر الإسماعيلية، وعادت فلول المنهزمين «على أقبح صورة» (١٥٣)، كما يصفهم ابن الأثير، وقد قتل بهرام فى أحداث المعركة (١٥٤)، ففقدت عناصر الإسماعيلية النزارية واحداً من كبار قياداتها.

وقد وقعت أحداث ذلك الصدام بين الإسماعيلية والدروز عام ٥٢٢هـ / ١١٢٧م؛ أى بعد حصول الإسماعيلية على بانياس، مما يدعم فكرتنا فى أن ازدياد نفوذ الإسماعيلية السياسى عقب حصولهم على بانياس شجعهم على محاولة فرض سيطرتهم على العناصر الدرزية فى وادى التيم.

أما فيما يتصل، بمحاولة الإسماعيلية اغتيال صلاح الدين الأيوبي فى اعزاز عام ٥٧١هـ / ١١٧٦م (١٥٥)، فتعرف أن اعزاز كانت من أهم مراكز التواجد الإسماعيلى فى بلاد الشام خلال عصر الحروب الصليبية، وقد بذل الجيش الأيوبي مجهودات مضنية من أجل حصارها الذى استمر نحو ثمانية وثلاثين يوماً وفق ما قرره ابن واصل (١٥٦).

وكانت اعزاز عامرة بالمدافعين والأسلحة، وقد أظهرت عناصر الباطنية دفاعاً كبيراً عن مركزها، وتمكنت من إرسال الفداوية من أجل اغتيال السلطان صلاح الدين الأيوبي، ولكن قدر له النجاة، ولم يكن صلاح الدين يصدق أن خناجر الفداوية لم تصبه في مقتل (١٥٧).

وتبقى زاوية أخيرة، حرص عز الدين بن شداد على أن يتعرض له ضمن تناوله للجغرافيا التاريخية لبلاد الشام في ذلك العصر، ونعني بها المؤسسات التعليمية والدينية، سواء المدارس، أو المساجد، والخانقوات، والربط.

والجدير بالذكر هنا، أن عصر الحروب الصليبية في بلاد الشام قد شهد صحوة دينية إسلامية واضحة المعالم، من خلال المواجهة مع الصليبيين، ومن سمات تلك الصحوة؛ الاهتمام بحركة تشييد المدارس، والمساجد، والخانقوات، والربط، والزوايا إلى غيرها من العماير الدينية، وكان من الطبيعي أن نجد ذلك الجغرافي الحلبي يحرص على إيراد تلك الظاهرة.

وقد تعرض عز الدين بن شداد للمدارس المقامة في بلاد الشام، وإن أعطى اهتماماً خاصاً لمدينة حلب، ونجده قد أورد مدارس الشافعية، والحنفية، والمالكية والحنابلة. وفي هذا المجال من الواضح أنه خصص للمدارس قسماً هاماً من «الأعلاق»، وهكذا يمكن القول إن العماير الحربية في صورة القلاع، والحصون، سواء لدى المسلمين أو الصليبيين، وكذلك العماير التعليمية والدينية حظيت بأكبر قدر من اهتمام ذلك الجغرافي على نحو ميز منهجه في هذا الصدد.

ومن المدارس التي أشار إليها، نذكر على سبيل المثال، المدرسة الزجاجية التي أسسها بدر الدولة (١٥٨) أبو الربيع سليمان ابن عبد الجبارين ارتعه عام ٥١٦هـ / ١١٢١م. ثم المدرسة النصرية النورية، التي أقامها نور الدين محمود عام ٥٤٤هـ / ١١٤٩م (١٥٩).

أما المساجد، فنجدّه يشير إلى المئات منها في حلب، وإن أعطى اهتماماً خاصاً بالمسجد الجامع فيها، وقد قرر أن موضعه كان في الأصل بستاناً للكنيسة العظمى في عهد البيزنطيين، وعندما فتح المسلمون حلب صالحو أهلها من أجل أن يشيدوا ذلك المسجد في الموضع المذكور^(١٦٠)، وقد قرر أن جامع حلب كان يضافى جامع دمشق من حيث أعمال الزخرفة، والفسيفساء^(١٦١)، وتكشف تلك العبارة تحمسه لمدينته، وتصوره لجمال أبنيتها على نحو لا نقف أمامها منافسة المدن الأخرى حتى دمشق، عاصمة الشام التاريخية.

وقد أشار ذلك الجغرافى لبعض المراحل التاريخية التى مرت على المسجد الجامع فى حلب، من ذلك أن عناصر الاسماعيلية قامت بإحراقه فى عام ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م^(١٦٢). وكذلك قامت بإحراق الأسواق، فقام نور الدين محمود بإعادة بنائه واجتهد فى عمارته، ولا أدل على ذلك من أنه نقل إليه أعمدة من قنسرين^(١٦٣)، كذلك عمل على توسعة الجامع المذكور على نحو جعله حسناً فى أعين الناظرين^(١٦٤).

أما الخانقاوات، فقد تناول العديد منها، وكانت مخصصة لعناصر المتصوفة، الذين ارتفع شأنهم بصورة كبيرة فى ذلك العصر، ومن الخانقاوات الحلبية. هناك خانقاة العصر التى أقامها نور الدين محمود^(١٦٥) وسميت بذلك الاسم لأنها كانت مكان قصر بنى من قبل تشييدها. وهناك أيضاً خانقاة البلاط انشأها شمس الخواص لؤلؤ الخادم^(١٦٦).

ومن الجوانب الهامة فيما أورده ذلك الجغرافى الحلبى أنه أشار إلى خوانق للنساء فى حلب. ومن أمثلتها خانقاة أنشأتها فاطمة خاتون بنت الملك الكامل^(١٦٧)، وكذلك خانقاة أقامتها ضيفة خاتون بنت الملك العادل^(١٦٨)، على نحو عكس حرص نساء البيوت المالكة على إقامة مثل تلك العمائر الدينية.

أما الربط، فنجد أنه ذكر بعضها في حلب، ومن أمثلة تلك العماثر الدينية التي ارتبطت في بدايتها بأعمال المراقبة والجهاد، ثم تخلت عن صفتها الحربية وصارت ذات صفة دينية، هناك رباط أقامه الأمير سيف الدين على علم الدين (١٦٩)، ثم رباط آخر يعرف برباط الخوام، وصفه بأنه تحت قلعة حلب (١٧٠)، ثم رباط ثالث، وصفه عز الدين بن شداد بأنه قريب من مدرسة النفرى (١٧١). ولم يحدده بأكثر من ذلك.

وهكذا، قدم لنا ذلك الجغرافى الحلبى تصورات هامة بشأن مدن بلاد الشام المتعددة والعماثر التى بها سواء الحربية أو التعليمية أو الدينية، واحتوى تناوله على العديد من الجوانب الاقتصادية والحربية، والسياسية، والمذهبية، على نحو ضمن له مكانة متميزة من بين الجغرافيين المسلمين؛ فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية على مدى القرنين السادس والسابع الهجرى/ الثانى والثالث عشر الميلادى.

الهوامش

(١) عن مصادر ومراجع ترجمة عز الدين بن شداد أنظر :

اليوناني البعلبكي، ذيل مرآة الزمان، ح ٤، ص ٢٧٠-٢٧١؛ النهي، العبر، ح ٥، ص ٣٤٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ح ١٣، ص ٣٠٥؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ح ٤، باعثناء ديدريغ، ط. فسادن ١٩٥٩م، ص ١٨٩-١٩٠؛ ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، ح ٨، تحقيق نجلاء عز الدين رزيق، ط. بيروت ١٩٣٩م، ص ٣٣؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ح ٥، ص ٣٨٨؛ عبدالله نيهان، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة لابن شداد، عالم الكتب، م (١٣)، العدد (١٤)، المحرم - صفر ١٤١٣هـ / يوليو - أغسطس ١٩٩٢م، ص ٣٩٦؛ أحمد حطيط، سيرة الظاهر بيبرس لعز الدين محمد بن علي بن شداد، ط. بيروت ١٩٨٧م، ص ١٧؛ حبيب الزيات، في تاريخ مملكة حلب، المشرق، العدد (٣٢)، عام ١٩٣٤م، ص ٥٠٥-٥٠٩.

Brockelmann, Geschichte de Arabischen Literature, T.I, p. 482, S., II, p. 1042; Cahen, "La Djazira au milieu du Treizieme siecle d'après Izz ad-Din Ibn Chaddad", R.E.I., Année 1934, p. 109-128.

(٢) كراتشكوفسكى، تاريخ الأدب الجغرافى العربى، ص ٤٠١، أحمد حطيط، المرجع السابق، ص ١٧.

(٣) كراتشكوفسكى، المرجع السابق، ص ٤٠١.

(٤) عبدالله نيهان، المرجع السابق، ص ٣٩٧؛ أحمد حطيط، المرجع السابق، ص ١٧.

(٥) عبدالله نيهان، المرجع السابق، ص ٣٩٧.

(٦) ابن شداد، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ح ١/ق ١، تحقيق يحيى زكريا عبارة ط. دمشق ١٩٩١م، ص ٣٠.

(٧) نفسه، نفس المصدر، والصفحة؛ وللباحث اللبناني أحمد حطيط دراسة هامة عن ذلك الكتاب أشرت إليها فى الهوامش السابقة.

(٨) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٣٠-٣١؛ أيمن فؤاد سيد، مصادر تاريخ اليمن فى العصر الإسلامى، ط. القاهرة ١٩٧٣م، ص ١٢٩.

(٩) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٣١.

(١٠) عن الجهود التحقيقية التي قام بها الباحثون الفرنسيون والسوريون، حيال ذلك الكتاب الهام، نعرف أن المستشرق الفرنسي دومنيك سورديل D. Sourdel قام بتحقيق القسم الأول من كتاب الأعلام الخطيرة المخصص لتاريخ حلب؛ وصدر عمله من جانب المعهد الفرنسي للأثار الشرقية بدمشق عام ١٩٥٣م، ثم قام الباحث السوري سامي الدهان بتحقيق الجزء الأول من الكتاب الخاص بدمشق، وصدر عمله من جانب نفس المعهد المذكور في جزئين، الأول عام ١٩٥٦م، والثاني عام ١٩٦٤م، ومن بعد ذلك قام باحث سوري آخر على جانب كبير من المهارة في مجال تحقيق التراث، ونعني به يحيى زكريا عبارة بتحقيق الجزء الخاص بتاريخ الجزيرة والموصل، وصدر عمله من جانب وزارة الثقافة السورية بدمشق عام ١٩٧٨م، كما أنه حقق الأعلام في صورة الجزء الأول، القسم الأول والجزء الأول، القسم الثاني، وصدر عمله من جانب وزارة الثقافة السورية أيضاً في دمشق عام ١٩٩١م. وفي هذا الفصل أفدت بصورة واضحة من جهود كل من سامي الدهان ويحيى زكريا، مع عدم إغفال جهد دومنيك سورديل الريادي في هذا الصدد. عن الجهود التحقيقية للأعلام الخطيرة أنظر :

ابن شداد، المصدر السابق، حـ ١/ق ١، تحقيق يحيى زكريا، مقدمة التحقيق، عبدالله نبهان، المرجع السابق، ص ٣٩٨.

(١١) ابن شداد، المصدر السابق، حـ ١/ق ١، ص ٣٧. من مقدمة التحقيق.

وبلاحظ أن كراتشكوفسكي يقرر أن ابن شداد قد انتهى من الجزء الأول الذي خصصه لشمال الشام، في عام ٦٧٣هـ / ١٢٧٤م، أما الجزء الثاني فقد جعله منصباً على جنوب الشام، وقد انتهى عام ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م. أنظر، كراتشكوفسكي، المرجع السابق، ص ٤٠٢.

(١٢) أنظر الفصل الخاص بياقوت الحموي.

(١٣) ابن رسته، هو أبو علي أحمد بن عمر، عالم عربي من أصل فارسي، عاش في النصف الثاني من القرن الثالث هـ / التاسع الميلادي، ومن المعروف أنه عاش في أصفهان، وقام بالسج إلى بيت الله الحرام وذلك في عام ٢٩٠هـ / ٩٠٣م، ثم تبعه إلى المدينة المنورة، ويقال إنه ألف كتابه الأعلام النفيسة حوالي ذلك العام، وبلاحظ أنه لم يصل إلينا من كتابه إلا الجزء السابع فقط، وهو الذي عمل دى جويه على تحقيقه، عن ابن رسته أنظر :

تقديم وتحقيق دى جويه لكتاب الأعلام النفيسة، دائرة المعارف الإسلامية، مادة ابن رسته،

حـ ١، ص ٢٨٥.

(١٤) روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ت. صالح العلى، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص ٢١٥.

(١٥) بهاء الدين بن شداد، هو بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم اشتهر بابن شداد، لأن شداد جده لأمه، وقد توفي أبوه وهو طفل صغير وقد تكفل بتربيته أخواله بنو شداد ولذا فقد نسب إليهم، وقد ولد ابن شداد في الموصل عام ٥٣٩هـ / ١١٤٥م، وقد تلقى علومه الأولى في الموصل ودرس العلوم الدينية على نحو خاص، وقد توطدت علاقته بالسلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي حتى جعله قاضياً لعسكره وللقدس الشريف، وظل ابن شداد ملازماً له لا يفارقه ليلاً أو نهاراً إلى أن أدركته وفاته، ويلاحظ أنه كان مقيماً إلى جوار السلطان الأيوبي ومعه القاضي الفاضل حتى في أيام مرضه الأخير، ومن بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي لعب ابن شداد دوراً بارزاً في التقريب بين أبنائه من أجل العمل على تماسك الجبهة الإسلامية في مواجهة الصليبيين، وقد ألف ابن شداد عدداً من المؤلفات مثل دلائل الأحكام، ومبدأ الحطام عند التباس الأحكام، ودروس في الحديث، وكتاب العصا (المقصود موسى وفرعون) وفضائل الجهاد، وأسماء الرجال الذين في المهذب للشيرازي، والنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية. عن بهاء الدين بن شداد أنظر :

تقديم جمال الدين الشيال، لكتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ط. القاهرة ١٩٦٤، ص ٣-١٠، ابن خلكان، وفیات الأعيان، ح ٧، تحقيق إحسان عباس، ص ٨٤.

(١٦) من الباحثين الذين خلطوا بين بهاء الدين بن شداد (ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٩م)، وعز الدين بن شداد (ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م)، ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٦٦م، ص ٢٧١؛ على أحمد، الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام، ط. دمشق ١٩٨٩م، ص ٣٢٨؛ السعيد الورقي، مصادر التراث العربي، ط. الاسكندرية ١٩٩٠م، ص ١٥٦. والأخير يقول إن بهاء الدين بن شداد له مؤلف الأعلام الخطيرة في تاريخ الجزيرة، فأخطأ بالتالي في نسبة المؤلف إلى كتابه وكذلك في عنوان الكتاب الذي هو الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة.

(١٧) اليعقوبي، هو أحمد بن أبي يعقوب جغرافي ومؤرخ عاش في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، قام بعدة رحلات إلى مناطق أرمينيا وإيران والهند ومصر وبلاد المغرب، وقد ألف كتابه البلدان، وكتب فيه ملاحظاته على المناطق التي قام بمشاهدتها كما أن له كتاباً في مجال التاريخ ويعرف بتاريخ اليعقوبي عنه أنظر :

تقديم تاريخ العقوبى، ط. بيروت ب-ت، الموسوعة العربية الميسرة، بإشراف شفيق غزال، ط. القاهرة، ١٩٦٥م، ص ١٩٨٣. أنظر: الإفادة منه فى الأعلام، ح ١/ق ١ ص ٣٧-٣٨.

(١٨) البيرونى، هو أبو الريحان محمد بن أحمد، مؤلف عربى من أصل فارسى، وقد ولد فى ذى الحجة عام ٣٦٢هـ / سبتمبر ١٩٧٣م، بنواحي خوارزم، وقد درس الرياضيات والفلك والطب، والتقويم والتاريخ، وألف البيرونى العديد من المؤلفات كشفت عن موسوعة تكوينه العلمى، منها الآثار الباقية عن القرون الخالية، وكتاب تعريف ما للهند من مقولة، مقبولة للعقل أو مردولة أو تاريخ الهند، وكتاب القانون السعوى فى الهيئة والنجوم كما أن له رسالة بعنوان التفهيم لأوائل صناعة التنجيم، وقد توفى البيرونى فى ٣ رجب ٤٤٨هـ / ١٣ ديسمبر ٣٤٨م. عنه أنظر :

دائرة المعارف الإسلامية، «مادة البيرونى»، ح ٩، ص ٣-٥؛ محمد جمال الدين الفندى، من العطاء العلمى للإسلام، ط. القاهرة ١٩٩٤م، ص ٦٥-٧٠. أنظر الاستعانة به فى الأعلام. ح ١/ق ١، ص ٤٤.

(١٩) المهلبى، هو على بن أحمد المهلبى، كان إماماً فى النحو واللغة ورواية الأخبار، وقد عاصر الخليفة الفاطمى العزيز بالله، وطلب منه الأخير تأليف كتاب جغرافى، فكان كتابه العزيزى الذى وصف فيه السودان وصفاً دقيقاً، ووصف بأنه كان رائد المؤلفات فى مجاله، ويجد أن عدداً من الجغرافيين المسلمين الذين أتوا من بعده قد أفادوا منه، عن المهلبى وكتابته أنظر :

ياقوت، معجم الأدباء، ح ١١، ط. بيروت ١٩٨٠م، ص ٢٢٤-٢٢٦؛ خضر أحمد عطا الله، الحياة الفكرية فى مصر فى العصر الفاطمى، ط. القاهرة ١٩٨٥م، ص ٣٢٠؛ على عبدالله الدفاع، واد علم الجغرافيا، ص ١٢٢-١٢٣؛ سليمان الخطيب، منهج صاعد. الأندلسى فى دراسة الحضارات، بحث مقدم لحوليات كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، عام ١٩٩٢م، ص ١٢؛ على حسنى الخربوطلى، العزيز بالله الفاطمى، ط. القاهرة، ص ١٢١؛ ومن أمثلة الاستعانة به أنظر، الأعلام، ح ١/ق ١، ص ٣٢٩.

(٢٠) عن الهروى، أنظر الفصل الخاص به. أنظر، الاستعانة به فى الأعلام، ح ١/ق ١، ص ١٦٩.

(٢١) عن ابن جبير، أنظر الفصل الخاص به. أنظر، الاستعانة به فى الأعلام، ح ١/ق ١، ص ٤١٢.

(٢٢) محبوب بن قسطنطين، هو محبوب بن قسطنطين الرومى المنجى، وقد حقق فاسيليف كتابه ونشره فرسان بطرسبرج عام ١٩٠٨م، من ذلك أنظر :

ابن شداد، المصدر السابق، حـ ١/١، ص ١٢٩، حاشية (١). ومن أمثلة الاستعانة به أنظر، ص ١٢٩.

(٢٣) البلاذرى، هو أحمد بن يحيى بن جابر بن داود، وقد اختلف فى كنيته، فهناك من قال إنها جعفر، وهناك من ذكر أنها أبا الحسن، وقد ولد فى بغداد، فى حوالى مطلع القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، حيث كانت تزدهر فيها الحياة العلمية والأدبية بوصفها عاصمة الخلافة العباسية. وقد قام البلاذرى بزيارات لمناطق فى بلاد الشام مثل دمشق، وحمص، وأنطاكية، واستمع إلى عدد من العلماء المعاصرين له مثل محمد بن سعيد، والمداينى، ومصعب الزيرى، وغيرهم، ووصف البلاذرى بأنه كان مقرباً من الخليفة المتوكل، كما أنه كان صاحب موهبة شعرية، وقد توفى البلاذرى عام ٢٧٩هـ / ٨٩٢م. عنه أنظر :

البلاذرى، فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص ٦-١٦؛ ابن النديم، الفهرست، ط. بيروت ب-ت، ص ١٦٤؛ ابن تفرى يردى، النجوم الزاهرة، ح-٣، ص ٨٣؛ ابن كثير المصدر السابق، ح-١١، ص ٦٥-٦٦؛ إحسان صدقى العمدة، البلاذرى، أحمد بن يحيى بن جابر، ط. الكويت ١٩٧٨، (رسالة دكتوراه هامة للغاية عن ذلك المؤرخ)؛ محمد جاسم المشهدانى، موارد البلاذرى عن الأسرة الأموية فى أنساب الأشراف، ط. مكة المكرمة ١٩٨٦م؛ عبدالستار فراج، البلاذرى، مجلة العربى، العدد (٩٩)، الكويت، فبراير ١٩٦٧م، ص ٤٥-٤٩؛ فؤاد مزكين، تاريخ التراث العربى، م (١)، ت. محمود فهمى حجازى وفهمى أبو الفضل، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص ٥١٣-٥١٤؛ صلاح الدين المنجد، أعلام التاريخ والجغرافيا عند العربى، ص ١٧؛ حمد الجاسر، أنساب الأشراف للبلاذرى، الفيصل، العدد (٢٠٢)، ربيع الآخر ١٤١٤هـ / سبتمبر - أكتوبر ١٩٩٣م، ص ٤٤؛ عبد الأمير عيد دكش، الخلافة الأموية (٦٥-٨٦هـ / ٦٨٤-٧٠٥م)، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص ١٠.

Sauvaget, Les Historiens Arabes, paris 1946, pp. 12-17.

ومن أمثلة الإفادة من مؤلفات البلاذرى أنظر : الأعلام، ح-١/١، ص ٤٢، ٥٥، ٦٦، ٦٧ وغيرها كثير.

(٢٤) العظيمى، هو أبو عبدالله محمد بن أحمد العظيمى التنوخى الحلبي، ولد فى عام ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م، وقد نشأ فى أسرة كبيرة امتدت جذورها إلى قبيلة تنوخ العربية، وهناك من يقرر أنه من بيت شارك فى الأحداث السياسية التى مرت بها مدينة حلب بشمال الشام فى المرحلة السلجوقية، وقد اختار أن يقوم بتعليم الصبيان فصارت مهنته، وبرع فى الشعر، وعندما وثق فى

موهبة الشعرية سافر إلى دمشق وامتدح حكامها، كما أنه امتدح الأرائقة، وفيما بعد اختص بالأتابك عماد الدين زنكي في حلب، حيث صار شاعراً ضمن حاشيته. وقد ألف العظمى عدة مؤلفات في مجال التاريخ، تتمثل في تاريخ العظمى، وهو تاريخ عام يخلب عله طابع الاختصار ويجعله على الأساس الحولي، ثم كتاب تاريخ حلب، ويبدو أنه كان يقع في مجلدين، ثم كتاب الموصل على الأصل الموصل وهو من كتب التراجم، وقد توفي العظمى عام ٥٥٨هـ / ١١٦٣م. عنه أنظر :

ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، القسم الخاص بالأمراء السلاجقة، تحقيق علي سويم، ط. أنقرة ١٩٧٦م، ص ١٠٨-١٢٨؛ عباس العصيمي، الدولة البورية وعلاقتها بالصليبيين (٤٩٧-٥٤٩هـ / ١١٠٢-١١٥٤م) رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام، الرياض ١٩٨٧م، ص ٥٥ من المقدمة.

Cahen, "La Chronique A Breyée d'Al. Azimi" J.A., 1938, p. 354, Savin, Azimi Tarihi, Ankaru 1988, p. 1 - X.

محمد مؤنس أحمد عوض، المؤرخ الحلبي العظمى (ت ٥٥٨هـ / ١١٦٣م) حياته، ومنهجه في الكتابة التاريخية عن بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، مركز بحوث الشرق الأوسط، جامعة عين شمس عام ١٩٩٣م. ومن أمثلة الإفادة من العظمى أنظر، الأعلام، ج ١، ق ١، ص ١٢٢.

(٢٥) ابن عساكر، هو أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي الدمشقي، ولد عام ٤٩٩هـ / ١٠٠٥، وبعد إمام أهل الحديث في زمانه، وجمع بين معرفة الأسانيد والمتون، وقد طاف بالعديد من أقطار العالم الإسلامي لاسيما بلدان الشرق الإسلامي، طلباً للعلم ولقاء العلماء، ومن بعد ذلك رجع إلى دمشق عام ٥٣٣هـ / ١١٣٨م، وبلغ عدد الشيوخ الذين أخذ عنهم العلم ما يزيد على ألف ومائتين شيخ بالإضافة إلى ثمانين امرأة، وقد ألف عدداً كبيراً من المؤلفات مثل التاريخ الكبير في ثمانين مجلد، وبين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، كما ألف كتاباً في الشيوخ الذين أخذ عنهم العلم، وقد توفي عام ٥٧١هـ / ١١٧٦م. عن ابن عساكر أنظر :

ياقوت، معجم الأدباء، ج ٥، ط. القاهرة ب-ت، ص ١٣٩-١٤٦؛ مجموعة من الباحثين، ابن عساكر، وقائع المؤتمر الذي عقد في دمشق عن ابن عساكر، ط. دمشق ١٩٧٩م؛ أحمد رمضان، المسجد الأموي بدمشق بين الحقيقة والأسطورة كما جاء في تاريخ ابن عساكر.

الدارة، العدد (٤)، السنة (٥) عام ١٩٨٠م، ص ٩٣-١١٤؛ صلاح الدين المنجد، أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب، ط. بيروت ١٩٦٠م، ص ٨٨-١٥٧؛ مرجليوث، المؤرخون العرب، ت. حسين نصار، ط. بيروت ب-ت، ص ١٦٦؛ كردعلى، الشاميون والتاريخ، مجلة المجمع العلمي بدمشق، م (١٧)، ح (٣)، ح (٤)، ص ٩٩-١٠٠؛ محمود ماضى، الإمام ابن عساكر، عالم الفكر، م (١٥)، العدد (٤)، محرم - صفر ١٩٩٤م، ص ٣٦٩-٣٧٢.

Elisseeff, La Description de Damas d'Ibn Asakir, Damas 1959, pp. XVII - XXVIII.

ومن أمثلة الإفادة من ابن عساكر وتاريخه أنظر : الأعلام، ح ١ / ١، ص ١٩-٢٢.

(٢٦) ابن العديم الحلبي، هو كمال الدين بن العديم، ينتمى إلى أسرة حلبيّة عريقة، وقد درس العلوم الدينية منذ حداثة عمره، وبرع في التاريخ على نحو خاص، وتعددت مؤلفاته فيه، وفي غيره من العلوم والمعارف، وألف عدة مؤلفات، مثل بغية الطلب في تاريخ حلب، وزبدة الحلب من تاريخ حلب، وكتاب الذراري في الذراري، وكتاب نفح الطيب في ذكر الطيبات والطيب، وقد توفي ابن العديم في عام ٦٦٠هـ / ١٢٦١م. عن ابن العديم أنظر :

ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، ح ١، تحقيق سهيل زكار، ط. دمشق ١٩٨٨م، ص ٩-١٢؛ ياقوت، معجم الأدباء، ح ٦، ط. القاهرة، ص ٥٥؛ ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ح ٧، ط. القاهرة، ص ٢٠٨؛ اليونيني البعلبكي، المصدر السابق، ح ١، ص ٥١٠؛ اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ح ٤، ط. حيدر آباد الدكن عام ١٣٤٨هـ، ص ١٥٨؛ ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ح ٣، تحقيق إحسان عباس، ط. بيروت ١٩٧٣م، ص ١٢٦-١٢٩؛ السيد عبدالعزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، ص ١٢٢-١٢٣؛ محمد مؤنس أحمد عوض، مصادر تاريخ الزلازل في بلاد الشام في النصف الثاني من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، مركز بحوث الشرق الأوسط، جامعة عين شمس، سلسلة دراسات من الشرق الأوسط، ط. القاهرة ١٩٩٢م، ص ٣٠-٣١. ومن أمثلة الاستعانة بما ألفه ابن العديم أنظر :

الأعلام، ح ١ / ١، ص ٢٦، ٤٢، ٥٤، ١٠٨، ١١١ وغيرها كثير وبعد من أكثر المؤرخين الذين أفاد منهم عز الدين بن شداد في تأليفه للأعلام.

(٢٧) ابن أبي طى، هو يحيى بن أبي طى، النجار التمساني الحلبي، ولد في عام ٥٧٥هـ / ١١٨٠م، كان والده رئيساً لإحدى النقابات في مدينة حلب، وأحد الزعامات الشعبية بها. وقد عارض السلطان الملك العادل نور الدين محمود معارضة أدت إلى إبعاده عن حلب في عام ٥٤٣هـ / ١١٤٨م، كذلك تم نفيه إلى حران عام ٥٥٢هـ / ١١٥٧م. وقد ألف ابن أبي طى العديد من

المؤلفات التاريخية منها كنز الموحدين فى سيرة صلاح الدين وكتاب معدن الذهب فى تاريخ حلب، وذهبه، وكتاب سيرة ملوك حلب وكتاب سلك النظام فى تاريخ الشام، وكتاب تاريخ مصر، عنه أنظر :

ابن شاکر الکتبی، فوات الوفيات، ح ٤، تحقيق إحسان عباس، ط. بیروت ١٩٧٣م، ص ٢٦٩-٢٧٠؛ حسین عاصی، أبو شامة وکتابه الروضتين فى تاریخ الدولتين النورية والصلاحية، ط. بیروت ١٩٩١م، ص ١٧٤-١٧٥؛ حسن إبراهيم، تاریخ الإسلام السياسی والدینی والثقافی والاجتماعی، ح ١، ط. بیروت ب-ت، ص ٥٥٥، حاشية (١)

Caben, "Une Chronique chrte au Temps des croisades", comptes rendus de L'academie des inscriptions et belles lettres, Paris 1935, pp. 253-269.

ومن نماذج الإفادة بما ألفه ابن أبی طی أنظر : الأعلای، ح ١، ق ١، ص ١١٢، ١٤٥، ١٥٠، ٣٥٧.

وتعد استعانة عزالدین بن شداد بما ألفه ابن أبی طی هامة على اعتبار فقه مؤلفات ذلك المؤرخ الحلبي الشيعي، وعدم وصولها إلینا إلا من خلال تقول بعض المؤرخين الشاميين مثل ابن شداد، وكذلك أبی شامة المقدسی، الذى أكثر من الاستعانة بما أورده ابن أبی طی وضمنه كتابه الروضتين فى تاریخ الدولتين النورية والصلاحية.

(٢٨) ابن الأثير، هو أبو الحسن على ابن أبی الكرم محمد بن محمد بن عبدالکريم بن عبدالواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجذري، الملقب عزالدین، ولد عام ٥٥٥هـ / ١١٦٠م، بجزيرة عمر الواقعة على نهر الفرات، حيث كان والده يعمل بوظيفة هامة، ورحلت أسرته إلى الموصل فى خدمة أمراء البيت الزنكي، ونشأ ابن الأثير نشأة علمية ارستقراطية اقطاعية، فى ظل حكم الزنكيين وأهم مؤلفاته الكامل فى التاريخ والباهر فى الدولة الانايكية، والباب فى تهذيب الأنساب، وأسد الغابة فى معرفة الصحابة، وقد توفى ابن الأثير، عام ٦٣٠هـ / ١٢٣٨م. عن ابن الأثير أنظر :

أبو الفداء، المختصر، ح ٤، ط. بیروت، ص ٣٨٩؛ السبکی، طبقات الشافعية الکبرى، ح ٥، ط. القاهرة ب-ت، ص ١٢٧؛ عبدالقادر طليمات، المؤرخ ابن الأثير، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة عين شمس عام ١٩٦٧م؛ فيصل السامر، ابن الأثير، ط. بغداد ١٩٨٦م؛ نظير حسان سعداوى، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي، ص ٦-١٣؛ محمد عبدالله الحمدان، ابن الأثير، الفرسان الثلاثة، ط. الرياض ١٩٧٤م، ص ٦٣-٦٧.

ومن أمثلة الإفادة من ابن الأثير أنظر : الأعلای، ح ١، ق ١، ص ٣٢٠.

- (٢٩) المرجع السابق، ص ٤٠٣.
- (٣٠) أنظر: الأعلام، ج ١/ ق ١، ص ٢٩٨.
- (٣١) نفسه، ص ١١٣.
- (٣٢) نفسه، ص ٤١، ٥٠، ١٠٣، ١١١، وقد أفاد عز الدين بن شداد عدة مرات من بهاء الدين الخشاب الحلبي.
- (٣٣) نفسه، ج ١/ ق ١، ص ٢٧٤.
- (٣٤) نفسه، ج ١/ ق ١، ص ٤٥.
- (٣٥) نفسه، ج ١/ ق ١، ص ١٧٣.
- (٣٦) نفسه، ج ١/ ق ١، ص ١٤١.
- (٣٧) نفسه، ج ١/ ق ١، ص ١١٨-١٢٠، وكذلك أنظر ص ١٦١، ٣٣١-٣٣٨، ٣٦٥-٤٠٦.
- (٣٨) نفسه، ج ١/ ق ١، ص ٢٠٤-٢١٠.
- (٣٩) نفسه، ج ١/ ق ١، ص ٢١١-٢١٩.
- (٤٠) نفسه، ج ١/ ق ١، ص ٢٢٦-٢٣٣.
- (٤١) نفسه، ج ١/ ق ١، ص ١٠٧.
- (٤٢) نفسه، ج ١/ ق ١، ص ٦٩-٨٠.
- (٤٣) ابن شداد، الأعلام، تحقيق سامي الدهان، ص ١٧٢.
- (٤٤) نفسه، نفس المصدر، والصفحة.
- (٤٥) نفسه، نفس المصدر، ص ١٧٦.
- (٤٦) نفسه، نفس المصدر، ص ١٦٣.
- (٤٧) نفسه، نفس المصدر، ص ١٧١.
- (٤٨) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٥٥.
- (٤٩) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٥٠.
- (٥٠) نفسه، نفس المصدر، ص ٩٨.

(٥١) نفسه، نفس المصدر، ص ١٧٧.

(٥٢) نفسه، نفس المصدر، ص ١٠١.

(٥٣) نفسه، نفس المصدر، ص ١٠٤.

عن زراعة قصب السكر في طرابلس في عصر الحروب الصليبية، نعرف أن الصليبيين عملوا على الاهتمام بزراعته، ولا أدل على ذلك من أنهم قاموا بإعفائه من الضريبة المفروضة على إنتاجه على نحو أدى إلى اتساع المساحة المزروعة به من طرابلس إلى صور، عن ذلك أنظر :

زكى نقاش، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية، ط. بيروت ١٩٥٨م، ص ١٧٦.

.. (٥٤) ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ص ١٠١.

(٥٥) نفسه، نفس المصدر، ص ١٦٣.

(٥٦) نفسه، نفس المصدر والصفحة

(٥٧) نفسه، نفس المصدر، ص ٥٠.

(٥٨) نفسه، نفس المصدر، ص ٩٨.

(٥٩) أنظر : الفصل الأول، حاشية () .

(٦٠) ابن شداد، المصدر السابق، ح ١ / ق ٢، ص ٣٩٧.

(٦١) نفسه، نفس المصدر، ص ٨٥.

(٦٢) نفسه، نفس المصدر، ص ٥٨.

(٦٣) وقعت أنب ضمن أعمال عزاز في شمال الشام، عنها أنظر :

كرد علي، خريط الشام، ح ٢، ط. دمشق ١٩٢٥م، ص ٢٣، وأورد حسين مؤنس التسمية على أنها أناب وهي تسمية لم ترد في أى من المصادر العربية المعاصرة أو اللاحقة على هذا النحو، أنظر : حسين مؤنس، صور من البطولة، ط. القاهرة ١٩٤٨م، ص ١٧٣.

(٦٤) عن تفاصيلها أنظر :

ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٠٤؛ العماد الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ط.
القاهرة ١٣١٨ هـ، ص ٢٠٧؛ ابن الأثير، الباهر، ص ٩٨-٩٩؛ الكامل، ح ١١، ص ٥٨-٥٩؛
ابن واصل، مفرج الكروب، ح ١، ص ١٢٠-١٢١.

Elisseeff, Nur A-Din, un prince musulman au Temps des croisades, T. II, Damas 19 , p. 430-432; Gibb, The Career of Nur Al-Din, p. 515; Stevenson, The Crusaders, p. 165.

أنطوني بردج، الحروب الصليبية، ت. سبانو وزميله، ط. دمشق ١٩٨٥ م، ص ١٥٩؛ العروسي
المطوي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ط. تونس ١٩٥٤ م، ص ٤٨.

(٦٥) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٣٠٤؛ ابن العدين. زبدة الحلب، ح ٢، ص ٢٩٨-٢٩٩.

(٦٦) ابن الأثير، الباهر، ص ١٥٤؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢١٧؛ ابن العديم، المصدر
السابق، ح ٢، ص ٣٠١؛ ابن واصل، المصدر السابق، ح ١، ص ١٢٣.

(٦٧) اختلفت المصادر والمراجع بشأن تاريخ أسر جوسلين الثاني، فهناك من ذكر أن ذلك حدث عام
٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م، ومن أصحاب ذلك الرأي سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ح ٢/١،
ص ٢٠٢.

ابن ليك الدواداري، الدرة المضنية في أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق صلاح الدين المنجد،
ط. القاهرة ١٩٦١ م، ص ٥٥٥؛ واليسيف Elisseeff, Nur Al-Din, T. II, p. 453-454.

وهناك اتجاه آخر يرى ذلك عام ٥٤٥ هـ / ١١٥٠ م، وهو الأرجح في تقديري، وقد وجد
تأييداً من المؤرخين المعاصرين مثل ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٣١٠؛ العماد
الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٢٠٧؛ وكذلك، ابن الأثير، الكامل، ح ٨،
ص ٦٢-٦٣؛ ابن العديم، بدء الحلب، ح ٢، ص ٣٠٢؛ ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية،
ص ١٣٦-١٣٧.

وتأييد المؤرخين المعاصرين تجعلنا نؤيد تاريخ عام ٥٤٥ هـ / ١١٥٠ م؛ وقد أيد به بعض
المؤرخين المحدثين وحدوده بصورة أدق في ٥ محرم ٥٤٥ هـ / ٥ مايو ١١٥٠ م. أنظر : عاشور،
الحركة الصليبية، ح ٢، ص ٦٤٢.

عمران، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الامبراطور مانويل كومنين، ط.
الاسكندرية ١٩٨١ م، ص ١٧٩.

Stevenson, The Crusaders, p. 167.

وعن أسره أنظر :

Anonymous Syriae chronicle, p. 302; William of Tyre, Vol. II, p. 201.

(٦٨) وعن موته بعد سنوات الأسر أنظر :

William of Tyre, Vol. II, p. 201, note (26); Stevenson, The Crusaders, p. 181.

(٦٩) ابن العبري، المصدر السابق، ص ٢٠٨؛ ابن العديم، المصدر السابق، ح ٢، ص ٣٠٢-٣٠٣؛

ابن واصل، المصدر السابق، ح ١، ص ١٢٤؛ سبط بن الجوزي، المصدر السابق، ص ٢٠٢؛ ابن

الشمحة، روضة الناظر في تاريخ الأوائل والأواخر، بهامش الكامل لابن الأثير، ص ٥٥٠.

(٧٠) كرد علي، المرجع السابق، ح ٢، ص ٣٧.

(٧١) Stevenson, Op. Cit., p. 148.

(٧٢) تمة المختصر، ص ٥٠.

(٧٣) المصدر السابق، ح ٢، ص ٣٠٢-٣٠٣.

(٧٤) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٣١٠؛ العماد الأصفهاني، المصدر السابق، ص ٢٠٧.

(٧٥) ابن واصل، المصدر السابق، ح ١، ص ١٢٥.

(٧٦) وقعت حارم ضمن حدود إمارة أنطاكية على بعد عشرة أميال غربها، وهي حالياً من مناطق

محافظة أولبا في شمال سوريا، وتبعد عن أولبا بمسافة ٥٣ كيلو متر مربع. عنها أنظر :

William of Tyre, Vol. II, p. 306-308; Jacques de Vitry, p. 94.

عمران، المرجع السابق، ص ٢٨٥. وعن معركة حارم بالتفصيل أنظر :

Anonymous Syriae chronicle, p. 303; William of Tyre, Vol. II, p. 306-308; Jacques de Vitry, p. 94.

ابن الأثير، الباهر، ص ١٢٤؛ العماد الأصفهاني، البستان الجامع، ص ١٣٥؛ العدوي،

الزيارات، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط. دمشق ١٩٥٦م، ص ٤٠؛ عمران معركة حارم، مجلة

المؤرخ العربي، العدد (٨)، عام ١٩٧٧م، ص ٩٠-١١٢.

Jacques de Vitry, p. 94. (٧٧)

(٧٨) ابن عساكر، ترجمة محمود بن زنكي، تحقيق : B.E.O., T. Année 19، ص ١٣٨.

Anonymous syriae chronicle, p. 303. (٧٩)

ابن واصل، المصدر السابق، ح ١، ص ١٤٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ح ١٢، ص ٢٤٨.

(٨٠) ابن العديم، المصدر السابق، ج٢، ص ٣٢٠؛ ابن واصل، المصدر السابق، ج١، ص ١٤٥.

(٨١) سبط بن الجوزي، المصدر السابق، ج٨/ق١، ص ٢٤٧؛ أبو الفداء، المختصر، م (٢)، ج (٥)، ص ٥٦.

(٨٢) Anonymous Syriac Chronicle, p. 304; William of Tyre, Vol. II, p. .

الفتح البنداري، سنا البرق الشامي، ص ١٩؛ أبو شامة، الروضتين، ج٢/ق١، ص ٣٣٩؛ ابن واصل، المصدر السابق، ج١، ص ١٤٥؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤، ص ١٨٦.

(٨٣) Anonymous syriac Chronicle, p. 204; William of Tyre, Vol. II, p. 308.

(٨٤) Chen, La Syrie du nord à L'epoque des croisades, Paris 1940, p. 204.

يقول عنها : " Le desastre de Harim " .

(٨٥) ابن الأثير، الباهر، ص ١٢٥، ابن العديم، المصدر السابق، ج٢، ص ٣٢٠.

(٨٦) William of Tyre, Vol. II, p. 308-310. ابن العديم، المصدر السابق، ص ٣٢١.

(٨٧) ابن شداد، المصدر السابق، ص ١١٦.

(٨٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٨٩) عزيز سوريال عطية، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ثقافية، تجارية، صليبية، ت. فيليب صابر، ط. القاهرة ١٩٧٣م، ص ٥٤.

ويلاحظ أن كلمة كراك Crac، تحريف للفظه الأكراذ، وتختلف عن كلمة Crac، الواردة في Crac des Moabites، Crac de Montrial، وهذين الإسمين تحريف للفظه آرامية هما «كرخا» ومعناها مدينة، عن ذلك أنظر :

فيليب حتى، لبنان في التاريخ، ط. بيروت ١٩٦٠م، ص ٣٤٦.

(٩٠) هنري لامنس، دولة العلويين، المشرق، العددان (٨)، (٩)، م (٢٧)، عام ١٩٢٩م، ص ١٦٨.

(٩١) عبدالرحمن زكي، العمارة العسكرية في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، م (٧)، عام ١٩٥٨م، ص ١٢٨، حاشية (٣).

(٩٢) يوسف سمارة، جولة في الإقليم الشمالي، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص ٦٢.

(٩٣) عبدالله عنان، قلاع الصليبيين والمسلمين في سوريا ولبنان، مجلة الهلال، حـ (٥)، السنة (٤٢) عام ١٩٣٣ م، ص ٥٥٤.

(٩٤) ابن القلانسي، المصدر السابق، تحقيق أميدروز، ص ١٦٢.

(٩٥) مفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، تحقيق بلوشيه P.O., T. XII ط. باريس، ص ٥٢٨.

King, "The Taking of Le krak des chevaliers in 1271", Antiquity, Vol. XXIII, (٩٦) p. 89; Lawrence, Crusader Castles, Vol. I, London 1936, p. 47.

King, The Taking, p. 39. (٩٧)

Riley, Smith, A History of The Order of the knights of St. John of Jerusalem, (٩٨) London 1967, p. 37; Fedden, Crusader Custles, p. 50.

(٩٩) المقرئى، السلوك لمعرفة دول الملوك، حـ ١ / ١ ق، تحقيق مصطفى زيادة، ط. القاهرة، ص ٥٩١.
عبدالقادر المغربي، الظاهر بيبرس، مجلة المجمع العلمي بدمشق، م (٢١)، حـ (٥)، حـ (٦)،
عام ١٩٤٦ م، ص ٢٣٥.

King, The knight, Hospitallers in the Holy Land, London 1930, p. 270.

وعن حصن الأكراد بصفة عامة أنظر :

مرفت محمد سعيد، حصن الأكران ودوره فى الصراع الصليبي / الإسلامى (٥٨٩-٦٩٨ هـ / ١١٩٣-١٢٩١ م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الاسكندرية عام ١٩٩٢ م؛ سميل، الحروب الصليبية، ت. سامى هاشم، ط. بيروت ١٩٨٢ م، ص ٢٥٧؛ نقولا زيادة، صبور من التاريخ العربى، ط. القاهرة ١٩٤٦ م، ص ١٠٥؛ جمال الدين سرور، دولة الظاهر بيبرس فى مصر، ط. القاهرة ١٩٦٠ م، ص ٨١-٨٢؛ عبدالعزيز عبدالدايم، إمارة طرابلس الصليبية فى القرن الثانى عشر الميلادى، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، عم ١٩٧١ م، ص ٤١.

Rchard, Le Conte de Tripoli sous le Dynastie Toulousaine (1102-1187), Paris 1945, p. 2; Deschamps, Les chateaux des croisés, Crac des chevaliers, Paris 1934; Rihaoui, Le Crac des chevaliers, Guide Touristique et Archaeologique, Damas 1975.

(١٠٠) ابن شداد، المصدر السابق، ص ١١٦-١١٧.

(١٠١) نفسه، نفس المصدر، ص ١١٧.

- (١٠٢) نفسه، نفس المصدر والصفحة.
- (١٠٣) نفسه، نفس المصدر والفتحة.
- (١٠٤) نفسه، نفس المصدر، ص ٦٩.
- (١٠٥) نفسه، نفس المصدر، والصفحة.
- (١٠٦) نفسه، نفس المصدر، ص ٧٠.
- (١٠٧) ابن شداد، المصدر السابق، ح ٢، ص ٦٩، النابلس، رحلتان إلى لبنان، تحقيق صلاح الدين المنجد واسطفان فيلد، ط. بيروت ١٩٧٩م، ص ٧٢؛ يوسف درويش غوانمه، التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، ط. عمان ١٩٨٢، ص ٢٥٩؛ إمارة الكرك الأموية، ط. عمان ١٩٨٢م، ص ٥٥؛ لانكستر هاردنج، آثار الأردن، ت. سليمان موسى، ط. عمان ١٩٦٥م، ص ١٠٤-١٠٧.
- (١٠٨) حمود القناني، الآثار في شمال الحجاز، ح ١، ط. القاهرة ١٩٧٦م، ص ٢٧٦.
- (١٠٩) يوسف درويش غوانمه، التاريخ الحضاري، ص ٢٦٣.
- (١١٠) ابن شداد، المصدر السابق، ص ١٥٢.
- (١١١) عن موقع قلعة تينين أنظر :
- ياقوت، معجم البلدان، ح ١، تحقيق وستنفيلد، ط. ليزج ١٨٨٩م، ص ٨٢٠؛ العثماني، تاريخ صفة، ص ٤٨٢.
- Jipejian, Sidon, Through the ages, Beirut 19 , p. 104.
- (١١٢) William of Tyre, Vol. i, p. 449. ، أنظر أيضاً :
- Rey, Les colonices Franques, p. 499.
- (١١٣) . Riley-Smith, Op. Cit., p 37
- (١١٤) ابن الأثير، الكامل، ح ١١، ص ٥٤٢؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ح ٣، ص ١٧٧؛ الفتح البنداري، سنا البرق الشامي، ص ٣٠٤.
- Ernouf, p. 51.
- (١١٥) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٨٠؛ ابن خلكان، المصدر السابق، ح ٧، ص ١٧٧؛ ابن الأثير، لمصدر السابق، ح ١، ص ٥٤٢؛ الفتح البنداري، المصدر السابق، ص ٣٠٤.

- (١١٦) ابن شداد، المصدر السابق، ح-٢، ص ١٥٣.
- (١١٧) نفسه، نفس المصدر، ح-٢، ص ١٥٣؛ حامد غنيم، الجبهة الإسلامية، ح-٣، ص ١٤٣.
- (١١٨) ابن شداد، المصدر السابق، ص ١٥٤.
- (١١٩) سليمان مظهر، قلعة شقيف أرنون، مجلة المجمع العلمي بدمشق، عدد عام ١٩٤٤م، ص ٤٢٤.
- (١٢٠) ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، م ١٥/ ح-١، تحقيق الشماع، ط. البصرة ١٩٩٠م، ص ٢٢١، حاشية (٩٠٠)؛ حتى، المرجع السابق، ص ٣٥٨.
- (٢١) سليمان مظهر، المرجع السابق، ص ٤٣٠.
- (١٢٢) أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي، ص ٣٢٥.
- ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٩٨.
- Ruhricht, E Tude Sur Les derniers Temps de Royaume de Jerusalem, Les combates de Sultan Bibars contre les chretiens en Syrie, A.O.L., T. II, p. 390-391.
- (١٢٣) ابن شداد، المصدر السابق، ح-٢، ص ١٤٦.
- (١٢٤) عاشور، الحركة الصليبية، ح-٢، ص ٦٠٠-٦٠١؛ الطراونة، مملكة صفة، ص ٨٦.
- (١٢٥) ابن شداد، المصدر السابق، ح-٢، ص ١٤٦؛ وقدانده الطراونة، المرجع السابق، ص ٨٥.
- (١٢٦) العثماني، المصدر السابق، ص ٤٧٩.
- (١٢٧) عاشور، المرجع السابق، ح-٢، ص ٦٩٣.
- (١٢٨) Prawer, The Latin Kingdom of Jerusalem, p. 260.
- (١٢٩) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص ٢٦١؛ مفضل ابن أبي الفضائل، المصدر السابق، ص ٤٩٠؛ ابن كثير، المصدر السابق، ح-١٣، ص ٢٤٧؛ ابن الشحنة، المصدر السابق، ص ١٣٢؛ المقرئ، المصدر السابق، ح-١/ق ١، ص ٥٤٣.
- (١٣٠) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٨٠.
- (١٣١) نفسه، نفس المصدر، ص ٨٢.
- (١٣٢) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١٣٣) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١٣٤) نفسه، نفس المصدر، ص ١٦٢.

(١٣٥) نفسه، نفس المصدر، ص ١٧٠.

ويوشع بن نون هو الذى تولى قيادة بنى إسرائيل بعد وفاة موسى عليه السلام، وهناك سفر خاص به يحمل اسمه فى العهد القديم، وهو سفر يشوع، ويمكن تقسيم حياة يشوع أو يوشع إلى قسمين، الأول ويطلق عليه مرحلة الصحراء، وفيها تجده بمثابة مساعد ومعين للنبي موسى عليه السلام، أما القسم الثانى فيتمثل فى دوره فى قيادة بنى إسرائيل بعد وفاة موسى، وفى المجال الآخر تجده يرتبط ارتباطاً وثيقاً باتجاههم نحو غزو أرض كنعان Canaan والاستقرار فيها، وقد تمكن من عبور الأردن والنزول بفلسطين، وتم الاستيلاء على أرض Jericho، وأعقب ذلك مذبحة كبرى قتل فيها كل من وجده فيها تقريباً من السكان. ويقرر البعض أن يوشع قد جعل مبداء قانون القوة، فتصور أن أكثر الناس سفكاً للدماء، هو الذى يبقى على قيد الحياة. عن يوشع بن نون أنظر : سفر يشوع، من ١ : ٣.

Petachia of Ratisbon, Tour du Monde, Ou voyage de Rabbi petachia, ed. Carmoly, J.a., T. VIII, Paris 1831, p. 391; U.J.E., Joshua, Vol. VI, New York 1969, pp. 202-206; E.B., Joshua, Vol. VIII, U.S.A., p. 153; C.E., Joshua, Vol. VIII, London 1973, p. 140; D.E.q., "Joshua", T. II, Paris, 1953, p. 3027.

عبدالحاميد زايد، القدس الخالدة، ص ٤٤-٤٥؛ أحمد شلبى، اليهودية، ط. القاهرة ١٩٨٤ م ص ٦٩.

(١٣٦) ابن شداد، المصدر السابق، ص ١٩٩.

(١٣٧) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٨٧.

(١٣٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١٣٩) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١٤٠) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١٤١) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

ووادى جهنم، وقع شرق بيت المقدس بين جبل الزيتون شرقاً وجبل صهيون غرباً، وخلال العصور الوسطى، أطلق عليه المؤرخون أسماء متعددة مثل : وادى مريم، أو وادى النار،

أو وادى سلوان، أو وادى يوسفات. ويلاحظ أن هناك إشارات متعددة عن ذلك الوادى فى مؤلفات الرحالة الأوروبيين الذين زاروا بمكة بيت المقدس الصليبية خلال القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى وفيما بعد، وقد احتوى وادى جهنم خلال تلك المرحلة على العديد من التساك الذين أقاموا فيه. عن وادى جهنم أنظر :

William of Tyre, Vol. I, p. 341; John of Wurzburg, p. 50-51; Burchard of Mont Sion, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., Vol. XII, London 1896, p. 69, p. 71; Ludolph Von Suchem, Description of the Holy Land, Trans. by Aubrey Stewart, Vol. XII, London 1895, p. 97, p. 110; Felix Fabri, The wanderings of Felix Fabri, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., Vol. VII, Part II, London 1893, p. 458.

سعيد البيشاوى، الممتلكات الكنسية، ص ١٣٢.

(١٤٢) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٢٦٤.

(١٤٣) نفسه، نفس المصدر، ص ١٤٣، ١٥٦-١٥٧، وغيرها.

(١٤٤) نفسه، نفس المصدر، ص ١٧٠.

(١٤٥) نفسه، نفس المصدر، ص ١٣١.

(١٤٦) نفسه، نفس المصدر، ص ١٢٩-١٣٠.

(١٤٧) نفسه، نفس المصدر، ص ١٤٠.

(١٤٨) نفسه، نفس المصدر، حـ ١/ق ١، والصفحة.

(١٤٩) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١٥٠) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٢١٥؛ سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، حـ ٨/ق ١،

ص ١١٨؛ ابن شداد، المصدر السابق، حـ ٢، ص ١٤٠.

(١٥١) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٢١٥؛ ابن شداد، المصدر السابق، حـ ٢، ص ١٤٠.

(١٥٢) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٢١٥.

ابن قاضى شعبة، الكواكب الدرية، ص ٩٥.

(١٥٣) بانياس، تقع إلى جهة الغرب مع ميل إلى الجنوب من دمشق، وكانت تطل على إقليم يعرف

بإقليم الحولة الذى اشتمل على مائتى قرية على حد قول ابن شاهين وتعرف أحياناً بالصبيبية،

وقد يخلط بينها وبين بانياس الواقعة على الساحل الشامى. عن بانياس أنظر :

- أبو الفداء، تقوم البلدان، ص ٢٣٨-٢٣٩؛ ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ٤٦؛
 الخالدي، المقصد الرفيع المنشأ، ورقة (٨٨)؛ عمر كمال توفيق، مقدمات العدوان الصليبي، ط.
 الاسكندرية ١٩٦٦م، ص ١٩٤-١٩٥.
- (١٥٥) ابن الأثير، الكامل، ح ١٠، ص ٢٢٥؛ ابن قاضي شهاب، المصدر السابق، ص ٩١؛ العماد
 الأصفهاني، البستان الجامع، ص ١٢٠.
- (١٥٦) مصطفى غالب، أعلام الاسماعيلية، ط. بيروت ١٩٦٩م، ص ١٧٢.
- (١٥٧) الكامل، ح ١٠، ص ٢٥٠.
- (١٥٨) أنظر عن أحداث الصدام بين الدروز والاسماعيلية؛ ابن القلائسي، المصدر السابق، ص ٢٢١؛
 ابن الأثير، المصدر السابق، ح ١٠، ص ٥٠؛ العماد الأصفهاني، البستان الجامع، ص ١٤١؛ ابن
 شداد، المصدر السابق، ح ٢، ص ٤٠؛ رنسيمان، الحروب الصليبية، ح ٢، ص ٢٨٦.
- Cahen, Op. Cit., p. 347.
- (١٥٩) اعزاز، ويقال عزاز، بلدة تقع بشمال حلب على بعد مرحلة منها، عنها أنظر : أبو الفداء،
 المصدر السابق، ص ٢٣١.
- (١٦٠) مفرج الكروب، ح ٢، ص ٤٥.
- (١٦١) أبو شامة، الروضتين، ح ١ / ق ٢، ص ٦٦٠؛ سبط بن الجوزي، المصدر السابق، ح ١ / ق ١،
 ص ٣٣٥. وعن محاولة الاغتيال أنظر :
- ابن شداد، النواذر السلطانية، ص ٥٢؛ العماد الأصفهاني، البستان الجامع، ص ١٤١.
- Runcimn, The Crusades, p. 409; Stevenson, The Crusaders, p. 212.
- (١٦٢) ابن شداد، المصدر السابق، ح ١ / ق ١، ص .
- (١٦٣) نفسه، نفس المصدر، ص .
- (١٦٤) نفسه، نفس المصدر، ص ١٠٣.
- (١٦٥) نفسه، نفس المصدر، ص ١٠٤.
- (١٦٦) نفسه، نفس المصدر، والصفحة. وعن إحراق المجد الجامع في حلب من جانب الاسماعيلية
 النزارية أنظر :

بيشوف، تحفة الأنبياء بتاريخ حلب الشهباء، ط. بيروت ١٨٨٥م، ص ١٣٧. وعن ذلك المسجد الجامع :

ابن جبير، الرحلة، ص ٢٤٠، ابن بطوطة، الرحلة، ص ٧٠ أحمد رمضان، العماير الدينية في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والملوكي، ضمن كتاب الاحتفال الخمسيني لكلية الآثار، جامعة القاهرة، ط. القاهرة ١٩٧٨م، ص ١٣٢-١٣٣.

(١٦٧) ابن شداد، المصدر السابق، ص ١٠٤.

(١٦٨) نفسه، نفس المصدر، ص ١٠٧.

(١٦٩) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٣٣.

(١٧٠) نفسه، نفس المصدر، والصفحة. عنها أنظر أيضاً :

ابن العجمي، كنوز الذهب في تاريخ حلب، مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم (٨٣٨) تاريخ تيمور؛ حامد زيان، حلب في العصر الزنكي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، عام ١٩٧٠م، ص ٧٣؛ أسعد طلس، الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب، ط. دمشق ١٩٥٦م، ص ٢٥١.

(١٧١) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٢٣٦.

(١٧٢) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٣٧.

(١٧٣) نفسه، نفس المصدر، والصفحة.

(١٧٤) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٣٨.

(١٧٥) نفسه، نفس المصدر، والصفحة.

٥ - ابن سعيد المغربي

(ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م)

يتناول هذا الفصل بالدراسة أحد الجغرافيين المسلمين الأندلسيين، الذين عاصروا القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي وتناولوا بلاد الشام، وهو ابن سعيد المغربي^(١) (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م)، وقد احتلت بلاد الشام أهمية متميزة في مؤلفات ذلك الجغرافي ومن ثم سلط الأضواء الكاشفة على العديد من جوانب حياتها خلال عصر الحروب الصليبية ولاسيما خلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي.

وابن سعيد المغربي؛ هو أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك^(٢)، ولد في ليلة عيد الفطر من عام ٦١٠هـ / ١٢١٤م، في قلعة يحصّب Alcala La Real الواقعة على بعد ٥٢ كم من غرناطة بالأندلس^(٣)، وانتسب إلى أسرة عريقة، اتصل أفرادها بعدد من الملوك، والأمراء، كما أن صفة العلم، والأدب، لازمت العديد من أفراد تلك الأسرة.

وتجدر الإشارة إلى أن جده لوالده أهدى ولاءه لدولة المرابطين، على نحو أثار غضب وحقد أهل الأندلس عليه وعلى أسرته عام ٥٦٩هـ / ١٩٧٣م، فاضطر إلى اللجوء إلى قلعة يحصّب المذكورة، ثم اتجه نحو تأييد الموحدين من بعد ذلك^(٤)، أما والده أبو موسى؛ فكان عالماً بارعاً في العديد من الفنون ولاسيما فنون الأدب.

وهناك من يرى أن ابن سعيد المغربي قد خرج إلى المشرق في رحلتين، وفي الرحلة الأولى اتجه صوب مصر والشام، والعراق، وأرمينية، وتجول في تلك المناطق، وذلك على

مدى أكثر من عشر سنوات كاملة^(٥)، وذلك قبل توجهه إلى جزيرة العرب من أجل تأدية فريضة الحج، وذلك قبل العودة إلى تونس، وفي الرحلة الثانية، خرج ابن سعيد صوب مصر، وأرمينية، وإيران، وتجول في تلك المناطق، على مدى ثلاث سنوات. وذلك قبل أن يعاوده الحنين إلى تونس فذهب إليها مرة أخرى^(٦).

وقد اختلف المؤرخون في تحديد مكان وفاة ابن سعيد المغربي وزمانها، فهناك من يرى أنه توفي بدمشق في عام ٦٧٣هـ / ١٢٧٤م^(٧)، كما أن هناك من يرى أنه توفي بعد ذلك في عام ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م^(٨)، في تونس، غير أن هذه الناحية لا تزال موضع اختلاف بين الباحثين وليس من اليسير ترجيح أحد الرأيين.

وقد ألف ابن سعيد العديد من المؤلفات في مجال الجغرافيا، والرحلات، والأدب، والتاريخ، على نحو عكس ارتفاع شأنه في تلك العلوم، والفنون، ومن تلك المؤلفات لذة الأعلام في تاريخ الأمم الأعجام، وريحانة الأدب، نتائج القرائح في مختار المراثي والمدائح، والشهب الشافية في الأنصاف من المشاركة والمغاربة، الطالع السعيد في تاريخ بني سعيد، والنفحة المسكية في الرحلة المكية، ونشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب. والقدرح المعلى، والمرزمة في الفوائد الأدبية والإخبارية، وكذلك المشرق في حلى المشرق، والمغرب في حلى المغرب^(٩)، وكتاب الجغرافية، وكتاب بسط الأرض في الطول والعرض.

وتجدر الإشارة إلى أن هناك من اعتقد أن كتاب بسط الأرض في الطول والعرض؛ هو كتاب الجغرافيا^(١٠)، غير أن إسماعيل العربي قد أثبت أن الكتابين مختلفان، وأن بسط الأرض يمثل اختصاراً لكتاب الجغرافيا^(١١).

وتجدر الإشارة، إلى أن كتاب بسط الأرض في الطول والعرض، قد حققه خوان خنيس، وصدر في تطوان عام ١٩٥٨م أما كتاب الجغرافيا فقد حققه إسماعيل العربي؛ وصدر في بيروت عام ١٩٧٠م، ويخلط أحد الباحثين بين الأمرين حيث يتصور أن خوان خنيس قد حقق كتاب الجغرافيا^(١٢).

وهناك ناحية هامة، تتمثل في المصادر التي اعتمد عليها ابن سعيد المغربي في كتابه الجغرافيا، ويرى البعض أن جغرافية ابن سعيد تعتمد إلى حد كبير على الإدريسي في مادتها الأساسية^(١٣). ومع ذلك فلا يمكن أن نعتبر الإدريسي هو المصدر الوحيد لأن هناك مصادر أخرى مثل المشاهدة الشخصية، بالإضافة إلى المعارف الجغرافية اليونانية مثل ما ألفه بطليموس القلوزي (ق ٣٢) تحت عنوان المجسطي Al Mageste^(١٤) والذي ترجمه حنين بن اسحاق في العصر العباسي الأول، ومثل أحد أهم مصادر العلماء الجغرافيين العرب على مدى العصور الوسطى.

أضف إلى ذلك، اعتماده على أحد الرحالة الذين فقدت مؤلفاتهم وهو ابن فاطمة؛ خاصة فيما يتصل برحلاته في جنوب الساحل المراكشي^(١٥).

أما بالنسبة لبلاد الشام، فمن المرجح أن ابن سعيد قد أفاد من مؤلفات الجغرافيين المسلمين السابقين مثل الإدريسي وغيره بالإضافة إلى المشاهدات الشخصية، التي تركت بصماتها على رؤيته لبلاد الشام وإن جاءت في صور مقتضبة.

والواقع أننا لا يمكن أن نقبل القول بأن ابن سعيد في «الجغرافيا» قد اعتمد إلى حد كبير على الإدريسي، لوجود اختلافات بين منهجي كل من الجغرافيين المسلمين الكبيرين، ومن أمثلتها ثراء الإشارات التي يقدمها الإدريسي عن بلاد الشام، إذا ما قورنت بما أورده ابن سعيد، بالإضافة إلى أن الإدريسي يهتم بدرجة كبيرة بذكر المزارات الدينية المسيحية في فلسطين، بينما نجد أن ابن سعيد لا يعتنى بها، ولا يبرزها البتة، وفي حالة افتراض اعتماده بصورة كبيرة على مؤلف نزهة المشتاق لتأثر به في تلك النواحي، الأمر الذي لم يحدث، وأغلب الاحتمال أن ابن سعيد اعتمد على الإدريسي مثل اعتماده على المصادر الجغرافية الأخرى، مع عدم إغفال رؤيته الشخصية، وهي التي تحتل أهميتها فيما يتصل بوصفه لبلاد الشام، على الرغم من طابع الإيجاز الغالب على ذلك الوصف.

أما إذا نظرنا إلى رؤية ابن سعيد المغربي لبلاد الشام، فنجد أنه قد حرص على إبراز الأطوال، والأبعاد بين مدن الشام دون أن يقدم التفاصيل المتوقعة منه في هذا المجال. ونجد مثالا دالا على ذلك عند تناوله لمدن قيسارية، وطرابلس، واللاذقية، حيث اكتفى بتحديد المسافات بينها، ولم يتحدث عنها بأية إشارة.

يبد أنه لم يستمر على ذلك المنهج، إذ أنه عندما تناول عكا وصفها بأنها «ركاب الفرغ ومجمع تجارتهم وحجاجهم»^(١٦) ومن الواضح أنه أجمل بذلك تناول الخاص بها، من حيث أهميتها التجارية، ومكانتها بوصفها ميناء للحج، مع ملاحظة أن ميناء يافا مثل هو الآخر ميناء يصل إليه الحجاج المسيحيون من أجل الوصول بعد ذلك إلى المواضع المقدسة في فلسطين، مع ملاحظة أن إشارته بشأن عكا تظل مختصرة للغاية، ولا تتناسب مع مكانة تلك المدينة الهامة والحيوية والتي مثلت يوماً ما القلب التجاري للوجود الصليبي في بلاد الشام.

أما فيما يتصل بمدينة صور فنجد أنه يشير إلى حصانيتها ومناعتها. وقد ذكر أنها لا ترام من ناحية البر، كما أن الصليبيين أداروا البحر حولها. من أجل إحكام حصانيتها^(١٧). أما بيروت فقد قدم إشارة هامة عنها عندما قرر أنها ميناء دمشق^(١٨)، وهذا يوضح كيف أن المدن الشامية الداخلية البرية اعتمدت على مدن ساحلية من أجل تصريف منتجاتها وتجارتها. وعندما تناول يافا، فإنه لم يقدم عنها إلا القليل النادر، وذكر أنها من الغرض المشهورة. وفي إشارته لغزة نجد أنه لا يقدم إلا عبارة أن بينها وبين البحر، أكوام من الرمال^(١٩).

ومن الواضح الجلي، أن إشارات ابن سعيد لمدن الساحل الشامي، إشارات محدودة ليست ذات ثقل، وتقل بكثير في أهميتها عما ورد بشأن نفس المنطقة الهامة، لدى مؤلفات الجغرافيين المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام خلال ذلك العصر.

أما النشاط الاقتصادي في بلاد الشام، والذي تعرض إليه ابن سعيد المغربي، فنجد أنه خلال زاويتين؛ الأولى الزراعة والثانية التجارة، أما الزراعة، فنجد أنه يقرر اشتهاار حارم بإنتاج نوع جيد من الرمان يمتاز بكثرة المياه^(٢٠)، أما معرة النعمان فنجد أنه يقرر اشتهاارها بزراعة الزيتون والتين والفسق^(٢١) وغيرها من المنتجات، وبالنسبة لحلب نجد أنه يقرر أنها تنتج القطن، وكذلك الفسق الكبير^(٢٢)، ومن الواضح أهمية إشارته بشأن القطن، على اعتبار أنه يدخل في صناعة المنسوجات.

أما التجارة فنجد أنه يشير إلى أن القطن الذي ينتج في حلب يدخل في نطاق تجارة البحر المتوسط فيصل إلى سبتة بالمغرب الأقصى^(٢٣)، ويبدو أن حلب اعتمدت على ميناء السويدية، أو غيره من الموانئ على الساحل الشرقي للبحر المتوسط من أجل تصريف منتجاتها، مع ملاحظة أن عالم البحر المتوسط في عصر الحروب الصليبية كان بمثابة منطقة تجارية واحدة ومشتركة بين قسميه الشرقي والغربي، ولعل مقولة ابن سعيد بشأن قطن حلب خير شاهد على ذلك.

ومن جهة أخرى، نجد أنه عندما يذكر مدينة الباب الواقعة في وادي بطنان، شمال شرق حلب، نجد أنه يذكر دورها في حركة التجارة ويقرر أن بها نشاط تجاري للبرازين أي تجار الأقمشة وكذلك العطارين^(٢٤)، ونجد الإشارة إلى أن أنواع العطرة قد تزايدت في بلاد الشام بشكل واضح في ذلك العصر، ففي القرن السابق على زيارة ابن سعيد المغربي لبلاد الشام ونعني به القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، عدد ابن القلانسي^(٢٥) نحو ثلاثمائة وثمانين صنفاً من أصناف العطرة لدى أحد العطارين بمدينة دمشق^(٢٦)، حقيقة أن أسواق الباب، لا يمكن أن تقارن بأسواق دمشق المزدهرة تجارياً، لكن من المنطقي تصور أن الازدهار التجاري قد أصاب أسواق تلك المدينة وإن كان بصورة أقل بالطبع.

أما إذا ما اتجهنا إلى وجهة أخرى، ونعني بها مصادر المياه فنجد أن ابن سعيد قد اهتم بها، وأورد عدداً من أنهار بلاد الشام، بل وتتبع مسار بعضها، ومن أمثلة ذلك نهر الأردن، وقد أشار إلى أنه يخرج من بحيرة طبرية، ويمر بالغور إلى أن يصب في البحيرة الميتة (٢٧). أما نهر قويق، فقد ذكر أنه يأتي من جهة عزاز (٢٨)، أما نهر العاصي فإنه يقرر أنه ينزل من جهة بعلبك، ويعني بذلك أنه ينبع من هناك، ويمر على شمالي حمص، وحماة، وشيزر، ثم يسير إلى الشرق من أنطاكية، وشماليتها (٢٩) إلى أن يصل إلى البحر المتوسط.

ومن الطبيعي أن نلاحظ اهتمام ابن سعيد بمسألة المياه خاصة أنهار الشام بحكم أهميتها لمظاهر الحياة المتعددة، غير أنه لم يظهر تباين أقاليم بلاد الشام في الري بمياه الأمطار والعيون والينابيع ومياه الأنهار الأمر الذي وجدناه لدى الجغرافيين المسلمين السابقين مثل الإدريسي وياقوت والقزويني.

أما المزارات الدينية والعلاجية، فقد أشار إليها ابن سعيد بإيجاز، ومن أمثلة النوع الأول، أنه تناول بالحديث وجود جعفر الطيار في مؤتة، وكذلك قبور أصحابه (٣٠)، ويبدو أنه لم يعترض على ذلك، ولم يشك فيه، أما في غزة فنجد أنه يقرر أن هناك من يزعم بأن جد النبي عليه السلام مدفون بها، ومن الواضح عدم اقتناعه بذلك بدليل إشارته للأمر على أساس أنه زعم (٣١) ولا يدخل في نطاق الحقائق المؤكدة، وإن لم تتوافر لدى ابن سعيد المغربي ذات الشجاعة التي كانت لدى ياقوت الحموي.

وفيما يتصل بالمزارات العلاجية نجد أنه يقرر أمر عيون طبرية الساخنة، ويبدو أنه لم يدرك دورها العلاجي، واعتبرها بديلاً عن الحمامات (٣٢)، ولعل ابن سعيد يكاد يكون من الجغرافيين المسلمين القلائل في ذلك العصر الذين لم يشيروا إلى الخاصية العلاجية لعيون طبرية.

أما الخريطة المذهبية والعقائدية لبلاد الشام فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى، فنجد أن ابن سعيد قد ألقى الضوء على العناصر الشيعية؛ ولاسيما الإسماعيلية والنصيرية، فبالنسبة للإسماعيلية أشار إلى أنه يتصل بجبل الإسماعيلية، وعلى نفس مذهبهم العقائدى جبل السماق وتكثر به العناصر الإسماعيلية، وقد عبر عن تلك الكثافة السكانية لأصحاب ذلك المذهب بقوله «هو ملآن بالإسماعيلية» (٣٣)، ومن ناحية أخرى، عندما تعرض لمدينة سلمية، لم يفته أن يذكر تاريخها ودورها فى بداية الدعوة الإسماعيلية، فقد ذكر أنه خرج منها عبدالله المهدي فأقام دعوتهم فى بلاد المغرب ثم توالى أمرهم إلى أن أزال دولتهم السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي (٣٤).

وإلى جانب الإسماعيلية، نجد أن ابن سعيد المغربى قد سلط الضوء على النصيرية، وعمل على تحديد موقعهم الجغرافى. إذ أنه أشار إلى جبل النصيرية الذى يظهر قائماً على جبهة واللاذقية. وقد أوضح أنهم ينسبون إلى نصير مولى الإمام على بن أبى طالب - رضى الله عنه - كما أنه تعرض لبعض عقائدهم الباطلة مثل تصورهم أن الشمس وقفت له كما وقفت ليوشع بن نون، وأنهم غالوا فى تأليهه. وقد قدم إشارة هامة لتوزيعهم الجغرافى، عندما أوضح أنهم يوجدون أيضاً فى جزيرة عانا، من طرف الجزيرة التى تلى العراق على حد تحديده. أى أن وجودهم الجغرافى تجاوز الشام، واشتمل على مناطق فى العراق أيضاً (٣٥).

وتجدر الإشارة، إلى أن إشارات المصادر العربية المعاصرة لعصر الحروب الصليبية فى بلاد الشام، أشارت إلى الإسماعيلية إشارات هامة ووافية إذا ما قارناها بتناولها لعناصر النصيرية. ومن ثم تأتى أهمية ما أورده ابن سعيد المغربى فى هذا الصدد.

وهكذا، أفادت إشارات ابن سعيد المغربى من خلال تناوله بلاد الشام، أفادت فى إلقاء الضوء على جوانب متعددة عن أوضاع بلاد الشام خلال القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى. على نحو كشفت عنه الصفحات السابقة.

الهوامش

(١) عن مصادر ومراجع ترجمة ابن سعيد المغربي أنظر :

ابن سعيد المغربي، المقتطف من أزاهر الطرف، تحقيق سيد حنفى حسنين، ط. القاهرة ١٩٨٣م، ص ١١٦، المقرئ، نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب، ح ٢، تحقيق إحسان عباس، ط. بيروت ١٩٦٨م، ص ٢٧١، محسن العبادى، ابن سعيد الأندلسى، حياته وثراله الفكرى والأدبى (٦١٠-٦٨٥هـ / ١٢١٤-١٢٩٤م)، ط. القاهرة، ١٩٧٢م؛ عبدالرحمن زكى، أعلام العرب فى الجغرافى، المجلة العربية، السنة (٣)، العدد (١) ديسمبر ١٩٧٨م، ص ٥٣؛ عبدالرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، ص ٤٨٩-٤٩١؛ على عبدالله الدفاع، رواد علم الجغرافيا، ص ١٨٨؛ أحمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون، ص ١٨٩؛ محمد أحمد العقيلى، جهود الجغرافيين المسلمين فى رسم الخرائط، ص ١٦٨؛ بالنها، تاريخ الفكر الأندلسى، ص ٢٤٤.

Brockelmann, Geschichte der Arabischen Literature, Vol. I, p. 410.

وعن أسرة بنى سعيد بصفة عامة، أنظر هذه الدراسة الهامة :

Potiron, elements de Biographie et de geneologie des Banu, Sa' id, R.E.A., T. XII, Année 1965, pp. 78-91.

- (٢) المقرئ، المصدر السابق، ح ٢، ص ٢٧٠؛ على عبدالله الدفاع، المرجع السابق، ص ١٨٨.
- (٣) المقرئ، المصدر السابق، ح ٢، ص ٢٧٠؛ على عبدالله الدفاع، المرجع السابق، ص ١٨٨.
- (٤) أحمد رمضان، المرجع السابق، ص ١٨٩.
- (٥) صلاح الدين الشامى، الفكر الجغرافى سيرة ومسيرة، ص ٢٦١.
- (٦) نفسه، نفس المرجع والصفحة.
- (٧) عبدالرحمن حميدة، المرجع السابق، ص ٤٩٠.
- (٨) عبدالرحمن حميدة، المرجع السابق، ص ٣٩٧؛ بالنها، المرجع السابق، ص ٢٩٤.
- (٩) المقرئ، المصدر السابق، ح ٢، ص ٢٧١؛ على عبدالله الدفاع، المرجع السابق، ص ١٩٠-١٩١.
- عبدالرحمن زكى، المرجع السابق، ص ٥٣؛ عبدالرحمن حميدة، المرجع السابق، ص ٣٩٧.

(١٠) على عبدالله الدفاع، ابن سعيد المغربي، مجلة الدفاع، العدد (٣٧)، السنة (٢٨)، جمادى الآخرة ١٤١٠هـ / يناير ١٩٩٠م، ص ١٠٣. أنظر أيضاً : محمد المنوفى، الجزيرة العربية فى الجغرافيات والرحلات المغربية، ص ١٦٦.

وعلى سبيل المثال نجد الباحث الأخير يقرر عن كتاب بسط الأرض فى الطول والعرض ما معناه أنه نشر مرتين مرة بتحقيق نخوان خنيس، معهد مولاى الحسن تطوان ١٩٥٨م، والثانية فى بيروت ١٩٧٠م، بتحقيق إسماعيل العربى.

(١١) أنظر : مقدمة تحقيق إسماعيل العربى للكتاب الجغرافيا، ط. بيروت ١٩٧٠م، ص ٢٥.

(١٢) على عبدالله الدفاع، رواد علم الجغرافيا، ص ١٩٠.

(١٣) عبدالرحمن حميدة، المرجع السابق، ص ٤٩١.

(١٤) محسن العبادى، المرجع السابق، ص ٢٤٤-٢٤٥.

بطليموس هو بطليموس القلوذى Claudius Ptolemaeus، وبعد أكبر شخصية جغرافية فى العصر الرومانى، عاش فيما بين ٨٧-١٦٥م، وكان عالماً رياضياً فلكياً، وبعد من علماء الاسكندرية فى القرن الثانى الميلادى، ويلاحظ أنه لم يكن روماني الأصل بل كان مثل استرابون Strabo افريقياً، وأهم أعمال بطليموس رسالة فى الفلك تقع فى ١٣ مقالة تعرف باسم المجسطى Al Mageste كذلك كتاب المرشد إلى الجغرافى أو المدخل إلى الجغرافيا، وتعد جهوده أهم محاولة قديمة من أجل وضع دراسة الجغرافيا على أساس علمى، وهناك من يقرر أن كتابات بطليموس، كانت أدق من كتابات سترابون فى موضوعها، كما أنه رسم أفضل خرائط ذلك العصر، ويلاحظ أن المسلمين عملوا على تصويب الأخطاء التى وقع فيها بطليموس فى كتابه المجسطى وألفوا مؤلفات للرد عليه، عن بطليموس القلوذى أنظر :

Fisher, Geography of Claudius Ptolemy, Trans. by Stevenson, New York 1932.

شريف محمد شريف، تطور الفكر الجغرافى، ج ١، العصور القديمة. ط. القاهرة ١٩٦٩م، ص ٣٩١-٣٩٣؛ وود، الارتياذ والكشف الجغرافى، ت. شاكر خصباك، ط. صيدا ب-ت، ص ١٧-٣١؛ دولت صادق والبنوا امياني، أسس الجغرافيا العامة. ط. القاهرة ١٩٨٥م، ص ٨؛ البشير صقر، الجغرافيا عند العرب، نشأتها وتطورها، ت. جماد الساحلى، ط. بيروت ١٩٨٤م، ص ١٨-١٩؛ ضياء الدين علوى، الجغرافيا العربية فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين (الثالث والرابع للهجرين)، ت. عبدالله يوسف الفنينم وطه محمد جاد، ط. جدة ١٩٨٤م،

ص ٣٢-٣٣؛ على عبدالله الدفاع، لمحات من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ط. الرياض ١٩٨١م، ص ٩١ جورج فاضلو حوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي، ت. يعقوب بكر، ط. القاهرة ب-ت، ص ٨٧، محمد عبدالرحمن مرجب، الموجز في تاريخ العلوم عند العرب، ط. بيروت ١٩٨١م، ص ١٣٨.

(١٥) محسن العبادي، المرجع السابق، ص ٢٤٥.

وابن فاطمة، رحالة من أهل السودان الغربي، ومن المحتمل أن يكون أصله مما يعرف اليوم بالسنغال أو ما يليه جنوباً، وربما كان من أهل غانة الإسلامية، على اعتبار أن نسبة الناس إلى أمها كان شائعاً في تلك النواحي على نحو خاص، ولدينا أمثلة على ذلك في صورة ابن الصحراوية، وابن غانية، وابن عائشة، وابن فنوبنت يوسف بن ناشفين وجميعها تتشابه مع اسم ابن فاطمة، وقد عاصر ذلك الرحالة القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي على ما هو مرجح، وقام برحلة بحرية جنوب مراكش، بيد أن سفينته غرقت عند الرأس الأبيض (جنوب ساقية الذهب، رهودو أورو) وذلك بعد أن توغل في كشف الساحل الأفريقي الغربي إلى أبعد مما كان يعرفه الأوروبيون حينذاك عن تلك المنطقة، وهناك من يقرر أن ما ألفه ابن فاطمة بعد أفضل ما ألفه المسلمون عن المناطق الواقعة جنوب الصحراء الكبرى. ويلاحظ أن كتابات ذلك الرحالة فقدت بيد أن قسماً مهماً منها، أورده ابن سعيد المغربي في مؤلفاته.

والجدير بالذكر، أن حسين مؤنس قد اعتقد أن ابن فاطمة قد توفي عام ٧٣١هـ/ ١٣٣١م (أنظر: الجغرافية والجغرافيون، ص ٢٧٩)، وفي موضع آخر يذكر أن ذلك الرحالة كان سابقاً على ابن سعيد بقليل أي أنه من أهل القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي في الأغلب، (أنظر: ص ٥٠٧)، والواقع أن التحديد الذي ذكره والخاص بعام ٧٣١هـ/ ١٣٣١م لا يمكن قبوله البتة، لأن ابن سعيد المغربي توفي عام ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م، ومن المستحيل أن يعتمد على ما ألفه ابن فاطمة بمثل التصور السابق، والأرجح أنه كان معاصراً لمرحلة زمنية قبل عصر ابن سعيد - بدليل استعانة الأخير بما ألفه - ومن المحتمل أن ذلك كان خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وأمام الاعتبارات السابقة، أجدني أخالف ما ذهب إليه د. حسين مؤنس بشأن وفاة ابن فاطمة عام ٧٣١هـ/ ١٣٣١م. عن ابن فاطمة أنظر:

عبدالرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، ص ٤٩٠، حسين مؤنس، الجغرافية والجغرافيون في الأندلس، ط. القاهرة ١٩٨٦م، ص ٥٠٦-٥٠٧، ٥١٦، كراشكوفسكى، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٣٧٦.

(١٦) ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص ١٥٠.

(١٧) نفسه، نفس المصدر، والصفحة.

(١٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١٩) نفسه، نفس المصدر، ص ١٤٩.

(٢٠) نفسه، نفس المصدر، ص ١٥٤.

(٢١) نفسه، نفس المصدر، ص ١٥٣.

(٢٢) نفسه، نفس المصدر، ص ١٥٤؛ وعن زراعة القطن في حلب أنظر : ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ح ٤، ط. القاهرة ١٢٩١هـ، ص ١١، ٢٤.

(٢٣) ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص ١٥٤.

(٢٤) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

والباب، بلدة صغيرة، وقعت في شمال الشام، وبالتحديد في وادي بطنان الواقع بدوره في شمال شرق حلب، وقد وصفت الباب بأنها ذات سوق، وحمام، ومسجد جامع، ووجدت فيها بساتين عديدة، ومن الملاحظ أن بعض مصنوعات الباب؛ تم إرسالها إلى أنحاء الشام الأخرى، وكذلك مصر مما عكس جودتها بحيث دخلت في مجال التجارة الخارجية. عن الباب أنظر :

ياقوت، معجم البلدان، ح ١، ص ٣٠٣؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٩٦-٢٩٧؛ ابن جبير، الرحلة، ط. بيروت ١٩٦٤م، ص ٢٢٤-٢٢٥؛ ابن عبدالحق البغدادي، مراصد الإطلاع، ح ١، ص ١٤٢؛ شيخ الرهوة، نخبة الدهر، ص ٢٨.

(٢٥) ابن القلانسي، هو حمزة بن أسد المعروف بأبي يعلى، وقد انتمى إلى أسرة دمشقية عريقة انحدرت في نسبها إلى قبيلة تميم العربية، وتلقى تعليمه منذ حداثة عمره لاسيما العلوم الدينية، وصارت لديه خلفية فكرية متسعة، في مجال علوم الفقه، والشرعة، والتحق بالعمل في ديوان الرسائل، وتقدم فيه حتى صار عميداً للديوان. كذلك، فإنه تولى منصباً هاماً، ألا وهو رئيس مدينة دمشق، وقد ألف كتابه ذيل تاريخ دمشق الذي جعله بمثابة ذيل على ما ألفه ابن هلال الصائبي، وهو الأثر الأدبي الوحيد الذي قام بتأليفه كما يلاحظ هاملتون جب Hamilton Gibb، وقد توفي ابن القلانسي في عام ٥٥٥هـ / ١١٦٠م، عنه أنظر :

ياقوت، معجم الأدباء، ح-٤، ص ١٤٥؛ أبو شامة، الدليل على الروضتين، ط. القاهرة ١٩٦٦م، ص ١٣٥؛ ابن بفرى بردى، المنهل الصافي المستوفى بعد الوافى، ح-١، تحقيق أحمد يوسف نجاشى، ط. القاهرة ١٩٦٥م، ص ٣٦. النجوم الزاهرة، ح-٥، ص ٣٣٢؛ لويس شيخو، تاريخ دمشق لابن القلانسي، المشرق، عدد (٨) عام ١٩٠٨م، ص ٦١٩؛ هاملتون جب، تاريخ دمشق، ضمن كتاب صلاح الدين الأيوبي، دراسة فى التاريخ الاسلامى، ت. يوسف أيس، ط. بيروت ١٩٧٣م، ص ٤٠؛ صلاح الدين المنجد، المؤرخون الدمشقيون وآثارهم المخطوطة، مجلة معهد المخطوطات العربية، م (٢)، ح-١، عدد مايو ١٩٥٦م، ص ٨٠؛ معجم المؤرخين الدمشقيين، ط. بيروت ١٩٧٤، ص ٣٤؛ روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ت. صالح العلى، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص ٢٠٣؛ يسرى عبدالغنى عبدالله، معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثانى عشر الهجرى، ط. بيروت ١٩٩١م، ١٤٠-١٤١؛ محمد على مسورى، أبو الحسن الخرجى وآثاره التاريخية، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية اللغة العربية بالرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عام ١٩٨٦م، ص ٢٨٥.

Cahen, La Syrie du nord à L'epoque de croisades, p. 39-40.

(٢٦) ذيل تاريخ دمشق، تحقيق أميدروز، ط. بيروت ١٩٠٨م، ص ٣١٩؛ محمد مؤنس أحمد عوض، الأسواق التجارية فى عهد الدولة النورية، الدارة، السنة (١٦)، العدد (٢) عام ١٤١١هـ، ص ٧٧.

(٢٧) ابن سعيد، المصدر السابق، ص ١٥١.

(٢٨) نفسه، نفس المصدر، ص ١٥٤.

(٢٩) نفسه، نفس المصدر، ص ١٥٠.

(٣٠) نفسه، نفس المصدر، ص ١٥١.

(٣١) نفسه، نفس المصدر، ص ١٤٩.

(٣٢) نفسه، نفس المصدر، ص ١٥١.

(٣٣) نفسه، نفس المصدر، ص ١٥٣.

(٣٤) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٣٥) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

٦ - أبو الفداء

(ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م)

يتعرض هذا الفصل بالدراسة لأحد الجغرافيين الشاميين البارزين، وهو أبو الفداء^(١) (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م)، وأهم ما ورد في كتاباته عن أوضاع بلاد الشام لاسيما خلال عصر الحروب الصليبية، وفي النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي.

وأبو الفداء؛ هو إسماعيل بن علي بن محمود بن شاهنشاه بن أيوب عماد الدين الأيوبي^(٢)، وينتمي إلى البيت الأيوبي، وقد ولد في دمشق عام ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م، حيث كان قد فر أبوه الملك الأفضل، أخو أمير حماة الملك المنصور من وجه القوات المغولية^(٣)، ويلاحظ أن أسرته استردت مجدها في عهد السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون الذي قام بتعيين أبا الفداء حاكماً عام ٧١٠هـ / ١٣١٢م. ثم صار ملكاً عام ٧١٢هـ / ١٣١٤م، وفيما بعد صار سلطاناً لمملكة حماة، وتم تلقيبه بالملك المؤيد، في عام ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م^(٤).

وتجدر الإشارة إلى أن أبا الفداء اهتم بتحصيل العلم، فوصف بأنه كان جامعاً لأشتات العلوم، والمعارف في عصره، وقد درس علوم الفقه، والتفسير، والنحو، والعروض، وعلم الميقات، والمنطق، والطب، والفلسفة، والتاريخ، والجغرافيا، بالإضافة إلى براعته وموهبته في مجال الشعر^(٥).

وقد ألف أبو الفداء عدة مؤلفات في مجال الجغرافيا متمثلة في كتاب رسم الربع

المعمور^(٦)، وكتاب الطول والعرض^(٧)، وكتاب تقويم البلدان^(٨)، وفيغيدنا في المقام الأول الكتاب الأخير لاحتوائه على مادة تاريخية وجغرافية هامة عن بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية.

ومن الجوانب الهامة في دراسة أبي الفداء، معرفة المصادر التي استقى منه مادته الجغرافية عن العديد من الأقطار الإسلامية وكذلك بلاد الشام، وفي هذا المجال نعرف أنه اعتمد على ثلاثة مصادر ألا وهي المشاهدة والمعاينة وكذلك مؤلفات الجغرافيين المسلمين السابقين، بالإضافة إلى المصادر الشفهية.

وأول المصادر التي اعتمد عليها أبو الفداء، هي المشاهدة^(٩) والمعاينة، إذ أنه بحكم شاميته وارتباطه ببلاد الشام مولداً ونشأة، مثلت المشاهدة، والمعاينة، أحد مصادر كتابه الهامة. خاصة إذا ما لاحظنا أنه طاف في مناطق متعددة في أنحاء بلاد الشام. وهو في ذلك يتشابه مع جغرافي شامي سابق ونعني به عز الدين بن شداد الحلبي الذي ارتبط ببلاد الشام ولم يكن وافداً عليها.

أما ثاني المصادر؛ فتتمثل في ما ألف من جانب الجغرافيين المسلمين؛ الذين وجدوا من قبله وتركوا مؤلفات هامة في هذا المجال^(١٠)، وفي هذا المقام نذكر أنه استفاد مما ألفه ابن حوقل في كتابه المسالك والممالك، وكذلك الإدريسي في صورة كتابه نزهة المشتاق^(١١)، وابن سعيد ومؤلفه الجغرافيا^(١٢)، والبلاذري وكتابه فتوح البلدان، وياقوت الحموي خاصة كتابه المشترك وضعاً والمفترق صقعا^(١٣).

وإذا كانت المصادر الجغرافية السابقة قد وصلت إلينا فإن أبا الفداء اعتمد أيضاً على مصدر جغرافي هام فقد، ومعرفتنا به صارت متمثلة في النقول التي أوردها في كتابه تقويم البلدان، ونعني بذلك ما ألفه المهلبى (ق ٤هـ / ١٠م) تحت عنوان كتاب المسالك والممالك أو كتاب العزيزى الذى ألفه للخليفة الفاطمى العزيز بالله فى عام ٣٧٥هـ / ٩٨٥م^(١٤).

ومن الملاحظ أن أبا الفداء يكثر من الاستعانة بما أورده المهلبى فى كتابه المذكور^(١٥)، على نحو يعطى كتابه قيمة خاصة إضافة إلى قيمته الأصلية.

أما ثالث المصادر فهى المصادر الشفوية، إذ أنه كان يسأل التجار والرحالة عما رأوه فى البلدان التى قاموا بزيارتها^(١٦)، ولا نزاع فى أن المصادر الشفوية أفادت أبا الفداء فائدة كبيرة، بالإضافة إلى المصادر السابقة، وجعلت أمامه مادة علمية غزيرة، مكنته من أن يؤلف كتابه البارز تقويم البلدان.

ومن الأمور الهامة ملاحظة أن ذلك الجغرافى، قد جعل عنوان كتابه تقويم البلدان متأثراً فى لك بأحد الأطباء العراقيين ألا وهو؛ ابن جزلة^(١٧) (ت ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م)، الذى وضع كتاباً فى الطب، أسماه تقويم الأبدان، وجعل فيه الأمراض، وأعراضها، وعلاجها فى صورة جداول، وقد أقر أبو الفداء نفسه، هذا التأثير فى مقدمة كتابه المذكور.

ويلاحظ أن أبا الفداء قد رغب من وراء كتابه هذا فى أن يصحح بعض الأخطاء المذهبية التى وقع فيها الجغرافيون المسلمون السابقون، وقد تقدمهم موضحاً أن ابن حوقل، وابن خرداذبه، والإدرسى قد كتبوا مؤلفاتهم، ولم يحققوا الأسماء، وغيرهم لم يحققوا الأطوال، أما هو فقد جمع بين تحقيق الأسماء، والأطوال^(١٨). وكل ذلك من خلال أسلوب الجداول، وهناك من يقرر أنه يعد أول من اتبع طريقة الجداول فى علم الجغرافيا^(١٩). ومن خلال الجداول نجد أن المؤلف قد جعلها تحتوى أسماء الأماكن، والمصادر، والطول، والعرض، وخلاصة وصفية للمكان^(٢٠).

وجدير بالذكر أن أبا الفداء، حرص على تناول العديد من الجوانب المتصلة ببلاد الشام، ومن ثم أفرد لها قسماً هاماً فيما ألفه عن البلدان المختلفة، من ذلك تناوله للساحل الشامى بمدنه المتعددة، ومدى ما أصابها من تخریب فى وقته، وكذلك العمائر الحربية هناك سواء الإسلامية أو الصليبية، ثم تعرض للجوانب الاقتصادية سواء مصاد

الثروة المائية أو النشاط الحرفي والتجاري، وبالإضافة إلى ذلك تعرض للخريطة العقائدية لبلاد الشام في عصره، ثم العماثر الدينية الإسلامية والمسيحية، وكذلك المزارات الدينية هناك.

مهما يكن من أمر، فإن أبا الفداء، تناول أمر الساحل الشامي، وهي منطقة لقيت اهتماماً تقليدياً من جانب الجغرافيين والرحالة المسلمين وكذلك الرحالة الأوروبيين، وقد اختلفت طريقة تناوله لمدن ذلك الساحل، فأحياناً تعرض لمدن بإيجاز، وأحياناً أخرى تناول بعضها بمادة ثرية. ومن الواضح أن تعليل ذلك يرجع إلى مدى أهمية كل مدينة أو عدم ذلك، وخاصة على الصعيد الاقتصادي التجاري، وخاصة إذا كانت المدينة التي يتناولها بمثابة ميناء التصدير لمدن داخلية برية حبيسة ليست لها منافذ بحرية. كذلك فإن الوضع القائم الذي كانت عليه بعض المدن الشامية الساحلية في وقت أبي الفداء، أدت إلى أن تناولها المختلف من جانبه تفصيلاً وإيجازاً.

ومن ناحية أخرى تفيد الإشارات التي قدمها لنا أبو الفداء في تقويم البلدان، في توضيح مظاهر التخريب الذي لحق ببعض المدن الساحلية الشامية من خلال الصراع الإسلامي / الصليبي. وبعد أن نجح المسلمون في عهد دولة المماليك البحرية من طرد بقايا الصليبيين من آخر معاقلهم في الساحل وخاصة عكا - المعقل الأخير - وذلك في عام ٦٩٠هـ / ١٢٩١م (٢١).

ونجد أنه يتناول مدينة بيروت فيوضح أنها على ساحل البحر، وأنها ذات برجين، ويشير إلى امتلاكها ميناء جليل (٢٢)، أما عسقلان، وهي التي وصفت من قبل بأنها فريدة بين مدن الشام أحياناً وعروس الشام أحياناً أخرى، نجده يذكر عندها أنها في زمانه خراب خالية من السكان (٢٣).

ومن الواضح أن إشارته تفيد في توضيح أن مدن الساحل الشامي، لم تكن دائمة الازدهار، وأن منها ما تراوح بين الازدهار تارة والأفول تارة أخرى، ومن الأمثلة الواضحة

الدالة على ذلك مثال عسقلان السالف الذكر، وهكذا يمكن أن نلاحظ أن أبا الفداء يعد الجغرافى المسلم الذى كان شاهد عيان على أفول عدد من مدن ذلك النطاق الساحلى التى ازدهرت من قبل ازدهاراً كبيراً شهدت به نصوص مؤلفات الجغرافيين والرحالة المسلمين والأوروبيين الذين زاروا المنطقة خلال عصر الحروب الصليبية فيما قبل عصر أبى الفداء.

ومن المحتمل - دون أن نستطيع التأكيد - أن التخريب الذى تعرضت له عسقلان فى أخريات القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى فى ختام الحملة الصليبية الثالثة قد أثر بدوره - وإلى حد ما - فى حجم الخراب الذى حل بها، ولم تتناولها يد التعمير فى المرحلة التالية على نحو جعل أبا الفداء يصفها بذلك الوصف؛ فى معرض حديثه عن مدن الساحل الشامى بالإضافة إلى ما شهدته المنطقة من عمليات حرية لطرد الصليبيين من المنطقة.

أما مدينة يافا؛ فهى عنده مزدهرة اقتصادياً ولاسيما على الصعيد التجارى، ولذا فإنه أشار إلى أسواقها العامرة، وإلى الوكلاء التجاريين الذين يقومون بأمر حركة تجارة الصادرات والواردات، وقد أشار إلى أنها مقر ميناء كبير فيه مرسى المراكب الواردة إلى فلسطين^(٢٤)، وهذا وضع منطقى من خلال ملاحظة أن يافا على مدى عصر الحروب الصليبية وصفت باستمرار بأنها ميناء بيت المقدس، وفى ذلك العصر كان الحجاج يقدمون إلى ذلك الميناء من أجل الوصول إلى المدينة المقدسة للقيام بالحج هناك.

فإذا نظرنا إلى تناوله لمدينتى قيسارية^(٢٥) وكذلك أرسوف^(٢٦)؛ نجد أنه يشير إلى أنهما تجاريتان، شأنهما فى ذلك شأن عسقلان، ولم يفته أن يذكر أن قيسارية كانت من أمهات المدن العظام^(٢٧)، وأن أرسوف كانت من قبل مسكونة^(٢٨)، على نحو عكس تغير أوضاع تلك المدن ازدهاراً واضمحلالاً.

أما تعرضه لطرابلس، فنجد أنه يشير إلى ثروتها الزراعية مثل البساتين، والأشجار، وزراعة قصب السكر بها، ولا يقدم تناولاً لدور الميناء نفسه في الحركة التجارية ويكتفى بأن يقول عنها عبارة «لها ثغر»^(٢٩)، وعندما تناول أنطربطوس، أشار إلى أنها ثغر لأهل حمص^(٣٠)، وبالتالي عمق فكرة أن المدن الساحلية الشامية كانت منافع للمدن الداخلية الحبيسة وأنها لعبت دوراً هاماً في تصريف منتجاتها المتعددة. وهو أمر أورده من قبل جغرافيون مسلمون زاروا بلاد الشام من قبل مثل الإدريسي.

أما مدينة عكا، وهي القلب التجاري للوجود الصليبي في مملكة بيت المقدس الصليبية، فنجد أن أبا الفداء يذكر أنها مدينة كبيرة على ساحل الشام^(٣١)، ويهتم بإيراد الأطوال والأبعاد بينها وبين المدن الأخرى مثل طبرية وصور على سبيل المثال، ولا يقدم لنا وصفاً لدورها التجاري، وكشافات السكان بها، كما لاحظنا ذلك لدى الإدريسي^(٣٢) أو ابن جبير^(٣٣)، وتعليل ذلك واضح وهو أن أبا الفداء يشير صراحة إلى أنها خراب^(٣٤)، وهي بالتالي تكون قد شاركت عسقلان، وقيسارية، وأرسوف ذات المصير التخريري.

وإشارة ذلك الجغرافي، لها أهميتها الخاصة، وتعليل ذلك يرجع إلى أنه اشترك بصورة فعلية، في قتال الصليبيين بها وذلك في عام ٦٩٠هـ / ١٢٩١م^(٣٥)، وكان من شهود العيان للأحداث الحربية العنيفة والمقاومة الكبيرة التي أبداها الاستبارية Hospitallers، والداوية Templars^(٣٦) لقوات الأشرف خليل بن قلاوون عندما حاصرت المدينة، فهو بذلك يشبه بيبرس الداوادي، صاحب كتاب زبدة الفكرة من تاريخ الهجرة، الذي كان شاهد عيان معاصر لتلك الأحداث، بيد أن أبا الفداء لم يفصل في أمر عكا في كتابه تقويم البلدان، وإنما ذكر تفاصيل الأحداث التي شاهدها، وشارك فيها في كتابه التاريخي.. المختصر في أخبار البشر.

وكل ذلك يعني أن مدينة عكا، تلك المدينة التي وصف ازدهارها الرحالة المسلمون

وكذلك الأوروبيون الذين زاروها على مدى القرنين ٦، ٧هـ / ١٢، ١٣م، تعرضت لمرحلة من انخفاض ذلك الازدهار، وهو ما كان عليه أبو الفداء شاهداً، وجاء ذلك بالطبع من خلال أحداث الصراع بين المماليك وبقايا الصليبيين في بلاد الشام.

أما إذا ما اتجهنا إلى رؤية أبي الفداء لإحدى المدن الساحلية اللبنانية ونعني بها مدينة صور، فنجد أنه يقرر صراحة أنها «أحصن الحصون على ساحل البحر» (٣٧) ومن المعروف أن تلك المدينة الحصينة، وصفت بذات الصفة من جانب كافة الجغرافيين المسلمين الذين وصفوها من خلال مقدمهم ووجودهم في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية وعلى مدى القرنين ٦، ٧هـ / ١٢، ١٣م.

ويلاحظ أنه يذكر أنه كان يصور مرسى للسفن، وأن عليه سلسلة من أجل منع السفن من الدخول (٣٨)، وهو بذلك لا يختلف عن وصف الجغرافيين السابقين، لأمر ذلك المرسى، والاحتياطات الأمنية المتوافرة فيه.

ومن ناحية أخرى يشير أبو الفداء إلى ناحية تاريخية تتصل باستيلاء المماليك على صور، وذلك في عام ٦٩٠هـ / ١٢٩١م، أى في نفس العام الذى شهد سقوط مدينة عكا، وأضاف ناحية هامة ألا وهي أن صفة الخراب لحقت بها (٣٩)، وبالتالي يمكن القول إن مدن عسقلان، وأرسوف، وقيسارية، وعكا، وصور، عندما وصفها أبو الفداء وجدها على جانب من الخراب.

وهناك ملاحظة خاصة بوصف أبي الفداء لصور، إذ أنه لا يكتفى بتصويراته الشخصية أو مشاهداته وإنما يجده يستعين بمؤلفات جغرافيين سابقين مثل ابن سعيد، وكذلك المهلبى، وربما هذا يدل على أنه على الرغم من إدراكه العام لكافة مناطق بلاد الشام، إلا أنه يسعى إلى تدعيم رؤيته من خلال مؤلفات الرحالة والجغرافيين المسلمين السابقين وهو أمر كانت له أهميته الواضحة خاصة في حالة استعانتة بمؤلفات مفقودة حالياً للباحثين.

وهكذا، أفادت إشارات أبي الفداء فى توضيح الوضع العمرانى والنشاط التجارى للمدن الساحلية الشامية بعد أن خاضت معركة التخلص من الوجود الصليبي الدخيل، وهو وضع كان متردياً كما تكشف عن ذلك نصوص تقويم البلدان.

وإذا كان مؤلف تقويم البلدان قد أورد إشارات هامة، عن الخراب الذى لحق بالمدن الساحلية الشامية، فهذا مرجعه إلى الصراع الإسلامى / الصليبي من جهة، ثم الكوارث الطبيعية التى كانت تحدث بين الحين والآخر مثل الزلازل التى نكبت بها بلاد الشام، ولم تنج من آثارها تلك المدن الساحلية الكبيرة، وإن لم يشر أبو الفداء صراحة إلى دور الهزات الزلزالية، فى ذلك الدور التخريبي، وإن كنا نفهمه ضمناً من خلال نصوص المصادر التاريخية الأصلية المعاصرة، واللاحقة، وكذلك الدراسات التاريخية الحديثة المتخصصة^(٤٠).

أما إذا نحينا جانباً زاوية الساحل الشامى، فإننا نجد أن أبا الفداء اهتم بإيراد أمر القلاع المتناثرة فى بلاد الشام، والتى كان جزء هام وكبير منها تابعاً للسيادة الصليبية، واسترده المسلمون فى عهد دولة المماليك البحرية. وفى هذا المجال نجده يذكر أمر حصن الكرك ويقرر أنه على المكان وهو أحد المعاقل القوية فى بلاد الشام التى لا ترام^(٤١)، كما أن قلعة الشوبك على طرف الشام من جهة الحجاز، وهى مبنية بالحجر الأبيض، وتقع على تل مرتفع^(٤٢)، ونجده يقرر أن قلعة صهيون حصينة لا ترام وهى من القلاع المشهورة فى بلاد الشام^(٤٣)، أما قلعة المرقب فهى قلعة حصينة حسنة البناء وأشار إلى إشرافها على البحر المتوسط^(٤٤). ونجد أنه يقرر أن قلعتى بغراس^(٤٥) ودريساك^(٤٦) قلعتان مرتفعتان، وبالنسبة لحصن الأكراد نراه يقرر أمر حصانته ويحدد موقعه بأنه مقابل حمص من غربها^(٤٧).

ثم أنه أوضح أن الصبية قلعة بانياس، وأنها تعد من الحصون المنيعة^(٤٨)، أما قلعة صفد فقد أوضح أنها ذات بناء متين، وأشرفت على بحيرة طبرية. وأن السلطان الظاهر

بيبرس بعد إخضاعها وانتزاعها من قبضة الصليبيين جعلها مركز الجيش الذى يقوم بحفظ المدن الساحلية التى تشرف القلعة عليها^(٤٩).

كما تناول أمر القلاع الإسلامية، وفى هذا الصدد أشار إلى قلعة حلب وذكر ارتفاعها وحصانة بنائها وتشبيدها على تل على نحو صارت معه لا ترام من جانب أعدائها^(٥٠)، كذلك تعرض لقلعة شيزر، ولم يزد عن وصفها بالحصانة^(٥١)، مع ملاحظة أنه أغفل ذكر الزلزال المروع الذى دمر شيزر، وأثر على قلعتها، والذى وقع فى عام ٥٥٢هـ / ١١٥٧م^(٥٢). وبالإضافة إلى ذلك تعرض لإحدى قلاع الاسماعيلية النزارية فى بلاد الشام ألا وهى قلعة مصياف. والتى كانت مركز دعوتهم هناك^(٥٣) مع عدم إغفال أهمية قلاع الدعوة الأخرى هناك.

ومن جهة أخرى، اهتم أبو الفداء بتناول الجوانب الاقتصادية سواء الثروة المائية أو النشاط الحرفى والتجارى، وفى هذا المجال عمل على التعرض لمصادر المياه المتعددة فى بلاد الشام واختلاف أوضاع كل منطقة حيال تلك الناحية، فهو يلاحظ مثلاً أن بيت المقدس ليست فيها مياه جارية إلا العيون، وهى لا تتسع لأمر المزروعات وربها^(٥٤)، وهو يقرر - بصورة عامة - أن فلسطين ماؤها يتمثل فى الأمطار^(٥٥)، وذات الأمر نجده فى سرمين؛ التى حرص أهلها على تخزين مياه الأمطار عن طريق الصهارية^(٥٦)، أما إذا ما اتجهنا إلى معرة النعمان؛ فنجد يقرر أن أهلها يعتمدون على مياه الآبار، وليست الأمطار أو الأنهار^(٥٧).

وإذا كانت المدن السابقة عند أبى الفداء اعتمدت على مياه الأمطار أو الآبار، فإن هناك عدداً من المدن اعتمد على مياه الأنهار، ومن أمثلتها مدينة حمص التى تروى من نهر العاصى^(٥٨)، وكذلك الأمر بالنسبة لمدينة حماة التى يقرر أن العاصى يستدير على أغلبها من الجهتين الشرقية، والغربية^(٥٩).

وقد حرص ذلك الجغرافى، على إيراد وسائل الرى بالنسبة للمدن التى تستفيد من مياه الأنهار، ومن أمثلة ذلك أنه أشار إلى النواعير وقد ذكر أنها توجد بكثرة فى كل من حماة (٦٠) وشيزر (٦١) وذلك دون غيرها من مدن بلاد الشام الأخرى.

أما إذا ما اتجهنا إلى الناحية الاقتصادية، ولاسيما النشاط الحرفى والصنى، نجد أن أبى الفداء لا يقدم مادة غزيرة فى هذا المجال، فباستثناء إشارات عن أسواق عدد قليل من مدن الساحل الشامى، التى أسلفت الإشارة إليها، نجد أنه أورد إشارات خاصة بصناعة القنور الخزفية فى كفر طاب (٦٢) وأنه يتم تصديرها إلى المناطق الأخرى التى تحتاجها، كما أنه أشار بصورة مقتضبة إلى أسواق مدينة سرمين (٦٣). ثم أنه عندما أورد ذكر مدينة الباب، أشار إليها أيضاً من خلال أن لها سوقها (٦٤)، كما أنه عندما تناول مدينة البيرت، على حافة نهر الفرات، أشار إلى سوقها كذلك (٦٥) وحرص أبى الفداء على إيراد أسواق تلك المدن أمر لا يخلو من دلالة لأنها - على ما هو متوقع - كانت بمثابة مراكز هامة للنشاط الاقتصادى التجارى بين بلاد الشام والعراق، ومن ثم تناولها بمثل ذلك الإلحاح الملحوظ، خاصة أنه لم يلحق بها التخریب الذى لحق بالمدن الشامية الساحلية الأخرى.

ومن ناحية أخرى احتوت إشارات أبى الفداء على جوانب هامة، فيما يتصل بالخريطة المذهبية والعقائدية لبلاد الشام، ويستفاد مما أوردته بشأن السامرة وارتباطهم بنابلس، وأنهم يحجون إلى جبل صغير بظاهر نابلس ذاتها (٦٦)، ومن الملاحظ أن تلك الإشارة كانت ترددت من قبل لدى عدد من الجغرافيين المسلمين الذين زاروا بلاد الشام من قبل عصر أبى الفداء، وإن كانت قيمة روايته فى هذا الشأن تتمثل فى استمرارية تلك الناحية حتى ذلك الحين. وهكذا فإن ارتباط السامرة بنابلس، والذى تصور الإديسى من قبل أنه مجرد زعم، تؤكد على مدى القرنين السادس والسابع الهجرى/ الثانى عشر والثالث عشر الميلادى. وجاءت إشارة أبى الفداء لتوضح أن السامرة ارتبطوا بذلك الوضع حتى بعد إنصرام عصر الحروب الصليبية فى بلاد الشام.

ومن جهة أخرى، تناول أبو الفداء، عناصر الصابئة؛ وأشار إليهم في معرض حديثه عن مدينة بعلبك، وقد ذكر أن بها مذهباً يقولون أنه من بيوتهم، وأنه معظم لديهم بدرجة كبيرة للغاية (٦٧).

والواقع أن قيمة تلك الرواية تتمثل في أن الصابئة ندر الاهتمام بهم من جانب الجغرافيين المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام في ذلك العصر، وحتى عندما تناولوا مدينة بعلبك في سهل البقاع بלבنا، لم يذكروا عنها إلا أبنيتها الضخمة العجيبة العديمة النظير ولم ينعنوا بتناول التوزيعات العقائدية بها، كما يلاحظ أن عبارات أبي الفداء حيال الصابئة تدل على تسامح المسلمين حيالهم، وعدم وجود أية مواقف عدائية تجاههم.

وجدير بالذكر، أن ذكر أبي الفداء لوجود كيان محلي للصابئة في بعلبك يجعلنا نرجح احتمال أنهم وجدوا في ذلك الوضع من قبل عصر أبي الفداء بزمان طويل، إذ أن تلك التكوينات العقائدية، حافظت على أماكن توزيعاتها لأمد طويل، خاصة إذا لم نجد قوى منوئة ومتصارعة معها مذهبياً، ويصدق ذلك على عناصر الصابئة.

مهما يكن من أمر، فعلى الرغم من أن ذلك الجغرافي الشامي تناول توزيعات السامرة، والصابئة، إلا أنه لم يقدم إشارات هامة فيما يتعلق بالتوزيعات الإسلامية السنية والشيعة في بلاد الشام في عصر، وبالتالي لم يساعدنا على معرفة حجم توزيعات العناصر الشيعية بالذات، وهل حافظت على نفس مواقعها القديمة التقليدية أم أن تغييراً ما لحق بها، وفي حالة إيراد ذلك، لتزايدت قيمة ما أورده في تقويم البلدان فيما يتعلق بالخريطة المذهبية، والعقائدية في بلاد الشام، في ذلك العصر. ومع ذلك، فإن ذلك النقص، يمكن معالجته من خلال المصادر التاريخية المعاصرة الأخرى، بطبيعة الحال.

والى جانب الزوايا السابقة، نجد أن أبا الفداء قد عنى بإيراد مواضع الزيارات الدينية في ذلك العصر، سواء لدى المسلمين أو المسيحيين، وهو أمر اهتم به كافة الجغرافيين

والرحالة المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام في ذلك العصر، معبرين عن ظاهرة دينية عامة سيطرت على عقول وقلوب المعاصرين، على اختلاف دياناتهم، مع ملاحظة أنهم أنفسهم لم ينفصلوا عن ذلك العصر ومن ثم عبرت أفلامهم عن ظواهره العامة المشتركة.

وفيما يتصل بمزارات المسلمين، نجد أنه تعرض لذكر قبر هاشم بن عبد مناف في غزة^(٦٨)، كما ذكر وجود قبر لعقيل بن أبي طالب^(٦٩) في بزاغة في شمال شرق حلب، أما في المدينة الأخيرة؛ فقد أورد وجود مقام لإبراهيم الخليل بها^(٧٠)، كذلك أورد قبر إبراهيم بن أدهم في مدينة جبلة^(٧١)، كما لم يفته أن يشير إلى وجود قبر إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، في صف واحد وكذلك نسائهم في صف آخر، في مدينة بيت جبرين^(٧٢).

ومن الملاحظ أن أبا الفداء، أثر السلامة. مثلما حدث بالنسبة لعدد من الجغرافيين المسلمين السابق دراستهم - فيما يتصل باعتقادات العامة بشأن تلك القبور، والأضرحة. ولم يحاول نقدها، على عكس ما اتجه إليه ياقوت الحموي، من قبل.

وكامتداد لما سبق، نجد أبا الفداء يتناول المزارات والعمائر الدينية الإسلامية الشهيرة، كتمرضه للمسجد الأقصى، وقبة الصخرة، وتعرض لوصفها بتفصيل^(٧٣) يفوق المزارات الأخرى بطبيعة الحال. وإن لم يقدم في هذا المجال أكثر مما زاد باستمرار في ذلك العصر عن تلك العمائر الدينية الإسلامية، وفي المقابل، تعرض للمزارات، والعمائر الدينية المسيحية، من ذلك تناوله لكنيسة القيامة، وذكره تعظيم المسيحيين لها^(٧٤)، وهي كنيسة حظيت باهتمام الجغرافيين المسلمين منذ وقت مبكر، وتعرض لها حتى جغرافيو القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي.

وزيادة على ذلك، تعرض ذلك الجغرافى الشامى للمزارات الاستشفائية التى قدم إليها المعاصرون للعلاج ولذلك تناول مزارات طبرية العلاجية (٧٥) والتى طالما ترددت فى مؤلفات الجغرافيين المسلمين السابقين الذين قدموا إلى بلاد الشام فى ذلك العصر منذ عصر الإدريسى.

وهكذا يتضح لنا بهجاء أن أبا الفداء قدم لنا العديد من الجوانب الهامة عن بلاد الشام فى عصره، وقد تناول أوضاع المدن الساحلية الشامية، والجوانب الاقتصادية وكذلك القلاع والمزارات الدينية والخريطة العقائدية والمذهبية لتلك المنطقة الهامة والحيوية.

ومع ذلك، هناك أوجه النقد التى يمكن أن توجه إلى عمل أبى الفداء، ويمكن إجمالها فى الآتى :

أولاً : على الرغم من أنه نقد الجغرافيين، والرحالة المسلمين السابقين؛ إلا أنه لم يقدم لنا رؤية تفوقهم أو تميزه عنهم، وذلك باستثناء الجانب التنظيمى، الذى أخذ على عاتقه تبنيه فى صورة الجداول. ولذلك فليس من اليسير أن نقبل ما قال به أحد كبار الباحثين فى مجال الرحلات والجغرافيا الإسلامية فى العصور الوسطى، عندما رأى أن كتاب أبى الفداء يصح أن يعتبر تاريخاً انتقادياً للكتابة الجغرافية العربية إلى عصره (القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى) (٧٦) لأن الطبيعة النقدية لم تتوافر فى داخل الكتاب ذاته؛ وإنما وجدت فى صدره فقط تقريباً، ولذلك من الممكن أن أؤكد ما ذهب إليه باحث آخر عندما رأى فيه أنه لم يكن من المجددين (٧٧)، باستثناء الجانب التنظيمى السالف الذكر.

ثانياً : إن طابع الإيجاز، والاختصار الذى أخذ به أبو الفداء؛ جعله لا يقدم التفاصيل المسهبة التى تشفى غليل الباحث، ثم أنه عندما كان يكثر من الاستعانة بالمصادر الجغرافية الأخرى السابقة عليه، أعاق تقديم رؤيته نفسه كشاهد عيان لتلك

المناطق الجغرافية. وكان من المتوقع أن يقدم لنا مادة جغرافية، وتاريخية أكثر ثراء مما قدم ولكن ذلك لم يحدث.

ثالثاً : على الرغم من تأخر أبى الفداء الزمنى إلا أنه لم يفق بعمل «تقويم البلدان» عمل السابقين، وإذا ما قارنا بين أبى الفداء (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) وأحد الجغرافيين المسلمين السابقين عليه، ونعنى به ياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)، نجد أن ياقوت الحموى قد تفوق على أبى الفداء، على الرغم من الفارق الزمنى الكبير بين العلمين الجغرافيين الذى يبلغ حوالى قرن كامل من الزمان، ونجد أن ياقوتاً فى معجم البلدان يمتاز بالتفاصيل الثرية، بينما نجد طابع الاختصار بمثابة السمة الغالبة على تقويم البلدان، وإضافة إلى ذلك امتاز معجم البلدان، بثناء مادته الجغرافية، والتاريخية، والأدبية، والفلكلورية (٧٨)، بينما لا نجد ذلك لدى ما ألفه أبو الفداء.

وما ذكرناه، يدل دلالة واضحة، على أن ياقوتاً بعد قرن كامل من تأليفه لكتابه، لم يستطع أبو الفداء - على الرغم من طموحاته الواضحة فى مقدمة كتابه - أن يتفوق عليه، وقد يرى البعض أن الظروف التاريخية التى واكبت كل علم من العلمين تباينت، وأن ياقوتاً قد أفاد من خزائن الكتب التى عمر بها المشرق الإسلامى، على نحو لا نعلم أنه توافر لأبى الفداء، الذى لم يذهب صوب تلك المناطق، كما أن الطبيعة التجارية لياقوت أفادته، وهو ما لم يتوافر لدى أبى الفداء. ولكن ينبغى أن نلاحظ أن جهد ياقوت كان متوافراً لدى أبى الفداء، بل إنه استفاد منه، غير أنه لم يتمكن من أن يزيد عليه، إلا الجانب التنظيمى الذى اتبعه من خلال أسلوب الجداول، الذى يعد الإسهام الحقيقى لأبى الفداء، والذى تميز به - بحق - عن الجغرافيين المسلمين السابقين.

أما كان الأمر، فعلى الرغم من النقاط الانتقادية السابقة، يظل إسهام أبى الفداء يجعله يحتل مكانة هامة من بين الجغرافيين المسلمين فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، ولاسيما خلال القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى.

الهوامش

(١) عن أبي الفداء، أنظر المصادر والمراجع التالية :

ابن كثير، البداية والنهاية، ح-١٤، ص ١٥٨، ابن تمزي بردي، النجوم الزاهرة، ح-٩، ص ٢٩٢-٢٩٣، ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ح-١، ص ٣٧٢، الزبيدي، ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أئوب، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص ٤٧، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ح-٦، ص ١٩٨، نفيس أحمد، الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي، ت. فتحي عثمان ط. الكويت ١٩٧٨م، ص ١١١-١١٢، محمد محمود محمد، التراث الجغرافي الإسلامي، ص ١٩٤، عمر فروخ، تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، ص ٥٦٣، صلاح الدين المنجد، أعلام التاريخ والجغرافيين عند العرب، ح-٣، ص ١٧، على عبدالله الدفاع، الموجز في التراث العلمي العربي الإسلامي، ص ٤٥، حسين أحمد أمين، الحروب الصليبية في كتابات المؤرخين المعاصرين لها، ط. القاهرة ١٩٨٣م، ص ٢٠-٢١، أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، ط. بيروت ب-ت، ص ٤٠٨-٤٠٩، على إبراهيم حسن، استخدام المصادر وطرق البحث في التاريخ الإسلامي العام وفي التاريخ المصري الوسيط، ط. القاهرة ١٩٨٠م، ص ١٥٨-١٦١، محمود عاصم الميداني، المعجمات الجغرافية العربية ودورها الثقافي، مجلة التباد، السنة (٤)، العدد (١٣)، الرياض ربيع الأول ١٤١٢هـ / أكتوبر ١٩٩١م، ص ١١٥، صلاح الدين الشامي، الإسلام والفكر الجغرافي العربي، ص ١٣٠، عبدالفتاح وهيب، جغرافية العرب في العصور الوسطى، ص ١٥، نوفل الطرابلسي، صناجة الطرب في تقدمات العرب، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص ٤٣٣.

De Slane, Autobiographie d'Aboul Feda, Extraite de sa chronique, R.H.C., T. I, p. 169-186; Reinaud et de Slane, Geographie d'Aboulfeda, Paris 1848, pp. VVI - XL VIII; Brockelmann, Geschichte der Arabischen Literature, Vol. II, p55.

(٢) نفيس أحمد، المرجع السابق، ص ١١١-١١٢.

(٣) نفسه، نفس المرجع، ص ١١٢.

(٤) أحمد رمضان، المرجع السابق، ص ١٩٧، جلال مظهر، حضارة الإسلام وأثرها في الترقى العالمي، ص ٤٠٣.

(٥) ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ج١، ص ٣٧٢.

(٦) علي عبدالله الدفاع، المرجع السابق، ص ٤٥.

(٧) نفسه، نفس المرجع والصفحة.

(٨) تجدر الإشارة إلى أن كتاب تقويم البلدان قد ترجم إلى اللغة اللاتينية، وظهرت هذه الترجمة في عام ١٧٧١م، على يد ريسكه Reiske، كما أنه نشر كاملاً على يد رينو، ودي سلان Renaud et de Slan، وذلك في باريس عام ١٨٤٨م، وعنوان تحقيقهما هو :

Geographie d'Aboul Feda, Texte Arabe publie d'Apres Les manuscrits de Paris et de Leyde aux Frais de La societe Asiatique par M. Reinaud et M. le B. Mac Guckin de Slan, Paris M.D. CCCXL. (1848).

ومن الواضح أن عملهما قد اعتمد على مخطوطات باريس وليدن، ويلاحظ أن صلاح الدين المنجد رأى أن هذه الطبعة، لم تعد صالحة الآن، على اعتبار ظهور نحو (١٦) أصل مخطوط في مكتبات العالم، من تقويم البلدان، وأنه من الضرورة بمكان، أن يتم تحقيق الكتاب مرة أخرى.

ويلاحظ أنني اعتمد على التحقيق المذكور للكتاب على اعتبار عدم وجود تحقيق آخر له، وفي تقديري المتواضع أن جهد رينو، ودي سلان، كان قيماً عندما ظهر في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، وبالتحديد في عام ١٨٤٨م، وأن هذه كانت إمكانيات الاستشراق الفرنسي في ذلك الوقت، أما الحاجة إلى عمل تحقيق جديد آخر لذلك الكتاب، فهي ضرورة في ضوء إشارة صلاح الدين المنجد، وهو من كبار المحققين العرب، إلى وجود ذلك العدد الكبير من النسخ المخطوطة في مكتبات العالم، والأمل معقود في أن يظهر مثل ذلك التحقيق من جانب أحد مراكز الأبحاث العلمية في الوطن العربي، بدلاً من أن يكون ذلك الفضل للباحثين الغربيين الذين قاموا بدور كبير في تحقيق مؤلفات الجغرافيين والرحالة المسلمين في العصور الوسطى. عن رأي صلاح الدين المنجد أنظر :

أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب، ج٣، ص ٥٠.

(٩) صلاح الدين المنجد، المرجع السابق، ص ٤١.

(١٠) نفسه، نفس المرجع والصفحة.

(١١) أبو الفداء، تقويم البلدان، تحقيق رينو ودي سلان، ط. باريس ١٨٤٨م، ص ٢٤٣.

(١٢) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٣٣.

(١٣) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٤٨.

(١٤) آدم منز، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، ح-٢، ص ١٦.

(١٥) أبو الفداء، المصدر السابق، ص ٢٢٧، ٢٥٥.

(١٦) صلاح الدين المنجد، المرجع السابق، ص ٤٣.

(١٧) ابن جزلة، هو يحيى بن عيسى بن علي، وكنيته أبو علي، أحد نصارى بغداد خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وقد عاصر عهد الخليفة المقتدى بالله العباسي (٤٦٨-٤٨٧هـ / ١٠٨٣-١٠٩٢م). واعتنق الاسلام وذلك على يدى استاذة علي بن الوليد المعتزلي، وذلك حوالي عام ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م، ويلاحظ أن ابن جزلة، كان يطوب أهل محله، وسائر معارفه احتساباً لوجه الله تعالى. بل إنه كان يحمل اليهم الأدوية بغير عوض، وقد ألف ابن جزلة عدة مؤلفات في مجال الطب، وكذلك في الرد على النصارى، منها كتاب تقويم الأهدان، وقد ألفه للخليفة المقتدى بالله. واستعمل فيه أسلوب الجداول من أجل شرح الحالة المرضية، وأعراضها، وتشخيصها، والعلاج المحدد لها، ويفيد ابن جزلة أول من ابتكر أسلوب الجداول في هذا الصدد، ثم أنه ألف كتاب منهاج البيان فيما يستعمله الإنسان، وكتاب الإشارة في تلخيص العبارة، فيما يستعمل من القوانين الطبية، وتدبير الصحة، وحفظ البدن. ورسالة في فضائل الطب وموافقته للشرع، والرد على من طعن فيه، ويضاف إلى تلك المؤلفات الطبية؛ هناك كتابه في الرد على النصارى، ويقال إنه كتبه لإليا القس، ويلاحظ أن ابن جزلة قد توفي في عام ٤٩٣هـ / ١٠٩٩م. عن مصادر ومراجع ترجمة ابن جزلة أنظر :

ابن خلكان، وفيات الأعيان، ح-٦، ص ٢٦٧-٢٦٨؛ القفطي، تاريخ الحكماء، ط. بيروت ب-٣، ص ٣٦٥؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، ط. بيروت ١٩٦٥م، ص ٣٤٣؛ كمال السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي، ح-١، ط. بغداد ١٩٨٤م، ص ٢٧٨، ٥٨٢؛ حنيفة الخطيب، الطب عند العرب، ط. بيروت ١٩٨٨م، ص ١٩٨٨؛ محمد حسين الزبيدي، ملامح من النهضة العلمية في العراق في القرنين الرابع والخامس الهجريين، ط. بغداد ١٩٨٠م، ص ٩١-٩٢؛ محمود الحاج قاسم، تاريخ طب الأطفال عند العرب، ط. جدة ١٩٨٣م، ص ٦٤٠.

Sarton, An Introduction to History of Science, Vol. I, Washington 194 , p.722; Brockelmann, Geschichte der Arabischen Literature, S., Vol. I, p. 887; Chompbell, Arabian Medicine, London 1926, p. 82.

(١٨) أبو الفداء، المصدر السابق، ص ٣.

عن ابن حوقل، أنظر الفصل الأول، حاشية (٢٣) :

ابن خرداذبة، هو أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله بن خرداذبة، وقد اعتنق حقه الإسلام، وعمل والده عام ٢٠١هـ / ٨١٦م والياً على طبرستان نشأ في بغداد، ودرس الموسيقى والأدب على يد إسحاق الموصلي (ت ٢٣٥هـ / ٨١٩م) وتولى فيما بعد البريد في نواحي الجبل خلال الرحلة من ٢٣٠-٢٣٤هـ / ٨٤٤-٨٤٨م، وقد عاصر عهد الخليفة العباسي المعتمد، كما شهد ثورة الزنج وغيرها من الأحداث التاريخية. وقد استفاد ابن خرداذبة من صلاته القوية بولاية الأمر، فحصل على العديد من الوثائق الرسمية التي استخدمها في مؤلفاته، وقد ألف ابن خرداذبة كتابه الشهير المسالك والممالك، ويقدم فيه ملخصاً للطرق الرئيسية للتجارة في أنحاء العالم الإسلامي، وتطرق للأقاليم الثانية مثل الصين، وكوريا، واليابان، كما قدم عرضاً مفصلاً لبعض البلدان الإسلامية الهامة مثل الجبال، والعراق، والجزيرة (شمال العراق)، ومع ذلك يأخذ بعض الباحثين عليه خلطه بين الحقيقة، والخيال، والشائعات فيما ألفه، وهو أمر مجده في مؤلفات الفكر الجغرافي العربي بنسب متفاوتة طوال مرحلة العصور الوسطى. عن ابن خرداذبة أنظر :

حاجي خليفة، كشف الظنون، ح-٢ / ١، ص ١٦٦٤؛ حسين مؤنس، مكان المسلمين في التاريخ العام لعلم الجغرافيا، ص ٢٤٢؛ كارل هروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ح-٤، ص ٢٣٤؛ آدم متز، الحضارة الإسلامية، ح-٢، ص ٧؛ أحمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون ص ٥٥؛ علي عبدالله الدفاع، رواد علم الجغرافية، ص ٧٥؛ نفيس أحمد، الفكر الجغرافي، ص ٥٧؛ ضياء الدين علوي، الجغرافية العربية في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، ص ٦٢؛ عصام الدين عبدالرؤف، المحاضرات الإسلامية الكبرى، ط. القاهرة ١٩٧٦م، ص ٢٨٣.

(١٩) محمود عاصم الميداني، المرجع السابق، ص ١١٥.

(٢٠) أحمد رمضان، المرجع السابق، ص ٢٠٠.

(٢١) عن ذلك أنظر : بييرس الدوادري، التحفة الملوكة في الدولة التركية، تحقيق عبدالحميد صالح حمدان، ط. القاهرة ١٩٨٧، ص ١٢٦-١٢٧؛ زبدة الفكرة من تاريخ الهجرة، تحقيق زبيدة عطا، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة القاهرة عام ١٩٧٢م، ص ٢٢٥؛ مفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، نشر بلوشيه P.O., T. XII، ص ٥٤٧.

(٢٢) أبو الفداء، المصدر السابق، ص ٢٣٧.

(٢٣) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٣٨.

(٢٤) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٣٩.

(٢٥) نفسه، نفس المصدر والفتحة.

وقيسارية، تكتب قيسرية أو قيسارية، وتقع على الساحل الفلسطيني، وتبعد عن يافا من الناحية الشمالية نحو ثلاثين ميلاً، وهي على بعد النين وستين ميلاً من شمال غرب بيت المقدس. وهناك مدينة أخرى باسم قيسارية ولكن في كبادوكيا Capadocia، في آسيا الصغرى، Asia Minor، وتجدر الإشارة إلى أن قيسارية فلسطين - التي نحن بصدد تناولها - استولى عليها الصليبيون في عام ١١٠١م / ٤٩٥هـ. عن قيسارية أنظر :

ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٢٥؛ أبو الفداء، المصدر السابق، ص ٢٣٨.

Anonymous, The deeds of The Franks, p. 87; Fulcher of Chartres, p.153-154; William of Tyre, vol. I, p. 435-436.

حسن عبدالوهاب، تاريخ قيسارية الشام في العصر الاسلامي، ط. الاسكندرية ١٩٩٠م؛ أسامة زكي زيد، صيدا ودورها في الصراع الصليبي / الاسلامي، ط. الاسكندرية ١٩٨١م، ص ١٠٠، حاشية (٥).

(٢٦) أبو الفداء، المصدر السابق، ص ٢٣٩.

(٢٧) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٢٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٢٩) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٣٠) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٢٩.

(٣١) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٤٣.

(٣٢) أنظر الفصل الخاص بالإدريس.

(٣٣) أنظر الفصل الخاص بابن جبير.

(٣٤) المصدر السابق، ص ٢٤٣.

(٣٥) وفي ذلك يقول أبو الفداء «و حضرت فتوحها وحصل لى فيها الغزاة». أنظر : المصدر السابق،

ص ٢٤٣، المختصر فى أخبار البشر، ج ٤، ص ٢٦.

(٣٦) عن ذلك أنظر هذه الوثيقة :

John de Villiers, A Letter of John de Villiers Master of Hospital describing the Fall of Acre in King, The knights Hospitallers in the Holy Land, London 1930, pp. 301-303.

والاستبارية Hospitallers هم فرسان المستشفى، وقد أسس تلك المستشفى الأمالفيون أهل مدينة أمالفي Amalfi، وهي إحدى المدن التجارية الإيطالية الهامة في عالم البحر المتوسط، في مدينة بيت المقدس من قبل مقدم الصليبيين إلى المنطقة، وعند مقدمهم إلى بيت المقدس كان يدير المستشفى رجل يسمى جيرارد Gerard، وأهتمت المستشفى المذكورة بعلاج المرضى والجرحى، وقامت بدور كبير في هذا المجال، ومع مضي الوقت تحولت هيئة الاستبارية إلى أن تكون هيئة حربية إلى جانب قيامها بدورها العلاجي، ويعتقد بعض الباحثين أن ذلك تم حوالي عام ١١٣٧م عندما عهدت مملكة بيت المقدس الصليبية بأمر قلعة بيت جبرين، والدفاع عنها، وعن المنطقة المجاورة لها، وفيما بعد سيطرت هيئة الاستبارية على عدد كبير من القلاع الصليبية تناثرت على مدى امتداد طول المملكة وعرضها، كذلك شاركت في العديد من المعارك الحربية التي خاض غمارها الصليبيون ضد المسلمين سواء في بلاد الشام، أو في مصر، وتزايدت الهبات والمطالب التي قدمت للهيئة المذكورة. وقد ظلت تلك الهيئة تدعم الوجود الصليبي حتى اللحظات الأخيرة خلال حصار المماليك للمدينة عكا عام ١٢٩١م/٦٩٠هـ. عن مدينة أمالفي الإيطالية التي أسس تجار منها مستشفى الاستبارية في بيت المقدس أنظر:

Pirenne, Mohammed and Charlemagne, London 1954, p. 152; Citarello, "The relations of Amalfi with the Arab world before the crusades, Speculum, Vol. XVII, pp. 299-312; Krueger, The Italian cities and The Arabs before 1095, in setton, A History of the Crusades, Vol. I, pennsylvania 1958, p. 52.

أرشيالد لويس، القوى البحرية والتجارة في حوض البحر المتوسط، ت. أحمد عيسى، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص ٣٢٩-٣٤٠، عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس الصليبية، ط. الاسكندرية ١٩٥٨م، ص ١٩٣، راشد البراوي، حالة مصر الاقتصادية في العصر الفاطمي، ط. القاهرة ١٩٤٨م، ص ١٢٨. وعن هيئة الاستبارية أنظر:

William of Tyre, Vol. II, p. 82; King, The Knights Hospitallers in The Holy Land, London 1930; Riley-Smith, A History of the Hospital of St. John of Jerusalem, London 1967.

سامي سلطان سعد، الاستبارية في رودس، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة عام ١٩٧٧م، محمد مؤنس أحمد عوض، التتظيمات الدينية، ص ٣٥٤-٣٧٣، رابلي سميت، ما هي الحروب الصليبية، ت. فتحي الشاعر. ط. القاهرة ١٩٩٠م، ص ٧٤. ومن أمثلة

الهيئات والعطايا التي قدمت لهيئة الاستبارة أنظر :

Delaville Le Roulx, "Trois Chartres de XII siecle concernant L'Ordre de St. Jean de Jerusalem, A.O.L., T. I, Année 1893, "Inventaire de pieces Terre de L'Ordre de L'Hospital", R.O.L., T. II, Année 1895.

(٣٧) أبو الفداء، المصدر السابق، ص ٢٤٣.

(٣٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٣٩) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٤٠) عن مصادر ومراجع الزلازل الشامية في عصر الحروب الصليبية أنظر :

ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، ط. دمشق ١٩٨٣م، ص ٥١٥، ٥١٨، ٥٢٥، ٥٢٦؛ الاصفهاني، البستان الجامع لجميع تواريخ الزمان، ص ١٢٨؛ عبداللطيف البغدادي، الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعانة بأرض مصر، تحقيق غسان سبانو، ط. دمشق ١٩٨٣م، ص ٩٩؛ ابن الوردي، تكملة المختصر في أخبار البشر، ج ٢، ط. بيروت ١٩٧٠م، ص ١٢٠؛ ابن الراهب، تاريخه، تحقيق سركيس، ط. بيروت ١٩٠٧م، ص ٧٤.

Fulcher of Chartres, p. 208, 210; Anonymous Syriac Chronicle, Trans. by Tritton, J.R.A.S., April 1933, Part II, p. 303; William of Tyre, Vol. II, p. 370; Gibb, "The Career of Nur Al-Din", in Setton, A History of The Crusades, Vol. I, pennsylvania 1958, p. 520; Mayer, Two unpublished letters about the earthquake of 1202", Historisches Seminar des Universitate Kiel, in Medieval and near eastern studies, Ledien 1972, pp. 295-310.

مصطفى أنور، نصوص تاريخية لمؤرخين دمشقية عن زلازل القرن الثاني عشر، B.E.O., T.XXVIII Année 1974، ص ٥٥؛ أشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط،

ص ٢٨١.

(٤١) أبو الفداء، المصدر السابق، ص ٢٤٧.

(٤٢) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٣٧.

(٤٣) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٥٧.

(٤٤) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٥٥.

(٤٥) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٥٩.

(٤٦) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٦١.

(٤٧) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٥٩.

(٤٨) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٤٩.

(٤٩) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٤٣.

(٥٠) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٦٧.

(٥١) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٦٣.

(٥٢) عن ذلك أنظر :

ابن القلائسي، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق زكار، ص ٥٢٦، ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق محمود زايد، ط. بيروت ١٩٧١م، ص ١٥٣، ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، م ١٣ / ١، تحقيق حمدي أنور السيد، ص ١٧٣، السيوطي، كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين، ط. بيروت ١٩٨٧م، ص ١٨٨.

Tsugitako, The Syrian coastal Twon of Jabala, its history and present situation, Toky, 1988, p. 47.

محمد أحمد حسين، أسامة بن منقذ، صفحة من تاريخ الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٤٦م، ص ١٢، ٦٨-٦٩، عبدالرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، ص ٣٠٨، حسن عباس، أسامة بن منقذ، حياته وشره، ط. الاسكندرية ١٩٧٩م، ص ٤٣.

(٥٣) أبو الفداء، المدر السابق، ص ٢٣٠. عن قلعة مصياف أنظر، الفصل الأول، الباب الأول، حاشية رقم (٧٥).

(٥٤) أبو الفداء، المصدر السابق، ص ٢٢٧.

(٥٥) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٥٦) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٦٥.

(٥٧) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٥٨) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٦١.

(٥٩) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٦٣.

(٦٠) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٦٣.

ومن المقرر أن حماة، اشتهرت بأنها مدينة التواعير، وهناك من يذكر أن اسم الناعورة،

مشتق من نعيمها، وهو مأخوذ من نعت الدابة إذا صوتت، وفكرة الناعورة فكرة موغلة في القدم، ويقال إن أقدم مصدر تاريخي لها هو لوح من الفسيفساء تم العثور عليه، أثناء عملية تنقيب أثرى في مدينة أفامية السورية، ويعود ذلك اللوح إلى القرن الخامس الميلادي، ويشاهد عليه صورة لناعورة تتشابه إلى حد كبير مع الناعورة الحالية، ويوجد ذلك اللوح في المتحف الوطني بدمشق. ومن الملاحظ أن مثل تلك النواعير وجدت في مدن أخرى من بلاد الشام مثل شيزر في الرحلة موضوع دراستنا، وكان يتم الاشتراط لإقامتها أن توضع على مكان مرتفع حتى تتمكن من أن تسقى كافة المناطق الأخرى، ووجدت أنواع من النواعير تقوم بحمل ثمانين من أواني حمل المياه، وكل إناء حمل خمسة عشر رطلا، أى أنها حملت ألف ومائتى رطل من المياه. عن النواعير وتاريخها وجودها في حماة أنظر :

ابن منظور، لسان العرب، ج٦، تحقيق يوسف خياط، ط. بيروت ١٩٨٨م، ص ٦٧٠؛ ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص ١٥٣؛ أبو الفداء، المصدر السابق، ص ٢٦٧؛ شيخ الرهوة، نعبة الدهر، ص ٢٠٦؛ أحمد الكيلاني، حماة مدينة النواعير، ط. حماة ب-ت، ص ٣-٦؛ عبدالرزاق زقزوق، النواعير أهم وسائل الري القديمة، ط. دمشق ١٩٩٢م؛ هشام عدرة، النواعير في حماة، المنهل، العدد (٥١٢)، م (٥٥)، شعبان ١٤١٤هـ / يناير - فبراير ١٩٩٤، ص ٩٦-١٠٣؛ أحمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون، ص ١٠٧.

Cahen, "Le service de irrigation en Iraq sur debut du XI Siecle", B.E.O., T. XIII, Années 1949-1951, p. 118.

(٦١) أبو الفداء، المصدر السابق، ص ٢٦٣.

(٦٢) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٦٣.

(٦٣) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٦٥.

(٦٤) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٦٧.

(٦٥) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٦٩.

من المقرر أن هناك عدة مواقع حملت اسم البيرة؛ فهناك البيرة على بعد ١٦ كيلو متر إلى الشمال من القدس، على الطريق المؤدى إلى مدينة نابلس، وقد شملت سهلا فسيحا، وامتازت بتوافر الينابيع، وخصوبة تربتها الزراعية، وهناك البيرة الواقعة قرب سمبساط بين حلب والشغور البيزنطية، وقد وصفت بأنها قلعة حصينة، ثم هناك موضع آخر على شط الفرات بين أعمال الجزيرة، فوق جسر منبج، وبالإضافة إلى ذلك؛ توجد البيرة وهي الواقعة في الأندلس، وتكتب

أيضاً لبيرة، أو بليرة، وكانت العاصمة القديمة للكرة التي سميت فيما بعد بفرناطة، وفي أصلها بلدة أنشأها الإبيرون القدماء وذلك من قبل الرومان، واسمها هو Eliberri, Iliberi، وهو مكون مقطعين : iLi : مدينة و berri بمعنى قديمة. ثم قام الرومان بتعميرها وجعلوا منها قاعدة لمجلس بلدى، وعندما فتح المسلمون الأندلس، سكن البيرة العديد من الجند الشاميين، وموالى بنى أمية، ومن أمثلة القبائل العربية التي سكنت فى البيرة؛ قبائل قضاة، وذبيان، وريجة. عن البيرة الواقعة بين بيت المقدس ونابلس أنظر :

John of Wurzburg, p. 14, note (3); Theoderich, p. 60.

وعن المواقع المتعددة التي حملت اسم البيرة أنظر :

ابن حزم، طوق الحمامة فى الألفة والألاف، تحقيق الطاهر مكي، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص١٦٢، حاشية (١)؛ أبو الفداء، المصدر السابق، ص٢٦٨-٢٧٩؛ ياقوت، معجم البلدان، ص١، ص٢٨٧؛ القزويني، آثار البلاد، ص٥٠٢؛ شيخ الربوة الدمشقي، المصدر السابق، ص٣٨٧؛ ابن ناظر الجيش، تنقيف التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق رودلف فسلى، ط. المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، ط. القاهرة ١٩٨٧م، ص٩٩-١٠١؛ ابن عبد الحق البغدادي، مراصد الاطلاع، ص٣، ص٣٤٠-٣٤١؛ عبدالواحد ذنون طه، الفتح والاستقرار العربى الاسلامى فى شمال أفريقيا والأندلس، ط. بغداد ١٩٨٢م، ص٢١٧-٢٢٠، ٢٤٨؛ مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، ص٢٨٠/٢، ص٢٥٦-٢٥٧؛ مرمجى الدومنيكى، بلدانية فلسطين العربية، ص٧٢، ١٧٦؛ حسين مؤنس، تاريخ الجغرافيا والجغرافيين فى الأندلس، ط. القاهرة ١٩٨٦م، ص٥٥٦، حاشية (١)؛ رحلة الأندلس، حديث الفردوس الموعود، ط. القاهرة ١٩٦٣م، ص١٦٦؛ شكيب أرسلان، الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية، ص١، ط. بيروت ب-ت، ص١٨٠.

(٦٦) أبو الفداء، المصدر السابق، ص٢٤١.

(٦٧) نفسه، نفس المصدر، ص٢٥٥.

وبعلبك، تقع فوق هضبة البقاع بلبنان، ويقوم بمرورها ينبوع رأس العين الكبير، الذى ينبع من سلسلة جبال لبنان الشرقية، وقد سمي الرومان بعلبك باسم Heliopolis، أى مدينة الشمس Colonia Julia Augusta Heliopolis، والجزء الأول من اسم بعلبك هو B'el بمعنى صاحب أو ملك أورب، والثانى وهو بك ويقال أنه يعنى اسم صنم، ويلاحظ أنه فى بعلبك وجدت قلعة كبيرة أشار إليها الجغرافيون المسلمون واعتبروها من عجائب المعمار على مر العصور. عن بعلبك أنظر :

ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص٢٢٦، العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، دراسة وتحقيق دوروثيا كرافو لسكى، ط. بيروت ١٩٨٦م، ص١٩١-١٩٢؛ قاسم رفاعى، بعلبك فى التاريخ، دراسة شاملة لتاريخها ومساجدها ومدارسها وعلمائها، ط. بيروت ١٩٨٤م، ص٢٧؛ أنيس فريحة، أسماء المدن والقرى اللبنانية، ص٢٧.

Dussaud, Topographie Historique de la Syrie Antique et medievale, Paris 1927, p. 403-404; Le Strange, palestine, p. 295-298.

(٦٨) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٣٩.

(٦٩) نفسه، نفس المصدر، ص٢٦٧.

(٧٠) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٧١) نفسه، نفس المصدر، ص٢٥٥.

(٧٢) نفسه، نفس المصدر، ص٢٤١.

(٧٣) نفسه، نفس المصدر، ص٢٢٧.

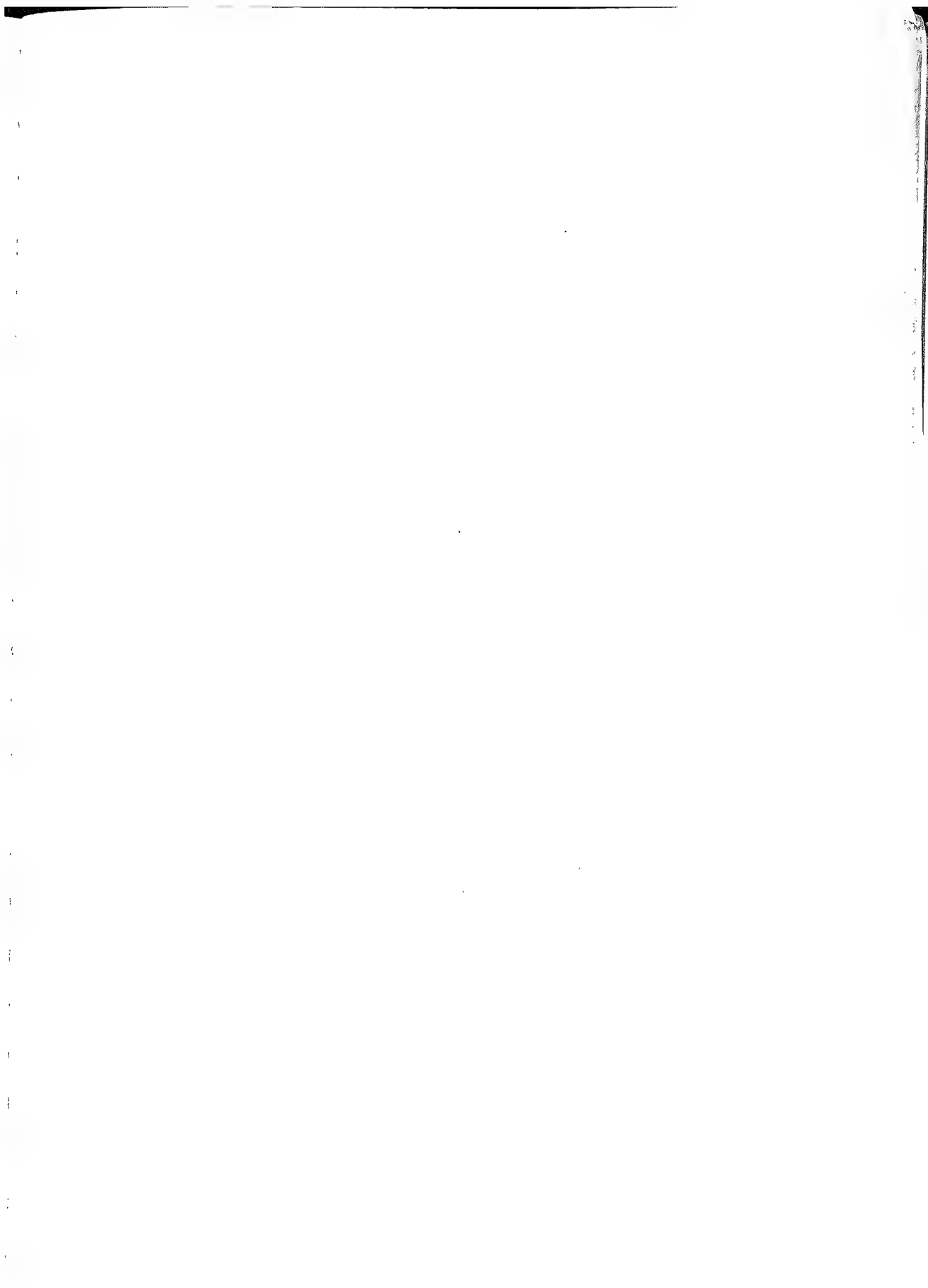
(٧٤) نفسه، نفس المصدر، ص٢٤١.

(٧٥) نفسه، نفس المصدر، ص٢٤٣.

(٧٦) نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، ص١٤.

(٧٧) أحمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون، ص٢٠٠، ويتفق مع نفس الرؤية عبدالفتاح وهيب إذ يقول «تعتبر مقدمته نقداً للفكر الجغرافى العربى، إلا أن الكتاب فى حد ذاته ليس به من جديد، فقد اعتمد أبو الفداء فى كتابه على آثار السلف». أنظر : جغرافية العرب فى العصور الوسطى، ص١٧.

(٧٨) أنظر الفصل الخاص بياقوت الحموى.



القسم الثانى

**الرحالة المسلمون فى بلاد الشام
فى عصر الحروب الصليبية**

١ - السمعاني

(ت ٥٦٢هـ / ١١٦٧م)

يتناول هذا الفصل بالدراسة أحد الرحالة المشاركة الذين وفدوا على بلاد الشام ونعني به السمعاني^(١) (ت ٥٦٢هـ / ١١٦٧م)، وقد ارتحل إلى هناك، وقدم لنا مادة مفيدة عن أوضاع بلاد الشام من كافة الجوانب، الأمر الذي سأتناوله مفصلاً على مدى الصفحات التالية.

والسمعاني هو عبد الكريم بن محمد بن المنصور التميمي ويلقب بالمرزوي، ولد في مدينة مرو عام ٥٠٦هـ / ١١١٧م، من بيت علم وأدب، ويلاحظ أن والده سعد السمعاني؛ كان محدثاً وفقهياً^(٢)، ومن جهة أخرى نعرف أنه انتسب إلى إحدى كبريات القبائل العربية، وتعني بها قبيلة تميم، ولذا عرف باسم التميمي^(٣).

وقد ارتحل السمعاني إلى العديد من مدن المشرق من أجل أن يتلقى العلم على أيدي العلماء، والشيخوخ، ومن أمثلة ذلك أنه ارتحل إلى بلاد ما وراء النهر، وخراسان، وقوس والري، وهمدان، وأصبهان، وبلاد الجبل، والحجاز، والموصل، والجزيرة، والشام^(٤). وهذا الارتحال والانتقال إلى مناطق متعددة من أجل طلب العلم، كان بمثابة الصفة الغالبة على العديد من رجال العلم في ذلك العصر، وقد توفي السمعاني في عام ٥٦٢هـ / ١١٦٧م^(٥).

وتجدر الإشارة إلى أن السمعاني قد ألف العدد الوفير من المؤلفات، ومن أمثلتها كتاب تاريخ مرو؛ وكان يقع في ٢٠ مجلداً^(٦)، وحقفة المسافر، أدب الإملاء

والاستملاء، وذيل تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، والدعوات النبوية، والرسائل والمسائل، وسلوة الأحباب وترجمة الأصحاب، وطرار الذهب في أدب الطلب، الأخطار في ركوب البحار، فرط الغرام إلى ساكني الشام^(٧)، ويعكس الكتاب الأخير أهمية بلاد الشام في فكر السمعاني على نحو جعله يؤلف كتاباً خاصاً عنها مثلما فعل من قبل مع مسقط رأسه مرو.

بيد أن أشهر ما ألفه السمعاني كتابه «الأنساب»^(٨) وقد وقع في ثمانية مجلدات، ووصف بأنه كان غزير المقال، ولذا اتجه المؤرخ ابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) إلى اختصاره في صورة كتاب اللباب في تهذيب الأنساب، وقد فاق التهذيب الأصل في الشهرة^(٩)، ومن بعد ذلك اختصره السيوطي (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) في صورة كتاب لب الألباب في تحرير الأنساب^(١٠).

وتجدر الإشارة إلى أن السعي إلى تهذيب الكتاب واختصاره على مدى المرحلة منذ عصر ابن الأثير، وحتى عصر السيوطي، يعكس بالضرورة أهمية ورغبة المعاصرين، واللاحقين في الاستفادة منه في صورة ميسرة.

ولعل أوضح ما تميز به كتاب الأنساب - وهو الذي اعتمد عليه بصورة أساسية في هذا الفصل - تلك التراجم التي قام السمعاني بجمعها على حروف المعجم، والتي اهتم فيها بنسبة كل واحد منها إلى بلد، أو قبيلة، أو صناعة، أو تجارة، هذا بالإضافة إلى الحوادث الهامة التي جرت في المواقع التي ترجم لأصحابها في كتابه^(١١).

وبالإضافة إلى ذلك فإن السمعاني قد أورد العديد من الإشارات الجغرافية الهامة، وكذلك نتاج رحلاته، على نحو يجعله أحد الرحالة المسلمين الذين وفدوا إلى بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، وقد مر بالعديد من المدن في وقت الاحتلال الصليبي لعدد كبير منها، وقدم وصفاً - وإن غلب عليه طابع الإيجاز - لها على نحو أفاد في العديد من الجوانب المتعلقة بتاريخ بلاد الشام حينذاك.

وتثار ناحية هامة، وهى المصادر التى اعتمد عليها السمعانى فى كتابه، وخاصة القسم الخاص بالانتساب إلى المدن الشامية، والواقع أن رؤية متأنية لتلك الزاوية، تكشف أنه اعتمد فى المقام الأول على مشاهداته الشخصية، وفى أحيان كثيرة يقرر أنه أمضى فى المدينة التى يشير إليها، مدة زمنية معينة، قد تكون يوماً (١٢)، أو يومين (١٣)، أو عشرة (١٤) أيام، وربما طالت لتكون أكثر من ذلك، وفق مقتضيات الحال، ثم هناك أيضاً المصادر التى ألفها الجغرافيون والرحالة المسلمون السابقون على عصر السمعانى، وإن لم يشر صراحة إلى الاستعانة بهم فيما يتعلق بتناوله لمدن الشام، وإن كنت أتصور أن مثل تلك المؤلفات كانت من المصادر التقليدية التى اعتمد عليها الرحالة المسلمون على اعتبار تواصل المعرفة الجغرافية الإسلامية وعدم انقطاعها أو انفصالها. وهكذا، فإن عنصر المشاهدة والمعاناة لم يكن هو المصدر الوحيد الذى استقى منه السمعانى مادته العلمية عن مدن الشام المتعددة.

وجدير بالذكر، أن السمعانى فى أحيان نادرة، مجده يذكر صراحة أنه لم ير المدينة التى يتناولها، ومن أمثلة ذلك مدينة بعلبك فى سهل البقاع بלבنان، التى يقرر صراحة أنه «لم يتفق له دخولها» (١٥)، بيد أن هناك مدناً أخرى، من الواضح أنه لم يمر عليها، ولم يقم بها، وفاته أن يذكر ذلك، أو أن الأمر اختلط عليه من كثرة ما مر بالمدين الشامية، أو أنه لم يسجل من فوره ملاحظاته عنها، ومن ثم وقع فى الخطأ، ومن أمثلة ذلك ذكره لموقع بغراس على اعتبار أنها على الساحل (١٦)، بينما الواقع الجغرافى خلاف ذلك.

ومع ذلك، فمن الطبعى ألا نترقع أن السمعانى يقدم لنا مادة جغرافية وتاريخية مفصلة عن المدن الشامية التى انتسب إليها أولئك الذين أشار إليهم فى كتابه، إذ أن حرصه على إيراد الأنساب شغله - على ما يبدو - عن الاهتمام بإيراد معلومات ضافية عن تلك المدن الشامية. بالإضافة إلى أنه جعل من تلك الزاوية الجغرافية والتاريخية الموجزة مقدمة للدخول فى موضوعه الأصلى فيما يتعلق بالأنساب وذكر أشهر الأعلام الذين انتسبوا إلى المدن التى تناولها.

مهما يكن من أمر، فإن السمعاني تناول العديد من الجوانب المتصلة بأوضاع بلاد الشام في ذلك العصر، مثل تعرضه لمدن الساحل الشامى المتعددة، ومراكز الإمارات الصليبية، والحوضر الشامية الكبرى الداخلية الخاضعة للسيادة الإسلامية، ثم العمائر الدينية بالإضافة إلى الخريطة المذهبية لبلاد الشام والنشاط الاقتصادى؛ سواء الزراعى أو التجارى، ثم المزارات الدينية والعلاجية.

وإذا نظرنا إلى تناول السمعاني لمنطقة الساحل الشامى، نجد أنه يقدم لنا مادة موجزة عن عدد من المدن الساحلية هناك، وعلى سبيل المثال نجده يقرر أن عسقلان على حد مصر، وأنها تسمى عسقلان الشام^(١٧)، كما أن هناك مدينة أخرى تحمل نفس الاسم عند بلخ من مدن المشرق^(١٨)، وقد أوضح أن الإثنين يطلق عليهما العروسان نظراً لحسنهما، وأضاف أن الانتساب إلى عسقلان الشام هو الأكثر شيوعاً^(١٩).

أما مدينة عكا، فلا يوضح عنها إلا أنها على الساحل، وأنه دخلها وهى تحت السيطرة الصليبية، وأشار إلى أنه نزل فى جامعها^(٢٠)، ولا يقدم أية إشارات أخرى عنها سواء من الناحية الاقتصادية التجارية أو من خلال تفصيل أوضاع المسلمين الخاضعين للسيادة الصليبية. ومن المحتمل أن قصر مدة إقامته فى عكا وقف حائلاً دون أن يقدم لنا المزيد من التفاصيل بشأنها، ومن ثم أوجز الحديث عنها بمثل هذه الصورة على الرغم من أهميتها التقليدية لدى كافة الجغرافيين والرحالة المسلمين فى ذلك العصر.

ومن جهة أخرى، تفيد إشارته الموجزة فى توضيح أن المسلمين كانت أوضاعهم فى عكا سيئة، ولعل ذلك من أسباب إحجام السمعاني عن أن يفصل الحديث عنها، الأمر الذى كشف النقاب عنه بصورة أكثر تفصيلاً رحالة من الأندلس هو ابن جبير^(٢١). وهكذا، فإن ما أوجزه ذلك الرحالة المشرقى فصله من بعده رحالة من الغرب الإسلامى.

ولا نفعل ناحية هامة أخرى، وهى أن السمعاني قد أشار إلى أنه ذهب إلى جامع عكا وأقام فيه بعض الوقت (٢٢) فى مدينة أقام فيها أصلاً بعض يوم، على نحو يكشف بجلاء أن المسجد كان بمثابة مركز تلاقى المسلمين خاصة الغرباء الذين يقدمون على مدينة ليس لهم فيها أهل ولا أصحاب وخاضعة لاحتلال أجنبي.

فإذا ما ذهبنا إلى مدينة أخرى، وهى يافا، نجد أن السمعاني يشير إلى يافا إشارة جد موجزة، ويقرر أن النسبة إليها يافونى (٢٣)، أما أرسوف، فلا يشير السمعاني بشأنها سوى أنها مدينة على ساحل بحر الشام، وظهر منها عدد من العلماء، والمرابطين (٢٤)، أما إذا انتقلنا إلى مدينة أخرى من مدن الساحل الشامى وهى اللاذقية نجده يذكر أنها على الساحل المذكور ويوضح «استولى عليها الفرغ الساع» (٢٥). وذلك كجزء من مخططهم الاستراتيجى الرامى إلى إخضاع تلك المنطقة الهامة تجارياً واستراتيجياً من أجل خنق القوى الإسلامية الداخلية، وجعلها قوى برية حبيسة، تحتاج إلى التعامل مع الصليبيين، الذين صاروا بذلك يملكون دور الوسيط التجارى بكل الشراء الكبير الذى نالوه من جراء ذلك، على نحو دعم وجودهم فى بلاد الشام، على مدى قرنين من الزمان.

ومن المعروف أن الصليبيين تمكنوا من السيطرة على اللاذقية ذات الموقع الاستراتيجى الحيوى الذى من خلاله يمكنهم الإشراف على كل وادى نهر العاصى، فى عام ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م (٢٦)، ومن هنا تثار ناحية هامة. ألا وهى إشارة السمعاني بأن الفرغ استولوا عليها الساع. إذ أنه فى موضع آخر يذكر صراحة أن المسلمين قد استولوا على مدينة الرها وذلك فى عام ٥٣٩هـ / ١١٤٤م، ويفهم من ذلك بالطبع أنه قدم إلى بلاد الشام بعد التاريخ المذكور، ومن ثم فإن إشارته إلى اللاذقية، وتاريخ سقوطها فى قبضة الصليبيين، لا يمثل تحديداً زمنياً دقيقاً، لأن إخضاعها لقبضتهم تم قبل مقدم السمعاني للمنطقة بعدة عقود من السنين دون إمكانية التحديد الزمنى بدقة نظراً لصمت المصادر التاريخية فيما يتصل بتوقيت زيارته لبلاد الشام.

وبالنسبة لمدينة بيروت، نجد أن السمعاني يشير إلى موقعها الساحلى ويقرر أنها فى يد الإفرنج (٢٧)، أما بغراس، فقد ظن ذلك الرحالة أنها على الساحل ، بينما الواقع عكس ذلك لأنها من مدن الشام الداخلية البرية، ومثلت هى ودرساك، وحجر شفلن، مراكز دفاعية هامة بالنسبة لإمارة أنطاكية الصليبية.

ويضاف إلى المدن الشامية الساحلية السابقة. نجد رحالتنا السمعاني يشير إلى مدينة لبنانية حظيت بإهتمام الجغرافيين والرحالة المسلمين على مدى عصر الحروب الصليبية ونعنى بها صور، وقد أورد بشأنها عبارة موجزة مؤداها أنها كبيرة وأن الفرنج استولوا عليها بعد عام ٥١٠هـ / ١١١٦م (٢٨)، ومن المعروف أن تلك المدينة قد سقطت فى أيديهم فى وقت متأخر بالمقارنة بالمدن الشامية الساحلية الأخرى نظراً لمناعتها وحصانتها، وقد حدث ذلك فى عام ٥٢١هـ / ١١٢٦م، فى عهد الملك الصليبي بلدوين الثانى Baldwin II (١١١٧-١١٣١م / ٥١١-٥٢٥هـ).

ومن الممكن القول، إن المثالين الخاصين باللاذقية، وصور، يدلان على أن السمعاني لم يكن دقيقاً بالدرجة الكافية فيما يتصل بالتحديد الزمنى لسقوط بعض مدن الساحل الشامى فى قبضة الصليبيين.

وفى تقديرى أن السمعاني لم يدخل مدينة صور لعدة اعتبارات، أولاً أنه أوجز الحديث عنها بمثل هذه الصورة، بالإضافة إلى أنه لم يقرر صراحة أنه دخل فيها وأقام بها مدة زمنية مثلما حدث مع المدن الأخرى التى ذكر مدة إقامتها بها، سواء كانت طويلة أم قصيرة، هذا بالإضافة إلى أنه لم يشر إلى حقيقة تكاد تكون بديهية عن تلك المدينة، وكثيراً ما ترددت لدى مؤلفات الرحالة المسلمين، وكذلك الأوروبيين الذين زاروها، ونعنى بها حصانتها البالغة. ومع ذلك يبقى الأمر محل افتراض دون أن نتمكن من تأكيده، لعدم وضوح النصوص، وصراحتها فى هذا الشأن.

أما مدينة طرسوس؛ فنجد أن السمعاني يفصل الحديث عنها بخلاف غيرها من مدن الساحل الشامى. ويبدو أنه أدرك أهميتها، نذكرها على ذلك النحو، ونفيد إشارته بشأنها من خلال توضيح اختلاف أوضاع المدن الإسلامية قبل وبعد خضوعها للسيادة الصليبية، لاسيما المدن الساحلية، وقد أوضح أنها كانت مزدهرة بمظاهر الحياة، والاحتفالات والأعياد، وتناول صلاة التراويح فيها واحتفالاتها بالعيد وأن أهلها يخرجون بالأسلحة الكثيرة والخيل الحسان لأنها أصلاً مدينة ثغرية (٢٩)، من أجل أن يصل الخبر إلى البيزنطيين فلا يهاجمونها، بالإضافة إلى الكثافة السكانية الكبيرة بها.

وإذا كان هذا هو شأنها قبل مقدم الصليبيين، فإنها اختلفت فيما بعد، ويبدو من خلال وصفه أن الكثافة السكانية المسلمة بها قد اختلفت وصار المسلمون قلة، وهذا وضع طبيعى مع غزو الصليبيين للمنطقة، واتجاه المسلمين إلى الفرار إلى المدن الإسلامية الجاورة. وقد عبر السمعاني عن ذلك صراحة بقوله «خف الناس» (٣٠)، ومثل ذلك الوضع الذى شهدته طرسوس؛ يمكن أن يكون نموذجاً للتعبير عن التغير الديموغرافى الذى شهدته المدن الشامية الساحلية وغيرها من المدن التى سيطر عليها الصليبيون.

ولا نزاع، فى أن تناول الرحالة السمعاني لأمر طرسوس، يعد من أعمق ما أورده فى كتابه عن أثر الغزو الصليبي على الناحية العددية للمسلمين فى المدن الشامية التى سيطر عليها الغزاة، وكذلك من ناحية الشعائر الدينية والمظاهر الاحتفالية للمسلمين، ومن الطبيعى أن نتوقع أن المقابل لذلك هو استعمال المظاهر الصليبية من صلبان، وكنائس، واحتفالات دينية مسيحية، الأمر الذى أوضحه رحالة آخر، وهو ابن جبير على نحو بارع.

ومن جهة أخرى، تناول السمعاني الإمارات الصليبية والمدن الخاضعة لسيادتهم فى داخل بلاد الشام، ومن أمثلة ذلك أنه تعرض لمدينة بيت المقدس، قلب المملكة الصليبية، وتحدث عن مكانتها الدينية بالنسبة للمسلمين، وأشار إلى أن الصليبيين استولوا عليها فى عام ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م (٣١)، وأنهى حديثه عنها بعبارة مؤثرة طالما وردت لدى الرحالة

المسلمين الذين زاروا المدن الإسلامية الخاضعة لسيطرة أعدائهم، وهذه العبارة هي «ردها الله تعالى إلى المسلمين»، ومنطقي أن نذكر، أن تلك التعبيرات الحزينة ظالما ترددت قبل عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م، عندما استعادها المسلمون لأول مرة بعد احتلال صليبي قارب التسعين عاماً.

كما تعرض السمعاني لأنطاكية ووصفها بأنها من أحسن البلاد، وأن الصليبيين استولوا عليها - ولم يحدد تاريخ ذلك، وأنها مقر ملكهم، أى أنها مقر إمارة صليبية هي إمارة أنطاكية^(٣٢)، ومن المعروف أنها سقطت في قبضة الصليبيين عام ١٠٩٨م.

كذلك فإنه تناول الرها، وذلك بعد أن استولى عليها المسلمون بقيادة المجاهد أتابك الموصل عماد الدين زنكى عام ٥٣٩هـ / ١١٤٤م^(٣٣). ونستشعر في تعبيراته الروح المعنوية العالية بعكس الانكسار الذى لمسه في حديثه عن طرسوس، وبشأن الرها نجد أنه يذكر أن المسلمين ظفروا بها وانتصروا على الصليبيين «وخلص الله تلك البلدة على يدهم»^(٣٤)، وهذا يعكس حقيقة هامة وهي أن نصوص الرحالة المسلمين إلى جانب احتوائها على دلالات تاريخية فإنها تحوى دلالات نفسية أيضاً لاسيما من خلال سيطرة الأعداء الصليبيين على المدن الإسلامية وكذلك تحريرها على أيدي المسلمين.

ومن جهة أخرى، حظيت المدن الإسلامية في بلاد الشام بوصف السمعاني، ففي دمشق، نجده يشيد بها ويذكر أنها «أحسن مدينة بالشام»^(٣٥)، ولاشك أن ذلك الوصف يعكس النمو الحضارى والعمرانى الكبير، الذى حققته تلك المدينة التى كانت يوماً عاصمة ملك الأمويين، واستعمال أسلوب التفضيل هذا، جاء من جانب رحالة طاف العديد من مدن الشام.

ويتناول السمعاني الكثافة السكانية في دمشق ويعبر عن تزايد تلك الكثافة بقوله «أكثرها أهلاً»^(٣٦) أى أنها أكثر مدن الشام سكاناً، وأشار إلى أن تاريخها قام بجمعه

صديقه ابن عساكر (ت ٥٧١هـ / ١١٧٦م) (٣٧)، ومن المعروف أن الأخير قد ألف كتاباً ضخماً عن تاريخ مدينة دمشق.

ويلاحظ أن السمعاني لم يشر إلى المدة التي أقامها في دمشق، ويبدو مع ذلك أنها لم تكن قصيرة، لأهميتها ولوجود عدد كبير من العلماء والفقهاء بها، بالإضافة إلى المميزات العديدة التي امتدحها بها حيث أورد أنها يضرب بها المثل في الحسن، ولا ريب في أن كافة تلك العوامل تدفعنا إلى التصور أنه أقام بها مدة كافية لأن يصفها بعد إقامة كافية بأنها أحسن مدينة بالشام. هذا بالإضافة إلى وجود صديق مثل ابن عساكر في تلك المدينة، وإذا كان السمعاني قد أقام نحو عشرة أيام في مدن أخرى لم يكن له بها أصدقاء فإن وجود عالم مثل ابن عساكر بدمشق يدعونا إلى تصور أن السمعاني أقام بها مدة كافية من الوقت ربما بلغت عدة أشهر.

أما حلب، فقد وصفها بأنها من ثغور المسلمين (٣٨)، وهذه العبارة تفهم من خلال صراعها المستمر مع إمارة أنطاكية الصليبية، إذ أن ذلك الصراع شكل جزءاً هاماً من تاريخ مدينة حلب، وقد صرح ذلك الرحالة، أنه أقام بها عشرة أيام. أما حماة فقد استحسنها، وذكر عنها أنه أقام بها يومين (٣٩)، وفي حمص أقام أربعة أيام، ولم يصفها بأوصاف مميزة باستثناء ما فيها من قبور الصحابة (٤٠). أما حوران فقد تحدث عن ثرواتها وخيراتها، وأقام بها أياماً لم يحددها (٤١).

والآن تثار ناحية هامة، وهي تتعلق بالمدد الزمنية التي أمضاها في المدن الإسلامية التي دخلها، والواقع أن المدد تراوحت بين الطول والقصر، واختلفت حسب أهمية كل مدينة واحتياج السمعاني للالتقاء بالعلماء والفقهاء بها، وفي تقديري أن المدن التي أقام فيها مدة زمنية قصيرة، أحصاها بدقة مثلما حدث في أمر حلب، وحماة، وحمص، أما المدن والمناطق التي أقامها فيها مدة طويلة وجدناه لا يذكرها، ومن أمثلة ذلك دمشق وحوران.

أما العماثر الدينية التي أوردها السمعاني، فنجد أنه اهتم بإيراد العماثر الدينية الإسلامية في بعض الأحيان، فهو في كل مدينة يدخلها يحرص أحياناً على إيراد أمر جامعها، غير أنه في دمشق، أغفل ذكر الجامع الأموي بها، على الرغم من أن الرحالة المسلمين الآخرين حرصوا على إيراده، والإعجاب الشديد بعمارته، كما أنه تحدث عن ظاهرة هامة ألا وهي الخانقاوات التي كانت مقراً للمتصوفة، فأشار إلى الخانقاة السيساطية^(٤٢) وقد أشار إلى أن الأوقاف التي بها، تم وقفها على المتصوفة، والعميان من أهل القرآن^(٤٣).

ولا نزاع، في أن ذلك العصر شهد تشييد العماثر الدينية الإسلامية المتعددة، لاسيما المساجد، والمدارس، والزوايا، والخانقاوات، ونجدها بكثرة في المدن الشامية الكبرى مثل دمشق، وحلب، وغيرها من المدن التي مثلت حواضر هامة هناك.

أما الخريطة المذهبية لبلاد الشام، فإن السمعاني لم يقدم فيها إشارات وافية عن كافة القوى الدينية المتعددة هناك، وإنما اهتم على نحو خاص بعناصر الاسماعيلية النزارية، الذين لقبوا بالباطنية وأوضح أنهم تسموا بذلك لقولهم بأن لكل ظاهر باطن، وذكر أن مثل ذلك الاعتقاد مأخوذ من قول الجناحية والمنصورية وهم من غلاة الروافض، ووصفهم بأنهم استحلوا الحرمات^(٤٤).

وتفيد إشارته في توضيح نظرة الرحالة المشاركة لتلك الفرقة الشيعية التي وجدوا مثلها في أنحاء المشرق الأخرى لاسيما في بلاد فارس حيث مركزهم الأصلي في قلعة الموت جنوب بحر قزوين، وقد حرصوا على إيراد أمرهم خلال ترحالهم خارج نطاق بلادهم.

وعلى ما يبدو، فإن الأيام القليلة التي أمضاها في المدن الشامية؛ لم تمكنه من أن يقدم التفاصيل الكافية عن تلك الفرقة الشيعية، أو أن يتعرض لباقي نواحي الخريطة العقائدية لبلاد الشام في ذلك العصر، بالإضافة إلى أن كتابه كتاب مخصص أصلاً للأنساب.

ومن جهة أخرى، احتوت رحلة السمعاني إلى بلاد الشام والتي ضمنها كتابه الأنساب، على بعض الجوانب الاقتصادية سواء الزراعية أو التجارية، وفي هذا المقال، نجد أنه ذكر كثرة النخل الموجود في بيسان^(٤٥)، كما أن حوران تشتهر بالفلال وأن دمشق، تستفيد منها في هذا المجال^(٤٦) في سد احتياجاتها نظراً لقرب موقعهما الجغرافي.

أما النشاط التجاري، فهو يذكره بالنسبة لمدينة ساحلية لبنانية وهي بيروت، وقد أشار إلى أن الكيزان البيروتية، التي تنسب إليها، تصدر منها إلى كافة أنحاء الشام^(٤٧).

ومن الواضح أن حجم إشاراته عن النشاط الاقتصادي كان ضعيفاً ولا سيما أنه لم يتناول ذلك النشاط بالنسبة للساحل الشامي وهو ميدان خصب لذلك النشاط، ويلاحظ أن الرحالة المسلمين الآخرين أكثر ثراء منه في هذا المجال.

وتبقى ناحية أخرى، تتعلق بالمزارات الدينية والعلاجية، وفي هذا المقام نجد لا يشير إلا إلى أقل القليل منها؛ مثال ذلك أنه أشار إلى ضريح خالد بن الوليد في حمص^(٤٨)، ومن المحتمل أنه لم يكن مقتنعاً بها وبوجودها أصلاً ولذا لم يشر إليها - غير أن تأكيد ذلك ليس في الإمكان أمام عدم وضوح النصوص التي قدمها.

زد على ذلك، أن المزارات العلاجية قد أشار إليها خاصة فيما يتعلق بطبرية وقدرة مياهها على شفاء الأمراض^(٤٩) بإذن الله تبارك وتعالى، وقد أكد ما ذكره غيره من الرحالة المسلمين عندما أشار إلى أن حمامات طبرية تعد من عجائب الدنيا، ومع ذلك فإن وصفه لها كان موجزاً على عكس منهج الرحالة المسلمين الآخرين الذين فصلوا هذه الناحية، من أجل أن يرصدوا ذلك الواقع من ناحية، ومن أجل أن يستميلوا إعجاب المعاصرين من خلال إيراد عدد من العجائب في رحلاتهم تضمن لهم الانتشار والشهرة.

وكامتداد لتلك الناحية العلاجية السابقة، نجد أن السمعاني، أشار إلى جانب علاجي آخر غير المياه الجوفية، وتعني به الأعشاب، وفي هذا المجال نذكر أنه أوضح

اشتهار أنطاكية بالدواء المسهل الذى يطلق عليه الأنطاكى، وهو معروف باسم السقمونيا^(٥٠)، ولا يوجد فى مكان إلا فى أنطاكية، مما أعطى لها أهمية علاجية خاصة.

وتجدر الإشارة إلى أن ذلك العصر اشتهر العلاج فيه من خلال الأعشاب، ووجد العديد من العشابين الذين برعوا فى معرفة الأعشاب، وأنواعها وصفاتها، وخصائصها العلاجية، ووصلت إلينا العديد من المؤلفات من ذلك العصر فى مجال العلاج بالأعشاب.

وهكذا، قدم لنا السمعانى من خلال ترحاله فى ربوع بلاد الشام العديد من الجوانب الهامة عن أوضاع المسلمين هناك، وصراعهم مع العدو الصليبي، وقد قدم رؤية رحالة مشرقى شاهد عيان على عصر الصراع الإسلامى الصليبي، واحتوت إشارات على جوانب عن المزارات الدينية والعلاجية والنشاط الاقتصادى على نحو جعل لها قيمتها بين مؤلفات الرحالة المسلمين، الذين وفدوا إلى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية.

الهوامش

(١) عن مصادر ومراجع ترجمة السمعاني أنظر :

السمعاني، الأنساب، ح-١، تحقيق عبدالرحمن المعلمي، ط. بيروت ١٩٨٠م، ص ١٨-٣٠؛ ابن خلكان، وفیات الأعيان، ح-٢، ص ٢٧٨؛ مصطفى محمد أحمد رجب، الآراء التربوية في كتاب أدب الإملاء والاستملاء للسمعاني في ضوء الفكر التربوي الحديث، بحث مقدم للمشاركة في المسابقة رقم (١٤) لنادي أبها الأدبي عام ١٤١٥ / ١٩٩٤م، ص ٦؛ على عبدالله الدفاع، رواد علم الجغرافيا في الحضارة العربية الإسلامية، ص ١٥٥-١٥٦؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ح-٦، ت. عبدالحليم النجار، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص ٦٤؛ أدوار براون، تاريخ الأدب في إيران، ت. الشواربي، ط. القاهرة ١٩٥٨م، ص ٥٩٥؛ أحمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٢٦٦.

(٢) ابن خلكان، المصدر السابق، ح-٢، ص ٢٧٨.

(٣) على عبدالله الدفاع، المرجع السابق، ص ١٥٦.

(٤) أحمد رمضان، المرجع السابق، ص ٢٨٠؛ بروكلمان، المرجع السابق، ح-٦، ص ٦٤.

(٥) نفسه، نفس المرجع والصفحة.

(٦) حاجي خليفة، كشف الظنون، ح-١ / ١ ق، ص ٣٠٣؛ ادوارد براون، المرجع السابق، ص ٥٩٥.

(٧) على عبدالله الدفاع، المرجع السابق، ص ١٥٧.

(٨) بدأ السمعاني وضعه في عام ١١٥٥ هـ / ١١٥٥ م، وذلك بنا على طلب من أحد أصدقائه وهو عمر بن علي البسطامي، الذي قابله في منطقة ما وراء النهر، وقد قام المستشرق مارجليوت D.S. Margoliouth بتصوير مخطوطة المتحف البريطاني B.M، ورقمها Add 23, 355، مع مقدمة في سلسلة جب التذكارية، المجلد العشرين، الصادر في لندن عام ١٩١٢م.

Gibb Memorial Series, No. XX, London 1912.

عن ذلك أنظر :

بارتولد، تركستان، ص ١٠٥؛ بروكلمان، المرجع السابق، ح-٦، ص ٦٤.

وقد اهتمت في هذا الفصل على طبعة صدرت في بيروت بدون تاريخ.

ومن المفيد أن نذكر هنا أن التأليف في مجال الأنساب، لم يتدعه السمعاني، بل إنه كان ظاهرة تأليفية من قبله واستمرت من بعده، وتورد عددًا من المؤلفات في هذا الصدد وهي كالتالي :

عبدالمملك بن هشام صاحب السيرة المشهورة، (ت ٢١٣هـ / ٨٣٦م) وله كتاب أنساب حمير وملوكها، وأبو جعفر محمد بن حبيب البغدادي (ت ٢٤٥هـ / ٨٥٤م) له كتاب أنساب الشعراء، أما الزبير بن بكار (ت ٢٥٦هـ / ٨٧٩م) فله كتاب جمهرة نسب قریش وأخبارها، وقد حققه محمود شاكر وصدر عمله في القاهرة عام ١٣٨١هـ، كذلك فإن البلاذري (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م) له أنساب الأشراف وقد تم تحقيقه عدة مرات، ثم أن الحسين بن علي الوزير المغربي (ت ٤١٨هـ / ١٠٢٣م) ألف كتابًا بعنوان الإنباس في علم الأنساب، وقد حققه حمد الجاسر، وصدر في الرياض عام ١٩٨٠م، ثم أن أبا محمد عبدالله الرشاطي (ت ٤٦٦هـ / ٩٧٥م) ألف كتاب اقتباس الأنوار والتماس الأزهار في نسب الصحابة ورواة الآثار، أضف إلى ذلك أن ابن حزم (ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م) له كتاب جمهرة أنساب العرب، وقد حققه ليفي بروفنسال Levi Provençal، وصدر في القاهرة عام ١٩٤٨م، ثم أن ابن القيسرالي (ت ٥٠٧هـ) له كتاب الأنساب المثقفة، وقد صدر في لندن عام ١٨٦٥م، كما أن أحمد بن محمد الأشعري القرطبي (ت ٥٥٠هـ / ١٥٥م) له كتاب التعريف في الأنساب والتنويه لذوي الأحساب، وقد حققه سعد عبدالمقصود ظلام، وصدر في القاهرة عام ١٩٩٠م، ثم أبو محمد الحسن علي المعروف بالقاضي المذهب (ت ٥٦١هـ / ١١٦٦م) له كتاب الأنساب، كذلك ألف موفق الدين المقدسي (ت ٦٢٠هـ / ١٢٢٤م) كتابه التبيين في أنساب القرشيين، وحققه محمد الديلمي، وصدر في بغداد عام ١٩٨١م. ثم ألف محيي الدين محمد بن محمد بن النجار البغدادي (ت ٦٤٣هـ / ١٢٤٧م) كتاب أنساب المحدثين، أما القلقشندي، (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)، فله كتاب نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، أما الجيفري (ت ٩هـ / ١٥ ق) فله كتاب الاكتساب في تلخيص الأنساب، كما أن بامخرجة (ت ٩٤٧هـ / ١٥٤٤م) له كتاب النسب إلى المواضع والبلدان، أما المؤلفات الخاصة بأنساب الحيوانات فأشهرها، كتاب ابن الكلبي (ت ٢٠٤هـ / ٨١٧م) بعنوان أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام الذي حققه أحمد زكي، وصدر في القاهرة عام ١٩٤٦م. عن ذلك أنظر :

حاجي خليفة، كشف الظنون، ح-١/ق-١، ص ١٧٩، إحسان النص، كتب الأنساب العربية، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، م (٦٦)، ح- (٣)، ذو الحجة ١٤١١هـ/ يوليو

١٩٩١م؛ حمد الجاسر، الاكتساب فى تلخيص الأنساب، الفيصل، العدد (٢٠١)، رمضان ١٤١٤هـ / مارس ١٩٩٤م، ص ٤٣-٤٥؛ كتاب النسبة إلى المواضع والبلدان، الفيصل، العدد (٢١١)، محرم ١٤١٥هـ / يونيو - يوليو ١٩٩٤م، ص ٤٥.

(٩) بروكلمان، المرجع السابق، ج٦، ص ٦٤؛ وعن ابن الأثير أنظر، الفصل الرابع - الباب الثانى.

(١٠) بروكلمان، المرجع السابق، ج٦، ص ٦٤؛ على عبدالله الدفاع، المرجع السابق، ص ١٥٦.

السيوطى، هو عبدالرحمن بن أبى بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيرى السيوطى المصرى، جلال الدين أبو الفضل، ولد عام ٨٤٩هـ / ١٤٤٥م، نشأ بالقاهرة. وتلقى علومه الدينية بها، واتجه إلى الاسكندرية ودمياط وإلى الحجاز وتعلم على أيدى شيوخ العلم، وتولى أمر التدريس والافتاء، وله العديد من المؤلفات فى العديد من العلوم والمعارف منها، الدر المنثور فى التفسير بالمأثور، والافتان فى علوم القرآن، ولباب المنقول فى أسباب النزول، وتناسق الدرر فى تناسب السور، وطبقات المفسرين، والجامع الكبير والجامع الصغير، والحاوى فى الفتاوى، وجزيل المواهب فى اختلاف المذاهب، وحسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، وقد توفى السيوطى عام ٩١١هـ / ١٥٠٨م. عن السيوطى أنظر :

السيوطى، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، ج١، ط. القاهرة ب-ت، ص ١٨٨؛ محمد عبدالمنعم خاطر، جلال الدين السيوطى، ط. القاهرة ١٩٦٨م؛ عدنان محمد سلمان، السيوطى النحوى، ط. بغداد ١٩٧٦م، ص ٦١-١١٩؛ محمد جلال أبو الفتوح، جلال الدين السيوطى، منهجه وآراؤه الكلامية، ط. بيروت ١٩٨١م، ص ١١-٢٥؛ أحمد الخازندار ومحمد ابراهيم الشيبانى، دليل مخطوطات السيوطى وأماكن وجودها، ط. الكويت ١٩٨٣م، ص ٧-٢٥؛ محمد مصطفى زيادة، المؤرخون فى القرن الخامس عشر الميلادى، ط. القاهرة، ١٩٦٢م ص ٥٧؛ اسماعيل نورى الربيعى، منهج السيوطى التاريخى، المنهل، العدد (٥١٠)، المجلد (٥٥)، نوفمبر - ديسمبر ١٩٩٣م، ص ١٦-٤٩؛ مجموعة من الباحثين، جلال الدين السيوطى، بحوث ندوة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ط. القاهرة ١٩٧٨.

(١١) أحمد رمضان، المرجع السابق، ص ٢٦٦.

(١٢) السمعانى، الأنساب، ج١، ص ٤٣٠.

(١٣) نفسه، نفس المصدر، ج١، ص ٢٦٧.

(١٤) نفسه، نفس المصدر، جـ ٢، ص ٤٦.

(١٥) نفسه، نفس المصدر، جـ ١، ص ٣٧١.

(١٦) نفسه، نفس المصدر، جـ ١، ص ٣٧٣.

(١٧) نفسه، نفس المصدر، جـ ٤، ص ١٩٠.

(١٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

وبلخ، مدينة وقعت على الشاطئ الجنوبي لنهر جيحون، في السهل الشمالي المنبسط لجبل بابا، وقد أطلق عليها اليونانيون تعبير باكترا Baktra، وفي الفارسية القديمة أطلق عليها تعبير باخترس، ويلاحظ أن موقع بلخ قد جعلها على الطريق التجارى الهام الذى يصل الممرات الجبلية بنهر جيحون، ووصفت بأنها كانت القضية السياسية لولاية خراسان القديمة، وصارت فيما بعد المركز الثقافى، والدينى لمملكة طخارستان، ويجد أن ياقوت الحموى قد وصفها على اعتبار أنها من أجل مدن خراسان، وأكثرها خيراً، وأوسعها، ويتم ارسال غلتها إلى كافة أنحاء خراسان، وإلى خوارزم، كما أنها اشتهرت بإنتاج البرتقال، وقصب السكر.

ويلاحظ أن بلخ قد افتتحت على يد الأحنف بن قيس، من قبل عبدالله بن عامر بن كرز، وذلك فى عهد عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه. وقد أشار أبو الفداء إلى أنها انجبت عالم لا يحصى من عناصر الأئمة، والعلماء والصالحين، ومن أشهر علمائها وأدبائها أبو القاسم الكلبي فى علم الكلام وأبو زيد البلخي فى البلاغة وسهل بن الحسن، ومحمد بن موسى فى الشعر.

ونجد الإشارة إلى أن الجغرافيين المسلمين، يقدمون معلومات قليلة عن بلخ فى حالة مقارنتها بمدن أخرى من أقاليم المشرق، مثل بخارى، وسمرقند، ويلاحظ أن المغول قاموا بتخريبها عام ٦١٧هـ / ١٢٢٧م، ويقال إنها لم تقم لها قائمة بعد ذلك. عن بلخ أنظر :
مجهول، حدود العالم

Hudud al-Alam, The regions of The World, a persian geography 372 A.H. 982 A.D., Translated and explained by V. Minorestry, Oxford 1937, p. 108.

إسحاق بن الحسين، آكام المرجان، ص ٨٢، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٣٦٠-٣٦١، ياقوت، معجم البلدان، جـ ١، ص ٤٧٩-٤٨٠؛ المشترك وصفًا والمفترق وصفًا، ص ٢٣، ٢٧؛ دائرة المعارف الإسلامية، مادة «بلخش»، جـ ٧، ص ٢٥٠-٢٥٣؛ فاسيلي بارتولد، تركستان من الفتح العربى حتى الغزو المغولى، ت. صلاح الدين عثمان هاشم، ط. الكويت ١٩٨١م.

ص ١٦١-١٦٥؛ حسن محمود، الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي، ط. القاهرة ب-ت، ص ١٦٤؛ أرمينوس فاميري، تاريخ بخارى، من أقدم المصور حتى العصر الحاضر، ت. أحمد الساداتي، ط. القاهرة ب-ت، ص ١٧٦.

Barthold, An Historical geography of Iran, Translated by Svat Soucek, Princeton 1984, pp. 12-21.

(١٩) السمعاني، المصدر السابق، ح-٤، ص ١٩٠.

(٢٠) نفسه، نفس المصدر، ح-٤، ص ٢٢٠.

(٢١) أنظر، الفصل الخاص بابن جبير.

(٢٢) السمعاني، المصدر السابق، ح-٤، ص ٢٢٠.

(٢٣) نفسه، نفس المصدر، ح-٥، ص ٦٧٦.

(٢٤) نفسه، نفس المصدر، ح-١، ص ١١٢.

(٢٥) نفسه، نفس المصدر، ح-٥، ص ٦٦٣.

(٢٦) عن خضوع اللاتفة للصليبيين عام ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م.

أنظر : Fulcher of Chartres, p. 175.

عاشور، الحركة الصليبية، ح-١، ص ٣٧٢؛ عبدالحفيظ محمد علي، المسلمون والبيزنطيون في شرقي البحر المتوسط، فيما بين القرنين ٣-٦هـ / ٩-١٢م، ط. القاهرة ١٩٨٢م، ص ٤٥.

(٢٧) السمعاني، المصدر السابق، ح-١، ص ٤٢٨.

(٢٨) السمعاني، المصدر السابق، ح-٣، ص ٥٦٤. وعن سقوط صور في قبضة الصليبيين عام ٥٢٠هـ / ١١٢٦م أنظر :

Fulcher of Chartres, p. 266; William of Tyre, Vol. II, p.

ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١٧؛ ابن الأثير، الكامل، ح-١٠، ص ٦٢١-٦٢٢؛ ابن تفرى بردي، النجوم الزاهرة، ح-٥، ص ١٨٢-١٨٣.

Runciman, A History of The Crusades, Vol. II, p. 169-171.

(٢٩) السمعاني، المصدر السابق، ح-٤، ص ٦٠.

(٣٠) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٣١) نفسه، نفس المصدر، ح-٥، ص ٣٦٣.

وعن سقوط بيت المقدس في قبضة الصليبيين عام ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م، أنظر :

Anonymous, The deeds of the Franks, p. 51; Fulcher of Chartres, p. 122; Raymond d'Aghilliers, in Peters, The first Crusade, Pennsylvania 1971, p. 209.

ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ١٣٧؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ط. بيروت ١٨٩٠م، ص ١٩٧؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ح-٩، ط. حيدر آباد الدكن ١٣٥٩هـ، ص ١٠٨؛ عاشور، أضواء جديدة على الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٦٤م، ص ٥٧-٥٨؛ قاسم عبده قاسم، الحروب الصليبية، نصوص ووثائق، ط. القاهرة ١٩٨٢م، ص ٢٧٦؛ حسن حبشي، الحرب الصليبية الأولى، ط. القاهرة ١٩٥٨م، ص ١٧٩؛ عبدالله يوسف الشبل، القدس في عهد الاحتلال الصليبي، المؤرخ العربي، العدد (٢٣)، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ص ١٥.

(٣٢) السمعاني، المصدر السابق، ح-١، ص ٢٢٠. وعن سقوط أنطاكية في قبضة الصليبيين أنظر :

Fulcher of Chartres, p. 110; William of Tyre, Vol. I, p .

ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ١٣٥؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ح-٢، ص ١٣٣-١٣٥؛ انتوني براج، تاريخ الحروب الصليبية، ت. سبانو والجيرودي، ط. بيروت ١٩٨٥م، ص ٩٢، ٩٤؛ سعيد برجاي، الحروب الصليبية في الشرق، ص ١٣٨؛ على عودة الغامدي، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي (٤٦٢-٤٩١هـ / ١٠٧٠-١٠٩٨م)، ط. مكة المكرمة ١٩٨٤م، ص ٣٤٤.

(٣٣) السمعاني، المصدر السابق، ح-٣، ص ١٠٨. وعن استيلاء المسلمين بقيادة عماد الدين زنكي على الرها أنظر :

ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق زكار، ص ٢٣٦، ٤٣٧؛ ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبدالقادر طليمات، ط. القاهرة ١٩٦٣م، ص ٦٦-٧١. الكامل، ح-٩، ط. بيروت ١٩٦٧م، ص ٨-٩.

Anonymous Syriac Chronicle, p. 296; William of Tyre, Vol. II, p. ; Gibb, "Zengi and The Fall of Edessa", in Setton, A History of the Crusades, Vol. II, Pennsylvania 1955, pp. 449-462.

عماد الدين خليل، عماد الدين زنكي، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص ١٤٩-١٥٦؛ عليّة عبدالسمع الجنزوري، إمارة الرها الصليبية، ط. القاهرة ١٩٧٥م؛ علي عبدالحميد محمود، الغزو

الصليبي والعالم الاسلامي، ط. جدة ١٩٨٢م، ص ١٩٤؛ فايد حماد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، ط. بيروت ١٩٨٥م، ص ٢٠٠؛ قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص ١٣٧؛ عصام الدين عبدالرؤوف، بلاد الجزيرة في أواخر العصر العباسي، ط. القاهرة ب-، ص ١٦٨؛ رينيه جروسيه، رصيد التاريخ، ت. محمد الباشا، ط. بيروت ب-ت، ص ١٢٦؛ محمد علي الهرقي، الحروب الصليبية وأثرها في الشعر العربي. ط. الرياض ١٩٨٠م، ص ٢١.

(٣٤) السمعاني، المصدر السابق، ح-٣، ص ١٠٨.

(٣٥) نفسه، نفس المصدر، ح-٢، ص ٤٩٢.

(٣٦) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٣٧) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

وعن ابن عساكر، أنظر : الفصل الرابع - الباب الأول.

(٣٨) نفسه، نفس المصدر، ح-٢، ص ٢٤٧.

(٣٩) نفسه، نفس المصدر، ح-١، ص ٢٦٧.

(٤٠) نفسه، نفس المصدر، ح-١، ص ٢٦٣.

(٤١) نسه، نفس المصدر، ح-٢، ص ٢٨٧.

(٤٢) نفسه، نفس المصدر، ح-٣، ص ٣٠٨.

والخانقاة السيمساطية، توجد عند باب الجامع الأموي الشمالي، وكان ذلك الباب يسمى باب الناطقين وكان في بدء أمرها داراً لعبدالعزیز بن مروان بن الحكم، ثم انتقلت من بعده لابنه عمر بن عبدالعزیز، وتناولتها الأيدي على مر الزمن إلى أن قدم إلى دمشق أبو القاسم السيمساطي، وقد سكن درب الخزاعية، وقام بشراء الدار المذكورة، وقد أوقفها على الفقراء الصوفية، واستمرت مقررة على عناصر الصوفية وكان النظر فيها لمن يلقب بشيخ الشيخ حتى عام ٨٢٤هـ / ١٤٢٨م، وفي هذا العام أسقط نجم الدين بن حجي عناصر المتزوجين من الخانقاة السيمساطية وأهل البلد، وقرر أن يكون فيها عزابا وغرباء، وهناك من يذكر أن من مشاهير الصوفية الذين ارتبط اسمهم بالخانقاة السيمساطية سعيد بن معل محمد المعروف بالفلكي النيسابوري (ت ٥٧٨هـ / ١١٨٢م)، وعلى بن عبدالقادر المراغي (ت ٧٨٨هـ / ١٣٩٢م).

عن الخانقاه السيمساطية أنظر :

ابن عساكر، ولاية دمشق في العهد السلجوقي، ص ٥٥٤؛ الذهبي، العبر، ح ٥، ص ١٧٢؛
البقاعي، مسجد دمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط. دمشق ١٩٤٨م، ص ٥٢، حاشية
(١٥)؛ النعمي، الدارس، ح ٢، ص ١٥١؛ دور القرآن في دمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد،
ط. دمشق ١٩٤٦، ص ١٥١؛ المنيني، الأعلام بفضائل الشام، ورقة (٦٢)؛ عبدالقادر بدران،
مناداة الاطلال ومسامرة الخيال ط. دمشق ب-ت، ص ٢٧٦-٢٧٨.

Sauvaget, "Notes Sur quelques monuments musulmans de syrie a propos
d'une etudes recente", S., T. XXIV, Années 1941, 1945, p. 220.

(٤٣) السمعاني، المصدر السابق، ح ٣، ص ٣٠٨.

(٤٤) نفسه، نفس المصدر، ح ١، ص ٢٦٠.

ويلاحظ أن تلك الإشارة وردت في عدد من المصادر سواء في مؤلفات الرحالة اليهود في
العصور الوسطى، مثل بنيامين التطيلي، وكذلك فيما ألف المؤرخون المسلمون السنيون، ومن
أمثلتهم العماد الأصفهاني، والذهبي، وهو أمر وجدناه كذلك لدى تلك المصادر التاريخية، عندما
عبرت عن عناصر الدروز خلال ذلك العصر. عن الإشارات الخاصة بتلك الزاوية لدى عناصر
الاسماعيلية النزارية أنظر :

بنيامين التطيلي، الرحلة، ص ٩١؛ الأصفهاني، البستان الجامع، ص ١٣٦؛ الذهبي، دول
الإسلام، ح ٢، ص ١٠٠؛ العثماني، تاريخ صغد، ص ٤٨٤-٤٨٥؛ محمد مؤنس أحمد عوض،
البستان الجامع مصدراً من مصادر تاريخ الاسماعيلية النزارية في بلاد الشام في عصر الحروب
الصليبية، (القرنين ٦، ٧هـ / ١٢، ١٣م)، ط. القاهرة ١٩٨٣م، ص ٢٠-٢١.

(٤٥) السمعاني، المصدر السابق، ح ١، ص ٤٣٠.

(٤٦) نفسه، نفس المصدر، ح ٢، ص ٢٨٧.

(٤٧) نفسه، نفس المصدر، ح ١، ص ٤٢٨.

(٤٨) نفسه، نفس المصدر، ح ١، ص ٢٦٣.

(٤٩) نفسه، نفس المصدر، ح ٤، ص ٤٢.

(٥٠) نفسه، نفس المصدر، ح ١، ص ٢٢٠.

والسقمونيا، نبات، ورد ذكره في عدد من مؤلفات العرب الطبية في العصور الوسطى، وقد
وصف بأنه حار، وباهس، وأجود أنواعه الأنطاكي الأزرق، للائل إلى البياض السريع الانفراك، وفي
حالة انحلاله في الماء غيره، ووصف النوع الأسود منه بالرداءة، وسمى السقمونيا بالمحمودة، ومن

الملاحظ أن من خصائصه أن تبقى له فعاليته حتى بعد انقضاء ثلاثين أو أربعين عاماً، أما الفوائد العلاجية للسقمونيا الأنطاكي، فهي تتمثل في معالجة البرص، والبهاق، والكلف، وكذلك علاج الصداع المزمن، وعرق النساء، كما يفيد في لسع العقرب سواء يتناوله كشراب أو من خلال طلائه على العضو المصاب، وبالإضافة إلى تلك الفوائد فقد وصف بأنه مسهل للصفراء، ومع ذلك فيبدو أن السقمونيا كانت له بعض المخاطر في استعماله، والدليل على ذلك؛ أن كبار الأطباء المسلمين في العصور الوسطى، حذروا من أنه يسبب الضرر للمعدة، والكبد، والقلب، والأعضاء، ومن المحتمل أن ذلك كله كان له أثره في أفضلية استعماله الظاهري فقط دون أن يتم تناوله كشراب؛ لتأثيره السلبي على القلب والجهاز الهضمي للإنسان. عن السقمونيا، وفوائده العلاجية، وتأثيراته الجانبية أنظر :

- ابن سينا، القانون في الطب، ج ١، ط. بيروت ب-ت، ص ٣٨٥-٣٨٦؛ ابن رسول الغساني، المعتمد في الأدوية المفردة، تحقيق مصطفى السقا، ط. بيروت ب-ت، ص ٢٢٧-٢٢٩؛ العطار الهاروني، متهاج الدكان ودستور الأعيان في أعمال وتراكيب الأدوية النافعة للأبدان، تحقيق حسن عاصي، ط. بيروت ١٩٩٢م، ص ٢٨١-٢٨٢؛ داود الأنطاكي، تذكرة أولى الألباب والجامع المعجب المعجب، ط. القاهرة ١٣٠٢هـ، ص ١٨٢-١٨٣؛ محمد العربي الخطابي، الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية، دراسة، وتراجم ونصوص، ج ٢، ط. بيروت ١٩٨٨، ص ١٢٤؛ إبراهيم بن مراد، المصطلح الأعجمي في كتب الطب والصيدلة العربية، ج ٢، ط. بيروت ١٩٨٥م، ص ٤٥٣-٤٥٤؛ كمال القرى، نهر الذهب في تاريخ حلب، ج ١، ط. حلب، ص ١٣٥.

1

2

3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17
18
19
20
21
22
23
24
25
26
27
28
29
30
31
32
33
34
35
36
37
38
39
40
41
42
43
44
45
46
47
48
49
50
51
52
53
54
55
56
57
58
59
60
61
62
63
64
65
66
67
68
69
70
71
72
73
74
75
76
77
78
79
80
81
82
83
84
85
86
87
88
89
90
91
92
93
94
95
96
97
98
99
100
101
102
103
104
105
106
107
108
109
110
111
112
113
114
115
116
117
118
119
120
121
122
123
124
125
126
127
128
129
130
131
132
133
134
135
136
137
138
139
140
141
142
143
144
145
146
147
148
149
150
151
152
153
154
155
156
157
158
159
160
161
162
163
164
165
166
167
168
169
170
171
172
173
174
175
176
177
178
179
180
181
182
183
184
185
186
187
188
189
190
191
192
193
194
195
196
197
198
199
200
201
202
203
204
205
206
207
208
209
210
211
212
213
214
215
216
217
218
219
220
221
222
223
224
225
226
227
228
229
230
231
232
233
234
235
236
237
238
239
240
241
242
243
244
245
246
247
248
249
250
251
252
253
254
255
256
257
258
259
260
261
262
263
264
265
266
267
268
269
270
271
272
273
274
275
276
277
278
279
280
281
282
283
284
285
286
287
288
289
290
291
292
293
294
295
296
297
298
299
300
301
302
303
304
305
306
307
308
309
310
311
312
313
314
315
316
317
318
319
320
321
322
323
324
325
326
327
328
329
330
331
332
333
334
335
336
337
338
339
340
341
342
343
344
345
346
347
348
349
350
351
352
353
354
355
356
357
358
359
360
361
362
363
364
365
366
367
368
369
370
371
372
373
374
375
376
377
378
379
380
381
382
383
384
385
386
387
388
389
390
391
392
393
394
395
396
397
398
399
400
401
402
403
404
405
406
407
408
409
410
411
412
413
414
415
416
417
418
419
420
421
422
423
424
425
426
427
428
429
430
431
432
433
434
435
436
437
438
439
440
441
442
443
444
445
446
447
448
449
450
451
452
453
454
455
456
457
458
459
460
461
462
463
464
465
466
467
468
469
470
471
472
473
474
475
476
477
478
479
480
481
482
483
484
485
486
487
488
489
490
491
492
493
494
495
496
497
498
499
500
501
502
503
504
505
506
507
508
509
510
511
512
513
514
515
516
517
518
519
520
521
522
523
524
525
526
527
528
529
530
531
532
533
534
535
536
537
538
539
540
541
542
543
544
545
546
547
548
549
550
551
552
553
554
555
556
557
558
559
560
561
562
563
564
565
566
567
568
569
570
571
572
573
574
575
576
577
578
579
580
581
582
583
584
585
586
587
588
589
590
591
592
593
594
595
596
597
598
599
600
601
602
603
604
605
606
607
608
609
610
611
612
613
614
615
616
617
618
619
620
621
622
623
624
625
626
627
628
629
630
631
632
633
634
635
636
637
638
639
640
641
642
643
644
645
646
647
648
649
650
651
652
653
654
655
656
657
658
659
660
661
662
663
664
665
666
667
668
669
670
671
672
673
674
675
676
677
678
679
680
681
682
683
684
685
686
687
688
689
690
691
692
693
694
695
696
697
698
699
700
701
702
703
704
705
706
707
708
709
710
711
712
713
714
715
716
717
718
719
720
721
722
723
724
725
726
727
728
729
730
731
732
733
734
735
736
737
738
739
740
741
742
743
744
745
746
747
748
749
750
751
752
753
754
755
756
757
758
759
760
761
762
763
764
765
766
767
768
769
770
771
772
773
774
775
776
777
778
779
780
781
782
783
784
785
786
787
788
789
790
791
792
793
794
795
796
797
798
799
800
801
802
803
804
805
806
807
808
809
810
811
812
813
814
815
816
817
818
819
820
821
822
823
824
825
826
827
828
829
830
831
832
833
834
835
836
837
838
839
840
841
842
843
844
845
846
847
848
849
850
851
852
853
854
855
856
857
858
859
860
861
862
863
864
865
866
867
868
869
870
871
872
873
874
875
876
877
878
879
880
881
882
883
884
885
886
887
888
889
890
891
892
893
894
895
896
897
898
899
900
901
902
903
904
905
906
907
908
909
910
911
912
913
914
915
916
917
918
919
920
921
922
923
924
925
926
927
928
929
930
931
932
933
934
935
936
937
938
939
940
941
942
943
944
945
946
947
948
949
950
951
952
953
954
955
956
957
958
959
960
961
962
963
964
965
966
967
968
969
970
971
972
973
974
975
976
977
978
979
980
981
982
983
984
985
986
987
988
989
990
991
992
993
994
995
996
997
998
999
1000

٢ - أسامة بن منقذ

(ت ٥٨٢هـ / ١١٨٨م)

يتصدى هذا الفصل بالدراسة لأحد الرحالة الشاميين الذين عاصروا القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى. ونعنى به أسامة بن منقذ الشيزرى^(١) (ت ٥٨٢هـ / ١١٨٨م)، وقد قدم لنا تناولاً هاماً وفريداً فى آن معاً، للعديد من صور الحياة فى بلاد الشام، فى عصر الحروب الصليبية؛ سواء بالنسبة للمسلمين أو الصليبيين، ومن ثم فإننا سنتناول فى الصفحات التالية تلك الجوانب المختلفة التى قدمها ذلك الرحالة، والفارس، والأديب الشامى.

وقد ولد أسامة بن منقذ فى شيزر^(٢) فى جمادى الأولى عام ٤٨٨هـ / يوليو ١٠٩٥م^(٣)، حيث سيطرت عليها أسرته العربية، وقد كان من حق والد أسامة الأمير مرشد أن يتولى الإمارة، بيد أن نسخ القرآن الكريم ملك عليه قلبه بالإضافة إلى القيام برحلات الصيد والقتل، فتنازل عن الإمارة لأخيه سلطان، وقد اتجهت همه الأخير إلى أن يخلفه أسامة بن منقذ، بيد أنه عندما رزق ولداً ذكرًا، بعد عن أسامة وشعر الأخير بذلك التغير، فغادر شيزر^(٤).

وقد زار أسامة بن منقذ بيت المقدس، وقام بالحج إلى الحرمين الشريفين، وتنقل بين العديد من العواصم الإسلامية، وصاحب عماد الدين زنكى ونور الدين محمود وكذلك الخليفة الحافظ الفاطمى، كما أنه اتصل بعدد من القيادات الصليبية مثل بوهيموند Bohemond وتانكرد Tancred^(٥). وقد توفى أسامة فى يوم الإثنين ٢٣ رمضان عام ٥٨٤هـ / ١٥ نوفمبر ١١٨٨م^(٦)، عن عمر يبلغ السادسة والتسعين.

والملاحظ أن أسامة بن منقذ قد ألف العديد من المؤلفات، ومن أمثلتها، كتاب الاعتبار (٧)، وكتاب البدرى، وكتاب الشيب والشباب، وكتاب رسائل السائل، وكتاب نصيحة الرعاة، وكتاب البشارة، وكتاب العصا، وكتاب أزهار الأنهار وكتاب النوم والأحلام، وكتاب التأسى والتسلى، وكتاب نزهة الناظر فى البلاء الخاطر، وكتاب ردع الظالم ورد المظالم، وكتاب تاريخ ذكر الحوادث من أول الهجرة إلى زمانه مختصراً، وكتاب لباب الألباب، وكتاب التجارة المربحة، وكتاب المكارم والكرم ورعاية الذم، وكتاب مكارم الأخلاق ويقال إنه وقع فى عشرين مجلداً (٨)، وكتاب المنازل والديار وكتاب البديع فى الشعر وغيرها.

وهكذا، فإن تلك المؤلفات تعكس لنا عقلية ذلك الرجل الغزير الانتاج فى العديد من المجالات الأدبية والتاريخية فى ذلك العصر.

وتجدر الإشارة إلى أن أسامة بن منقذ يمتاز بعدة مميزات عن غيره من الرحالة المسلمين فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية وعلى مدى القرنين السادس والسابع الهجرى/ الثانى عشر والثالث عشر الميلادى، ويمكن إجمالها فى الآتى :

أولاً : إنه شامى المولد والنشأة، فهو يقدم لنا رؤية خاصة عن بلاد الشام فى ذلك العصر من خلال أحد أبنائها، وبالتالى يختلف عن الرحالة المسلمين الآخرين الذين قدموا إلى بلاد الشام سواء من المشرق أو من المغرب الإسلاميين، ولا مرأى فى أن صفته الشامية تعطى له طبيعة متميزة فى كتاباته، فهو ليس بالوافد والغريب عن المنطقة، بل هو من أبنائها.

ثانياً : يتميز أسامة بن منقذ بأنه فارس مسلم قوى الشكيمة وخبير فى أمور الحرب والقتال، وكذلك الصيد، وتلك الصفات لا تجدها فى الرحالة المسلمين الآخرين الذين لا نجد منهم من اتصف بصفة الفروسية، وهكذا نجد أن اهتماماته تختلف عن

اهتمامات غيره من الرحالة المسلمين المعاصرين لتلك المرحلة التاريخية الهامة من تاريخ بلاد الشام في العصور الوسطى.

ثالثاً : من جهة أخرى، توطدت علاقات أسامة بن منقذ بعناصر من الصليبيين، ومن ثم تفيد كتاباته في تسليط الضوء على داخل المجتمع الصليبي ذاته، من خلال رؤية رحالة خبير، لم يمكث أياماً قليلة في تلك المناطق، بل خالطهم، وعاش مراحل زمنية متفرقة، وعميقة داخل ذلك الكيان الأجنبي، وفي تقديري أن تلك الناحية لم تنأت لغيره من الرحالة المسلمين.

مهما يكن من أمر، فإن ذلك الأديب، والفراس، والرحالة، قدم لنا كتاباً على جانب كبير من الأهمية ونعنى به كتاب «الاعتبار»، وهو مذكرات شخصية لأسامة ابن منقذ وخلاصة تجاربه الحياتية ونلمح فيه دقة الملاحظة، والقدرة الوصفية الفذة، والتمكن من اختيار الجوانب الحساسة التي قد لا يتطرق إلى تناولها المعاصرون في كتاباتهم التي وصلت إلينا. ولا جدال في أن عمق تجربة أسامة نفسه، أثقلت كتابه بصورة واضحة.

ومن الممكن إثارة زاوية هامة فيما يتصل برحلات أسامة بن منقذ في ربوع بلاد الشام سواء في المناطق الخاضعة للسيادة الإسلامية أو تلك التي سيطر عليها الصليبيون، وهي تتعلق بالمصادر التي استقى منها مادة رحلاته.

والواقع أن ذلك الرحالة قد أفاد من مشاهداته وكذلك من المصادر الشفهية، ومن الملاحظ أنه أحياناً كان شاهد عيان لبعض الأحداث التي يوردها في الاعتبار عن بلاد الشام^(٩)، كما أنه في أحيان أخرى نجده يذكر إشارات من خلال ما سمعه شخصياً^(١٠)، وفي المجال الأخير، نعرف أنه استقى بعض رواياته من أفواه قيادات صليبية على أعلى مستوى قيادي^(١١)؛ مما يعطى لما أورده في كتابه أهمية متميزة.

وهكذا، يمكن القول بأن هناك مصدرين أساسيين لأسامة بن منقذ وترحاله في ربوع الشام، ألا وهى المشاهدة والمصادر الشفهية، مع ملاحظة أن عنصر المشاهدة والمعاينة تفوق على العنصر الآخر فى أحيان كثيرة، خاصة إذا ما أدركنا أن أسامة ابن منقذ يقدم لنا خبرته الشخصية من خلال الاعتبار.

والجدير بالذكر، أن ذلك الرحالة الشامى، قد قدم لنا العديد من الجوانب، وكأنه يقدم لنا بانورامية شاملة عن بلاد الشام من خلاله، ومن أمثلة ذلك تناوله للمرأة المسلمة فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية ومظاهر البطولة الفردية لعدد من النساء فى ميادين القتال، وكذلك أوضاع الأسارى منهن، ثم تعرضه للمرأة الصليبية والإنحلال الجسدى لدى الصليبيين، وتحليله لسلوكياتهم بين الإيجابيات والسلبيات، وكذلك الفوارق الحضارية بين المسلمين والصليبيين ولاسيما من خلال المعارف الطبية، كذلك تعرضه الهام للجانب التصيرى، ثم الخريطة العقائدية لبلاد الشام فى ذلك العصر، بالإضافة إلى تعرضه لنواحي الصيد ووسائله فى عدد من المناطق الشامية.

مهما يكن من أمر، فإن أسامة بن منقذ يقدم لنا تصورات هامة عن دور المرأة المسلمة فى بلاد الشام فى ذلك الحين، وتحتل رواياته فى هذا الشأن قدراً كبيراً من الأهمية على اعتبار قلة إن لم يكن ندرة الإشارات التى وصلتنا عن المرأة من خلال مصادر ذلك العصر التاريخية، إذ أن المؤرخين المعاصرين، قد شغلوا بتسجيل الأحداث السياسية والحربية الطابع، وتناول كبار القيادات، وتجنبوا التعرض لقطاعات العامة، وكذلك دور المرأة فى صنع تاريخ تلك المرحلة الهامة والحاسمة من حياة بلاد الشام، وإن وردت إشارات من جانبهم عن المرأة الشامية، فذلك بصورة عرضية ونادرة، وإن كان التجاهل من جانبهم هو الأعم للظروف والملابسات المذكورة.

وهكذا، تأتى إشارات أسامة بن منقذ عن المرأة المسلمة فى بلاد الشام، وكذلك المرأة الصليبية لتقدم لنا ثروة طائلة، وتكشف النقاب عن العديد من الحقائق التاريخية فى ذلك العصر، التى كان الباحثون فى أشد الحاجة إليها من أجل تجلية غوامضه.

والجدير بالذكر، أن أسامة بن منقذ اتسم بطابع الاحترام والتقدير للمرأة المسلمة الشامية، ويتضح ذلك من خلال كتابه إذ أنه يقرر صراحة «ما ينكر للنساء الكرام الإنفة والنخوة والاصابة في الرأي»^(١٢). ومن المرجح أن ذلك التصور الراقى لم يكن حالة فردية من جانب ذلك الرحالة، بل أنه تعبير عن تصور عصر بأكمله قدر المرأة واحترمها من خلال مبادئ الإسلام وتعاليمه الراقية، على نحو لم يتوافر بنفس القدر لدى المرأة الأوروبية المعاصرة لاسيما في الغرب الأوروبي.

ونجد لديه الحرص على إبراز الجانب المتعلق بالبطولات النسائية، فهناك المرأة التي قتلت زوجها وهو على عبد ابن أبي الدرداء والذي كان من رجال خلف بن ملاعب أمير أفامية^(١٣)، وذلك انتقاماً منه بعد أن اعتاد القيام بعمليات السلب، والنهب، والقرصنة، ضد قوافل المسلمين، خاصة بعد أن ارتبط بالصلبيين في كفر طاب؛ وقد قدر لها المسلمون دورها وعملوا على إكرامها وتقديرها^(١٤).

كذلك حرص أسامة بن منقذ على إظهار البطولة النسائية فيما يتصل بجهاد الصليبيين، من ذلك أن نضره بنت يوزرماط قامت بأسر ثلاثة من الصليبيين وجعلتهم في بيتها ثم دعت أهلها إليهم فقاتلوهم وتمكنوا من قتلهم^(١٥). وتعنى تلك الرواية أن الرجال لم يكونوا هم القوة الفاعلة فقط، بل إن المرأة المسلمة، شاركت ووقفت جنباً إلى جنب بجوار الرجل المسلم، في معركة الجهاد ضد الغزاة الصليبيين.

ولم يكن دور المرأة المسلمة قاصراً على مواجهة الصليبيين، بل إن الأمر تعدى ذلك إلى مواجهة عناصر الشيعة الاسماعيلية من ذلك أن الاسماعيلية، عندما هاجموا شيزر في عام ٥٠٧هـ / ١١١٣م، قامت النساء بصد الأعداء، إذ أن امرأة تناولت سيفاً وخرجت إلى القتال، ومازالت كذلك حتى تكاثرت الشيزريون، وصدوا هجوم أعدائهم^(١٦). ثم هناك امرأة أخرى كانت تحت أحد أقاربها على القتال وعدم الفرار من المعركة^(١٧). بل إنه أشار إلى أن امرأة شيزرية، أرادت أن تلقى بأبنتها في الوادي لتلقى

حتفها بدلاً من أن تقع أسيرة في قبضة الاسماعيلية^(١٨). وفي ذلك أوضح دليل على العزة والكرامة لتلك النوعيات من النساء المسلمات في ذلك العصر.

وإذا كان هذا هو حال النساء الشيزريات، فإن ذلك الرحالة، أورد أمر بعض الأسارى من المسلمات، من ذلك تعرضه لأمر الفتاة رفول بنت أبي الجيش، وهو أحسن العناصر الكردية، وقد تم أسرها من جانب أحد الفرسان الصليبيين، على نحو انعكس على والدها الذى فتكت بأعصابه المحنة، وفيما بعد وجدت جثتها طافية في مياه أحد الأنهار الشامية، وقد هدأت نفس والدها عندما أدرك ذلك على اعتبار أنها فضلت الموت عن الوقوع في الأسر^(١٩)، وفي هذا إيضاح إلى أن الوقوع في أسر الصليبيين كان بمثابة كارثة كبرى لدى المسلمين في ذلك العصر، حتى أن البعض من النساء فضلن الموت عن أن يقعن في قبضتى الأعداء كأسارى.

ويلاحظ أن أسامة بن منقذ اتسم بنظرة موضوعية حيادية تجاه المرأة المسلمة، فهو لا يقدم صورتها المشرفة فحسب، بل إنه يقدم أيضاً الجانب المظلم الآخر، في صورة قيام بعض النساء بالعمل كساحرات كالمرأة التى تدعى بريككة التى كانت تسحر بين المقابر خلال ساعات الليل وقد سخر منها أسامة عندما وصفها بأنها مكشوفة الرأس، منفوشة الشعر، تركب قصبه، وتسهل بين المقابر، وتتجول هناك^(٢٠). وفي ذلك أوضح تعبير عن احتقاره لتلك الأعمال الشريرة من جانب بعض النساء، ومنطقى تصور أن مثل تلك النوعية من النساء الساحرات وجدت سوقاً رائجة من خلال إقبال عناصر من العامة لحل مشكلاتهم الحياتية المتعددة.

من جهة أخرى، لا تخلو رحلات أسامة بن منقذ من جوانب طريفة عن المرأة الشامية في ذلك العصر، فهو يتحدث عن إحدى السيدات المسلمات قارب عمرها المائة عام^(٢١)، فهى من المعمرات، ويلاحظ أن ذلك الرحالة قد حرص على الاهتمام بقضية طول الأعمار، إذ أنه توفى عن عمر يبلغ السادسة والتسعين، وهو منجده يرى أن الموت لا

يقدمه ركوب الأخطار، كما أنه لا يؤخره شدة الحذر، وقد لقي الأخطار المتعددة وحارب الصليبيين وقاتل الحيوانات المفترسة وعلى الرغم من ذلك طال عمره إلى حد كبير (٢٢).

أضف إلى ذلك، تطرق أسامة بن منقذ إلى أمر المرأة الصليبية، التي ندر اهتمام المصادر التاريخية العربية بها، وقد أوضح أن المرأة الصليبية لا يغار عليها زوجها، وأن هناك إنحلالاً كبيراً داخل المجتمع الصليبي. وهو يقرر أنه ليس عند الصليبيين نخوة أو غيرة، وضرب مثلاً دالاً على ذلك برجل يمشى مع امرأته فيلقاه رجل آخر يأخذ المرأة فيعتزل بها ويتحدث معها بينما زوجها واقف ينتظر فراغهما من الحديث، فإذا طالت المحادثة تركها مع محدثها وانصرف (٢٣). كما أشار إلى أمر أحد الصليبيين الذي دخل بيتاً وضاجع امرأة فيه، وعندما قابله زوجها قال له أنه إذا عاد إلى ذلك مرة أخرى خاصمه (٢٤).

وهكذا، يلقي ذلك الرحالة الأضواء على الإنحلال الخلقي داخل المعسكر الصليبي، ومن المعروف أن الكيان الصليبي قد احتوى على العديد من مظاهر الإنحلال الخلقي، من ذلك أن مدينة عكا الساحلية احتوت على حى للدعارة عرف بالحي الأحمر (٢٥)، كما أن المؤرخ الصليبي جاك دي فترى Jacques de Vitry أشار إلى أن رجال الدين الصليبيين كانوا يؤجرون أماكن العبادة من أجل الدعارة لما ندر عليهم من ربح وفير (٢٦)، وهى شهادة تاريخية هامة نظراً لصدورها من جانب رجل دين صليبي ومؤرخ لمملكة بيت المقدس الصليبية خلال القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري.

كما نجد أن الجيوش الصليبية قدمت إلى المنطقة لتقاتل المسلمين، وجاءت السفن القادمة من أوروبا محملة بالبغايا والعاهرات؛ من أجل الترفيه عن الفرسان الصليبيين (٢٧) وهو كان بمثابة ظاهرة اجتماعية عامة، دعمتها فكرة تكون ذلك المجتمع من العديد من العناصر، والجنسيات المختلفة.

وتؤكد الصورة السابقة من خلال إشارات الرحالة الأوروبيين أنفسهم الذين زاروا مملكة بيت المقدس الصليبية خلال القرن الثاني عشر الميلادي/ القرن السادس الهجري، حيث أشاروا إلى الانحلال الجنسي في المدن الساحلية الشامية الخاضعة لسيطرة الصليبيين كعكا على سبيل المثال (٢٨).

من ناحية أخرى، قدم أسامة بن منقذ رؤية هامة للنساء الصليبيات، تعكس نظره الخبيثة، فقد أورد أمر جارية صليبية صارت للأمير شهاب الدين مالك بن سالم بن مالك صاحب قلعة جعبر، وأنجبت منه ولداً أسماه بدران، وصار ولياً لعهد، ومن بعد ذلك فرت من المسلمين إلى الصليبيين وارتضت أن تتزوج إسكافياً وذلك على الرغم من أن ابنها صاحب قلعة جعبر، ويشار له بالبنان. ويعمل أسامة بن منقذ ذلك الموقف بقوله أنهم «جنس ملعون لا يألفون لغير جنسهم» (٢٩). وهو رأى مهم صادر عن رجل خبير بالصليبيين.

وإذا نحينا ذلك جانباً، نجد أن ذلك الرحالة، يقدم لنا تصورات هامة بشأن سلوكيات الصليبيين، وقد أوضح في إشارة هامة، أن الصليبيين القريبى العهد بالبلاد الأوروبية طبائعهم جافة إذا ما قورنوا بالذين عاشروا المسلمين (٣٠)، كما أنه أوضح أن هناك من الصليبيين من تأثر بطباع المسلمين، من ذلك أمر الرجل الصليبي الذي لا يأكل من حطام بنى جلده ولا يدخل داره لحم الخنزير (٣١)، وتتضح دقة أسامة بن منقذ من توضيحه أن المثال الأخير لا يقاس عليه لأنه أشبه شيء بالاستثناء، بيد أن روايته بصفة عامة تكشف لنا بجلاء أن الصليبيين ترفت طبائعهم من خلال احتكاكهم بالمسلمين، وفي هذا رؤية هامة للسلوك الاجتماعي من جانب ذلك الرحالة الثاقب النظر القوى الملاحظة.

زد على ذلك، أن أسامة بن منقذ يقدم لنا تصوراً هاماً وموضوعياً لصفات الصليبيين، وقد وصفهم «بالشجاعة العظيمة» (٣٢)، والاحتراز في الحرب (٣٣)، كما أنه

قرر أنه لا فضيلة لهم إلا الشجاعة، وأن الفرسان مقدمون بينهم^(٣٤). وفي تقديرى أن مثل تلك النصوص إنما تدل على الموضوعية الواضحة من جانب ذلك الرحالة الذى امتدح مثل تلك الصفات فى أعداء المسلمين فى وقت شهد عنف المواجهة بين عالمى الإسلام والمسيحية فى العصور الوسطى.

وكامتداد لتناول أسامة بن منقذ للطرف الآخر، وعمق تصوره له، نجده يكشف بجلاء عن الفارق الحضارى بين كل من المسلمين والصليبيين، ونجد ذلك واضحاً فى مجال العلوم الطبية؛ إذ أن الصليبيين طلبوا مساعدة المسلمين فى بعض الأمور التافهة كإزالة «دمل» بسيط^(٣٥)، كما أشار إلى أمر القس الذى ملأ أنف أحد الفرسان بالشمع فمات، وعندما قالوا له لقد مات قال : نعم، إذ أنه كان يعانى ويتعذب فأراحه^(٣٦)، وفى هذا أوضح دليل على تخلف أوضاع الصليبيين الطبية^(٣٧)، إذا ما قورنوا بالمسلمين ومعارفهم فى هذا المجال.

من جهة أخرى، نجد ذلك الرحالة يقدم لنا تصورات هامة عن الجانب التنصيرى، وقد أورد أمر أحد الرجال اعتنق الإسلام وحسن إسلامه، وذلك من خلال قيامه بتأدية الصلوات المفروضة وصوم شهر رمضان، وتزوج ورزق بولدين، ومن بعد ذلك فر إلى أفامية وهى خاضعة للسيادة الصليبية، وتنصر هو وأولاده^(٣٨).

أضف إلى ذلك، أنه أشار إلى أحد الصليبيين يقدم صورة السيدة مريم العذراء وهى تحمل السيد المسيح طفلاً ويخاطب أحد المسلمين بأن هذا هو الله صغيراً، وقد استفاد أسامة بن منقذ من ذلك بقوله «تعالى الله عما يقول الكافرون علواً كبيراً»^(٣٩).

وتجدر الإشارة أن إيراد ذلك الرحالة لمثل تلك الأحداث يدل على أنه أدرك خطورة البعد التنصيرى كأحد أهداف المشروع الصليبي الذى رغب فى تحويل مسلمى الشرق الأدنى إلى مسيحيين يدينون بالولاء لكنيسة روما وفق المذهب الكاثوليكي^(٤٠). مع

ملاحظة أن الرحالة المسلمين الذين زاروا بلاد الشام في ذلك العصر، حرصوا على ترك بعض الروايات الهامة عن ذلك الجانب التنصيري. ولا مرأى في أن رواية أسامة منقذ لها شأنها في ذلك المجال مع ندرة ما ورد في هذا الشأن في المصادر التاريخية العربية المعاصرة.

وبالإضافة إلى كافة الجوانب السابقة، نجد أن ذلك الرحالة قد قدم لنا تناولاً مهماً للخريطة المذهبية والعقائدية التي كانت عليها بلاد الشام لاسيما المناطق الإسلامية، ذلك تعرضه للاسماعيلية النزارية، كذلك تناوله للصوفية.

وفيما يتصل بالاسماعيلية النزارية، نجد أن ذلك الرحالة قد أورد أمر هجومهم = شيزر في عام ٥٠٧هـ / ١١١٣م. وأوضح مقاومة المدينة^(٤١) لذلك الهجوم المقصود. من جانب الاسماعيلية الذين انتهزوا خروج الشيزريين خارج المدينة من أجل قضاء الأعياد، وبادروا بالهجوم عليها، إلا أن المقاومة الباسلة قضت على مخططهم من أ. الاستيلاء على تلك المدينة الاستراتيجية الهامة في شمال الشام.

مع ملاحظة أنه لم يقدم لإشارات أخرى عن دورهم في عمليات الاغتيالات وجهوها نحو القيادات المسلمة السنية، وكذلك قلاع الدعوة الاسماعيلية في بلاد الشام. ومن ثم اقتصر تناوله فقط على تناول الهجوم الاسماعيلي على شيزر.

أما فيما يتصل بالصوفية، فنجد أن ذلك الرحالة، قد عبّر عن ظاهرة انتشار التصوف في بلاد الشام في ذلك العصر. وقد أورد أمر إثنين من المتصوفة، وهما الفنداء والحلحولي^(٤٢)، وقيامهما بمواجهة الصليبيين المحاصرين لدمشق خلال الحملة الصليبية الثانية في عام ٥٤٣هـ / ١١٤٣م. مع ملاحظة أن عصر ابن منقذ قد اعتقد في أولئك المتصوفة، وفي كراماتهم ولا أدل على ذلك من أنه نفسه أورد شيئاً منها، تعرضه لأمر حسن الزاهد، الذي أعمى الله سبحانه وتعالى عيون الصليبيين، عن بينما كان هلاكه لا ريب فيه^(٤٣).

وهكذا أورد ذلك الرحالة أمر تلك الكرامات المتصلة بالصوفية، مع ملاحظة أن المصادر التاريخية لذلك العصر تفيض بتناول ذلك الجانب لاسيما كتب الطبقات والتراجم والوفيات.

ومن ناحية أخرى، نجد أن أسامة بن منقذ قد ألقى الضوء على ما يتصل بفنون الصيد في بلاد الشام خلال ذلك العصر، ويعتبر ذلك الجانب من أهم الجوانب التي تعرض لها من خلال تجربة شخصية وخبرة عريضة.

وفي هذا المجال أشار إلى الصيد بالبزة^(٤٤) في شيزر، وغيرها من مدن الشام حينذاك، ومن المعروف أنه يعنى الصيد باستخدام الطيور المدربة على ذلك، مثل الصقور ونحوها، ولا تغفل أنه وجد هناك ما يعرف بالبيزرة، وهى فى الأصل كلمة فارسية عربت بازيار أى صاحب الباز. والبيزرة علم أطوار الطيور الجارحة^(٤٥)، مثلما البيطرة علم الحيوان. ولا شك فى أن معرفة أسامة بن منقذ بالبيزرة كانت متسعة على نحو أوضحته بجلاء صفحات كتابه الاعتبار.

وقد أشار إلى كثرة الصيادين وكثرة البزة حتى صارت لديهم فى شيزر من الكثرة كالدجاج^(٤٦)، وأشار إلى بعض الأنواع النادرة من الباز مثل ذلك النوع المقرنص الأحمر العينين^(٤٧)، والباز الأفرنجى الذى تم احضاره لبنى منقذ فى شيزر مكسر ريش الأجنحة والذنب^(٤٨)، كذلك تعرض للشاهين^(٤٩) الذى جمعه شواهين وشياهين، وكان على ثلاثة أنواع : شاهين، وفطامى، وانبقى^(٥٠)، مع ملاحظة أن الشاهين نفسه من جنس الصقر.

ومن الملاحظ أن بنى منقذ فى شيزر، على الرغم من أنهم نالوا جانباً هاماً من التحضر فى جوانب حياتهم، إلا أنهم فضلوا أن يحيوا حياة البادية وأن يمارسوا فنون الصيد والقنص^(٥١)، ووجدوا فى ذلك متعة كبيرة، كما هو جلى من خلال عرض أسامة بن منقذ نفسه.

وهكذا ألفت رحلات أسامة بن منقذ فى ربوع بلاد الشام الأضواء الساطعة على العديد من جوانب حياة المسلمين والصليبيين فى عصر المواجهة بين الإسلام والمسيحية ونعنى به عصر الحروب الصليبية، الأمر الذى جعل رحلته تحتل مكانتها الرفيعة من بين الرحلات التى وصلت إلينا من ذلك العصر.

الهوامش

(١) عن مصادر ومراجع ترجمة أسامة بن منقذ أنظر :

ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ح-٢، تحقيق بدران، ط. دمشق ١٣٣٢هـ، ص ٤٠٠؛
أسامة بن منقذ، المنازل والديار، ح-١، ط. بيروت ١٩٦٥م، ص (س) من المقدمة؛ البديع في نقد
الشعر، تحقيق أحمد بدوى وحامد عبد الحميد، ط. القاهرة ب-٢، ص : ديوان أسامة بن
منقذ، تحقيق أحمد أحمد بدوى وحامد عبد الحميد، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص ٦-٣٩؛ ياقوت،
معجم الأدباء، ح-٥، ص ١٨٨، ابن كثير، البداية والنهاية، ح-١٢، ص ٣١-٣٢؛ النعماني،
الدارس في تاريخ المدارس، ح-١، تحقيق جعفر الحسني، ط. دمشق ١٩٤٨م، ص ٣٨٤؛ ابن تغري
بردي، النجوم الزاهرة، ح-٥، ص ٢٨٣؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ح-٤، ص ٢٧٩؛
حسن عباس، أسامة بن منقذ، حياته وشعره، ص ٦٧-١٣١؛ أحمد كمال زكي، أسامة بن منقذ،
ط. القاهرة ١٩٦٨م. فارس الفرسان، ط. القاهرة ١٩٧٤م؛ جمال الدين الألوسي، أسامة بن
منقذ بطل الحروب الصليبية، ط. بغداد ١٩٦٧م، كرد على «كتاب الاعتبار» مجلة المجمع العلمي
العربي بدمشق، م (١٠)، ح (٩) عام ١٩٣٠م، ص ٧٧٢-٧٧٣؛ طاهر النعماني، «أسامة بن
منقذ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، م (١٠)، ح ٤-٥، عام ١٩٣٠م، ص ٢٣٠-٢٣٧،
٣٠٥-٣١٦؛ محمد أحمد حسين، أسامة بن منقذ، صفحة من تاريخ الحروب الصليبية، ط.
القاهرة ١٩٤٦م؛ أحمد أحمد بدوى، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ط.
القاهرة ب-٢، ص ١٧١-١٧٥؛ محمد الجفال، أسامة بن منقذ حياته وشعره، رسالة ماجستير
غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة؛ فليب حتى، أسامة بن منقذ، مجلة المجمع العلمي
بدمشق، م (٣)، ح (١٠)، عام ١٩٣٠م، ص ٥٩٦؛ شوقي ضيف، الترجمة الشخصية، ط.
القاهرة، ص ١٠٠.

Derembourg, Ousama Ibn Munkidh, Un Emir Syrien au premiere siecle des
croisades, Vie de Ousama, Paris 1889.

(٢) شيزر، مدينة من مدن شمال الشام، تقع على بعد خمسة عشر ميلا إلى الشمال من حماة،
وعندها توجد هضبة سماها مؤلفو العرب «عرف الديك»، وبلغت عندها نهر العاصي من جهات
ثلاث، فهي أشبه شئ بشبه جزيرة من الناحية الجغرافية، وقد تم حفر خندق في الصخر الواصل
بين شبه الجزيرة والبر، وهناك شيدت قلعة حصينة كانت لها ثلاثة أبواب، وقد تأثرت شيزر بالزلازل

المدمر الذى وقع فى بلاد الشام فى عام ٥٥٢هـ / ١١٥٧م. على نحو أدى إلى القضاء على الأسرة العربية الحاكمة فى شيزر، وتعنى بها أسرة بنى منقذ، بيد أن أسامة بنجاً من الموت لعدم وجوده بشيزر وقت وقوع ذلك الزلزال المدمر. عن شيزر والزلزال الذى أصابها أنظر :

اليقوى، كتاب البلدان، ص ٣٢٤؛ الأصطخرى، مسالك الممالك، ص ٦١؛ ابن الفلانسى، دى؛ تاريخ دمشق، ص ٥٢٦؛ تقديم فيليب حتى لتحقيق كتاب الاعتبار؛ ابن قاضى شهبه، الكواكب الدرية فى السيرة النورية، ص ١٥٣، ابن تفرى بردى، النجوم الزاهرة، ح ٥، ص ٣٢٥؛ السيوطى، كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة، ص ١٨٨.

Anonymous Syriac Chronicle, p. 302; Ruhricht, Geschichte des Kengreichs Jerusalem, p. 290, note (4); Tsugitako, The Syrian coastal Town of Jabala, its History and present situation, p. 47.

محمد محمد الشيخ، الإمارات العربية فى بلاد الشام فى القرنين ١١، ١٢م، ط. الاسكندرية ١٩٨٠م، ص ٣٧١-٣٧٢؛ مولر، القلاع أيام الحروب الصليبية، ص ٦٩.

(٣) أسامة بن منقذ، اليدع فى الشعر، ص ١.

(٤) نقولا زيادة، رواد الشرق العربى، ص ٨٧.

(٥) عبدالرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، ص ٣٠٧.

ويلاحظ أن عبدالرحمن حميدة يقرر فى كتابه أن أسامة بن منقذ قد صاحب الخليفة الفاطمى الحافظ، وخلفه الظاهر، بيد أن هذا القول يناهى الواقع التاريخى لأمر يسير، ألا وهو أن الخليفة الحافظ قد حكم خلال الفترة من ٥٢٤-٥٤٤هـ / ١٣٣٠-١١٤٩م، أما الظاهر، فإنه لم يخلف الحافظ، إذ أنه حكم خلال الفترة من ٤١١-٤٢٧هـ / ١٠٢٠-١٠٣٥م، وجاء عهده بعد الحاكم بأمر الله الذى حكم خلال المرحلة من ٣٨٦-٤١١هـ / ٩٩٦-١٠٢٠م، ومعنى هذا أن قرناً من الزمان أو ما يزيد قد فصل بين عهدى الحافظ والظاهر. عن إشارة عبدالرحمن حميدة، أنظر : أعلام الجغرافيين العرب، ص ٣٠٧.

وعن تصحيح ذلك أنظر :

ابن حماد، أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم، تحقيق التهامى نقرة وعبدالحليم عويس، ط. الرياض ب-ت، ص ١٠٦، ١١٢ 'أخوان مير، روضة الصفا فى سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، ت. أحمد عبدالقادر الشاذلى، ط. القاهرة ١٩٨٨م، ص ٢٢٦، ٢٣٠ 'ستانلى لين بول، طبقات سلاطين الاسلام، ص ٦٩، زمبار، معجم الأسر الحاكمة فى الاسلام، ت. زكى حسن وحسن محمود وسيد كاشف، ط. القاهرة ١٩٥١م، ص .

(٦) تقديم فيليب حتى لتحقيق الاعتبار.

(٧) مجرد الإشارة إلى أن كتاب الاعتبار، قد حققه دير نيرج وصدر عمله في ليدن وباريس عام ١٨٨٤-١٨٨٦م، عن ذلك أنظر :

Ousama Ibn Munkidh, un Emir au Syren au premier siecle des croisades (1095-1188), par Hartwig Derenbourg, Leiden- Paris 1884-1886.

ثم من بعد ذلك قام فيليب حتى، بتحقيق الكتاب، وصدر عمله في برنستون بالولايات المتحدة الاميريكية في عام ١٩٣٠م، ثم طبع الكتاب بتحقيق حتى مرة أخرى في بيروت وذلك في عام ١٩٨١م، وهي الطبعة التي اعتمدت عليها في إعداد هذا الفصل.

وأخيراً قام بتحقيقه قاسم السامرائي، وصدر عمله في الرياض بالمملكة العربية السعودية عام ١٩٨٧م.

ويلاحظ أن كتاب الاعتبار نال شهرة عالمية كبيرة، وترجم إلى العديد من اللغات الأوروبية. مثل الانجليزية، والألمانية، والروسية، والبولندية، والدنماركية، عن ذلك أنظر الترجمات الانجليزية :

The autobiography of Osama, Translated with introduction and notes by George Richard potter, London 1929.

An arab-Syrian gentleman and warrior in the period of the crusades, Memoirs of Usama Ibn Munqith Translated by philip Khuri Hitti, New York 1927.

الترجمات الألمانية :

Kitab Al-Itibar Ein Leben im Kampf gegen kreuzzitterheere, Aus dem Arabischen ubertrugen und bearbeiter von G. Rotter. Tubingen 1978.

Usama b. Munqudh Memoiren aus d. Arab. ubers v. Geo. Schumann, mit verw. v. H. Derenbourg, Insbruck 1905.

Die Erlebnisse des Syrischen Ritters Usama Ibn Munqid, Unterhaltsames und Belehrendes aus der zeit der Kreuzzuge, ubersetzt und herausge ben von Holger preiss ler, (Munchen 1985).

الترجمات الروسية :

Usama Ibn Munkyz : Kniga nazidanija pere wod : N. Salier, Red, Wstupit, stat'ja I primec : 1. Ju Karackowskij, petersburg, Moskwa 1922.

الترجمات البولندية :

Kitab al. Ictibar Kniga pouczejacyth przykladow dzieło Usamy Ibn Munkidtha, Jan Reychman, Ossolineum 1973.

الترجمات الدنماركية :

De Laereige eksem plers bog (kitabu-1 Itibar) of Usama Ibn Munkids, Syrisk emir fra Korstogstiden, Ovesat I uddrag of ove chr. Krapup, Kobenhaven 1950.

عن ذلك أنظر : تحقيق قاسم السامرائي للاعتبار، ص ٢٤٣-٢٤٤، على عبدالله الدفاح، رواد علم الجغرافى، ص ١٦٧-١٦٨.

(٨) عن مؤلفات أسامة بن منقذ، أنظر ما أورده المقرئى فى مخطوطته المقفى، مكتبة جامعة ليدن برقم ١٤٥٣٣ شرقى، وقد نشر الورقة ١٤٠ أ من الجزء الثالث قاسم السامرائى فى تحقيقه المشار إليه. وصح فى ص ٢٣٥-٢٣٦ من تحقيقه للاعتبار، بيد أننى أرى أن ما أورده المقرئى ليس كاملاً إذ أن هناك مؤلفات أخرى أوردها مؤرخون سابقون على المقرئى، ولم ترد فى المقفى، ومن أمثلتها القلاع والحصون على سبيل المثال. وقد أورد أمره ابن خلكان، وبعد هذا الكتاب نادر فى موضوعه، بيد أنه على ما يبدو من مؤلفات أسامة المفقودة، وفى حالة العثور على مخطوطته، فإنه يسد فراغاً كبيراً فى مكتبة المصادر التاريخية العربية التى وصلت إلينا من عصر الصليبيات فى بلاد الشام.

وأنظر كذلك : هشام عدرة، قلعة شيزر والأمير الشاعر أسامة بن منقذ، المنهل، العدد (٥٠٧)، م (٥٥) صفر ١٤١٤هـ / يوليو - أغسطس ١٩٩٣م، ص ١٥٦-١٥٧.

(٩) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ١٧٤.

(١٠) نفسه، نفس المصدر، ص ١٧٥.

(١١) من أمثلة ذلك ولم دى بور William of Bures, Guillaume de Bores.

نفسه، نفس المصدر، ص ١٧٦.

(١٢) نفسه، نفس المصدر، ص ١٦٠.

(١٣) خلف بن ملاعب، هو خلف بن ملاعب الأشهبى سيف الدولة، كان من قطاع الطرق، وقد وجد أحد الحصون الواقعة بين حلب، وسلمية، عرف باسمه، وقد أخضع حمص وأفامية، وقد حاربه السلطان السلجوقى ملكشاه وتمكن من أسره، وفيما بعد أطلق سراحه على يد خاتون زوجه السلطان، وقد هاجمه الباطنية وتمكنوا من قتله وذلك فى عام ٤٩٩هـ / ١١٠٥م. عن خلف بن ملاعب واغتياله على أيدي الباطنية أنظر :

ابن القلائس، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨٦، ١٨٨، فى العديم، ترجمة خلف بن ملاعب من بغية الطلب

Lewis, Three Biographies from Kamal Ad-Din", Melanes Füad koprüü, Istanbul 1953, pp. 325-329.

زبدة الحلب، ج٢، ص ١٥١-١٥٢؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٥، ص ١٩٢؛ السيد المزوى، فرقة النزارية، ص ١٠٧.

(١٤) أسامة بن منقذ، المصدر السابق، ص ١٦٣.

(١٥) نفسه، نفس المصدر، ص ١٦٥-١٦٦.

(١٦) نفسه، نفس المصدر، ص ١٦٠.

(١٧) نفسه، نفس المصدر، ص ١٥٩.

(١٨) نفسه، نفس المصدر، ص ١٦٠.

(١٩) نفسه، نفس المصدر، ص ١٩٢-١٩٣.

(٢٠) نفسه، نفس المصدر، ص ١٥٨.

(٢١) نفسه، نفس المصدر، ص ١٦٢.

(٢٢) نفسه، نفس المصدر، ص ٢١١.

(٢٣) نفسه، نفس المصدر، ص ١٧٤.

(٢٤) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٢٥) براور، عالم الصليبيين، ت. محمد خليفة وقاسم عبده قاسم، ط. القاهرة ١٩٨١م، ص ٢٢١.

(٢٦) Jacques de Vitry, p. 64.

(٢٧) العماد الأصفهاني، المصدر السابق، ط. القاهرة ب-ت، ص ١٧٠؛ ولزهد من الإشارات عن الانحلال الجنسي لدى الصليبيين أنظر؛ حسان حلاق، العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٨٦م، ص ١٩٥؛ زكى نقاش، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والأفرنج خلال الحروب الصليبية، ط. بيروت ١٩٥٨م، ص ٣٣؛ جمعة الجندى، حياة الفرخ ونظمهم فى الشام خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر، دراسة تطبيقية على مملكة بيت المقدس، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس عام ١٩٨٥م، ص ٢٩٩-٣٠٠؛ حسين أحمد أمين، الحروب الصليبية، ص ١١١؛ تيسير بن موسى، نظرة عربية على غزوات الأفرنج من بداية الحروب الصليبية حتى وفاة نور الدين، ط. طرابلس ب-ت، ص ٩٧.

Joannes phocas, A brief Description of the Holy land, p.11. (٢٨)

(٢٩) أسامة بن منقذ، المصدر السابق، ص ١٦٦-١٦٧.

(٣٠) نفسه، نفس المصدر، ص ١٧٢.

(٣١) نفسه، نفس المصدر، ص ١٨٠.

(٣٢) نفسه، نفس المصدر، ص ١٧٦.

وتجدر الإشارة إلى أن من المؤرخين الصليبيين الذين عاصروا الحملة الصليبية الأولى، من أشار إلى نفس الصفات التي امتدح بها أسامة بن منقذ الصليبيين، ولكنها تطلق من جانب أولئك المؤرخين على المسلمين، ومن أمثلتهم المؤرخ المجهول، الذي وصف السلاجقة بأنهم من أشجع المقاتلين، بل أنه تمنى لو أنهم كانوا مسيحيين. عن ذلك أنظر :

Anonymous, The deeds of The Franks, p. 21; Hill, "The christian view of the Muslims at the Time of the First crusade", in, the eastern mediterranean Lands in the period of the crusades, ed. by P.M. Holt, London 1977, p. 2.

(٣٣) أسامة بن منقذ، المصدر السابق، ص ٢١.

(٣٤) نفسه، نفس المصدر، ص ٨٣.

(٣٥) نفسه، نفس المصدر، ص ١٧٠.

(٣٦) نفسه، نفس المصدر، ص ١٧٦-١٧٧.

(٣٧) عن ذلك أنظر : John of Wurzburg, p. 44.

ويلاحظ أن ذلك الرحالة الألماني، الذي زار مملكة بيت المقدس الصليبية، خلال الرحلة من عام ١١٦٠-١١٧٠م / ٥٥٥-٥٦٥هـ على الأرجح، قد أشار إلى أنه في مستشفى الاستارية في بيت المقدس، يموت يومياً نحو خمسين شخصاً، وهي شهادة من رحالة معاصر لتلك المرحلة، تعكس أن الوسائل العلاجية في ذلك الوقت لدى الصليبيين، حتى في المستشفيات، كانت عاجزة عن تقليل أرقام الوفيات، بحيث بلغت ذلك المعدل السابق.

أنظر أيضاً إشارات هامة لدى :

Woodings, "The Medical resources and practice of the Crusader states in Syria and palestine (1096-1192), M.H., Vol. XV, No. 3, July 1971, p .

كامل حسين، في الطب والأقرباين، ضمن كتاب أثر العرب والاسلام في النهضة الأوروبية، ط. القاهرة ١٩٧٠م، ص ٢٨٥؛ سعيد عاشور، المدينة الاسلامية وأثرها في النهضة الأوروبية، ط. القاهرة ١٩٦٧م، ص ١٤٧؛ زكي نقلاش، المرجع السابق، ص ٢٠٦؛ محمود الحويدي، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين ١٢، ١٣م، ط. القاهرة ١٩٧٩م، ص ٢٣١؛ المروسي الطوي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص ٧٥؛

نقولا زيادة، سوريا زمن الصليبيين، المقتطف، يوهو ١٩٢٨م، ص ٢٠٠؛ ادوارد براون، الطب العربي، ت. داود سلمان علي، ط. بغداد ١٩٨٦م. ص ٦٨؛ شفيق جاسر، القدس تحت الحكم الصليبي ودور صلاح الدين في تحريرها، ط. الرياض ١٩٨٩م، ص ١٢٢.

(٣٨) أسامة بن منقذ، المصدر السابق، ص ١٦٧.

(٣٩) نفسه، نفس المصدر، ص ١٧٣.

(٤٠) جوزيف نسيم يوسف، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص ٧٠.

(٤١) أسامة بن منقذ، المصدر السابق، ص ١٥٨-١٦٠. وعن هجوم الاسماعيلية على شيزر أنظر :

ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨٩، العظيمي، تاريخه، تحقيق على سويم، ط. أنقرة ١٩٨٨م، ص ٣٢؛ ابن الأثير، الكامل، ح ١٠، ص ٢٢٥؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ح ٢، ص ١٥١؛ ابن الوردي، تاريخه، ح ٢، ص. القاهرة ١٨٦٨م، ص ١٩؛ سعيد عاشور، أضواء جديدة على الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٦٤م، ص ٩٧؛ مسفر سالم الغامدي، الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الاسلامي قبل قيام الدولة الأيوبية في مصر (٤٩١-٥٦٩هـ / ١٠٩٧-١١٧٣م)، ط. جدة ١٩٨٦م، ص ٦٠؛ محمد مؤنس أحمد عوض، المؤرخ الحلبي العظيمي (ت ٥٥٨هـ / ١١٦٣م) حياته، ومنهجه في الكتابة التاريخية عن بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، سلسلة دراسات عن الشرق الأوسط، مركز بحوث الشرق الأوسط، جامعة عين شمس عام ١٩٩٣م، ص ١٩.

(٤٢) أسامة بن منقذ، المصدر السابق، ص ١٢٢. وعن دور الفندلاوى والحلولى أنظر :

ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٤٦٤؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ح ١١، ص ١٢٩-١٣٠؛ الباهر، ص ٥٩؛ ابن خلكان، المصدر السابق، ح ٢، ص ٤٥٢؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ح ٥، ص ٢٨٢؛ ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ح ٤، ص ١٢٦؛ العدوي، الزيارات، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط. دمشق ١٩٥٦م، ص ٦٢-٦٣؛ فايد حماد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، ص ٢١٥، على أحمد، الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس وحتى نهاية القرن التاسع، ط. دمشق ١٩٨٩م، ص ٣٠٣.

(٤٣) أسامة بن منقذ، المصدر السابق، ص ١١٩. أنظر أيضا :

العصا، تحقيق عبدالسلام هارون، في نواذر المخطوطات، المجموعة الثانية، ط. القاهرة

١٩٥١م، ص ١٩٧-١٩٨.

(٤٤) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ٢٥٦.

(٤٥) سعاد ماهر، الببيرة في التاريخ والآثار، الدارة، العدد الأول، السنة (٣)، ربيع الأول ١٢٩٧هـ / فبراير ١٩٧٧م، ص ١١٤. وفي هذا المجال أنظر هذه المخطوطة الهامة : القطريف بن قدامة، كتاب ضواري الطير، مخطوط أحمد الثالث، رقم (٢٠٩٩)، مكتبة طوب قابوسراي، استانبول، تصوير معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

(٤٦) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ٢٥٧.

(٤٧) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٦٨.

(٤٨) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٦٩.

(٤٩) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٧٠.

(٥٠) سعاد ماهر، المرجع السابق، ص ١٠٤.

وبلاحظ أن الشواحين أو الشياحين، ومفردها شاهين، وهو طائر جارح من فصيلة الصقريات ويقابل كلند Falco أو Falcon، ويمثله الشاهين الزوروي أو Falco Pereyrinus، وهو ليس عربى، ولكن تكلمت به العرب كما يلاحظ الديميرى، والشاهين له ثلاثة أنواع، شاهين وقطامى وانيقى، وهو من جنس الصقر، وحركته تكون من العلو إلى أسفل بصورة شديدة، ولذا فإنه ينقض على فريسته انقضاضاً دونما تحويم، وعمل ذلك من المحتمل أن يضرب نفسه بالأرض فيموت خاصة إذا ما ارتطم بصخر من الصخور، ويقال أن الشاهين أسرع الجوارح كلها، وأشجعها، وأخفها، وأحسنها إقبالاً وإدباراً، ويذكر الباحثون عدة أنواع منه مثل الشاهين العراقي، والساييرى، والمغربى، والهندي وغيرها. عن الشاهين أنظر :

القزوينى، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ط. القاهرة ب-ت، ص ٣٦٤؛ الديميرى، حياة الحيوان الكبرى، ط. القاهرة ١٣٦٧هـ، ص ٤٨-٤٩؛ القطريف بن قدامة، المخطوط السابق، ورقة (٣٦)، الزبيدي، انتهاز الفرص فى الصيد والقنص، تحقيق عبدالله الحبشى، ط. لندن ١٩٨٥م، ص ١٣٢؛ عزيز العلى العزى، الطير فى حياة الحيوان للدميرى، ط. بغداد ١٩٨٦م، ص ١٢٩، حاشية (٢).

(٥١) سعيد عاشور، المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، ضمن كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى، جامعة بيروت العربية، ط. بيروت ١٩٧٧م، ص ٤٤.

٣ - السائح الهروى

(ت ٦١١هـ / ١٢١٥م)

يتصدى هذا الفصل بالدراسة لأحد الرحالة المسلمين الذين زاروا بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، ونعنى به السائح الهروى^(١) (ت ٦١١هـ / ١٢١٥م)، ويتعرض لأهم ما ورد فى رحلته عن المناطق الإسلامية وكذلك الصليبية مع ملاحظة غلبة الطابع الدينى على ما ألفه فى هذا الصدد على نحو جعل من كتاباته فى هذا المجال ذات محدودية معينة لا نجدها فى كتابات الرحالة المسلمين الذين زاروا بلاد الشام فى تلك المرحلة الهامة، والفعالة من تاريخها.

والهروى؛ هو أبو الحسن على بن أبى بكر بن على الهروى الأصل، الموصلى المولد^(٢)، ولا نعرف تفاصيل حياته من قبل أن يشتهر بالرحلة والأسفار، ولكن على ما يبدو أنه حقق قسطاً وافراً من العلم، وقد وصف بأنه كانت له معرفة بعلم السيمياء^(٣)، وإن لم يكن ذلك هو المجال الوحيد لتفوقه؛ إذ أن له مؤلفات أخرى تدل على أنه كان ذا باع كبير فى مجال الحيل الحربية، والجغرافيا، والرحلات، والآثار، وغيرها من العلوم والمعارف.

وقد عرف الهروى باتساع نطاق رحلاته، وأسفاره، حتى أنه طاف أنحاء المشرق الإسلامى، وذهب إلى الهند، والقسطنطينية، والمغرب، وصقلية، والعديد من جزائر البحر المتوسط^(٤)، وقد وجدت فيه صفة مميزة وهى؛ حب الترحال والأسفار، ثم كتابة اسمه على الآثار التى يزورها^(٥)، ويبدو أنه رغب من وراء ذلك أن يخلد اسمه من بعد وفاته على اعتبار أن الأشخاص يرحلون وتبقى الآثار شاهدة عليهم حتى بعد رحيلهم.

ولا نزاع فى أن كثرة أسفاره بمثل تلك الصورة قد أدت إلى أن أطلق عليه معاصروه لقب السائح الهروى ومعنى هذا أننا أمام رحالة محترف باعتراف معاصريه، ولا شك فى أن ترحاله المتسع بمثل هذه الصورة، قد أفاده بالتأكيد عندما ألف مؤلفاته المتسلقة بالرحالة.

ومنطقى أن نجد لمثل ذلك الرجل العديد من المؤلفات، التى تعكس تكوينه العلمى المتعدد من ناحية، وموسوعية علماء العصر من ناحية أخرى، وفى هذا المجال نعرف أن الهروى قد ألف الإشارات إلى معرفة الزيارات^(٦) - وهو أساس دراستنا له فى هذا الفصل - ثم التذكرة الهروية فى الحيل الحربية^(٧)، وكذلك الخطب الهروية، وكتاب الأصول ثم منازل الأرض ذات الطول والعرض، وأيضاً كتاب الآثار والعجائب، والأصنام^(٨).

وتجدر الإشارة إلى أن الهروى وفد على القسطنطينية^(٩)، عاصمة الامبراطورية البيزنطية، وذلك فى عهد الامبراطور البيزنطى عمانويل كومنينوس Manuel Comnenus (١١٤٥-١١٨٠م / ٥٤٠-٥٧٦هـ)^(١٠)، ثم من بعد ذلك ارتحل إلى مدينة دمشق حاضرة الشام الكبرى وذلك فى عام ٥٦٨هـ / ١١٧٢م. وفى هذا المجال، يذكر إثنان من الباحثين القديرين فى مجال الرحلات الإسلامية فى العصور الوسطى، أن الهروى دخل دمشق فى العام المذكور «وذلك قبل أن يستعيدها صلاح الدين الأيوبي من يد الفرنجة»^(١١)، غير أن ذلك القول لا ينطبق على الحقيقة التاريخية فى شئ لأمر يسير وهو أن الصليبيين لم يتمكنوا على مدى القرنين ٦، ٧هـ / ١٢، ١٣م من دخول مدينة دمشق، بل إنه خلال الحملة الصليبية الثانية التى حاصرتها حصاراً شديداً فشلت جهودهم فى إسقاطها والمنطق يدعو إلى الاعتقاد بأن الهروى دخل المدينة المذكورة فى عهد الملك العادل نور الدين محمود الذى توفى فى عام ٥٧٠هـ / ١١٧٤م، وكان صلاح الدين الأيوبي فى ذلك الوقت فى مصر نابهاً له بعد أن اسقط الخلافة الفاطمية فى عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م.

مهما يكن من أمر، فإن الهروى قد قضى أيامه الأخيرة في مدينة حلب - حاضرة الشام الشمالية الهامة - حيث احتضنه هناك الملك الظاهر بن صلاح الدين الأيوبي الذى قربه إليه لمعرفته بالسيما، مثلما قرب إليه من قبل الفيلسوف السهروردى الحلبى المقتول (ت ٥٨٧هـ / ١١٩١م) (١٢) لمعرفته بنفس العلم، وقد لقي لدى الظاهر تقديرًا كبيرًا ولا أدل على ذلك من أنه بنى له مدرسة خاصة به هى المدرسة الهروية بظاهر حلب (١٣)، وفيما بعد دفن فيها الهروى، وقد زارها ابن خلكان، وأورد لنا تلك الإشارة الهامة، وتعرف أن الرجل توفى فى عام ٦١١هـ / ١٢١٤م (١٤).

والكتاب الأساسى الذى يعكس جانبًا هامًا من ترحال الهروى يتمثل فى صورة «الاشارات إلى أماكن الزيارات» وقد تناول فيه كافة المناطق والأماكن التى هى موضع زيارة الأهلين فى عصره، وفى هذا المجال أورد عددًا كبيرًا من المزارات والمساجد ودور العبادة. ويلاحظ أنه كتب كتابه هذا اعتمادًا على ذاكرته القوية، وذلك بعد أن فقدت كتبه نتيجة سرقة لصوص الصليبيين التابعين للملك الصليبي ريتشارد الأول Richard I (١١٨٩-١١٩٩م / ٥٨٥-٥٩٥هـ)، وقد حدث ذلك فى جنوب فلسطين فى منطقة الداوم على ماء الخويلفه (١٥) وقد أورد الهروى هذه الحادثة فى عبارات تفيض ألمًا وحسرة.

ومن الملاحظ أن اعتماد الهروى على ذاكرته فى تسجيل ما شاهده فى كتابه الإشارات فى معرفة الزيارات تجعله منفردًا بين الرحالة المسلمين الذين زاروا بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، إذ أننا لم نجد فى أى رحلة من الرحلات التى ألفوها إشارة واحدة إلى مثل تلك المأساة الشخصية، ويبدو أن الكل سجل أسفاره أولاً بأول من أجل أن يستعين بها عندما يقدم بتسجيل رحلته، أما الهروى فقد تميز بتلك الحادثة، ويبدو أنه أجهد نفسه تمامًا فى تذكر أسماء المواقع وأماكنها، ومن الممكن أن نستنتج ناحية شخصية عن ذلك الرحالة ونعنى بها قوة ذاكرته، على نحو جعله يتذكر كافة تلك الأماكن بمثل تلك الدقة المعجبة.

وكتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات يمكن أن يوصف أنه كتاب فى السياحة الدينية كما وصفه أحد الباحثين القديرين^(١٦)، ولكن من الضرورى أن نتناول الدوافع التى دفعت الهروى إلى تأليفه لذلك الكتاب، ومن الملاحظ أنها دوافع شخصية مرتبطة بطبيعة العصر نفسه عصر الصراع بين عالمى الإسلام والمسيحية، ويمكن إجمالها فى الآتى :

أولاً : رغبة الهروى فى أن ينقل لمعاصريه نتاج ترحاله إلى مناطق متعددة، خاصة أنه وصف بأنه لم يترك برًا ولا بحرًا ولا سهلاً ولا جبلاً من الأماكن التى يمكن أن يقصدها المرء ويرأها إلا رآه^(١٧)، وحيث أن زكاة العلم نشره، فقد رأينا الهروى يسعى إلى تأليف ذلك الكتاب؛ ومن المنطقى أن هناك دوافع دينية دفعته شخصياً إلى نقل رحلاته وأسفاره خاصة فى المزارات الدينية إلى معاصريه.

ثانياً : حيث أن مؤلفات الهروى، نجد فيها أحدها يتناول الآثار، فمن المنطقى تصور أن الهروى هدف من وراء كتابه أن يقدم وصفاً أثرياً لكافة المزارات والمساجد والمشاهد التى مر بها خاصة فى بلاد الشام؛ وهو ما يعيننا فى موضوع فصلنا هذا.

ثالثاً : إن دوافع الهروى لا يمكن أن نفصلها بأى حال من الأحوال عن دوافع العصر ذاته، لقد كان عصر الصراع بين المسلمين والصليبيين، وأدى الغزو الصليبي للمنطقة ونجاح الغزاة فى زرع كيانهم الدخيل فى صورة إمارات الرها وأنطاكية وبيت المقدس وطرابلس، إلى زيادة التمسك بالمظاهر الدينية لدى المسلمين. ومن ثم تعاظمت ظاهرة التصوف وأكابر المتصوفة والأولياء بنفس الصورة التى رأيناها فى رحلة - ابن جبير - ومن ثم فإن العصر نفسه الذى عاش فيه الهروى وجدنا فيه الظاهرة الدينية هى التى تظهر على السطح، ولاشك فى أن كتابه ما هو إلا تأكيد لذلك الموقف، وجزء من المحافظة على الهوية فى مواجهة رغبة الصليبيين فى القضاء على هويتها الإسلامية.

وهذا الوضع السابق، يفسر لنا بالضرورة ضخامة التراث الدينى الذى وصل إلينا من ذلك العصر، لقد كانت هناك استجابة إسلامية للتحدى الصليبي أخذت أشكالاً متعددة سياسية وحرية وعلمية، من خلال إطار عام للمواجهة الشاملة ضد الصليبيين.

ومن ناحية أخرى، من الضروري تناول ناحية هامة، ونعنى بها المصادر التى استقى من خلالها الهروى كتابه الإشارات إلى معرفة الزيارات، والواقع أن مطالعة ما ألفه تكشف لنا بجلاء أنه اعتمد على مشاهداته الشخصية فى تأليف كتابه، فهو يقدم فى المقام الأول رؤية شاهد عيان معاصر ورحالة خبير، ولا جدال فى أن ذلك يعطى أهمية خاصة لكتابه، على الرغم من نطاقه المحدد من خلال المزارات فقط، وعدم تقديم تصور سياسى واقتصادى واجتماعى فى نطاق الرحلة، مثلما وجدناه لدى الرحالة ابن جبير على سبيل المثال.

مهما يكن من أمر، فإن الهروى يفيدنا فى ثلاث نواحي، ونعنى بها : الناحية السياسية والحرية، ثم السياحة العلاجية، وكذلك السياحة الدينية.

أما الناحية السياسية والحرية، فنجدها من خلال إشارة خاصة بمعركة حطين عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م، إذ أن الهروى عندما مر بمنطقة حطين ذكر أنه يقال لها أيضاً حطيم وقد أشار إلى أن فيها جرت المعركة المشهورة «وتم أسر ملوك الفرنج وتم فتح بيت المقدس، والساحل، والعواصم» (١٨).

ومن الواضح من خلال نصوص رحلة الهروى، فى هذه الجزئية، المعنويات المرتفعة من خلال انتصار المسلمين، بعكس ما نجده لدى السمعاني عندما يمر بالمناطق الإسلامية الخاضعة للاحتلال الصليبي، حيث نجد لمسة الانكسار، والمرارة، من خلال نصوص المرحلة ذاتها.

ومن جهة أخرى، وجدناه عندما مر بعكا يذكر لنا أنه يبرج عكا خلق كثير ثم

استشهدهم فى المعارك والحروب المشهورة على عكا من عام ٥٨٥هـ / ١١٨٩م إلى عام ٥٨٧هـ / ١١٩١م^(١٩)، ويقرر ما نصه «لم تبطل الحروب والرباط ليلاً ونهاراً فى هذه المدة»^(٢٠)، وهذه الرواية تفيد فى توضيح حجم جهاد المسلمين خلال الحملة الصليبية الثالثة وأحداث حصار مدينة عكا الذى استمر عامين كاملين، وربما كان يقصد الهروى من روايته السابقة أن يشير إلى أولئك الأبطال المسلمين الذين مثلوا حامية عكا، وظلوا يدافعون عندها طوال تلك المرحلة الزمنية الطويلة، وقد قام الملك الإنجليزى ريتشارد الأول بقتل أفراد الحامية البالغ عددهم حوالى ٢٦٠٠ رجل فى مذبة كبيرة^(٢١)، ومن المحتمل أن جثث هؤلاء الأبطال كانت مدفونة فى المقابر التى شاهدها الهروى فى مرج عكا فى أعقاب تلك المذبحة البشعة.

ولا مراء، فى أن إشارة الهروى لها جانبها الكبير من الأهمية، لأنها تعكس شهادة تاريخية هامة دالة على التصميمات البشرية التى قدمها المسلمون من أجل الدفاع عن الإسلام وعن وجودهم فى مواجهة واحدة من أكبر الحملات الصليبية التى قدمت إلى المنطقة العربية. وهى من ناحية أخرى تعكس، نوعية القيادة الإسلامية حينذاك مماثلة فى السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي وصحبه الذين قادوا معركة طويلة الأمد لمدة عامين يمكن أن توصف بمعركة عكا، لم تتوقف أحداثها ليلاً ونهاراً، على حد قول الهروى.

أما إشاراته بخصوص السياحة العلاجية، فنجدها متمثلة فى طبيرة، وهى منطقة كانت تكثر بها العيون المائية الحارة التى تتكفل بعلاج الأمراض، ولدينا وصف هام يقدمه الهروى، فيقرر أن حمام طبيرة يعتبر من عجائب الدنيا، ويخص بالذكر موضعاً يسمى الحسينية^(٢٢) ونجد هناك إثني عشر عيناً كل عين متخصصة فى علاج مرض من الأمراض، ويأتى المرض مثل أصحاب العاهات والزمنى وغيرهم^(٢٣) إلى تلك العيون العلاجية من أجل الاستشفاء، ويلاحظ أن تلك المميزات العلاجية لمياه طبيرة قد أدت إلى كثرة الوافدين على المنطقة، وبالطبع من الممكن افتراض أنهم لم يكونوا من عناصر

المسيحيين فقط بل والمسلمين واليهود كذلك من أجل العلاج، هذا بالإضافة إلى المزارات الدينية الموجودة أصلاً في طبرية.

وتجدر الإشارة إلى أن تلك الخاصية العلاجية لطبرية سوف نَجدها محط اهتمام الرحالة المسلمين الذين وفدوا على بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، وعلى مدى القرنين ٦، ٧هـ / ١٢، ١٣م. وبالذات نبع الحسينية الذي خصه بالذكر الهروي.

وتعكس رواية الهروي السابقة، ناحية هامة ألا وهي أن وسائل العلاج في ذلك العصر لم تكن فقط متصلة بالأدوية المفردة والأدوية المركبة - وفق اصطلاحات الأطباء المسلمين في العصور الوسطى - بل أنها امتدت لتشمل العيون والينابيع ذات التأثير العلاجي.

ومن الملاحظ أن تكرار تردد أمر الفعالية العلاجية لمثل تملك المياه من جانب الهروي وغيره من الرحالة المسلمين له دلالة من حيث أنه يؤكد استمرار فعاليتها من ناحية، وشهادة الرحالة الوافدين على بلاد الشام وأتوا من خارجه، شهادتهم لتلك المياه بمقدرتها العلاجية بإذن الله تبارك وتعالى.

أما إذا ما اتجهنا إلى المزارات التي أوردها في كتابه نجد أن منها مزارات إسلامية، وأخرى مسيحية، ويهودية، ويلاحظ أن أغلب ما ذكره الهروي يتصل بالمزارات الإسلامية، وأقلها ما كان خاصاً بالمزارات المسيحية، واليهودية.

والجدير بالذكر، أن الرحالة اليهود والمسيحيين كتبوا مؤلفات خاصة عن مزاراتهم المقدسة، ومن أمثلة أولئك الرحالة الذين زاروا فلسطين على نحو خاص خلال نفس القرن الذي زار فيه الهروي بلاد الشام، نذكر سايلولف Saewulf الذي قام برحلته ما بين عامي ١١٠٢-١١٠٣م، ثم دانيال Daniel (١١٠٦-١١٧٠م)، وإيو فروزين Euphrosine (١١٦٢-١١٧٢م)، بنيامين التطيلي Benjamin of Tudelo

(١١٦٢-١١٧٠م)، ويشودريش Theaderich (١١٧١-١١٧٣م)، وبساحيا أوف راتسبون Petachia of Ratisbonn (١١٧٤-١١٨٧م)، ثم يوحنا قوكاس John Phocas (١١٨٥م) (٢٤)، ومن الملاحظ أن كافة أولئك الرحالة سواء المسيحيين منهم أو اليهود تناولوا في كافة رحلاتهم المزارات التي على الحاج اليهودى أو المسيحى أن يقوم بزياراتها.

ومعنى هذا، أن هناك تشابهاً في أشكال الكتابة الخاصة بالرحلات في ذلك العصر سواء لدى الجانب الإسلامى، أو الجانب المسيحى واليهودى، من خلال مؤلفات الرحالة بصفة عامة، ومن خلال تناول المزارات المقدسة لدى أتباع كل دين من الأديان السماوية. ويتضح ذلك بجملاء من خلال مقارنة ما أورده الهروى فى كتابه وكذلك ما ورد لدى مؤلفات الرحالة اليهود والمسيحيين خلال تلك المرحلة.

وبالنسبة للمزارات الإسلامية التى أوردها الهروى نجد أنه أوضح أمر المسجد الأقصى (٢٥)، وفيه الصخرة وقد فصل فى الإشارة إليه بالمقارنة بالمزارات الدينية الأخرى، ومن الطبيعى ملاحظة أن ذلك المسجد احتل مكانة خاصة لدى المسلمين خاصة فى عصر الصراع بين المسلمين والصليبيين ونعنى به عصر الحروب الصليبية، تشهد على ذلك كتب الفضائل التى تناولت فضائل المسجد الأقصى خلال القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى وحتى فيما بعد ذلك القرن (٢٦).

ومن جهة أخرى، أشار الهروى إلى أنه فى حلب يوجد مشهد الإمام على بن أبى طالب (٢٧) - كرم الله وجهه - كما أن بها قبر عبدالله الأنصارى (٢٨)، وفى حمص ذكر وجود مشهد للإمام على أيضاً (٢٩)، كما أن بها دار خالد بن الوليد (٣٠) رضى الله عنه.

ومن الملاحظ أن المناطق التى ذكر الهروى وجود مشاهد فيها للإمام على كانت بصفة عامة، وعلى مدى عصر الحروب الصليبية، من المناطق التى شهدت تركيزاً للوجود

الشيعة بها. مع وجود الكيانات السنية بالطبع إلى جوارها وبكثافة عديدة فاقتها بمراحل.

أضف إلى ذلك؛ أنه ذكر وجود قبر أبى عبيدة بن الجراح فى طبرية^(٣١)، كما أنه أشار إلى وجود قبور متعددة للصالحين والتابعين فى وادى جهنم شرق بيت المقدس^(٣٢).

أما المزارات المقدسة بالنسبة للمسيحيين، فإنه يوضحها فى صورة كنيسة القيامة^(٣٣)، وقد عبر عن مكانتها السامية فى نفوسهم من خلال قوله «وأما زيارات الملة المسيحية فأعظمها كنيسة القيامة»^(٣٤)، كما أنه أشار إلى كنائس أخرى أقل مكانة مثل كنيسة السليق وكنيسة صهيون^(٣٥).

وقد ذكر إشارات موجزة عن كل كنيسة، مع ملاحظة أن مؤلفات الرحالة الأوروبيين السالفي الذكر تفيض وبطبيعة الحال بتناول تلك الكنائس ومكانتها الدينية لدى المسيحيين كما أن الإشارات التى قدمها من قبل الإدريسي فى هذا الصدد تعد أكثر تفصيلاً إذا ما قورنت بما قدمه الهروى.

أما المزارات اليهودية فنجد أنه يوضح أنه فى نابلس يوجد الجبل الذى يعتقد فيه اليهود ويسمونه كريزم وقد أشار أنه قد ورد ذكره فى التوراة^(٣٦). وبصفة عامة فإن اليهود لهم اعتقاد كبير فيه لتصورهم أن الذبيح كان عليه وعندهم أن الذبيح إسحاق، كما أنه أشار إلى أن قبر يوشع بن نون، فتى موسى عليه السلام، يوجد قبل معرة النعمان فى جانب سورها^(٣٧).

وتوجد ناحية هامة أخرى، وهى مدى اعتقاد الهروى فى صحة أماكن تلك المزارات التى يعتقد فيها القوم، والواقع أن الهروى صحح فى كتابه بعض الاعتقادات، وهذه ميزة كبرى تذكر له فى ذلك العصر الذى شهد الاعتقاد فى الأولياء وفى

كراماتهم بصورة كبيرة، وهو في ذلك يتشابه مع موقف جغرافي شامي معاصر له ونعني به ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م).

وعلى سبيل المثال، نجد أنه يصحح الاعتقاد بشأن وجود قبر يوشع بن نون في معرة النعمان، بأن ذكر أن مكانه في أرض نابلس^(٣٨)، كذلك أشار إلى أن الربوة الموجودة في جبل قاسيون المطل على دمشق، والذي يعتقد الكثيرون أنها الربوة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى «وَأَوْنَاهَا إِلَى رِبْوَةٍ ذات قرار ومعين»^(٣٩)، ليست هي الربوة المذكورة في القرآن الكريم، لأن عيسى عليه السلام ما دخل دمشق، ولا وطئ الشام، وبهذا يصحح اعتقاد عدد من الذين كتبوا في ذلك العصر عن فضائل دمشق وعلى رأسهم مؤرخها الكبير ابن عساكر مؤلف كتاب تاريخ مدينة دمشق.

وبالإضافة إلى المزارات السابقة لأهل الأديان السماوية الثلاثة، نجد أن الهرى قد قدم إشارات محدودة بالمقارنة بغيره من الرحالة المسلمين الذين زاروا بلاد الشام في ذلك العصر، ومن أمثلة ذلك أنه بالنسبة للساحل الشامي، لا يهتم به إلا من خلال المزارات، وفي تقديرى أن هذا، يتفق مع ما هو متوقع من عنوان كتابه أصلاً، وينبغي ألا نتوقع منه أكثر من ذلك، ونجد أنه بالنسبة لعسقلان مثلاً يقرر أن هيجانتها خلق من الأولياء والتابعين، وكذلك بغزة، وعكا، وصور، وصيدا، وجميع بلاد الساحل^(٤٠)، ثم أنه أشار إشارة محدودة إلى فتحها عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م^(٤١).

أما بالنسبة للخريطة العقائدية لبلاد الشام، فنجد أنه لا يشير بالتفصيل إلى توزيعات الأديان بها، باستثناء ما ندر، ومن أمثلة ذلك، ذكره وجود السامرة في نابلس وأنهم يعتقدون في عين تحت كهف في جبل هناك^(٤٢). وهو أمر رددته الجغرافيون والرحالة المسلمون الذين زاروا بلاد الشام في ذلك العصر.

أما إذا بحثنا عن الجوانب الأخرى الاقتصادية، أو الاجتماعية، في رحلة الهرى وسياحته لبلاد الشام خلال تلك المرحلة، فلا نجد فيها ما يستحق الذكر

نظراً لاهتمامه الأصلي بالمزارات الدينية في بلاد الشام وعدم اعطائه نفس الأهمية للجوانب الأخرى.

وهكذا، قدم لنا الهروى في سياحته جوانب متعددة عن أوضاع بلاد الشام في ذلك العصر، ولاسيما من خلال ما يتصل بالمعتقد الدينى على اعتبار أن ما ألفه يمكن أن يندرج تحت قائمة السياحة الدينية، ولا مراء، فى أنه يحتل مكانته الهامة بين الرحالة المسلمين الذين زاروا بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية.

الهوامش

(١) عن مصادر ومراجع ترجمة السائح الهروى :

ابن خلكان، وفیات الأعيان، ح-٣، تحقيق إحسان عباس، ص٣٤٦-٣٤٧؛ ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، ح-٥، ط. بيروت ب-٣، ص٤٩؛ نقولا زيادة، رواد الشرق العربى، ص٨٥. سوريا فى الرحلات الإسلامية، المقتطف م (١٠٢)، ح (٢)، ط. القاهرة ١٩٤٣م، ص١٧٣؛ صلاح الدين المنجد، مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالة المسلمين، ط. بيروت ١٩٦٧م، ص١٥٥؛ محمد بهجة الأكرى، الجغرافية عند المسلمين والشريف الإدريسى، مجلة المجمع العلمى العراقى، ح (٢)، عام ١٩٥٨م، ص٥٩؛ زكى حسن، الرحالة المسلمون فى المصور الوسطى، ص٨٨-٨٩؛ صلاح الدين الشامى، الفكر الجغرافى سيرة ومسيرة، ص٢٥٨؛ عبدالرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، ص٣٩٠؛ على عبدالله الدفاع، رواد علم الجغرافية، ص١٦٩؛ أحمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون، ص٢٨٤-٢٨٥؛ زكريا هاشم، فضل الحضارة الإسلامية والعربية على العالم، ص٥٣٤؛ جورجى زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، م ١/٢، ح ٣، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص٩١؛ ماهر حمادة، المصادر العربية والمعربة، ط. بيروت ١٩٨٠م، ص٢٩٠.

Brockelmann, Geschichte der Arabischen Literature, T. I, Leiden 1937, p. 620-630; Suppl., T. I, . 879.

(٢) ابن خلكان، المصدر السابق، ح-٣، ص٣٤٦.

(٣) نفسه، نفس المصدر، ح-٣، ص٣٤٧.

(٤) زكى حسن، المرجع السابق، ص٨٩.

(٥) ابن خلكان، المصدر السابق، ح-٣، ص٣٤٦؛ زكى حسن، المرجع السابق، ص٨٩.

(٦) من المحتمل أن هذا الكتاب - كما يرى أحمد رمضان - قد ألفه الهروى فى عام ٦٠٢هـ/ ١٢٠٥م، أى قبل أن تدركه المنية فى حلب فى عام ٦١١هـ/ ١٢١٥م، بحوالى عشر سنوات تقريبا، ويذكر أن هناك نسخة مخطوطة منه فى دار الكتب المصرية، بعنوان رحلة أبى الحسن بن أبى بكر بن الهروى الموصلى تحت كتابتها فى العام المذكور. أنظر رأيه فى : الرحلة والرحالة المسلمون، ص٢٨٥.

وتجدر الإشارة إلى أن تشارلز شيفر Charles Scheffer، كان قد نشر مقتطفات من رحلة الهروري، في مجلد أرشيف الشرق اللاتيني، العدد الأول، الصادر في باريس عام ١٨٨١م.

A.O.L., T: I, Année 1881, pp. 597-609.

ثم جاءت من بعد ذلك مجهودات دومنيك سورديل ليتم تحقيق الرحلة، ويتم إصدارها من جانب المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بدمشق عام ١٩٥٣م.

(٧) تم تحقيق التذكرة الهرورية في الحيل الحرية ونشرت في مجلة الدراسات الشرقية الصادرة عن المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بدمشق عدد (١٧) عام ١٩٦١م.

B.E.O., T. XVII Année 1961 - 1962.

(٨) ابن خلكان، المصدر السابق، ج٣، ص٣٤٧، زكي حسن، المرجع السابق، ص٥٠، علي عبدالله الدفاع، المرجع السابق، ص١٧٠، جورجى زيدان، المرجع السابق، م٢، ج٣، ص٩١.

(٩) زكى حسن، المرجع السابق، ص٨٥.

(١٠) عن ذلك الامبراطور أنظر :

Cinnamus, Epistome Historiorum, in C.S.H.P., Bonn 1836; Witting, Monnaies pyzantines, Paris 1975, p. 181.

محمود سعيد عمران، السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية في عهد الامبراطور مانويل كومنين، ط. الاسكندرية ١٩٨٢م، على عودة الغامدى، معركة بريكفالون ١٩٧٤م، مجلة كلية الشريعة، جامعة أم القرى، العدد (٢)، عام ١٤٠٤هـ؛ أسد رستم، الزم في سياساتهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، ج٢، ط. بيروت ١٩٥٦م، ص١٤٤-١٦٨؛ حسنين ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ط. القاهرة ١٩٨٣م، ص٢١٧-٢٣٢؛ تمارا تالبوت رايس، السلاجقة، ت. لطفى الخورى والداقوى، ط. بغداد ١٩٦٨م، ص٧٢؛ زبيدة عطاء، الترك في العصور الوسطى، ط. القاهرة ب-ت، ص٩٩-١٠٠.

(١١) زكى حسن، المرجع السابق، ص٨٩؛ أحمد رمضان، المرجع السابق، ص٢٨٤.

(١٢) السهروردى الحلبي المقتول، اختلف المؤرخون في اسمه، فقال بعضهم أنه أحمد، وقيل كنيته اسمه وهو أبو الفتح وقيل كذلك ان اسمه عمر أو يحيى بن بخش، ولقب بالمؤيد بالملكوت، وقد ولد في سهرورد وهي بلدة صغيرة في العراق العجمى وذلك حوالى عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م، ودرس الفلسفة وأصول الفقه، وكان يرى رأى المعتزلة الذين لا يرون الصفات شيئاً خارجاً عن الذات. أما مذهبه في التصوف فمذهب الاشريقين الذين يعتقدون أن المعرفة تنال

باشراق منه تعالى على قلوب مرهبيه وملاحظ أن السهروردي قد ألف العديد من المؤلفات مثل التنظيمات في أصول الفقه، والألواح العمادية، وكتاب التلويحات، وكتاب هياكل النور، وكتاب اللوحات، وكتاب المعارج، وكتاب حكمة الإشراق، وكتاب المطارحات، ورسالة الغربة الغريبة، وتجدر الإشارة إلى أن السهروردي قد اتجه إلى مدينة حلب حيث توطدت الصداقة بينه وبين الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي، بيد أن الفقهاء أفتوا بتكفيره، ثم إعدامه بأمر من السلطان الأيوبي، وذلك في عام ٥٨٧هـ / ١١٩١م. عن السهروردي الحلبي المقتول أنظر :

ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، ط. بيروت ب-ت، ص ٦٤١-٦٤٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٩، ١١٤؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج ٤، ص ٤٩٠؛ مجموعة من الباحثين، شهاب الدين السهروردي في ذكراه، ط. القاهرة ١٩٧٠م؛ محمد مؤنس أحمد عوض، التنظيمات الدينية، ص ١٥٢-١٥٧؛ أحمد أحمد بدوي، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ط. القاهرة ب-ت، ص ٢٨٩-٢٩٥؛ قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص ٢٠٨؛ محمد أديب الحصيني، منتخبات التواريخ لدمشق، ج ٢، ط. دمشق ١٩٢٨م، ص ٤٧٥؛ علي أصغر حلبي، تاريخ فلاسفة إيران أزاغاز اسلام فاروز، شهران ١٩٥١م، ص ٤٩٨؛ قاسم فتحي، تاريخ تصوف در اسلام، جله قوم، ط. شهران، ص ٦٧٠؛ عبدالله رازي، تاريخ كامل إيران، ص ٢٥٥.

(١٣) ابن خلكان، المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٤٧.

(١٤) نفسه، نفس المصدر، ص ٣٤٧؛ زكي حسن، المرجع السابق، ص ٨٩، نفيس أحمد، المرجع السابق، ص ١٠٣؛ أحمد رمضان، المرجع السابق، ص ٢٨٤؛ علي عبدالله الدفاع، المرجع السابق، ص ١٦٩.

(١٥) عن ذلك الملك الصليبي أنظر :

Ambrose, The Crusade of Richard of Heart of Lion, Trans. by Hubert, New York 1943; Godfrey of Vinsauf, History of the expedition of Richard coeur de Lion, in Chronicles of the crusades, London 1902.

(١٦) صلاح الدين الشامي، الفكر الجغرافي، سيرة ومسيرة، ط. الاسكندرية ١٩٨٠م، ص ٢٥٨.

(١٧) ابن خلكان، المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٤٦.

(١٨) الهروي، الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق جانبين سورديل، ط. دمشق ١٩٥٣م، ص ٢٠.

(١٩) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٣.

(٢٠) نفسه، نفس المصدر، والصفحة.

(٢١) عن المذبحة التي أقامها ريتشارد الأول لحماية عكا المسلمة، أنظر المصادر والمراجع التالية :

ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ١٧٤؛ ابن الأثير، الكامل، ح ١٢، ط. بيروت ١٩٧٩م، ص ٦٧؛ العماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبح، ط. القاهرة ١٩٦٥م، ص ٥٧٨؛ أبو شامة، الروضتين في تاريخ الدولتين، ح ٢، ط. القاهرة، ص ١٨٩؛ ابن الوردي، تمة المختصر في أخبار البشر، ح ٢، ط. القاهرة ١٢٨٥هـ، ص ١٠٣؛ ابن خلدون، العبر ودهوان المبتدأ والخبر، ح ٥، ط. القاهرة ١٢٨٤هـ، ص ٣٢٦؛ ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، م ٤/ ح ١، تحقيق حسن الشماخ، ط. بغداد ١٩٦٩م، ص ٢٧.

Jacques de Vitry, A. History of Jerusalem, p. 113; Roger of Wondover, Flowers of History, Trans. From The Latin by Gries, Vol. II, London 1849, p. 105.

أحمد عبدالجواد الدومي، صلاح الدين الأيوبي الناصر لدين الله، ط. صيدا ب-ت، ص ١٢٤؛ جنغيفاف شوفيل، صلاح الدين بطل الإسلام، ت. جورج أبي صالح، ط. بيروت ١٩٩٢م، ص ١٠٣؛ وفاء محمد علي، دراسات في تاريخ الدولة الأيوبية، ط. القاهرة ١٤١٠هـ/ ص ٧٢؛ سيد الحريري، الأخبار السنوية في الحروب الصليبية، ص ٢٧٤؛ أنظر سعداوي، التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين، ط. القاهرة ١٩٥٧م، ص ٢٨٠. تاريخ إنجلترا وحضارتها في العصور القديمة والوسطى، ط. القاهرة ١٩٦٢م، ص ٩٢؛ محمد مؤنس أحمد عوض، نقد اتجاهات بعض الباحثين الغربيين في دراسة تاريخ الحروب الصليبية، مجلة بيار، النادي الأدبي بأبها، العدد (١١)، رجب ١٤١٤هـ، ص ١٣٧؛ قدرى قلعجي، صلاح الدين الأيوبي، ط. بيروت ١٩٧٩م، ص ٣٩٥.

Lane-Poole, A History of Egypt in the middle ages, London 1898, p. 210; Lamb, The Crusades, The Flame of Islam, London 1921, p. 129; Oman, A History of The art of war in the middle ages, Vol. II, Cambridge 1924, p. 305; Duggan, The story of the Crusades, p. 187.

(٢٢) الهرري المصدر السابق، ص ٢٠-٢١.

(٢٣) نفسه، نفس المصدر، ص ٢١.

(٢٤) عن كافة أولئك الرحالة أنظر :

محمد مؤنس أحمد عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية

(١٠٩٩-١١٨٧م)، ص ٤٢، ص ٣٣٨.

(٢٥) الهروى، المصدر السابق، ص ٢٥-٢٦.

(٢٦) عن ذلك أنظر القائمة التالية :

ابن بصري (ت ٥٨٦هـ / ١١٩٠م) له كتاب فضائل بيت المقدس، ابن الحوزي (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م)، له كتاب فضائل القدس، وقد حققه جبرائيل سليمان جيور، ط. بيروت ١٩٨٠م، وبهاء الدين القاسم بن عساكر (ت ٦٠٠هـ / ١٢٠٤م) له الجامع المستقصى في فضائل المسجد الأقصى، القاضي أمين الدين أحمد بن محمد الشافعي (ت ٦١٠هـ / ١٢١٤م) له الأنس في فضائل القدس. عبدالرحمن بن علي بن اسحاق (ت ٦٢٥هـ / ١٢٢٩م) له مفتاح المقاصد ومصباح المراصد في زيارة بيت المقدس، أبو سعد عبدالله بن عساكر (ت ٦٣٥هـ / ١٢٣٩م) له فضل بيت المقدس، شمس الدين الكنجي (ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٦م)، له فضائل بيت المقدس، وفضل الصلاة فيها، أبو اسحاق المكناسي (النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي) كتاب فيه فضائل بيت المقدس وفضائل الشام، مؤلف مجهول، فضائل الشام، وفضائل مدنها، وبيت المقدس، وعسقلان، وغزة، والرملة، وأريحا، ونابلس، وبيسان، ودمشق، وحمص... إلخ، الفزاري (ت ٧٢٩هـ / ١٣٣٣م) كتاب باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس، وقد حققه مارتن نوث Martin Noth ونشر في J.P.O.S., Vol. XV, 1939 .

عن تلك المؤلفات التي تناولت فضائل المسجد الأقصى وبيت المقدس أنظر :

الواسطي المقدس، فضائل البيت المقدس، تحقيق اسحاق حنون، معهد الدراسات الآسيوية والافريقية، الجامعة العبرية بالقدس، ط. القدس ١٩٧٨م، ص ١٢٠، جميل العسلي، مخطوطات فضائل بيت المقدس، درة وبلوغرافيا، ط. عمان ١٩٨٤م، ص ٤١-٦١، محمود إبراهيم، فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة، دراسة تحليلية، ونصوص مختارة محققة، المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة، ط. الكويت ١٩٨٥م، ص ٢٠٨-٥٢٩، أحمد رمضان، الأقصى المبارك في ذاكرة العلماء والمؤرخين، مجلة المنهل، العدد (٥٠٨)، م (٥٥)، الربيعان ١٤١٤هـ / أغسطس، سبتمبر ١٩٩٣م، ص ٦٨-٧٣، كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج٦، ت. السيد يعقوب بكر، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص ٧٣-٧٥، رمضان ششن، نوادر المخطوطات العربية في مكتبات تركيا، المجلد الثاني، ط. بيروت ١٩٧٢م، ص ٤٤٨، عبدالجليل حسن عبدالمهدي، الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي، ط. عمان ١٩٨٠م، ص ١٧٢-١٧٣.

(٢٧) الهروى، المصدر السابق، ص ٤.

- (٢٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.
- (٢٩) نفسه، نفس المصدر، ص ٨.
- (٣٠) نفسه، نفس المصدر والصفحة.
- (٣١) نفسه، نفس المصدر، ص ١٩.
- (٣٢) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٨.
- (٣٣) نفسه، نفس المصدر، والصفحة.
- (٣٤) نفسه، نفس المصدر والصفحة.
- (٣٥) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٧.
- (٣٦) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٤.
- (٣٧) نفسه، نفس المصدر، ص ٧. وعن يوشع بن نون أنظر : الفصل الرابع، الباب الأول، حلشوة (٢٥).
- (٣٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.
- (٣٩) سورة ، رقم () آية () .
- (٤٠) الهروي، المصدر السابق، ص ١١.
- (٤١) نفسه، نفس المصدر، ص ٣٢.
- (٤٢) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٤.

٤ - ابن جبير

(ت ٦١٦ أو ٦١٧هـ / ١٢١٩ أو ١٢٢٠م)

يتصدى هذا الفصل بالدراسة لأحد الرحالة الأندلسيين الذين قدموا إلى بلاد الشام، خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، ونعني به ابن جبير^(١) (ت ٦١٦ أو ٦١٧هـ / ١٢١٩ أو ١٢٢٠م)، وقد ألف رحلة^(٢) هامة تناول فيها العديد من الجوانب السياسية، والحربية، والاجتماعية، والاقتصادية، والعقائدية، في حياة بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية. وفي بعض الأحيان تجده يتفرد بإيراد إشارات لا نجد لها نظيراً في رحلات الرحالة المسلمين الذين زاروا بلاد الشام في ذلك العصر، ومن ثم تحتل رحلته مكانة خاصة من بين ما وصل إلينا من مؤلفات خاصة بالرحلة الإسلامية إلى هناك.

وابن جبير؛ هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكتاني^(٣) الأندلسي، وأسرته في الأصل من مدينة شاطبه، وقد ولد في بلنسية. وذلك في عام ٥٤٠هـ / ١١٤٥م، وقد اهتم والده بتربيته؛ فدرس العلوم الدينية واللغوية، وظهرت موهبته الأدبية فقرض الشعر، ولمع اسمه، ومن ثم اتخذه حاكم غرناطة أبو عثمان سعيد بن عبدالمؤمن، رفيقاً له وجعله أحد كتاب ديوانه^(٤).

ويذكر أن حاكم غرناطة اضطره إلى شرب الخمر، وكافأه على ذلك بأن أعطاه سبعة كؤوس مليحة بالدنانير، وقد عقد ابن جبير العزم على أن يقوم بالحج إلى بيت الله الحرام من أجل التكفير عن ذلك الإثم الكبير، ومن هنا نهتت في ذهنه فكرة الارتحال إلى الشرق^(٥).

وقام ابن جبير بثلاث رحلات إلى الشرق. إذ أنه غادر غرناطة في عام ٥٧٨هـ / ١١٨٣م وركب البحر في سفينة وقصد الاسكندرية وتنقل في أنحاء مصر، ثم أتجه من عيذاب إلى الحجاز حيث قام بتأدية فريضة الحج، ومكث في الأرض المقدسة مدة ستة أشهر ثم أتجه إلى العراق، ثم إلى بلاد الشام حيث كان الصليبيون قد أخضعوا بعض المناطق هناك، ثم ركب البحر من عكا عائداً إلى بلاده؛ فوصل إلى هناك في عام ٥٨١هـ / ١١٨٥م (٦).

ثم قام برحلة ثانية؛ إذ أنه قد علم بانتصار المسلمين على الصليبيين عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م، فقرر الذهاب مرة أخرى إلى الشرق من أجل أن يشاهد المناطق الإسلامية بعد أن تم تحريرها من قبضة الغزاة الصليبيين، فارتحل إلى هناك عام ٥٨٥هـ / ١١٨٩م، وعاد إلى بلاده في عام ٥٨٧هـ / ١١٩١م (٧).

أما الرحلة الثالثة، فيختلف الباحثون في شأن دوافعها، فالبعض يرى أنه قد توفيت زوجته، وكان يحبها حباً شديداً، ولا أدل على ذلك من أنه نظم ديواناً من الشعر في رثائها وأراد أن يسرى عن نفسه، فلم يجد بداً من الارتحال، فرحل رحلته الثالثة (٨) وذلك عام ٦١٤هـ / ١٢١٧م، وأقام بمكة المكرمة فترة من الزمن ثم رجع إلى الاسكندرية، وأقام بها إلى أن أدركته منيته هناك.

بينما يرى البعض الآخر أنه لم يقم برحلته الثالثة من أجل حزنه على زوجته، وإنما من أجل حب البحث واكتساب المعرفة (٩)، وفي تقديرى أن الدافعين معاً وجها ذلك الرحالة إلى القيام بتلك الرحلة. فمن المتصور أنه قد أصابه الحزن الشديد لرحيل زوجته فأراد بتغيير المكان أن يجد راحته خاصة بالذهاب إلى الأماكن المقدسة الإسلامية، بالإضافة إلى حبه للبحث واكتشاف عالمه المحيط به.

مهما يكن من أمر، فإن ابن جبير ترك لنا رحلته الهامة. وقد اختلف في عنوانها، إذ أن حاجي خليفة قد جعلها رحلة الكتاني (١٠)، ويلاحظ أن المخطوط يبدأ

بعبارة «تذكرة بالأخبار فى اتفاقيات الأسفار»، كما أنه ينتهى بعبارة (١١) «كتاب اعتبار الناسك فى ذكر الآثار الكريمة والناسك»، وقد تشكك المستشرق رايت Wright فى عنوان الكتاب بالشكل الأخير، ولذا فقد فضل أن يكون العنوان هو «رحلة ابن جبير» (١٢).

وتجدر الإشارة إلى أن رحلة ابن جبير تلك هى تسجيل لرحلته الأولى، وقد كتبها على شكل مذكرات يومية يستخدم فيها دائماً التاريخين القمري (مع السنة الهجرية) والشمس (دون أن يذكر السنة)، وعنى فيها بتسجيل الجوانب الدينية والعقائدية وكذلك الاجتماعية (١٣)، وامتاز أسلوبه بالحيوية المتدفقة وسهولة التعبير وسلاسته، مع ملاحظة أنه أحياناً يلجأ إلى الصنعة الأدبية ومن مظاهرها السجع وإن عالج به الكثير من المهارة دون مبالغة، وهناك من يقرر أن ذلك المصنف «رفيع الأسلوب يختتم بجدارة حلقة الجغرافيين الأندلسيين لذلك العصر» (١٤).

ويذهب أحد الباحثين إلى القول بأن كتابة ابن جبير عن الرحلات تتسم «بركاسة التعبير أحياناً»، وعدم ترابط الجمل، والأفكار أحياناً أخرى، وأنها تكشف العجز فى بنيته، وتكوين وتركيب الصور، والانطباعات التى يمكن أن يستخلصها القارئ من كتابات ابن جبير (١٥).

والواقع أن ذلك رأى لا ينطبق على الواقع فى شئ، لأن رحلة ابن جبير تتسم بالفعل بسلاسة التعبير ومرونته، ولا يستشعر المرء فيها بتلك الأوصاف التى يذكرها الباحث السابق، مع ملاحظة أن الباحثين فى مجال الجغرافيا والرحلات الإسلامية فى العصور الوسطى قد اتفقوا على تلك الميزات الخاصة لرحلة ابن جبير (١٦)، وكان ذلك بالطبع من عوامل حصولها على الشهرة الفائقة من بين ما وصل إلينا من مؤلفات الرحالة المسلمين فى تلك العصور.

وهناك ناحية هامة جدية بالملاحظة، وهى بشأن المصادر التى اعتمد عليها ابن جبير فى تأليف رحلته خاصة ما اتصل ببلاد الشام، ويلاحظ أنه اعتمد فى المقام الأول على المشاهدة والملاحظة، وكانت لديه قدرة فذة على ملاحظة كل ما تقع عليه عينيه وإيراده خاصة ما يجده جديداً أو غير مألوف، ومن المهم أن ينقله لقارئ رحلته، وفى هذا المجال نذكر أنه كان يسأل المعاصرين عما يعنّ له من أمور تستعصى عليه فى الفهم، بالإضافة إلى ذلك، نجد أحيانا يورد بعض الإشارات لكتب قرأها لاسيما خلال زيارته لحاضرة الشام الكبرى؛ دمشق (١٧).

ويلاحظ أن مقدار المشاهدة والملاحظة تتفوق بشكل واضح فى رحلته لاسيما عن بلاد الشام، وهو لا ينقل عن رحالة آخرين، أو يقدم نصوصا للسابقين وإنما يقدم رؤيته الشخصية الخاصة به، ومن هنا كانت القيمة المتزايدة لرحلته.

زد على ذلك إنه دخل مناطق الصليبيين، وتناول أوضاع المسلمين الخاضعين لسيطرتهم، وتحدث عن العلاقات السلمية بين الجانبين، وكل ذلك من خلال رؤية نافذة، وملاحظة واعية، وبأسلوب أدبى رفيع المستوى على نحو ندرك معه أن الأدب والجغرافيا والتاريخ، اجتمعوا سويا، بتوافق فذ فى رحلة ذلك الرحالة الأندلسى المتمكن من أدوات الرحالة بجدارة.

ونجد الإشارة إلى أن القسم الخاص ببلاد الشام فى رحلة ذلك الرحالة الأندلسى يعد قسما كبيرا إذا ما قورن بالأجزاء الخاصة بالأقاليم الأخرى فى نفس الرحلة. ويقدم فى روايته عنها التفاصيل الثرية المسهبة التى يجد فيها الباحث ذاته عندما يطالعها. ويركز على جوانب لا تهتم بها كتب الحوليات التى تعنى أول ما تعنى بالجانب السياسى والحربى دون أن تلقى الضوء على الزوايا الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية.

وابن جبير رجل ذو عاطفة دينية جياشة، ومشاعره الإسلامية واضحة بصورة لا تنكر، وهو يختلف عن الإدريسى الذى لا نجد فى كتابته تلك الزاوية إلا نادرا نظرا

لارتباطاته السلطوية مع روجر الثاني ملك صقلية (١١٨). ومن ثم نجد تعبيراته صريحة لاسيما حيال عدائه للصليبيين، في عصر استقر فيه العداء بين عالمي الإسلام، والمسيحية.

من جهة أخرى، فإن ذلك الرحالة، عندما تحلل نصوص رحلته، لاستخلاص دلالاتها النفسية، نجد أنه يعكس لنا بصورة جلية كافة انفعالاته كسائح ورحالة مسلم لاسيما عندما يدخل مناطق الصليبيين، حيث يتغير النص بعد أن كان من خلال معنويات مرتفعة عندما كان الرحالة يمر بمناطق المسلمين، ونجد أن النص ذاته يتحول إلى مشاعر مضطربة أخرى، ومريرة عندما يستشعر أنه غريب في مناطق كانت من قبل من أملاك المسلمين وصارت ضمن نطاق أعدائهم وضاعت من الأولين من جراء الانقسام والتشرذم والتهاون، وقد ساعده على ذلك التوضيح أن لا يوجز عبارته على نحو ما وجدناه للإدريسي بل إنه يفصلها، ويقدم تصورات العقلية وأحاسيسه النفسية الصادقة دون موارد على نحو أعان على إثراء رحلته.

ومن الممكن أن أقرر أن البعد السيكولوجي في رحلة ابن جبير في بلاد الشام كان من أهم عوامل الحيوية المتدفقة في سطورها وبالتالي تميزها.

والجدير بالذكر، أن إشارات ابن جبير عن بلاد الشام نجدها تحوى كافة الجوانب المتعلقة والمتصلة بتلك البلاد، حتى نكاد نعتقد أنه لم يترك شيئاً جديراً بأن يتناوله في رحلته ولم يذكره. وفي تقديري أن اكتمال بناء رحلته يعكس أنه من قبل أن يخرج ويرتحل اطلع على مؤلفات الجغرافيين والرحالة المسلمين السابقين، وعلى مدى قرون عديدة سابقة على القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، ومن ثم حصل على خبرتهم التعبيرية، لأن النص ذاته يعكس خبرة كبيرة ليس من السهل أن نجدها لدى رحالة لأول مرة يكتب رحلة، وتعليل ذلك أنه تلقى علومه المتعددة منذ حداثة سنه، وهكذا من الممكن توقع مطالعته على العديد من تلك المؤلفات قبل أن يقوم بمهمته في كتابة رحلته.

مهما يكن من أمر، فإن ابن جبير تناول في رحلته العديد من الجوانب المتصلة بحياة بلاد الشام سواء في المناطق الصليبية أو الإسلامية، ومن ذلك تعرضه للساحل الشامي، والجوانب الاقتصادية المتعددة، ثم دور عناصر المغاربة في حياة بلاد الشام، والخريطة المذهبية لتلك البلاد أو المزارات الدينية، سواء للمسلمين أو المسيحيين، ثم القلاع، والحصون، أو العمارة الحربية في ذلك العصر.

وفيما يتصل بالساحل الشامي، نجد أن ذلك الرحالة قدم تناولاً هاماً لعدد من المدن الساحلية وبتفاصيل هامة ومن ثم لم تقض على رؤيته ظاهرة الاختصار التي وجدناها عند من سبقه من الجغرافيين لاسيما الإدريسي، وهو عندما تعرض لعكا قدم وصفاً يفيض بالحيوية المتدفقة بين كلماته، وقد أوضح أنها «قاعدة مدن الإفرنج بالشام» (١٩) أي أنها بمثابة المركز الصليبي في بلاد الشام، ومن المعروف أنها كانت بمثابة القلب التجاري لذلك الكتاب، وأشار إلى أنها مشبهة في عظمتها بالقسطنطينية (٢٠)، وتتصور أن ذلك الوصف الأخير يحوى مبالغة كبيرة وغير منطقية، خاصة إذا ما علمنا أن ابن جبير لم يشاهد القسطنطينية ذاتها، ومع ذلك فإن مجرد مثل تلك العبارة تعكس ضخامة شأن تلك المدينة الساحلية الشامية ونعني بها عكا، خاصة أنها كانت أشبه شئ بمدينة عالمية يلتقى فيها التجار من كافة الأقطار. وقد قدم لنا وصفاً للكثافة السكانية المتزايدة بها فأشار إلى أن شوارعها «تغص بالزحام، وتضيق فيها مواطع الأقدام» (٢١) وفي هذا التعبير الأدبي، التصوير الحقيقي للكثافة السكانية في تلك المدينة التي التقى فيها التجار من كافة أنحاء العالم المعمور حينذاك.

ويلاحظ أن ذلك الرحالة، قد أدرك الدور الصليبي الخطر في تغيير هوية المنطقة وتحويلها عن الإسلام، من خلال البعد التنصيري، إذ أنه بعد أن أشار إلى خضوع عكا لسيطرة الصليبيين في «العشر الأول من السنة السادسة» (٢٢)، ومن المقرر بالطبع أنها سقطت في قبضتهم عام ٤٩٨هـ / ١١٠٤م، منجده يشرح حال تلك المدينة فيذكر أن

مساجدها تحولت وصارت كنائس، وضوامعها صارت محل أحد النواقيس^(٢٣)، وفي مثل ذلك التعبير نجد يكشف بهجاء عن دور الصليبيين فبتغيير هوية المنطقة الإسلامية ومحاولة تنصيرها من خلال القضاء على الدور الهام لأماكن العبادة الإسلامية في صورة المساجد، بل وصل الأمر أن صارت هناك بقعة صغيرة في مسجد عكا الجامع يجتمع فيه الغرباء من أجل إقامة الصلاة. ويمكن وصف ابن جبير بأنه شاهد عيان معاصر على تلك الحقيقة ألا وهي السياسة التنصيرية التي أراد للصليبيون تنفيذها في منطقة الشرق الأدنى من أجل توسيع رقعة عالم المسيحية على حساب الإسلام والمسلمين.

أما مدينة صور فإن ابن جبير يقدم لنا أكبر وصف وصل إلينا من ذلك العصر عن حصانة تلك المدينة الواقعة على الساحل اللبناني، وتناول تلك المناعة من جهة البر وكذلك من ناحية البحر، وتعرض للسلسلة الكبيرة التي تعوق دخول السفن الغير مرغوب فيها، ولا مجال للمراكب إلا عند إزالتها، كما تناول الحراس الذين يراقبون الدخول والخروج إلى ومن المدينة^(٢٤).

زد على ذلك أنه لا يورد مدن الساحل الشامي فقط، بل إنه يعقد المقارنة بينها على نحو عمق رؤيته لها، ومن أمثلة ذلك أنه عقد مقارنة بين صور وعكا، ويبدو أن المدينة الأولى قد كانت أقل في إشعاره بالاغتراب، فامتدحها إذا ما قورنت بعكا، إذ أشار إلى أنها أنظف من الأخيرة، ووجه أهلها ألين في طبائعهم، ويميلون إلى الغرباء أكثر من أهل عكا، أما أوضاع المسلمين فيها فهي أقل سوءا منها^(٢٥).

وتجدر الإشارة إلى أن عقد المقارنة بين المدن الشامية في ذلك العصر، لا نجده لدى الرحالة المسلمين بمثل تلك الصورة التي نجدها لدى ابن جبير، والصفة الغالبة أنهم كانوا يوردون إشارات عن كل مدينة دون عقد مثل تلك المقارنات، ومن ثم تظهر لنا أهمية ذلك الرحالة الأندلسي.

ومن الملاحظ أن ابن جبير لا يشير في رحلته إلى كل المدن الساحلية التي كانت في قبضة الصليبيين، ولذا فمن الممكن أن نرى أن وصفه لمكا وصور يمكن أن يكون نموذجاً لتصوره عن تلك المدن ذات الموقع الاستراتيجي الهام، والذي مثل نقطة الاتصال بين الغزاة الصليبيين ووطنهم الأم في أوروبا التي تقدم لهم الدعم المادي والمعنوي اللازم لاستمرار المشروع الصليبي.

من جهة أخرى، تكشف رحلة ابن جبير إلى بلاده الشام عن وجود ما يمكن وصفه «برؤية اقتصادية» لذلك الرحالة الأندلسي، وفي هذا المجال أشار إشارات هامة لم تأت بصورة عرضية، وإنما جاءت مقصودة وثرية، ومفصلة، على نحو عكس تلك الرؤية وعمقتها.

وفي هذا المجال ذكر العديد مظاهر النشاط الاقتصادي في عدد من المدن الشامية خاصة تلك الواقعة تحت السيادة الإسلامية.

وعلى سبيل المثال، أشار إلى بعض الصناعات في مدينة دمشق، منها صناعة الثياب، وكذلك الصناعات النحاسية. وذكر موقعها بطول جدار الجامع الأمور القبلي^(٢٦)، يد أن إشارته للنشاط التجاري تعد ثرى وأكبر، من ذلك أنه تناول الأسواق في العديد من تلك المدن، ومن أمثلة ذلك تعرضه لأسواق تلك المدينة وذكر أنها من أحفل أسواق بلاد الشام وأحسنها انتظاماً^(٢٧)، أما حلب فهي عنده أسواقها واسعة وكبيرة، منتظمة ومستطيلة، وهي مسقوفة بالخشب، بها جميع الصناعات المدنية^(٢٨)، أما حماة فقد تعرض لأسواقها وأشار إلى أن أسواق المدينة العليا فيها أفضل وأجمل من المدينة السفلى وهي تشمل كافة الصناعات وأنواع السلع التجارية. وتمتاز بأنها منتظمة ومرتبطة ومقسمة^(٢٩). وعند بزاغة، تجده يقرر أنها ذات سوق تجتمع فيه المرافعة الشعرية، وكذلك أنواع التجارة الموجودة في المناطق الحضرية^(٣٠).

وفى رؤيته الاقتصادية لتلك الأسواق التجارية نجده يفرق بين المزدهر منها والكاسد، فإذا كان قد امتدح أسواق المدن السابقة، ووصفها بصفة عامة على أنها مزدهرة، إلا أنه بالنسبة لأسواق حمص أوضح أنها تعاني من الكساد، وذكر أنها بلا رونق^(٣١)، ويلاحظ أن ابن جبير لم يترك الأمور هكذا دون أن يشرح السبب، ويقدم التفسير الحقيقي لذلك الأمر، فأوضح أن وجود أحد المعازل الصليبية الكبرى ونعني به حصن الأكراد Crac des Chevaliers^(٣٢)، على بعد عشرة أميال من المدينة، وهجوم العناصر الصليبية فيه على تلك المدينة، كل ذلك جعلها مدينة حدودية ثغرية تعاني من الكساد التجارى.

إن وضع أسواق حمص بالصورة التى أوردها ذلك الرحالة وبنفس التعليل الهام الذى قدمه، يكشف لنا عن حقيقة هامة، وهى أن مناطق الاحتكاك الحربى بين المسلمين والصليبيين، عانت من عدم الانتعاش التجارى نظراً لاستمرارية لغة الحرب، والصدام بين الجانبين على نحو هدد التجارة.

ومن جهة أخرى، وجدنا ابن جبير يشير إلى ما يمكن وصفه بالمؤسسات التجارية، من ذلك تناوله للخانات والقياسر، وعلى ذلك نجد أنه أشار إلى أن حلب، بها ربح كبير، فيه ما لا يحصى من الخانات^(٣٣)، ويلاحظ أن تلك الأخيرة، كانت بمثابة نزل للمسافرين وإن تطورت وظيفتها بحيث صارت بمثابة مكان لقضاء الأعمال التجارية^(٣٤).

ولم يكتف ذلك الرحالة بتتبع أمر الخانات فى دمشق، بل أنه تناوله كذلك فى حمص، إذ ذكر أن هناك خان السلطان؛ الذى أقامه السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، وقد وصفه بأنه فى غاية الحسن، وله باب حديد، ومزود بالماء الجارى، وفى وسطه سقاية تشبه الصهريج^(٣٥).

كذلك تعرض لإحدى المنشآت التجارية الأخرى الهامة وهى القياسر. وقد ورد أمرها فى دمشق، ومن المعروف أن القيساريات كانت بمثابة عمائر تجارية مسقوفة كانت

فى الغالب ذات دكاكين تختص بسلعة تجارية معينة وعدة أنواع من البضائع، وكانت أبوابها تغلق ليلاً، ويتم تعيين الحراس^(٣٦) لها من أجل مواجهة عمليات السطو المحتملة.

وفى هذا الصدد أشار إلى قياسر دمشق، وذكر أنها مرتفعة مثبتة بأبواب حديدية الصنع، ومن إعجابه بها وصفها بأن أبوابها «كأبواب القصور»^(٣٧).

نخلص مما سبق أن ابن جبير تناول مصطلحين من المصطلحات الاقتصادية التجارية الهامة تختص بالتسويق والتخزين، وكذلك الكساد التجارى. بل وأكثر من ذلك أنه تناول أمر الاحتكار التجارى.

وفى المجال الآخر، انفرد ابن جبير بإشارة هامة للغاية، تعكس طبيعة ذلك العصر، الذى شهد ما يمكن وصفه بالثورة التجارية، إذ أن الحروب الصليبية أدت إلى إثراء الصلات التجارية بين الشرق والغرب بصورة لم تكن موجودة بمثل ذلك الشكل من قبل، وكنتيجة طبيعية لذلك الوضع أخذت المصادر تشير إلى ضخامة حجم التعامل النقدى، فى مثل تلك العملات التجارية، وظهرت بصورة واضحة رؤوس الأموال الضخمة، وخاصة فى التعامل التجارى الدولى.

وهكذا، وجدنا ذلك الرحالة يشير إلى ظاهرة الاحتكار التجارى وتركزه فى عدد قليل للغاية من التجار الرأسماليين الكبار، ومن أمثلة ذلك ذكره لأمر تاجرين هما نصر بن قوام وأبى الدر ياقوت مولى العطافى^(٣٨)، وهما عنده على درجة كبيرة من الثراء، والدليل على ظاهرة الاحتكار تلك أنه ذكر صراحة «تجارتهما كلها بهذا الساحل الإفريقى، ولا ذكر فيه لسواهما»، كما أن القوافل التجارية صادرة وواردة تحمل البضائع لحسابهما.

ومن الطبعى أن توجد عوامل تساعد على نمو ذلك الوضع، وهى تتمثل فى الثراء

العريض وتوافر رأس المال الضخم للمشاركة به فى العمليات التجارية الواسعة النطاق،
والتي توصف بأنها تجارة دولية، بالإضافة إلى حماية سياسية عالية المستوى من أجل
استمرار ذلك الوضع، وهذا ما اعترف به ابن جبير نفسه، إذ قرر أيضاً أمرين، أولهما؛ أن
التاجرين المذكورين من «مياسر التجار وكبرائهم، وأغنيائهم المنغمسين فى الشراء» (٣٩)،
أما ثانيهما فهو أن «قدرهما عند أمراء المسلمين والإفرنجيين خطير» (٤٠).

والجدير بالذكر، أن الدليل على قوة ذلك الدور الذى قام به هذان التاجران، هو أن
علاقاتهما ليست قوية بالسلطة الأيوبية القائمة فقط؛ بل أنها أيضاً قوية بالقرى الصليبية،
وهذا أمر منطقي تماماً أن تكون صلاتهما ممتازة، بطرفى النشاط التجارى من أجل توفير
الأجواء المناسبة لاستمرارية ذلك الدور. ويدهى أن ذلك الدعم السلطوى جاء من خلال
مصالح قائمة بين السلطة، وأولئك التجار الذين أفادوا خزائن الدولة بأموال طائلة من
عوائد المكوس المفروضة.

ولا نزاع فى أن ذلك الرحالة الأندلسى قد قدم بذلك التناول جانباً هاماً ما كانت
تتمكن من أن توضحه مؤلفات الحوليات التى عنيت بالجوانب السياسية والحربية وندر أن
تذكر الجوانب الاقتصادية التجارية وهى جوانب بالغة الحيوية فى ذلك العصر.

كذلك ألقى ابن جبير الضوء على جانب هام من جوانب العلاقات السلمية بين
المسلمين والصليبيين فى بلاد الشام ونعنى به التداخل فى المعاملات التجارية، إذ أشار
إلى أن قوافل المسلمين تدخل مناطق الصليبيين وقوافل الصليبيين تدخل مناطق
المسلمين (٤١).

ويلاحظ أنه فى تلك الناحية لم يستطع أن يقدم المبرر لذلك، على الرغم من
استمرار العداء بين الطرفين، أما التعليل الحقيقي لذلك، فهو أن كلا من الطرفين
المتحاربين لم يكن يستطيع الاستغناء عن الآخر، إذ أن الصليبيين بعد أن تمكنوا من
الاستيلاء على الساحل الشامى الممتد من السويدية أو سان سيمون St. Simoon مينا

أنطاكية إلى غزة جنوباً، وبعد عام ١١٥٣م / ٥٤٨هـ، عاماً حاسماً فى هذا المجال على اعتبار أن الصليبيين تمكنوا من إغلاق ذلك الساحل بالكامل فى وجه المسلمين، وصارت القوى الإسلامية الشامية بمثابة قوى برية حبيسة لا تستطيع تصريف منتجاتها التجارية إلا عن طريق الصليبيين أنفسهم؛ المسيطرين على الساحل. كما أن الأخيرين صاروا يقومون بدور الوسيط التجارى بين المسلمين والقوى التجارية الأوروبية، ولا ريب فى أن القوى الصليبية قد استفادت من ذلك الأمر وغنمت مغام وفيرة من عوائد المكوس من جراء تجارة العبور.

ومن الضرورة بمكان ملاحظة أن المسلمين لم يتمكنوا من حل مشكلة سيطرة الصليبيين على الساحل إلا بعد أن تمكنوا من هزيمتهم فى معركة حطين الفاصلة عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م، ثم اتجهوا إلى فتح الساحل وسيطرتهم على أجزاء هامة فيه ثم تغير ميزان القوى لصالحهم.

وهكذا، ألقت رواية ابن جبير فى ذلك الصدد الضوء الساطع على أن العداء اتخذ شكلاً حريكاً وسياسياً بين المسلمين والصليبيين، بيد أنه لم يتخذ البعد الاقتصادى، ولم يستطع أى من الطرفين أن يقطع الآخر تجارياً لأن ذلك كان يعنى الانتحار الذاتى له قبل القضاء على خصمه.

هكذا، ألقت رحلة ذلك الرحالة الأندلسى الأضواء على النشاط الاقتصادى، لاسيما التجارى فى بلاد الشام ولم يكن تناوله قاصراً على القوى الإسلامية فقط، بل إنه امتد ليشمل القوى الصليبية وعلاقاتها بالمسلمين على المستوى التجارى. ولذا حق لأحد الباحثين القول بأن «الحركة التجارية» قد أولاها ابن جبير أهمية كبيرة، وتفرد فى وصفها وتحليلها على نحو مميز (٤٢).

من جهة أخرى، قدم ابن جبير تناولاً هاماً لأوضاع المغاربة فى بلاد الشام خلال القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى. ويلاحظ أن ذلك الرحالة الأندلسى حرص

على أن يوضح أوضاع أولئك المغاربة الذين قدموا إلى بلاد الشام، وتركوا أوطانهم على الرغم من بعد الشقة.

وقد أوضح ابن جبير أنهم شاركوا في قضية الجهاد ضد الصليبيين مع إخوانهم في بلاد الشام، ووقع منهم عدد في أسر أعدائهم وقد حرص أثرياء التجار المسلمين على أن يفكوا أسرهم (٤٣) وكذلك كان موقف القيادة الإسلامية متمثلة في الملك العادل نور الدين محمود (٤٤). ولا شك في أن اشتراكهم في المعارك ضد الصليبيين قد جر عليهم عداؤهم، ولذا وجدنا أن الصليبيين، قد عملوا على فرض ضريبة زائدة على المغاربة على نحو خاص عقاباً لهم على تلك المشاركة (٤٥) في تلك القضية المقدسة.

ومن المؤكد أن دور المغاربة في مساعدة إخوانهم في المشرق ضمن الغزو الصليبي يدل على أن قضية الجهاد ضد ذلك الغزو، لم تكن قضية مشرقية فقط بل ومغربية أيضاً (٤٦).

ونجد أن ابن جبير يتعرض لأوضاع المغاربة بصفة عامة في بلاد الشام، فيوضح عملهم في مجالات متعددة، والجربات التي ترتبط بهم، ومن مظاهر عملهم في بلاد الشام أن يوجد أحد المغاربة حارساً على بستان أو أميناً على طاحونة، أو محفظ القرآن الكريم للأطفال (٤٧). وبصفة عامة فإن ذلك الرحالة يرغب المغاربة للقدوم إلى بلاد الشام لطلب العلم أو العمل، على اعتبار اتساع مجال الأرزاق هناك (٤٨).

ومن جهة أخرى، نجد أن ذلك الرحالة يمتلك قدرًا كبيراً من الموضوعية، ولا يتصف بالنظرة الأحادية، أو من زاوية واحدة، ولا أدل على ذلك من أنه لا يكيل الثناء والمدح لعناصر المغاربة بصفة مستمرة، بل إنه يذكر الإيجابيات والسلبيات، وذلك على الرغم من أنه قدم أصلاً من الغرب الإسلامي، فمن ذلك أنه أشار إلى أن أحد المغاربة - من ضعاف الإيمان - ارتد عن الإسلام، واتجه إلى اعتناق المسيحية، وقد ذكر أنه من يونة من أعمال بجاية ويبحث ذلك الرحالة عن تعليل ذلك، فعرف أنه كان أسيراً

وتم افتدائه على يد أحد أثرياء تجار المسلمين، ثم ذهب إلى عكا، فى إحدى القوافل التجارية، وقد صاحب الصليبيين، وتخلق بأخلاقهم، ووصل به الأمر أن ارتد عن الإسلام واعتنق المسيحية (٤٩).

فتجد رواية ابن جبير السابقة تاريخياً أنها وصلت إلينا من عصر شغل فيه المؤرخون المعاصرون بتسجيل المعارك الحربية، والتصارعات السياسية، عن ذكر مثل تلك الحوادث، ومع ذلك فهناك عدة دلالات هامة ينبغى أن نلاحظها من خلال رواية ابن جبير السابقة.

أولاً : أن تلك الحادثة ذات طابع فردى بحت، وقد خلت رحلة ذلك الرحالة من أية إشارة أخرى للتنصير، الفردى أو الجماعى على نحو يوضح أنها كانت أشبه شئ بالحادثة الاستثنائية المتفردة التى لم يورد ذلك الرحالة تكراراً لها.

ثانياً : من الضرورة بمكان ملاحظة أن الحادثة السابقة ليست استثناءً عددياً فقط، بل أنها أيضاً تمثل استثناءً تاريخياً بالنسبة لدور المغاربة فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية الذين حملوا لواء الجهاد، وشاركوا إخوانهم المشاركة فى جهاد أعداء الإسلام من الصليبيين، وهذا واضح من خلال نصوص ابن جبير نفسه.

وتجدر الإشارة إلى أن أسامة بن منقذ من قبل قد أشار إلى حادثة تنصير خاصة بالشاب المسيحي الذى اعتنق الإسلام ثم ارتد من بعد ذلك (٥٠)، ومن الواضح أن الفارق الأساسى بين رواية ابن جبير وحادثة المغربى، ورواية أسامة بن منقذ والحادثة التى أوردتها، أن المغربى كان مسلماً وارتماً إلى المسيحية. أما الشاب الذى أورد أمره أسامة بن منقذ، فكان مسيحياً فى الأصل ثم تحول إلى الإسلام، وارتماً من بعد ذلك، عنه إلى المسيحية، ويلاحظ أن أسامة بن منقذ أورد تلك الحادثة بصورة منفردة، مثلما كان الأمر لدى رحلة ابن جبير، على نحو يؤكد ما ذكرته من قبل بشأن كونها استثناءً فردياً.

من جهة أخرى، احتوت رحلة ابن جبير على تناول للخريطة المذهبية والعقائدية في بلاد الشام في ذلك العصر، ومن ذلك أنه تناول المتصوفة، كذلك تعرض للاسماعيلية النزارية.

وفيما يتصل بالمتصوفة؛ أشار إلى مكانتهم العالية في ذلك العصر الذي ازدهرت فيه تلك الظاهرة، واحتضنها الأيوبيون وعملوا على إرضائهم، وقد أشار إلى قيامهم بجلسات السماع، وإلى أماكنهم مثل الربط أو الخوانق، مع ملاحظة أنه لا يفرق بين الإثنين بل يعتبرها شيئاً واحداً (٥١).

أما فيما يتصل بالاسماعيلية النزارية، فنجد ابن جبير قد قدم لنا إشارات فريدة لا نجد لها لدى مصدر آخر من مصادر الرحالة المسلمين الذين زاروا بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية.

فمن الملاحظ، أنه تناول أمر النبوة، ودورها في مواجهة العناصر الشيعية في بلاد الشام (٥٢)، ويلاحظ أن هناك من الباحثين من اعتقد أنها إحدى الفرق الصوفية (٥٣)، غير أن هذا القول مردود على اعتبار أن صاحب ذلك الرأي خلط بين النبوة، والبيانية وهي الطريقة الصوفية الشامية، التي تنسب إلى نبا بن بيان الزاهد (٥٤).

كما أن أحد الباحثين اعتقد أن النبوة تنظم فروسى سنى، ضد عناصر الشيعة في العراق (٥٥)، بينما نجد أن نص ابن جبير واضح أنها موجهة للعناصر الشيعية في بلاد الشام، كما تصور البعض أن فعاليتها كانت في القرن السابع الهجري (٥٦) الثالث عشر، بيد أن نفس النص الذي أورده ابن جبير يوضح بجلاء أن فعاليتهم كانت خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي وليس القرن التالي له.

وقد قدم لنا ابن جبير تعريفاً للنبوة لم أجد نظيراً له في مؤلفات الرحالة المسلمين المعاصرين، واللاحقين، على مدى مرحلة الحروب الصليبية في بلاد الشام، وكذلك في

مؤلفات كتاب الحوليات المسلمين، وقد ذكر أنهم مسلطون ضد عناصر الرافضة، وهو تعبير يطلق أيضاً ليعنى عناصر الشيعة المتطرفين. وأشار إلى أنهم يأخذون بتقاليد الفروسية وأنهم يقتلون الروافض أينما وجدوا^(٥٧). ولم يكتف ابن جبير بذلك بل إنه عندما تحدث عن مدينة الباب الواقعة بالقرب من بزاغة في شمال شرق حلب^(٥٨). وعند وادى بطنان، ذكر أمر هجوم عناصر النبوية ضد الإسماعيلية هناك وحدد ذلك بأنه كان قبل ثمانى أعوام من تاريخ رحلته^(٥٩)، ولما كان ابن جبير قد قام بتلك الرحلة عام ٥٧٨هـ / ١١٨٣م فمعنى ذلك أنه يتحدث عن وقائع جرت عام ٥٧٠هـ / ١١٧٥م.

وقد أوضح ذلك الرحالة أنه تم وضع السيف فيهم، وتم افناؤهم عن آخرهم، وعندما مر بالمنطقة، وجد جماجم القتلى موجودة هناك^(٦٠).

وبلاحظ أن ابن العديم الحلبي^(٦١) (ت ٦٦٠هـ / ١٢٦١م) قد أشار إلى تلك الحادثة، وذكر أن عناصر النبوية قامت بمواجهة الإسماعيلية في الباب، وذكر أن حجم القتلى كان ضخماً^(٦٢). مع احتمال المبالغة بالطبع في مثل تلك المواقف.

وكان من جراء تلك المواجهة السنية / الشيعية في شمال الشام، وفي أعقابها أن وجدنا نزوحاً من العناصر الإسماعيلية القاطنة الباب، وإتجاهها إلى مناطق أخرى مجاورة، بحيث حدث تغير ما ديموغرافى في المنطقة بحيث أننا لا نجد العناصر الإسماعيلية تستمر في الوجود في الباب، ولا أدل على ذلك من أن ابن جبير نص صراحة أن «سكانها اليوم قوم سنيون»^(٦٣)، وفي هذا تأكيد واضح على دور وفعاليات النبوية التي لا يمكن أن نتفهمها إلا من خلال صحوة الفتوة التي أظهرها الخليفة العباسى الناصر لدين الله (ت ٦٢٢هـ / ١٢٢٦م)^(٦٤).

وهكذا، قدم لنا ابن جبير نصاً فريداً في تعريف النبوية وفي فعاليتهم في الباب، كما أنه أفاد في توضيح خريطة توزيعات السكان في ذلك العصر من خلال بعد عقائدى، وبعد هذا القسم من أهم ما أورده في رحلته عن بلاد الشام وأكثرها أصالة.

وبالإضافة إلى ذلك، نجد أن ذلك الرحالة أشار إلى تحصن الاسماعيلية في بلاد الشام بعدد من المعاقل وقد وصفها بأنها «حصون للملاحدة الاسماعيلية»، ومن جهة أخرى، نجده يتناول القيادة الاسماعيلية في ذلك الحين والتي تعرف أنها تمثلت في راشد الدين سنان بن سليمان الذى تولى قيادة الاسماعيلية هناك لأمد طويل بلغ ثلاثين (٦٥) عاماً (٥٥٩-٥٨٩هـ / ١١٦٣-١١٩٣م) وقد أشار ابن جبير إلى أن طائفة الاسماعيلية ألهمت راشداً هذا، وقد وصفه بأنه «شيطان من الإنس» (٦٦).

وتجدر الإشارة إلى أن ابن جبير قد ذكر أن سيطرة راشد الدين سنان على أتباعه بصورة متعاضمة، ولا أدل على ذلك من ذكره أنه إذا أمر أحدهم بأن يتردى من شاهقة جبل فإنه يستجيب لذلك من أجل لإرضائه (٦٧).

وقد تبدو رواية ذلك الرحالة في هذا الصدد غريبة، بيد أننا نملك رواية أخرى من أحد المصادر التاريخية الصليبية تشير إلى أن الأمير الصليبي هنرى دى شامبيني Henry de Champagne قد زار راشداً في معقله، فأراد الأخير، أن يظهر له سيطرته على أتباعه فأمر إثنين منهم بأن يلقوا بأنفسهم من فوق قمة جبلية، وقد نفذ ذلك الأمر (٦٨)، من فورهما ودونما معارضة.

وهكذا تأكدت رواية ابن جبير من خلال ورود رواية أخرى متطابقة في المصادر التاريخية الصليبية. ومثل تلك الروايات تعكس سيطرة شيخ الجبل على أتباعه وأن طاعتهم له كانت طاعة مطلقة، ويبدو أن تلك الطاعة قد أثارت عليه حق القاعدة الأم للدعوة الاسماعيلية في إيران ونعنى بها الموت، فأرسلت إلى راشد الدين سنان من يقضى عليه، بيد أن تلك المحاولة باءت بالفشل (٦٩) وهكذا ألفت رحلة ابن جبير الضوء على تلك القيادة الاسماعيلية الشامية.

زد على ذلك، أن رحلة ابن جبير عنيت عناية خاصة بتتبع ظاهرة تعليمية هامة عاشتها بلاد الشام في ذلك العصر، ألا وهى ظاهرة المدارس، وتجدر الإشارة إلى أن ذلك

العصر عرف على أنه عصر المدارس، التي انتشرت في كافة أنحاء بلاد الشام كجزء من انتشارها في العديد من أقاليم الشرق الأدنى كجزء من حركة تعليمية ثقافية ناهضة، وكتعبير عن حركة الاجتهاد السني التي كانت من خلال تلك المؤسسات التعليمية.

وفي هذا المجال نجد أن المدارس، والجوامع، والكتاتيب تقوم بدورها الهام في المجال التعليمي والثقافي؛ من أجل تخريج كوادر مدربة يمكنها التصدي للمد الشيعة الاسماعيلي، وحتى يتمكن المسلمون من التمسك بدينهم أكثر من ذي قبل في عصر شهد الصراع بين عالمي الإسلام، والمسيحية.

وهكذا وجدنا ذلك الرحالة الأندلسي، يوضح أن في مدينة دمشق عشرين مدرسة^(٧٠)، وفي هذا تعبير واضح عن تفوق ظاهرة المدارس في حاضرة الشام الكبرى، ونعني بها دمشق، وقد لقيت المدرسة النورية التي أقامها الملك العادل نور الدين محمود إعجاب ذلك الرحالة^(٧١)، وقد وصفها بمبارات تعكس ذلك الإعجاب، من ذلك قوله بأنها «من أحسن مدارس الدنيا» كذلك وصفها بأنها «قصر من القصور الأنيقة»^(٧٢).

ومن الملاحظ أن عرض ذلك الرحالة لأعداد المدارس بنجده يتناقض بالتدريج بالنسبة للمدن الأخرى في بلاد الشام. إذا ما قارناها بدمشق، من ذلك أنه عدد في حلب حاضرة الشام الشمالية نحو خمس أو ست مدارس^(٧٣)، أما حماة ففيها ثلاث مدارس^(٧٤)، وفي حمص يتناقص العدد ليصل إلى مدرسة واحدة^(٧٥)، على نحو عكس دلالات هامة عن ذلك العصر.

والواقع أن ذلك التناقض في أعداد المدارس بالمقارنة بما في مدينة دمشق، يرجع في المقام الأول إلى مظاهر النمو الحضاري، والكثافة السكانية، إذ أن دمشق - التي وجد فيها العدد الأكبر من المدارس - زاد عمراتها وازداد عدد سكانها بشكل واضح، وذلك يمكن ملاحظته من خلال أوصاف نفس الرحالة إذ أشار إلى أن المرافق بها «أكثر من أن

توصف» (٧٦)، كما أنه عدد في تلك المدينة مائة حمام (٧٧)، وفي أرباضها ونواصيها أربعين داراً، من أجل الضوء (٧٨). كما أنه أشار إلى أن أبنية المدينة تصل إلى ثلاثة طوابق (٧٩)، أما من الناحية السكانية فقد ذكر نفس الرحالة أنه «أكثر بلاد الدنيا خلقاً» (٨٠)، وفي هذا دليل واضح على النمو الحضارى والعمرانى لدمشق، والكثافة السكانية المتزايدة بها.

ولا مرء، فى أن مدينة ذلك هو طابعها، من الطبيعى أن نجدها تستأثر بأكبر عدد من المدارس، إذا ما قورنت بالمدن الأخرى الأصغر فى بلاد الشام.

وقد حرص ذلك الرحالة على أن يوضح مظاهر الحركة التعليمية فى الجوامع، من ذلك تناوله لتعليم الصبيان فى الجامع الأموى بدمشق، وكيف أنهم يدرّبون على تحفيظ القرآن الكريم، وأن هناك الإقبال من جانب الصبيان من أجل تعلم كتاب الله تبارك وتعالى. وقد ذكر أن المعلم لا يعمل بشئ سوى تلقين الصبيان كما أن الصبى متفرغ للتعلم فقط (٨١).

والى جانب ذلك الجانب، نجد ذلك الرحالة قد حرص على إبراد ناحية هامة، ونعنى بها النهضة الطبية التى وجدت فى بلاد الشام فى ذلك العصر، وتمثلت تلك النهضة بصفة عامة فى إقامة البيمارستانات فى العديد من المدن الشامية وكذلك فى الرعاية الطبية الكبيرة التى لقيها المرضى، وفى هذا الشأن، نجد أن ابن جبير قد أشار إلى وجود بيمارستانين للمرضى فى دمشق (٨٢)، وأن هناك بيمارستان قديم وكذلك بيمارستان حديث، وقد قرر أن الحديث أكبر وأكثر فخامة، وذكر أيضاً أن هناك نظاماً محدداً فى استقبال المرضى، وتسجيلهم فى سجلات، وتم تدوين ما يحتاجه المرضى من الأدوية والأغذية. ويقوم الأطباء المعالجون بالذهاب إلى البيمارستان فى ساعة مبكرة من الصباح، ويقومون بتفقد المرضى، ويقررون لهم الأغذية والأدوية الخاصة بكل حالة

مرضية^(٨٣). على نحو عكس مدى درجة التحضر العالية التي بلغها المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام فى ذلك العصر.

أما إذا ما اتجهنا إلى حاضرة شمال الشام وهى حلب، فنجد أن بها مارستاناً واحداً كما يقرر ذلك الرحالة^(٨٤). وفى حماة لاحظ وجود مارستان على شاطئ نهر العاصى^(٨٥) أما حمص؛ فعندما سأل أحد الشيوخ عن وجود مارستان بها، أنكر عليه سؤاله، وأجاب بأن «حمص كلها مارستان»^(٨٦).

وتجدر الإشارة إلى أن بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية وعلى مدى القرنين السادس والسابع الهجرى/ الثانى عشر والثالث عشر الميلادى قد شهدت ظهور العديد من الأطباء البارعين فى العديد من المجالات والعلوم الطبية، ولا أدل على ذلك من التراجم الضافية التى أوردها ابن أبى أصيبعة^(٨٧) (ت ٦٦٨هـ / ١٢٨٠م) فى كتابه البارز عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، حيث ضمن كتابه عدداً وافراً من الأطباء الشاميين الذين برعوا فى ذلك العصر. ولا نزاع فى أن احتدام الصراع الإسلامى/ الصليبي، وسقوط الجرحى والقتلى قد عمق ضرورة العناية بالطب وأمور المعالجة، كما أن ذلك الصراع جعل فكرة العناية بالقوة البشرية الإسلامية أمراً ملحقاً على أساس أن تلك القوة كانت أحد مظاهر العمق الدفاعى الاستراتيجى الإسلامى فى المواجهة الإسلامية/ الصليبية من خلال الكثافة السكانية التى تميز بها على خصمه الصليبي.

وبالإضافة إلى كافة تلك العناصر السابقة. نجد أن ابن جبير قد أورد فى رحلته عدداً من المزارات الدينية الإسلامية والمسيحية فى بلاد الشام. فى عصر اشتهر بظاهرة التبرك بالقبور والأضرحة.

ولذا نجد أنه يذكر أن بغربى دمشق جبانة كبيرة خاصة بقبور الشهداء وفيها عدد وافر من قبور الصحابة والتابعين، ومن القبور المشهورة هناك قبر أبى الدرداء وأم الدرداء ثم

قبر فضالة بن عبيد وسهل بن النظامية وهما من الذين قاموا بمبايعة الرسول ﷺ تحت الشجرة (٨٨). وكذلك قبر لخال معاوية بن أبي سفيان، أما في حمص فنجد أنه أشار إلى قبر خالد بن الوليد وكذلك قبر ابنه عبدالرحمن، وقبر عبيد الله بن عمر (٨٩)، وفي حلب نجده يقرر وجود مشهد لإبراهيم الخليل وقد أشار إلى أن الناس يقصدونه بالزيارة ويتمركزون بالصلاة هناك (٩٠).

وبالإضافة إلى ذلك نجد أنه قد أورد مزارات خاصة بالمسيحيين، ومن ذلك إشارته إلى كنيسة مريم الموجودة في مدينة دمشق، وقد ذكر أمر مكائنها العالية في نفوسهم، وأوضح تفوق عمارتها والصور الموجودة بها، والناحية الهامة التي أشار إليها أنها بأيدي الروم وأضاف «ولا اعتراض عليهم» (٩١)، وهكذا أتت تلك الأسطر لتعبر عن التسامح الديني الذي عاش خلاله المسيحيون تحت الحكم الإسلامي في مدن بلاد الشام، على الرغم من استعمار العداء بين المسلمين والغزاة الصليبيين الذين غزوا المنطقة تحت شعار الصليب، وبقاء أماكن عبادتهم دون أن تمس بالأذى أو طمس المعالم.

ويلاحظ أن ابن جبير لم يحرص على أن يذكر الأماكن المقدسة المسيحية في المناطق الخاضعة للسيادة الصليبية، وذلك على عكس الإدريسي الذي حرص على إبرادها بصورة مفصلة إلى حد ما تشابه بذلك مؤلفات الرحالة الأوروبيين أنفسهم والتعليل الرئيسي الكامن وراء ذلك أنه لم يدخل مدينة بيت المقدس أصلاً.

وإضافة إلى ما سبق، نجد أن ابن جبير يقدم تناولاً هاماً لأوضاع المسلمين الخاضعين للاحتلال الصليبي، وفي ذلك أوضح أن المسلمين يؤدون للصليبيين نصف الغلة، كما أن هناك جزية على كل رأس تبلغ ديناراً وخمسة قرايط، كما أن هناك ضريبة على التجار، وباستثناء ذلك فإن مساكن المسلمين بأيديهم، وجميع أموالهم متروكة لهم، ويقرر أن ذلك هو أسلوب الصليبيين في التعامل مع من في نطاق أملاكهم من مدن الساحل الشامي (٩٢).

وتجدر الإشارة إلى أن الوضع السابق ينبغي ألا يجعلنا نتصور أن المشروع الصليبي نجح في أن يمزج المسلمين مع الصليبيين في نسيج واحد مشترك، إذ أن الصليبيين نظروا باستمرار نظرة شك وارتياب للمسلمين الخاضعين لهم، وقد قرر ذلك صراحة أحد الرحالة الأوروبيين ونعني به تيودريش Theoderich (٩٣)، وما زاد من صعوبة الموقف أن الغزاة لم يقدروا على التخلي عن الخدمات التي يمكن أن يؤديها السكان المحليون من المسلمين، لا سيما في مجال الزراعة، نظراً لكثرة أعدادهم ولخبرتهم الواسعة في ذلك المجال، بالإضافة إلى أن الصليبيين قد عانوا أصلاً من مشكلة نقص العنصر البشري. ناهيك عن طبيعة المشروع الصليبي نفسه، كمشروع استعماري - أى استعماري • استيطاني، على نحو جعل إمكانية المسألة بين الجانبين أمراً مستبعداً، وإن حدثت فهي في أضيق نطاق وأندر.

ويقرر المؤرخ السوفييتي المعاصر ميخائيل زابوروف، أنه عندما استقر السادة الجدد (يعنى الصليبيين) في الأراضي المفتوحة، حولوا الفلاحين في القرى من المسلمين والمسيحيين إلى أقنان، وقضى القادمون على آخر بقايا حرية السكان القرويين الشخصية (٩٤).

ومن جهة أخرى، ينبغي ألا يتصور المرء أن الوضع الذي أشار إليه ابن جبير يتسم بالطابع العام الشامل لكافة المسلمين الخاضعين للسيطرة الصليبية. فمن الأمور الجديرة بالملاحظة أن ابن جبير نفسه أشار إلى زاويتين هامتين، هما وضع أسرى المسلمين الذين رأهم في مدينة عكا الصليبية، وهم يرسفون في الأصفاد، وخاصة النساء «وفى أسوقهن خلاخيل الحديد» على حد قوله، وقد ذكر أن الأسرى المسلمين يوجهون للقيام بالأعمال الشاقة المجهدة. وعبر عن الحسرة الشديدة حيالهم، حيث لا تنفع ولا تفيد (٩٥).

أما الناحية الثانية التي تتضح من خلال رواية ابن جبير أننا نجد به يشعر بالمرارة لوجوده داخل نطاق السيطرة الصليبية، على الرغم من أنه مجرد زائر لمدة أيام قلائل فما بالك بمن اضطر إلى الإقامة المستمرة، وقد ضاق ذرعاً بمظاهر الصلبان، ووجود الخنازير، وجميع المحرمات (٩٦) بنص تعبيره، ناهيك عن مظاهر الإنحلال الخلقي داخل المجتمع الصليبي ذاته. وقد أورد ذلك الرحالة عبارة ذات دلالات عميقة عن اغتراب المسلم داخل الوجود الصليبي عندما أبدى ندمه الشديد لتورطه بزيارة تلك المناطق، وقدم نصيحة عامة لكل من يفكر في أن يشد الرحال إلى هناك بقوله «فالحذر الحذر من دخول بلادهم، والله تعالى المسعول حسن الإقامة والمغفرة من هذه الخطيئة التي زلت فيها القدم ولم تتداركها إلا بعد موافقة الندم» (٩٧)، وجاءت عبارته تلك من خلال موقف نفسى هابط ومعنويات منحذرة لوجوده داخل مناطق الاحتلال الصليبي.

وهكذا، فإن إشارة ابن جبير إلى تعامل الصليبيين المحد تجاه المسلمين في مجال الضرائب وغيرها مع ترك أموالهم وممتلكاتهم بأيديهم، يحتل أحد جوانب السياسة الصليبية في التعامل معهم، ولكن وجدت مظاهر أخرى، أمكن استخلاصها من نفس تلك الرحلة الهامة.

وإضافة إلى ما سبق، نجد أن ابن جبير قد حرص على إبراز بعض الجوانب الخاصة بالعادات والتقاليد الاجتماعية سواء لدى المسلمين والصليبيين، على نحو أدى إلى إثراء رحلته بصورة واضحة.

فمن ذلك، تناوله لعادات الدماشقة في الاجتماع بصحن المسجد الأموي، حيث قرر أنه متنزههم كل عشية، حيث يمضون وقتهم هناك، رالحين غادين، وحدد ذلك الموقع بأنه من باب حيرون، إلى باب البريد، ومن ازدحام القوم في ذلك المكان أشار إلى أن المرء قد يتصور «أنها ليلة السابع والعشرين من رمضان»، أي ليلة القدر على الأرجح (٩٨).

وإذا كان ابن جبير قد تناول عادات الدماشقة في التمتع بمباهج الحياة البريئة، فإنه وصف لنا الجانب الآخر، ونقصد به عاداتهم في الجنائز. وفي هذا المجال، أشار إلى أنهم يسيرون في الجنائز بقراء يقومون بقراءة القرآن الكريم بأصوات شجية محزنة، تؤثر في النفوس تأثيراً بالغاً، وتنهال على أثر سماعها العبرات، وتتم الصلاة على الجنائز في الجامع الأموي قبالة المقصورة، كما أنه قرر أن من الممكن أن يجتمع الناس من أجل العزاء، وذلك في البلاط الغربي من صحن المسجد، وحدده بأنه في مواجهة باب البريد (٩٩).

وتوضح إشاراته السابقة، أهمية المسجد في حياة الدماشقة في ذلك العصر، وأنه مثل قلب الحياة الدينية والاجتماعية، مثلما كان دوره دوماً في حياة الجماعة المسلمة منذ فجر الإسلام.

ومن جهة أخرى، حظى الجانب الاجتماعي لدى الصليبيين على اهتمام ذلك الرحالة. وفي هذا المجال، نجد أنه أشار إلى حفل زفاف لعروس صليبية في مدينة صور اللبنانية، وقد اتسم وصفه لذلك الحفل بالحيوية، وأيضاً بالتحفظ تجنباً للفتنة، وقد ذكر أنه احتفل بالأمر جميع عناصر الصليبيين من الرجال والنساء، وقد تم اصطفاف سباطين عند باب العروس، وعزفت الآلات الموسيقية احتفالاً بتلك المناسبة.

وقد قام ابن جبير بوصف ثياب تلك العروس الصليبية، فأورد أنها ارتدت أفخر ثياب وأزاهاء، وأشار إلى أن ملابسها صنعت من الحرير المذهب (١٠٠)، حيث ازدهرت صناعة الملابس الحريرية في العديد من المدن الشامية سواء تلك الخاضعة للسيادة الصليبية أو الإسلامية.

وبصفة عامة، يعد إيراد ابن جبير لتلك المناسبة أمراً هاماً زاد من إيجابيات رحلته، وبصفة عامة تمثل تلك الحادثة جانباً يكاد يكون استثنائياً في وسط الكم الهائل من الأحداث الحربية والسياسية التي أوردتها مؤرخو ذلك العصر سواء المسلمين أو الصليبيين،

من خلال طبيعة العصر التاريخي نفسه، وهو عصر غلبت عليه صفة الصراع العنيف بين الجانبين.

وهذا الأمر، محدود أصلاً في المصادر العربية فيما يتصل بالمسلمين، والأمر أشد بالنسبة للصليبيين أنفسهم. ومظاهر الحياة المختلفة عندهم، وخاصة من خلال عيون أعدائهم المسلمين.

من جهة أخرى، أشار ابن جبير إلى الجانب الحربى وما اتصل بالقلاع والحصون، وهى التى مثلت المظهر البارز للعمارة الحربية فى ذلك العصر، وقد أشار إلى ذلك الجانب لدى كل من الصليبيين، والمسلمين.

وتجدر الإشارة إلى أن ابن جبير ذكر أمر القلاع الصليبية بيد أنه أشار إلى القليل منها، خاصة حصن الأكراد Crac des Cheraliers الذى كان الصليبيون يغيرون منه على المدن الإسلامية المجاورة مثل حماة وحمص، وكان على مسافة قريبة منها، حيث أن ذلك الرحالة أشار إلى أنه «بمرأى العين منهما» (١٠١).

كذلك تعرض لقلعة صليبية أخرى، ونعنى بها قلعة تبنين Toron، ووصفها بأنها حصن كبير من حصون الصليبيين (١٠٢).

ومن جهة أخرى، تعرض لحصن الكرك Krak de Montrial الواقع على طريق الحجاز، وأشار إلى منازل السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي له (١٠٣).

ومن جهة أخرى، قدم ابن جبير فى عبارة موجزة تساوياً لأمر حصن كبير يعرف بالزباب، ووصفه بأنه مطل على قرى وعمائر متصلة، ويطل على قرية تعرف باسكندرونة (١٠٤)، والواقع أنه ليس من السهل معرفة عما إذا كانت تلك التسمية التى أطلقها ابن جبير على ذلك الحصن يقصد بها قلعة اسكندرونة (١٠٥)، ذاتها أم أن

المقصود قلعة أخرى، وهو أمر ليس من الممكن التحقق منه، نظراً لعدم وضوح نص ابن جبير في هذا الصدد.

ومن جهة أخرى، أشار إلى عدد من القلاع والحصون الإسلامية، من ذلك تعرضه لقلعة دمشق، وقد أوضح أن السلطان يسكنها وحدد موقعها بأنها في مواجهة باب الفرج (١٠٦)، وهو أحد أبواب المدينة، أما قلعة حلب فقد امتدحها من حيث ارتفاعها الشاهق، كذلك مناعتها، وذكر أن حصانتها الذي يصعب وصفه. وأشار إلى أن سورها الأعلى كله أبراج منتظمة، كما أن بداخلها نجد المساكن السلطانية، والمنازل الملوكية (١٠٧).

وتجدر الإشارة إلى قلعتي دمشق، وحلب، كانتا محل اهتمام واضح من الجغرافيين، والرحالة المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام، في عصر الحروب الصليبية، وإن كانت إشاراتهم في هذا المجال متشابهة. وهو أمر ينطبق على ما أورده ابن جبير نفسه في ذلك المجال.

كذلك نجد أن ابن جبير أشار إلى قلعة حماة، ووصفها بأنها على ربوة كبيرة مستديرة، وتناول أمر حصانتها ومناعتها، وتوافر المياه بها، من أجل سقاية الجنود (١٠٨)، أما حمص فتناول قلعتها ووصفها بالمنعة، وفي بزاعة ذكر قلعتها الكبيرة المنيعة (١٠٩)، وإن لم يقدم أية تفاصيل أخرى بشأنها.

وتجدر الإشارة إلى أن المسلمين شيدوا عدداً من القلاع، والحصون في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية (١١٠)، بيد أن قلاعهم كانت أقل في العدد إذا ما قورنت بقلاع أعدائهم من الصليبيين، خاصة إذا ما لاحظنا أن الأخيرين كانوا في الأصل غزاة غرباء وافدين على المنطقة، وعانوا من مشكلة ظلت تؤرقهم على مدى قرنين من الزمان، ونعني بها مشكلة نقص العنصر البشري (١١١)، بينما كان المسلمون هم أصحاب الأرض الأصليين بالإضافة إلى أنهم مثلوا كثافة سكانية واضحة، بالمقارنة بأعدائهم.

مهما يكن من أمر، فإن رحلة ابن جبير في ربوع بلاد الشام قدمت لنا إشارات هامة ومتوازنة في الغالب عن قلاع الطرفين المتحاربين الإسلامى والصليبي مع ملاحظة أنها اقتصررت في الغالب على تناول أمر الحصانة والمنعة وتهديد الأعمال الجائرة دون أن تتطرق إلى الزوايا المعمارية بالحديث، على نحو أفقدها جانباً هاماً كان من الممكن - في حالة إيرادها - أن تزيد من قيمة روايات ذلك الرحالة الأندلسي في هذا الصدد. ومع ذلك من الإنصاف أن نقرر أن هذا الرحالة لا ينفرد بذلك الجانب، بل إنه ذات النهج الذي سار عليه الجغرافيون والرحالة المسلمون الذين تناولوا بلاد الشام في ذلك العصر.

وهكذا، احتوت رحلة ابن جبير على تناول هام لكافة الجوانب المتصلة بحياة بلاد الشام سواء من ناحية المسلمين أو الصليبيين على نحو جعله واحداً من أكثر الرحالة المسلمين الذين زاروا بلاد الشام ثراء في مادة الرحلة ذاتها والأضواء الكاشفة التي ألقته رحلته على أوضاع بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، ولا سيما خلال القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى.

الهوامش

(١) عن مصادر ومراجع ترجمة ابن جبير أنظر :

لسان الدين بن الخطيب، الاحاطة فى أخبار غرناطة، ح-٢، تحقيق عبدالله عنان، ط. القاهرة ١٩٧٤م، ص ٢٣٠-٢٣٩، المقرئ، نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب، ح-٣، ط. القاهرة ١٩٤٩م، ص ١٤٣؛ ابن الصابونى، تكملة الإكمال، تحقيق مصطفى جواد، ط. بغداد ١٩٥٧م، ص ١٩٩، حاشية (٢)، كراتشكوفسكى، تاريخ الأدب الجغرافى العربى، ت. صلاح الدين هاشم، ق ١، ط. القاهرة ١٩٦٣م، ص ٢٩٧-٢٩٨؛ صلاح الدين المنجد، المشرق فى نظر المغاربة والأندلسيين، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص ١٨-١٩؛ عبدالقدوس الأنصارى، مع ابن جبير فى رحلته ط. القاهرة ١٩٧٦م، ص ٢١-٣٦؛ هنرى لامنس، بلاد سوريا فى القرن الثانى عشر وفقاً لرواية ابن جبير، المشرق، العدد (٧)، السنة (١٠) عام ١٩٠٣م، ص ٣٨٧؛ شوقي ضيف، الرحلات ط. القاهرة ١٩٥٦م، ص ٣٠-٧١؛ زكى حسن، الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى، ص ٧-٧١؛ عبدالفتاح وهيب، جغرافية العرب فى العصور الوسطى، ص ١٨-١٩؛ براون، تاريخ الأدب فى إيران من الفردوس إلى السعدى، ت. الشواربى، ط. القاهرة ١٩٥٤م، ص ٦١٤؛ أحمد رمضان، الرحلة والرحالة للمسلمون، ص ٣٢٣؛ سامى الدهان، قدماء ومعاصرون، ط. القاهرة ١٩٦١م، ص ١٢٠-١٣١؛ محمد مؤنس أحمد عوض، الصراع السنى/ الشيعى فى بلاد الشام فى القرن السادس الهجرى، الثانى عشر الميلادى من خلال رحلة ابن جبير، ندوة العرب وآسيا، جامعة القاهرة، أبريل ١٩٨٩م، ص ١٢-١٣؛ محمد محمود محمددين، الجغرافيا والجغرافيون بين الزمان والمكان، ط. الرياض ١٩٨٣م، ص ١٥٣، التراث الجغرافى الاسلامى، ط. الرياض ١٩٨٤م، ص ١٥٥-١٥٦؛ حمد الجاسر، أشهر رحلات الحج، ط. الرياض، ١٩٨٢م، ص ١٩؛ جورجى زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، م ٢/ ح ٣، ص ٩٠ نقولا زيادة، ابن جبير، عالم، وفقه، وأديب، ورحالة، العربى، العدد (١٩)، يونيو ١٩٦٠م، ص ١١٧؛ أحمد أبو سعد، أدب الرحلات فى الإسلام، رجب ١٣٩٦هـ/ يولييه ١٩٧٦م، ص ٦٧؛ أبو الحسن على الندوى، مختارات من أدب العرب، ح-١، ط. جدة ١٩٧٨م، ص ١٠٣؛ عبدالرحمن الحجى، التاريخ الأندلسى، ط. بيروت ١٩٧٦م، ص ٥٠٣.

وتجدر الإشارة إلى أن جرير أبى حيدر، قد ذكر أن نسب ابن جبير هو أبو الحسين محمد بن

أحمد بن جبير الكنعاني، لكن هذا لا يجد سنداً من المصادر الأصلية، وهو الكنعاني وليس الكنعاني، أنظر إشارته :
 جبر أبو حيدر، رحلات أندلسية ثلاثة، البكري، والإدرسي، وابن جبير، مجلة الفكر العربي، العدد (٥١) يونيو ١٩٨٨م، ص ١٠٥.

(٢) عن طبعات رحلة ابن جبير نعرف أنه قد اهتم بها عدد من المستشرقين خاصة وليم رايت W. Wright، وكذلك اسكياباريلي Schiaparelli، وقد نشر رايت رحلة ابن جبير للمرة الأولى عام ١٨٥٢م، وصدر عمله في ليدن Leyden عام ١٨٥٢م أنظر :

Wright, The Travels of Ibn Jubair, ed. by W. Wright, Leyden 1852.

أما الطبعة الثانية فكانت بمراجعة المستشرق دي جويه De Geoye ونشرت ضمن سلسلة جب التذكارية، الجزء الخامس، وصدرت في ليدن Leyden عام ١٩٠٧م.

The Travel of Ibn Jubayr edided from a ms. in the university library of leyden by wright, second edition revised by M.J. de Goeje and printed for trustees of the E.J.W. Gibb memorial, Leyden 1907.

أما عن جهد سكياباريلي، فقد صدر في روما عام ١٩٠٦م ويعنون :

Schraparelli, Ibn Gubayr (Giobeir) Viaygio in Ispagna, Sicilia, Siria, Palestina, Mesopotamia, Arabia, Egitto, compiute mel secole XII, primo Traduzione Sull, Oriyinale arabe J.A.C. Schiaparelli, Roma 1906.

عن ذلك أنظر :

بالنشا، تاريخ الفكر الأنلسي، ص ٣١٧؛ كراتشكوفسكي، المرجع السابق، ص ٩٨٢-٩٩٦؛
 عبدالرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، ص ٣٣٤؛ سيد حامد النجاج، مشوار كتب الرحلة (قديماً وحديثاً)، ط. القاهرة ب-ت، ص ٢٠.

Thomsen, Die palastina - Literatur Eine internationale Bibliographie in Systematisher Ordnung mit Autoren - und Sachregister, Band II, Leipzeg 1911, p. 11.

والجدير بالذكر، أن حسين نصار قام بتحقيق رحلة ابن جبير، وصدر عمله في القاهرة عام ١٩٥٥م، وأعيد طبعه عام ١٩٩٢م، كما صدرت عدة طبعات تجارية للرحلة المذكورة في بيروت، ومنها طبعة عام ١٩٦٤م، وهي التي استعنت بها في إعداد هذا الفصل.

(٣) لسان الدين بن الخطيب، المصدر السابق، ج-٢، ص ٢٣٠.

(٤) نفسه، نفس المصدر، ج-٢، ص ٢٣١.

(٥) نقولا زيادة، الجغرافيا والرحلات عند العرب، ص ١٦٠.

- (٦) لسان الدين بن الخطيب، المصدر السابق، ح-٢، ص ٢٣١، ٢٣٣؛ شوقي ضيف، المرجع السابق، ص ٧٠-٧١؛ يوسف الغزو، المرجع السابق، ص ١٠٥.
- (٧) نفسه، نفس المرجع والصفحة.
- (٨) لسان الدين بن الخطيب، المصدر السابق، ح-٢، ص ٢٣٣؛ نقولا زيادة، رواد الشرق العربى فى العصور الوسطى، ص ٨٢.
- (٩) يوسف الغزو، المرجع السابق، ص ١٠٥.
- (١٠) حاجى خليفة، كشف الظنون، ح-١، ق-٢، ص ٨٣٦.
- (١١) نقولا زيادة، ابن جبير، ص ١١٨.
- (١٢) حسين نصار، مقدمة تحقيق رحلة ابن جبير، ص ٢٦٩، حاشية (١)؛ أيضاً نقولا زيادة، دمشق فى عصر المماليك، ط. بيروت ١٩٨٠م، ص ١٢٨.
- (١٣) نقولا زيادة، ابن جبير، ص ١١٨؛ أحمد أبو سمد، المرجع السابق، ص ٦٠.
- (١٤) كراتشكوفسكى، تاريخ الأدب الجغرافى العربى، ط. بيروت ١٩٨٧م، ص ٣٣٥.
- (١٥) صلاح الدين هاشم، الإسلام والفكر الجغرافى العربى. ط. الاسكندرية ١٩٧٨م، ص ١٤٩-١٥٠.
- (١٦) محمد محمود محمدين، المرجع السابق، ص ١٥٣؛ ابراهيم الكردى وعبدالتواب شرف الدين، المرجع فى الحضارة العربية الاسلامية، ط. الكويت ١٩٨٤م، ص ٢٧٨.
- (١٧) ابن جبير، الرحلة، ط. بيروت ١٩٦٤م، ص ٢٤٧، ٢٥١؛ من ذلك ذكره لقراءته كتاب تاريخ ابن العلى الأندى وكذلك كتباً فى فضائل دمشق.
- (١٨) عن ذلك أنظر الفصل الخاص بالإندلس.
- (١٩) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٧٦؛ زكى حسن، المرجع السابق، ص ٨٥.
- (٢٠) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٧٦؛ محمد مصطفى زيادة، رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة، ط. القاهرة ١٩٣٩م، ص ١٨.
- (٢١) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٧٦.
- (٢٢) نفسه، نفس المصدر والصفحة.
- (٢٣) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٢٤) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٧٧-٢٧٨.

(٢٥) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٧٨.

(٢٦) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٣٨.

(٢٧) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٦١.

(٢٨) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٢٦-٢٢٧. وعن أسواق حلب أنظر :

Sauvaget, Alep, Essai sur le developpement d'une grande Ville, p. 119-121.

(٢٩) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٣١.

(٣٠) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٢٤.

(٣١) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٣٢.

(٣٢) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٣٣) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٢٨.

(٣٤) كامل العسلى، من آثارنا فى بيت المقدس، ص ٣٩.

وبلاحظ أن الخان مبنى كبير اشتمل على مجموعة من الحوانيت الكبيرة، والصغيرة، ومخازن للبضائع، ويتوسطه فناء كبير على شكل رواق مغطى من أجل أن يحفظ التجار سلعهم، ويجدوا مأوى لهم، ولدوابهم خلال ارحالهم، وقد عنيت الخانات بشكل خاص بمهام التخزين ولم توجد فى المدن فقط، بل أيضاً على امتداد الطرق التجارية فى بلاد الشام، والجزيرة، وقد وجدت من الخانات أنواع كبيرة الحجم، وأنواع أخرى صغيرة، وفق قدراتها على تخزين البضائع، ومن الخانات الشامية الشهيرة وقت زيارة ابن جبير خان أبى الشكر، وخان تمنى، وخان حماة. عن الخانات أنظر :

ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٢٨؛ نعيم زكى، طرق التجارة الدولية أواخر العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٧٠م، ص ٢٩٣؛ أشتور، التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للشرق الأوسط فى العصور الوسطى، ص ٣٠٥؛ فتحي عثمان، الحدود الإسلامية/ البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والتأثير الحضارى، ح ٣، ط. القاهرة ١٩٦٦م، ص ٢٣٤؛ عبد القدوس الأنصارى، مع ابن جبير فى رحلته ص ١١٣.

(٣٥) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٧٣.

(٣٦) كامل العسلى، المرجع السابق، ص ٣٩، حاشية (٢).

والجدير بالذكر، أن القيسارية عبارة عن بناء كبير تتوزع فيه الحوانيت على الجانبين. ولذا فهي تتخذ شكل السوق، وكلمة قيسارية هي تعريب للكلمة اللاتينية *Caesares*، حيث أن الرومان استعملوها كمستودع لبضائعهم، واحتوى على كافة السلع مثل الطراز، والفرش، والفراء، والمجوهرات، وتم اغلاقها ليلاً، وفرضت عليها الحراسة من أجل مواجهة هجمات اللصوص، ومن القياسر البارزة في بلاد الشام وقت زيارة ابن جبير لها، قيسر الجعفرى، ودرب اللبان، والفراء، والفرش، والسلطان والوزير. عن القيسار أنظر :

ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٢٧؛ ابن مائى، قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، ط. القاهرة ١٩٤٨م، ص ٤٥٧؛ ابن عساكر، المصدر السابق، م (٢)، ص ٧٠، ص ١٤١، ص ١٥٧، ١٥٩؛ اليسيف، الحياة الاقتصادية في دمشق في عهد نور الدين محمود، ضمن الكتاب التذكاري عن ابن عساكر، ط. دمشق ١٩٧٩م، ص ٣٠٥؛ نوال محمد عبدالله، العمران في المشرق العربي في القرن السادس، قراءة في رحلة ابن جبير، المؤتمر الجغرافي الاسلامي الأول، جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية، المجلد الثالث، ط. الرياض ١٩٨٤م، ص ٣٧٨؛ ماجد، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، ط. القاهرة ١٩٦٨م، ص ٣٠١؛ شاكراً أبو بدر، الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص ٢٠٠.

Elisseeff, "Corporation de Damas sous Nur Al-Din Matériaux pour Une topographie economique de Damas au XIIe Siecle", R.E.A., T. III, Année 1956, p. 77.

(٣٧) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٦١.

(٣٨) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٨٠. وعن الاحكار التجارى في العصر الأيوبي أنظر :

أنيس مقدسى، الدولة الأيوبية في رسائل ابن الأثير، مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية بيروت، السنة (١٨)، م (٣)، ح (٢)، سبتمبر ١٩٦٥م، ص ٣٢٧.

(٣٩) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٨٠.

(٤٠) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٤١) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٦٠؛ زكى حسن، المرجع السابق، ص ٨٢-٨٣؛ البير شاندور، صلاح

الدين الأيوبي، البطل الأتقى في الاسلام، ت. سعيد أبو الحسن، ط. دمشق ١٩٨٨م، ص ٦٢.

وعن إشارة المصادر التاريخية لعصر الحروب الصليبية وخاصة مؤلفات الرحالة الأوروبيين

للعلاقات التجارية بين الجانبين الاسلامي والصليبي أنظر :

Fetellus, p. 24; Theoderich, p. 65; Burchard of Mont Sion, p. 163;
Ludolph Von Suchem, p. 5.

(٤٢) أحمد رباحة، إسهامات بعض الرحالة العرب في الدراسات الأنثروبولوجية المبكرة، مجلة دراسات، عمان، م (١٠)، العدد (١)، عام ١٩٨٣م، ص ٤٤.

(٤٣) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٨١.

(٤٤) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٨٠.

(٤٥) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٧٤.

(٤٦) من دور المغاربة في الجهاد في بلاد الشام أنظر :

ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٧٨؛ عبد الهادي التازي، بلاد الشام في الوثائق الدبلوماسية المغربية، بحث ضمن أعمال المؤتمر الأول لتاريخ بلاد الشام، ط. عمان ١٩٧٤م، ص ٤٣٤؛ السيد عبدالعزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ط. الاسكندرية ١٩٦٧م، ص ٢٤٩؛ عبد القدوس الأنصاري المراجع السابق، ص ٢٣٧؛ أحمد بدر، الأندلسيون والمغاربة في القدس، مجلة أوراق، المعهد الأسباني العربي، العدد (٤)، عام ١٩٨١م، ص ١٣٣؛ أحمد مختار العبادي، دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي، ضمن كتاب بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، ط. الاسكندرية ١٩٨٣م، ص ٤؛ على أحمد، الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام، ص ٣٠٣-٣٠٤.

(٤٧) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٥٠.

(٤٨) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٥٨.

(٤٩) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٨١.

(٥٠) أنظر الفصل الخاص بأسامة بن منقذ.

(٥١) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٥٦.

(٥٢) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٥٢.

(٥٣) حسين نصار، تحقيق لرحلة ابن جبير.

(٥٤) عن أبي البيان الزاهد وطريقته البيانية أنظر :

ابن تقي بردي، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٣٢٤، المنهل الصافي، ص ٤٨، حاشية (٣)؛ النعمي، المدارس في تاريخ المدارس، ج ١، ص ١٩٢؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج ٤، ص ١٦٠.

(٥٥) Lewis, The Assassins, p. 114.

(٥٦) Demombyne, Muslim; Institutions, English Trans. by Meegnegor, London 1954, p. 41.

(٥٧) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٥٢.

(٥٨) عن بلدة الباب أنظر، الفصل الخامس، الباب الأول، حاشية (٢٤).

(٥٩) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٢٤.

(٦٠) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٦١) عن ابن العديم، أنظر الفصل الرابع، الباب الأول، حاشية (٢٦).

(٦٢) ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، ج ٣، تحقيق سامي الدخان، ط. دمشق ١٩٦٨م، ص ٣٢.

(٦٣) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٢٥.

(٦٤) فيما يتصل بمجهود الخليفة الناصر لدين الله في إحياء تقاليد الفتوة، نعرف أنه اتجه إلى إحداث نهضة في هذا المجال، وقد سعى إلى بحث أخلاقياتها وآدابها التي وجدت لدى العرب منذ العصر الجاهلي. ووجدت هناك آداب متعددة للفتيان منها لبس السراويل، والأحرمة، وشرب الماء، والملح، وغيرها من المراسيم، ولدينا بعض المصادر المتخصصة في الكتابة عن الفتوة وآدابها وتعود إلى عهد ذلك الخليفة، ومن أمثلتها ما ألفه ابن البقال البغدادي (ت ٥٨٨هـ / ١١٩٢م) وكذلك ابن عمار الحنبلي (ت ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م)، ويبدو أن العديد من فرق الفتيان قد ظهرت في ذلك العصر، مثل الرهاصية وهي المنسوبة إلى عمر الرهاص، والخليلية، وهي المنسوبة إلى إبراهيم الخليل عليه السلام وغيرها كثير.

عن ظاهرة الفتوة وجذورها التاريخية في الجاهلية والاسلام ودور الخليفة الناصر لدين الله في بحث آدابها أنظر :

ابن طباطبا، الفخرى في الآداب السلطانية، ط. القاهرة ١٣١٥هـ، ص ٢٨٧؛ ابن الأثير، الكامل ج ١٢، ص ٤٤٠؛ ابن البغال، المقترح في المصطلح في تعليم رمى البندق والصيد، ألفه للخليفة الناصر لدين الله، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٥٠٦ ج؛ ابن عمار الحنبلي، كتاب الفتوة، تحقيق مصطفى جواد، وآخرون، ط. بغداد ١٩٥٨م؛ الصفدي، نكت الهميان من نكتب العميان، ط. القاهرة ١٩١١م، ص ٩٣؛ عمر الدسوقي، الفتوة عند العرب، ط. القاهرة ب-ت،

ص ٢٣٢؛ محمد صالح محيي الدين، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في الشرق في عهد الناصر لدين الله العباسي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، عام ١٩٧٤م، ص ٦٧؛ محمد الحاج فلفل، علاقة الأيوبيين في مصر والشام بالخلافة العباسية في بغداد، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة عام ١٩٧٧م، ص ١٠٧؛ أحمد أمين، الصلح والفتنة في الإسلام، ط. القاهرة ١٩٥٣م، ص ٦٦؛ واصف بطرس غالي، تقاليد الفروسية عند العرب، ت. أنور غالي، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص ٣١؛ جيرارد زلنجر، الفتنة هل هي الفروسية الشرقية؟، ضمن كتاب دراسات اسلامية ت. مجموعة من الباحثين بإشراف نقولا زيادة، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص ١؛ كامل شيبى، همنكى ميان تصوف وتشيع، ط. تهران ١٣٥٤هـ، ص ٢٨٧-٢٨٨.

(٦٥) راشد الدين، هو راشد الدين سنان بن سلمان محمد أبو الحسن البصري، مقدم الاسماعيليه النزارية في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، وهو في الأصل من مدينة البصرة من قرية فيها تسمى عقر السدن، وبدأ حياته بتعليم الصبيان، وقدم مقدمو الاسماعيليه في ألمات بجنوب بحر قزوين بمقارس، وسيطر على أتباعه سيطرة كاملة، ووصف بأنه كان بعيد الهية عظيم المخارق، وله قدرة كبيرة على مخادعة القلوب، وتصفه المصادر التاريخية السنية أنه أباح لأتباعه الحرمان، وقد توفي راشد الدين سنان في عام ٥٨٩هـ / ١١٩٣م، ويلاحظ أن أتباعه بعد موته اعتقدوا في غيبته ورجعته من بعد، وهناك من يقرر أن في حصن الكهف؛ يوجد القار الذي اختفى فيه راشد الدين سنان، ويقال إنه مدفون فيه ويزعمون أنه غاب فيه ويظهر منه، كما يزعم أتباعه، وذلك وفق ما أورده شيخ الرهوة الدمشقي. عن راشد الدين سنان أنظر :

ابن العديم، سيرة راشد الدين سنان، تحقيق برنارد لويس، R.E.A., T. VIII, 1966، ص ٢٦٠-٢٦١؛ ثلاثة تراجم من بنية الطلب، تحقيق برناردلويس Melanges Fuad Koprülü، ص ٣٣٨-٣٣٩؛ ابن تفرى يردى، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١١٧؛ شيخ الرهوة الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص ٢٠٨؛ الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ط. الرياض ١٩٨٩م، ص ٢٠٦.

Lewis, The sources for the History of The Syrian Assassins, Speculum, Vol. XXVII, p. 486.

(٦٦) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٢٩.

(٦٧) نفسه، نفس المصدر والصفحة؛ ابن العديم، ترجمة راشد الدين سنان، في ثلاثة تراجم من بنية الطلب، ص ٣٣٣.

Eracles, l'Eracle Empereur et la conquete de la Terre d'Outremere, R.H.C., (٦٨)
Hist. Occ., T. I, Paris 1869, p. 210.

(٦٩) برنارد لويس، الدعوة الإسماعيلية الجديدة، ص .

(٧٠) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٥. وفي هذا المجال أنظر :

ممدوح الروبي، المدارس الدمشقية القديمة، المنهل، العدد (٥١٦)، م (٦٠)، المحرم
١٤١٥هـ / يونيو ١٩٩٤م، ص ١٢-١٧.

(٧١) ابن جبير المصدر السابق، ص ٢٥٦.

(٧٢) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٧٣) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٢٨.

(٧٤) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٣١.

(٧٥) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٣٢.

(٧٦) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٤٦.

(٧٧) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٦١.

(٧٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٧٩) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٥٥.

(٨٠) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٨١) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٤٥.

(٨٢) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٥٥. وعن البيمارستان النوري الذي أقامه نور الدين محمود في دمشق
أنظر :

ابن عساكر، ترجمة محمود بن زنكى، تحقيق اليسيف B.E.O., T. XXV, Année
1972، ص ١٣٨؛ ابن الأثير، الباهر، ص ١٧٠؛ النعمى، دور القرآن في دمشق، ص ٥١؛ ابن
قاضي شهاب، الكواكب الدرية، ص ٣٥؛ القرمانى، أخبار الدول وآثار الأول، ط. بيروت ب-ت،
ص ٢٧٩؛ صلاح الدين المنجد، بيمارستان نور الدين، ط. دمشق ١٩٤٦م؛ أحمد عيسى،
البيمارستانات في الاسلام، ط. دمشق ١٩٣٩م، ص ٢٩٧؛ أسعد طلس، الآثار الاسلامية
والتاريخية في حلب، ط. دمشق ١٩٥٦م، ص ٦٥-٦٦.

Gibb, The Career of Nur Al-Din, p. 519.

(٨٣) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٥٥.

والجدير بالذكر هنا أن البعض يرى أن البيمارستان النورى الذى أقامه نور الدين محمود فى دمشق يعد أول جامعة بالمصطلح الحديث بمعنى بتدريس العلوم الطبية، حيث كانت تحتوى على مختبرات وأدوات طبية وغرف للجراحة والتوليد وكذلك قاعات مخصصة للدراسة. عن ذلك أنظر :

مدوح الزوى، المرجع السابق، ص ١٦.

(٨٤) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٢٨. وعن يمارستان نور الدين محمود فى حلب أنظر : أدولف بوشه، تطور الطب فى حلب عبر العصور، عادات حلب، الكتاب الأول حلب، ١٩٧٥، ص ١٢٧.

(٨٥) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٣١.

(٨٦) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٣٢.

(٨٧) ابن أبى أصبعية، هو موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجى، ولد فى دمشق حوالى عام ٦٠٠هـ / ١٢٠٤م، وتلقى علومه هناك حيث درس العديد من العلوم الدينية والطبية، وبرع فى الأخيرة على نحو خاص، وتلمذ على أيدي عدد من كبار الأطباء فى عصره مثل الدخوار (ت ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م)، وابن البيطار (ت ٦٤٦هـ / ١٢٥١م). وكذلك تتلمذ على يدى والده الذى كان هو الآخر طبيباً، وزامل ابن النفيس (ت ٦٨٧هـ / ١٢٨٨م)، فى دراسته الطبية، ويبدو أنه لم يحقق شهرة كبيرة فى مسقط رأسه بدمشق خاصة أنه عرف بطب العميون فقط، وربما كان ذلك من العوامل الدافعة له لكى يغادر الشام إلى مصر، حيث كانت الروابط العلمية مزدهرة ووثيقة الصلة بين القطرين، فارتحل إليها عام ٦٤٣هـ / ١٢٤٨م، وذلك فى عهد الملك الكامل الأيوبي، وقد عمل فى البيمارستان الصلاصى، ويبدو أنه اكتسب خبرة عملية من خلال ذلك على نحو أفاده فى ممارسته الطبية، وبعد مضي عام عاد أدراجه إلى الشام، ويبدو أن إقامته فى مصر مدة عام واحد لا تخلو من دلالات ربما أراد العودة إلى بلاده بعد أن كون خبرة مناسبة فى القاهرة، إضافة إلى خبرته السابقة فى دمشق، ومن المحتمل أنه استفاد من إقامته فى مصر من أجل الحصول على المادة التاريخية اللازمة لكتابة القسم الخاص بأطباء مصر ضمن عمله الفذ عن طبقات الأطباء، وربما لم يحقق هناك ما كان يصبو إليه من شهرة عريضة فى مصر، ومن بعد ذلك نراه يتجه إلى صرخد بحوران، حيث أمضى بها معظم ما بقى من حياته، وأدركته منيته هناك فى عام ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م عن عمر يبلغ السبعين عاماً تقريباً،

ويلاحظ أن عمل ابن أبى أصبينة الهام والذي حقق له شهرته العربية هو عيون الأنباء في طبقات الأطباء، وقد ترجم فيه لما يزيد على الاربعمائة طبيب من المسلمين وغير المسلمين، ويجد أن غالبية الذين ترجم لهم من الأطباء المسلمين كانوا من عصر الحروب الصليبية. عن أبى أصبينة أنظر :

ابن كثير، البداية والنهاية، ح-١٣، ط. بيروت ١٩٨٠م، ص ٢٥٧؛ ابن تفرى بردى، النجوم الزاهرة، ح-٧، ص ٢٢٩؛ الصفدى، الوافى بالرفيات، ح-٧، باعثناء إحسان عباس، ط. فساون ١٩٨٢م، ص ٢٩٥؛ ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، ح-٥، ص ٣٢٧؛ كردعلى، خطط الشام، ح-٤، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص ٣٨؛ أحمد عيسى، معجم الأطباء من سنة ٦٥٠هـ إلى يومنا هذا، ط. القاهرة ١٩٤٢م، ص ١١٤؛ شاكى مصطفى، التاريخ العربى والمؤرخون، ح-٢، ط. بيروت ١٩٨٠م، ص ٢٦٨؛ فرات خطاب، الكحالة عند العرب، ط. بغداد ١٩٧٥م، ص ٣٨-٣٩؛ على عبد الله الدفعا، أعلام العرب والمسلمين فى الطب، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص ٣٠٧، حاشية (٥)؛ صالح العلى، العلوم عند العرب، دراسة فى كتبها ومكانتها فى الحركة الفكرية فى الاسلام، ط. بيروت ١٩٨٩م، ص ٦٧؛ محمود الحاج قاسم، الطب عند العرب، والمسلمين، تاريخ ومساهمات، ط. مكة المكرمة ١٩٨٧م، ص ٨٦؛ دائرة المعارف الاسلامية، مادة «ابن أبى أصبينة»، ح-١، ت. خورشيد وآخرون، ط. القاهرة ١٩٣٣م، ص ٦٩؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ح-١، ص. بيروت ١٩٨٣م، ص ٤٧؛ الزركلى، الأعلام، ح-١، ط. بيروت ١٩٨٤م، ص ١٩٧؛ محمد مؤنس أحمد عوض، الأسرات الطبية العربية حتى القرن ٧هـ / ١٣م، ومكانة أسرة بنى أبى أصبينة فى تاريخ الطب العربى، مؤتمر تاريخ العلوم عند العرب، السعود، الجمهورية العربية السورية عام ١٩٩٣م؛ عبدالرحمن زكى، تراث القاهرة العلمى والفنى فى العصر الإسلامى، ط. القاهرة ١٩٦٩م، ص ٤٠-٤١.

(٨٨) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٥١.

(٨٩) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٣٢.

(٩٠) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٢٦.

(٩١) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٥٤.

(٩٢) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٧٥.

(٩٣) Theoderich، أحد الرحالة الألمان الذين زاروا مملكة بيت المقدس الصليبية على ما يرجح خلال المرحلة من ١١٧١-١١٧٣م / ٥٦٧-٥٦٩هـ، والواقع أننا لا نملك معلومات

مؤكدة عن ليودريش باستثناء اسمه، ومن المحتمل أنه قد ورد لدى مقدمة يوحنا أوف ورزبرج John of Wurzburg الإنجليزية Introductionary Eposle، ومع ذلك لا يوجد دليل يدعم ذلك، ومن المحتمل أن ليودريش هذا عمل أسقف لورزبرج، ويلاحظ أن وصفه لكنيسة الضريح المقدس في بيت المقدس، وعقده المقارنة بينها، وبين كنيسة اكس لاشايل Aix la Chapelle (آخن) يدل على أنه أكثر من التردد على تلك البلاد على الأرجح. عن ليودريش ورحلته أنظر :

Tobler, Bibliographia geographic a palestinae, Leipzig 1867, p. 18;
Wright, The geographical Lore in the time of the crusades, Astudy in the history of medieval science and tradition in Western Europe, p. 540.

محمد مؤنس أحمد عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية

(١٠٩٩-١١٨٧م)، ص ١٨٠-٢٠٠. وعن إشارته أنظر : Theoderich, p. 22.

(٩٤) ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص ١٣٢.

(٩٥) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٨٠، محمد فتحى الشاعر، أحوال المسلمين في مملكة بيت المقدس الصليبية، ط. القاهرة ١٩٩٠م، ص ٢٤.

(٩٦) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٨٠.

(٩٧) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٩٨) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٣٩.

(٩٩) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١٠٠) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٧٨.

وفيما يتصل بالحرير، نعرف أن مصدر دودة القز أو دودة الحرير من جبال آسام في شمال الهند، ومن بلاد البنغال، إلا أنه في شمال الصين تعلم الانسان لأول مرة كيف يقوم بعملية نسج خيوط الحرير من الشرنقة، وقد تم ذلك الإنجاز الكبير في تاريخ الحضارة البشرية في حوض نهر تاريم، في ما يعرف بتركستان الصينية، ويلاحظ أن طريق الحرير بدأ من الشرق من الصين، واخترق ما يعرف بمنغوليا، وحوض نهر تاريم الصحراوى وفجاء وعمرات أفغانستان وبلاد فارس، ثم من بعد ذلك اخترق بلاد الرافدين ومنها إلى بلاد الشام، ومن هناك تفرع إلى فرعين أحدهما اخترق الأناضول إلى القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية، أو اتجه نحو موانئ البحر المتوسط، مثل الاسكندرونة وطرابلس حيث وجدت هناك السفن التجارة الأوروبية من أجل حمل المنسوجات الحريرية إلى جنوة، والبندقية، ومرسيليا، وغيرها من موانئ القارة

الأوروبية. وتجدر الإشارة إلى أن الحرير تميز بلونه الأبيض الجميل المائل إلى الإصفرار، والتسم بصفات مميزة كالنعومة، والمتانة، وشبه الشفافية، مما جعله محل إعجاب وحرص الملوك القدماء وكبار الأغنياء من رجال ونساء على شرائه فدخل في نطاق التجارة الدولية بصورة واضحة.

ومن ناحية أخرى، نعرف أن المغول في مرحلة من مراحل تاريخهم؛ فكروا في إقامة دولة عالمية، كان من أهدافها السيطرة على طريق الحرير، وهو في واقعه جسر التواصل بين الشرق والغرب، وقد قام اثنان من الرحالة في العصور الوسطى، وهما ماركو بولو Marco Polo (١٢٥٤-١٢٩٤م)، وابن بطوطة (٧٠٢-٧٧٩هـ / ١٣٠٣-١٣٧٧م) بإرتياد طريق الحرير المذكور في أسفارها الطويلة المدى، والتي مثلت بالنسبة للأول مناطق في أوروبا وآسيا، والثاني مناطق أفريقيا وآسيا.

وجدير بالذكر أن الجيولوجي والرحالة الألماني فرديناند فون ريشتنهوفن Ferdinand Von Richthoffen (١٨٣٣-١٩٠٥م) قام ١٨٦٠م برحلاته إلى أقطار الشرق، وعاد إلى أوروبا عام ١٨٧٢م وأطلق على ذلك الطريق المذكور تعبير طريقة الحرير. عن الحرير وطريقه التجاري الدولي أنظر:

أبو دلف المهلهل الخورجي، الرسالة الثانية، تحقيق بطرس بولياكوف وأنس خالدوف، ط. موسكو ١٩٦٠م، ص ٣٧؛ على أبو عساف، طريق الحرير والطرق التجارية الأقدم، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، السنة (١٢)، العددان (٣٩)، (٤٠)، كانون الأول ١٩٩١م، ص ٧٢-٨٢؛ عبدالرحمن حميدة، طريق الحرير بين ابن بطوطة وماركو بولو، العدد المذكور، ص ٨٣-٩٥؛ محمد حرب فرزات، حوار الحضارات على طريق الحرير بين الصين والشام، العدد المذكور، ص ٩٦-١١٨؛ بشير زهدى، طريق الحرير وتدمير مدينة القوافل التجارية، العدد المذكور، ص ١١٩-١٣٧؛ نعمان محمود جبران، محاولات المغول السيطرة على طريق الحرير (أسباب ونتائج)، العدد المذكور، ص ١٣٨-١٥٥؛ ساطع محلى، طريق الحرير ١٩٩١م، الطريق وسيلة وصل حضارية بين الشعوب، العدد المذكور، ص ٤٩-٧١؛ هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، ج ١، ص ١٣؛ موريس لومبار، الإسلام في مجده الأول، ت. اسماعيل العربي، ط. الدار البيضاء ١٩٩٠م، ص ٢٧١-٢٧٢؛ مجدى غنيم، الحرير، ط. القاهرة ١٩٩٣م؛ عبدالرحمن سامي، القول الحق في بيروت ودمشق، ط. بيروت ١٩٨١م، ص ١٠٣.

(١٠١) ابن جبير، الرحلة، ص ٢٢٩.

(١٠٢) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٧٤.

(١٠٣) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٦٠؛ وأيضاً، ابن شاهنشاه الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق تحقيق حسن حبشي، ط. القاهرة ١٩٦٨م، ص ١٥٣-١٥٤؛ فايد حماد عاشور، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي، ط. القاهرة ١٤٠٣هـ، ص ٤٢.

(١٠٤) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٧٦.

(١٠٥) من الملاحظ أن قلعة اسكندرونة Scandalium نشتد معلوماتنا عنها من مصدرين أصليين هما : فوشيه دي شارتر Fulcher of Chartres، ووليم الصوري William of Tyre، ويقرر الأول أن الملك بلدوين الأول Baldwin I (١١٠٠-١١١٨م / ٤٩٣-٥١١هـ) قام ببنائها، وأنها سميت سكاندليون، وهي تعني ميدان الأسد، أما وليم الصوري فيقرر أن ذلك الملك عندما أراد تشييد قبضته على صور قام بتشيد القلعة المذكور. وقرر أنها شيدت في موقع يسمى الكسندريوم Alexandrium على اسم الاسكندر المقدوني Alexander of Macedonia، وقد قام ذلك الملك بإعادة بناء الاسكندرونة، وعهد بها إلى أحد النبلاء وذلك على ما يبدو عام ١١١٧م / ٥١١هـ. عن قلعة اسكندرونة أنظر :

Fulcher of Chartres, p. 220; William of Tyre, Vol. I, p. 514; Burchard of Mont Sion, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., Vol. XII, London 1896, p.10, note (1); Marino Santo, Secret For the True Crusaders to help Them to recover the Holy Land, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., Vol. VII, London 1896, p. 8; Ludolph Von Suchem, p. 61-62.

(١٠٦) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٦١.

(١٠٧) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٢٦.

(١٠٨) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٣٠.

(١٠٩) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٣٢.

(١١٠) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٢٤.

(١١١) من مشكلة نقص العنصر البشري وأثرها على الوجود الصليبي في بلاد الشام أنظر : الباب الأول

- الفصل الأول.

الخاتمة

ذلكم سفر الجغرافيين والرحالة المسلمين فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، وقد تمخض البحث عن عدد من النتائج الهامة، من الممكن إجمالها على النحو التالى:

أولاً : أفادت مؤلفات الجغرافيين، والرحالة المسلمين فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية وعلى مدى القرنين السادس والسابع الهجرى/ الثانى عشر والثالث عشر الميلادى، فى تقديم صورة جلية للطوبوغرافية التاريخية لبلاد الشام حينذاك، ومزجت بين الجغرافيا والتاريخ فى تناسق حيوى وهام، ومن المهم بمكان إدراك أن كتابة تاريخ بلاد الشام بدون الاعتماد على مثل تلك الزاوية السابقة يعد أمراً مستحيلاً، وذلك على اعتبار أن الجغرافية توجه التاريخ، وأن التاريخ فى بعض جوانبه ما هو إلا صراع على الجغرافيا فى أشكالها المتعددة الطبيعية، والبشرية، والاقتصادية.. إلى غيرها من فروع الدراسات الجغرافية.

ثانياً : أكدت مؤلفات أولئك الجغرافيين والرحالة، على شمولية الرؤية الجغرافية لديار الإسلام فى ذلك العصر، إذ أنهم قدموا لنا أوصافاً متعددة لبلاد الشام من خلال تناولهم العام لكافة أنحاء العالم الإسلامى الذى جابوا أقطاره المتعددة، ولم تكن هناك فكرة التجزؤ أو الانقسام حتى مع وجود العدو الصليبي الذى غرس كيانه فى المنطقة الشامية وحاول مد ذلك الكيان إلى مناطق أخرى مثل مصر وتونس وغيرها. وهكذا فمن الممكن القول إن مؤلفاتهم فى هذا المجال ما هى إلا امتداد طبيعى لمؤلفات الجغرافيين والرحالة المسلمين السابقين، ولاسيما منذ القرن الرابع الهجرى/ العاشر

الميلادى، مع إدراك فوارق الخبرة الجغرافية، وتطورات أوضاع المسلمين على مدى قرنين كاملين من الزمان.

ثالثاً : ألفت مؤلفات أولئك الجغرافيين والرحالة المسلمين الأضواء الكاشفة على أوضاع الساحل الشامى الذى امتد من سان سيمون (السويدية) ميناء أنطاكية فى الشمال، حتى غزة جنوباً، وظهر حرصهم الواضح على إيراد العديد من الجوانب المتصلة به سواء السياسية أو الاقتصادية أو السكانية، على نحو أوضح إدراكهم لأهميته فى قضية الصراع الإسلامى/ الصليبي. وقد مثل الساحل عصب الحياة بالنسبة للصليبيين من خلال حركة الصادرات والواردات، وفرضهم المكوس على حركة التجارة، بالإضافة إلى أنه مثل نقطة أساسية فى اتصالهم بالوطن الأم للحركة الصليبية، ونعنى بها الغرب الأوروبى حيث قدم الدعم المادى والمعنوى اللازم لاستمرار المشروع الصليبي. ولذا، من الممكن القول دونما مبالغة، أن الصليبيين بقوا فى بلاد الشام ما بقيت فى أيديهم المناطق الساحلية، وعندما انتزعت منهم بالكامل فى نهاية المطاف على أيدي المماليك البحرية، كان ذلك إيذاناً بفشل مشروعهم لغزو بلاد الشام، وطردهم من المنطقة.

رابعاً : كشف الجغرافيون، والرحالة المسلمون، الذين قدموا إلى بلاد الشام فى ذلك العصر عما يمكن وصفه بالمواجهة الحضارية بين الجانبين الإسلامى والصليبي، إذ أنه بعد انقشاع غبار المعارك الأولى اتى خاض الصليبيون غمارها ضد المسلمين وانتصروا خلالها، وبعد نجاحهم فى غرس كياناتهم السياسية فى الرها، وأنطاكية، وبيت المقدس، وطرابلس، احتك الطرفان حضارياً، وظهر بجلاء كيف أن الهزيمة العسكرية التى أصابت المسلمين على أيدي أعدائهم لم تكن تعنى الهزيمة الحضارية، بل إنهم كانوا أكثر تفوقاً على المستوى الحضارى منهم، ومن ثم فإن بلاد الشام خلال عصر الحروب الصليبية مثلت أحد المعابر الأساسية والهامة التى نهلت من خلالها أوروبا الحضارة الإسلامية. وجاءت شهادات الرحالة المسلمين لتكشف لنا تلك الحقيقة المتصلة باختلاف المستوى

الحضارى بين الطرفين المتصارعين، وكان المجال الطبى، أحد المجالات الهامة التى كشفت أبعاد تلك المواجهة، ناهيك عن الجوانب الأخرى، بطبيعة الحال.

خامساً : كشفت مساهمات أولئك الجغرافيين والرحالة المسلمين النقاب، عن ما يمكن وصفه بالنمو الحضارى والعمرانى لحواضر الشام الكبرى الخاضعة للسيادة الإسلامية مثل دمشق، وحلب وحماة وغيرها، والواقع أن من الأهمية بمكان رصد ذلك الجانب، على اعتبار أن تلك المدن التى وقعت على خطوط التجارة العالمية ثم تمتعت بموقع جغرافى وفر لها مصادر الحياة الوفيرة، والكثافة السكانية المرتفعة، ثم أنها اتصلت بجاراتها فى العراق ومصر، فإذا ما لاحظنا أن مدن العراق والشام ومصر، مثل الموصل وحلب، ودمشق والقاهرة كانت تمثل خط الدفاع الاستراتيجى فى مواجهة الصليبيين، وعجز الأخيرون عن إخضاع تلك المدن، واستمروا منحصرين فى الساحل والسهل الساحلى. ومن ثم فإن النمو المتزايد على المستوى الحضارى والعمرانى لتلك الحواضر الشامية، أفاد فى تقديم صورة عن آليات الصراع الإسلامى / الصليبي فى ذلك العصر.

سادساً : ألقت كتابات أولئك الجغرافيين والرحالة المسلمين، الأضواء الكاشفة على طبيعة فكرة الجهاد الإسلامى فى عصر الصليبيين، إذ أوضحت حجم مشاركة العناصر الإسلامية الوافدة على بلاد الشام، ومن أمثلتها المغاربة، الذين أبلوا بلاء حسناً فى مواجهة الصليبيين هناك، على نحو يكشف بجلاء عن أن قضية الجهاد الإسلامى فى ذلك العصر، لم تكن قضية شرقية فحسب؛ بل ومغربية أيضاً. وهكذا يمكن القول بأن الشخصية الإسلامية، تجاوزت العوائق الجغرافية فى ذلك العصر من أجل أن تنصهر فى تجربة الجهاد ضد الغزاة الصليبيين.

سابعاً : قدمت مؤلفات أولئك الجغرافيين والرحالة إشارات هامة من العمائر الحربية، ودورها التاريخى فى بلاد الشام فى عصر الصليبيين، ولاسيما دور القلاع الصليبية، مع ملاحظة أن إشاراتهم تركزت على وصف مظهرها الخارجى، وحصانيتها

ومناعتها، أما دورها الحربى، فكانت إشاراتهم نادرة بشأنه، وإن قدمت مؤلفات الحوليات البديل عن ذلك النقص فى صورة وفرة التفصيلات المتعلقة بالجانبين الحربى، والسياسى.

ثامنًا : وفرت رؤية أولئك الجغرافيين والرحالة المسلمين فى ربوع الشام، صورة هامة لدى الباحثين المحدثين عن خريطة بلاد الشام المذهبية، بالإضافة إلى حجم المواجهة السنية - الشيعية هناك خلال عصر الحروب الصليبية. وقد واجه المسلمون السنيون - الذين حملوا على كاهلهم عبء الجهاد - خطر الإسماعيلية النزارية الذين تحالفوا استراتيجيًا مع الصليبيين ضد عدوهم المشترك فى صورة المسلمين السنة، وشهروا سلاح الإرهاب والاغتيال فى وجه قيادات الجهاد الإسلامى فى ذلك العصر، وكانت منطقة شمال الشام إحدى المناطق الهامة فى أمر المواجهة بين الجانبين.

تاسعًا : قدمت إشارات الرحالة المسلمين الذين زاروا بلاد الشام فى ذلك العصر، لاسيما المقارية، شهادة معاصرة عن العلاقات السلمية بين المسلمين والصليبيين، لاسيما على المستوى التجارى، فى عصر شهد احتدام الصراع الحربى، إذ أن كل طرف احتاج الآخر من أجل تصريف منتجاته التجارية. ومن الملاحظ أنه بعد إخضاع الصليبيين للساحل الشامى والذى تم عام ١١٥٣م، بإسقاطهم آخر المعاقل الفاطمية هناك عسقلان، اكتملت السيادة الحربية والسياسة الصليبية على ذلك القسم الحيوى والهام من بلاد الشام، وصارت القوى الإسلامية الشامية قوى برية حييسة، وتم القضاء على دور المسلمين كوسطاء تجاريين يستفيدون من سيطرتهم على ذلك الساحل. الأمر الذى حافظوا عليه بمهارة منذ القرن الأول الهجرى/ السابع الميلادى حتى آخريات القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى.

وأمام الوضع السابق، احتاجت القوى الإسلامية إلى الصليبيين من أجل تصريف

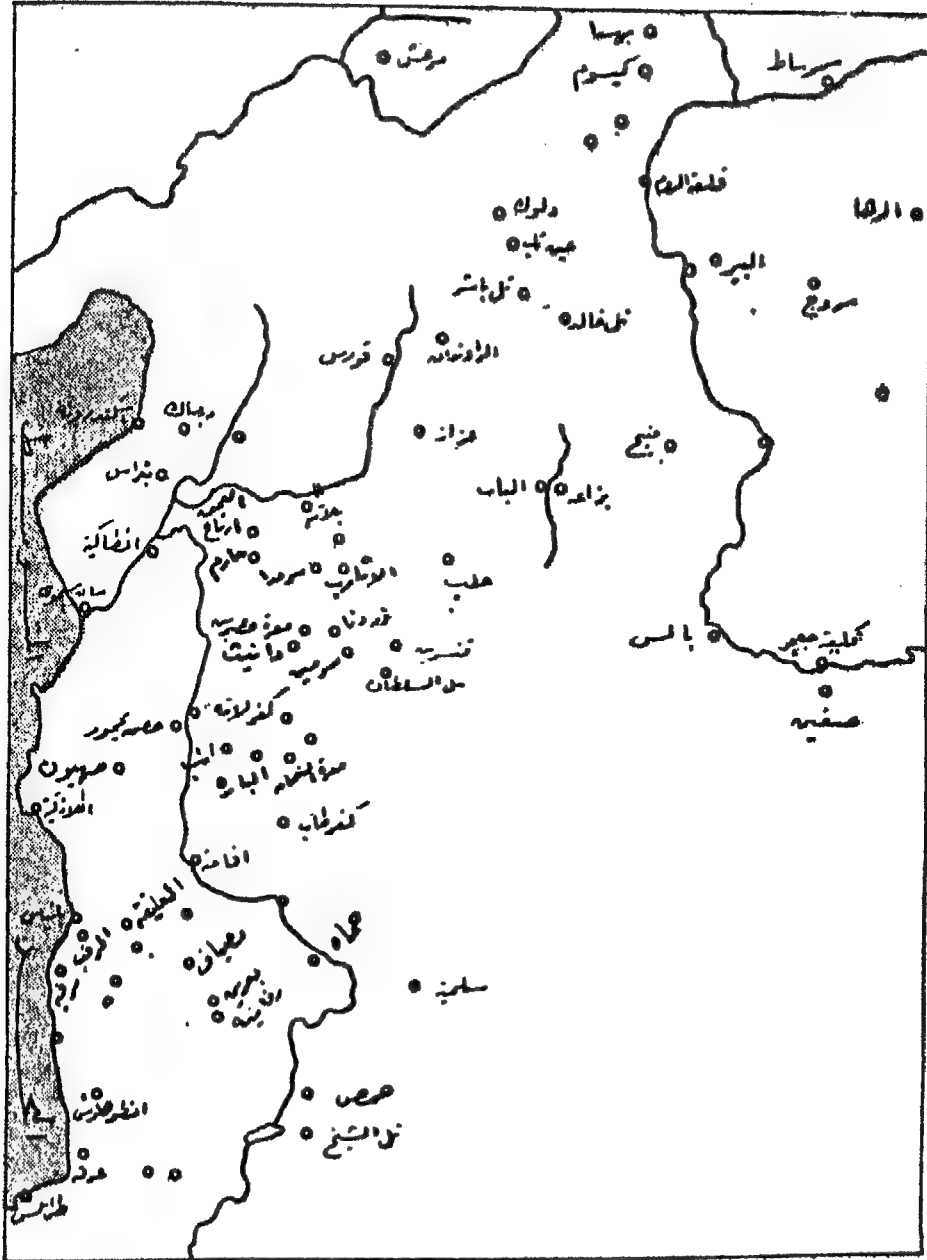
منتجاتها، وقبل الصليبيون ذلك على اعتبار أنهم جنوا أرباحاً طائلة من خلال تجارة العبور، واحتلالهم دور الوسيط التجارى البديل، وكان للمدن التجارية الإيطالية مثل جنوة، وبيزا، والبندقية دورها الهام فى هذا المجال، وهكذا أشارت مؤلفات أولئك الرحالة إلى قدوم قوافل الصليبيين إلى مناطق المسلمين والعكس، وفى ذلك دلالة واضحة على أن العلاقة بين الجانبين لم تكن جميعها عدائية، بل إن المصلحة المشتركة فرضت واقعاً خاصاً وفريداً. ومثل تلك الإشارات، ما كان من الممكن أن ترورها كتب الحوليات ذات الاهتمام الحربى والسياسى الطابع. على نحو يعكس أهمية مؤلفات الرحالة المسلمين كأحد المصادر التاريخية المتميزة للعلاقات الإسلامية/ الصليبية.

مجمل القول وصفوته، إن مؤلفات الجغرافيين، والرحالة المسلمين، الذين تناولوا بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية احتوت على جوانب هامة من تاريخها على نحو جعل لها مكانة خاصة متميزة من بين مصادر تاريخ تلك المنطقة، خلال عصر المواجهة بين المسلمين والصليبيين.

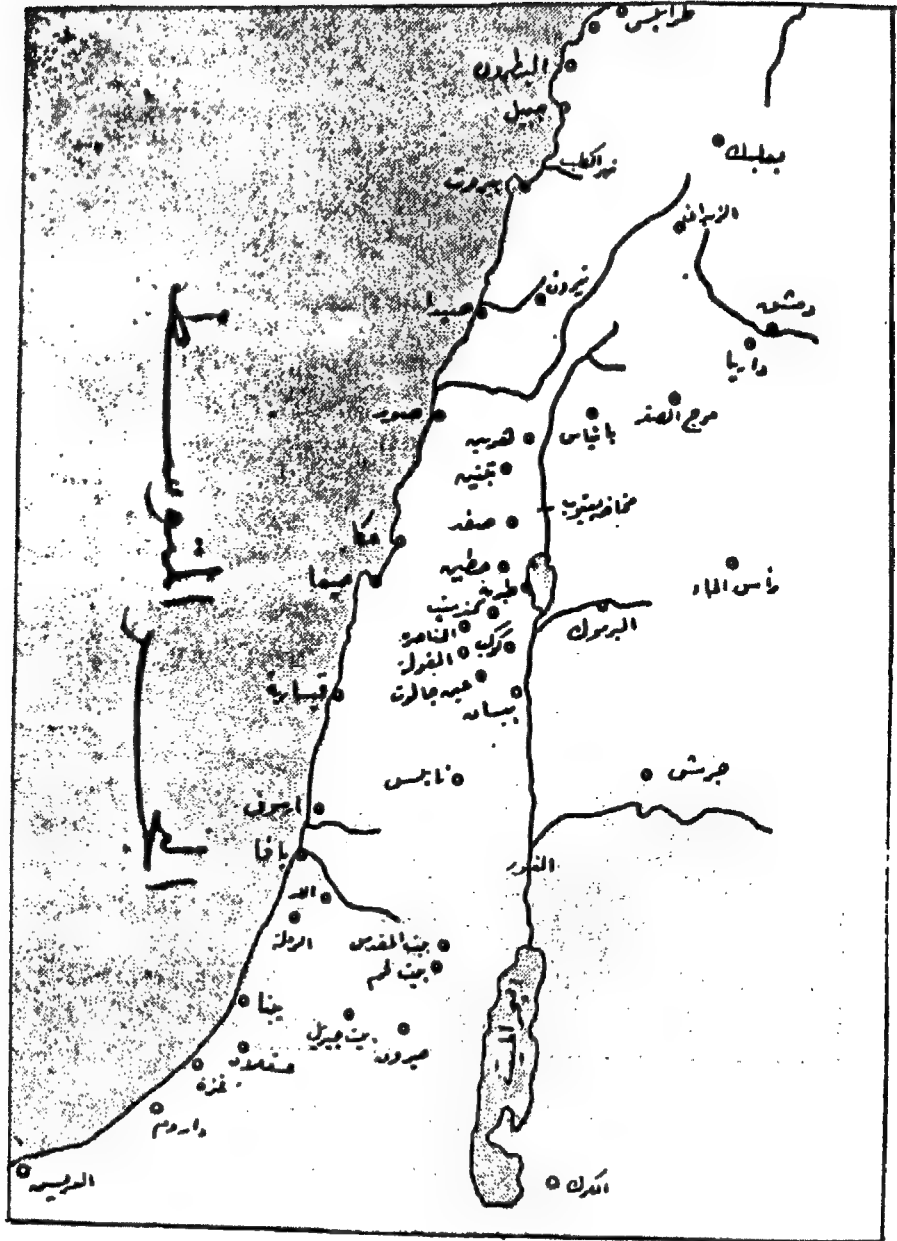
قائمة بالمختصرات

List of Abbreviation

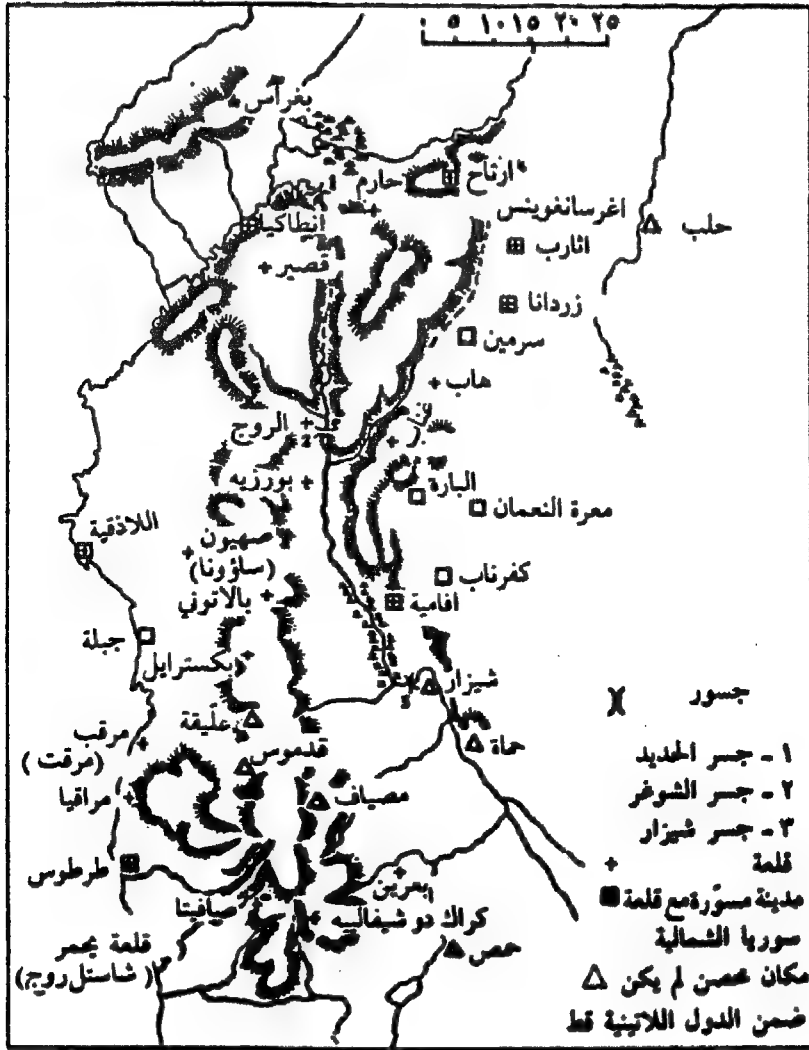
- A.O.L. : Arshives de L'Orient Latin.
 B.E.O. : Bulletin d'Etudes Orientales.
 B.F.A.A.U. : Bulletin of The Faculty of Arts Alexandria University.
 B.S.O.A.S. : Bulletin of The School of Oriental and African Studeis.
 C.E. : Chamber's Encyclopedia.
 C.H.I. : Cambridge History of Iran.
 C.S.H.P. : Corpus Scriptorum Historiae Pyzantinae.
 D.E.I. : Diction naire Encyclopedie quillet.
 E.B. : Encyclopedva Britannica.
 E.J. : Encyclopedia Judeca.
 J.A. : Journal Asiatique.
 J.R.A.S. : Journal of Royal Asvatvc Society.
 J.P.O.S. : Journal of Palestine Oriental Society.
 M.H. : Medical History.
 M.I.E. : Memoires publiés par Les membres de L'institute
 Francais d'Archaeologie Orientale au Caire.
 M.W. : Muslim World.
 P.O. : Patrologia Orientalia.
 P.P.T.S. : Palestine Pilgrims Text Society.
 R.D.S.O. : Rivista degli Studi Orientalia.
 R.E.A. : Revue d'Etudes Arabes (Arabica).
 R.H.C. : Recueil des Historiens des Croisades.
 S. : Syria.
 U.J.E. : Universal Jewish Encyclopedva.
-



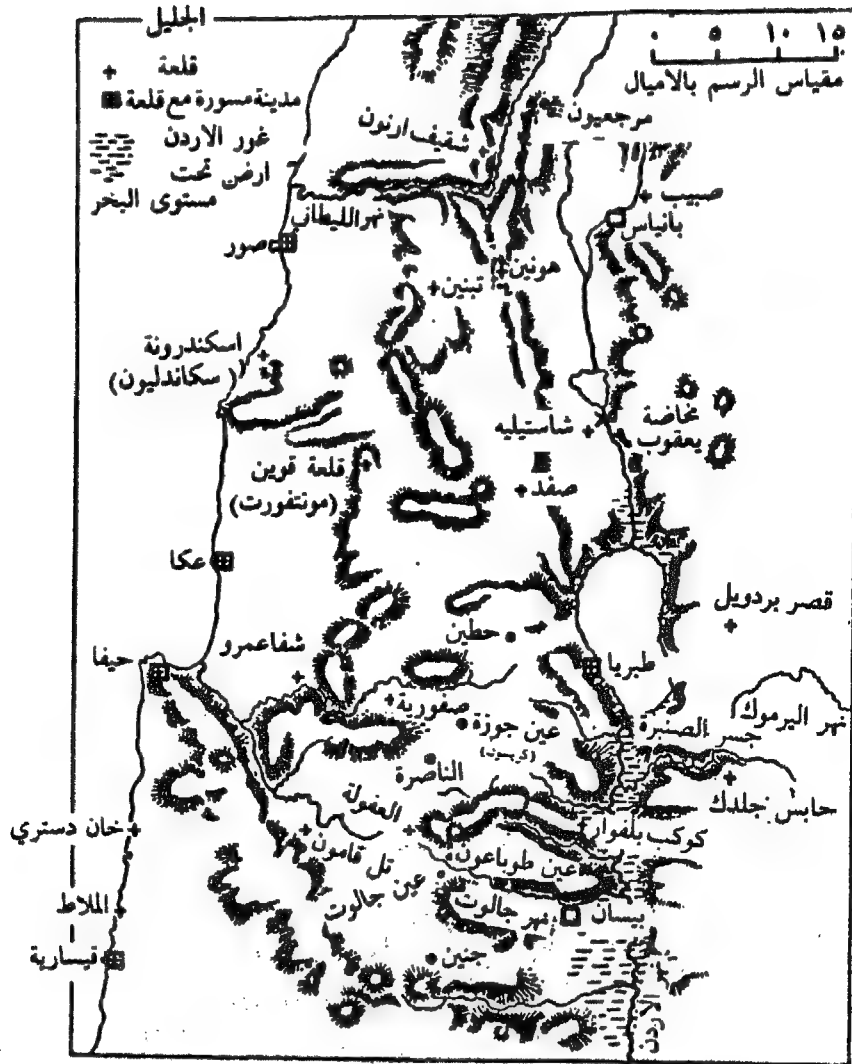
شمال الشام نقلاً عن العربي، الشرق الأوسط والحروب الصليبية.



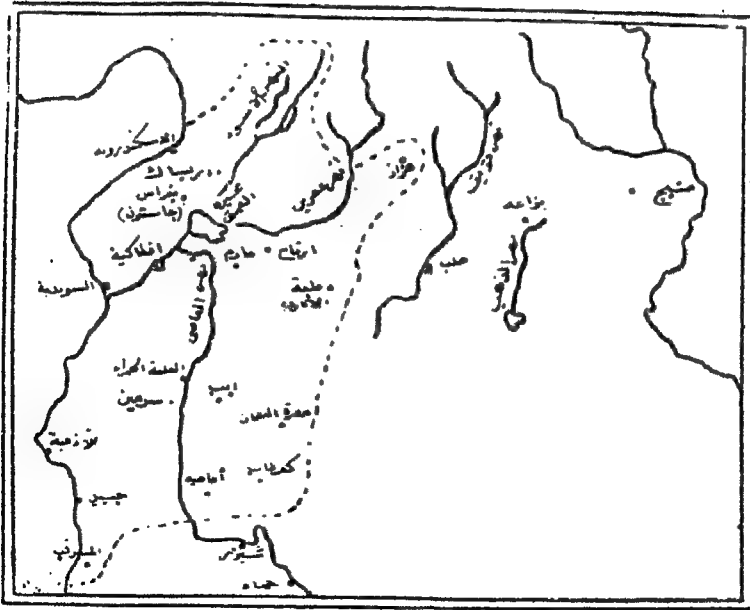
فلسطين نقلاً عن العربي، الشرق الأوسط والحروب الصليبية.



القلاع الصليبية في إمارتي أنطاكية وطرابلس
نقلًا عن سمائل، الحروب الصليبية.



القلاع الصليبية في شمال فلسطين
 نقلاً عن سمائل، الحروب الصليبية.



إمارة أنطاكية، نقلاً عن عمران، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية
في عهد الامبراطور مانويل الأول



إمارة الرها، نقلاً عن نفس المرجع.

الفهرس

مقدمة ٥

القسم الأول :

الجغرافيون في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية

- ١ - الإدريسي ١٧
- ٢ - ياقوت الحموي ٧٣
- ٣ - القزويني ١١٣
- ٤ - ابن شداد ١٣٥
- ٥ - ابن سعيد المغربي ١٨٣
- ٦ - أبو الفدا ١٩٥

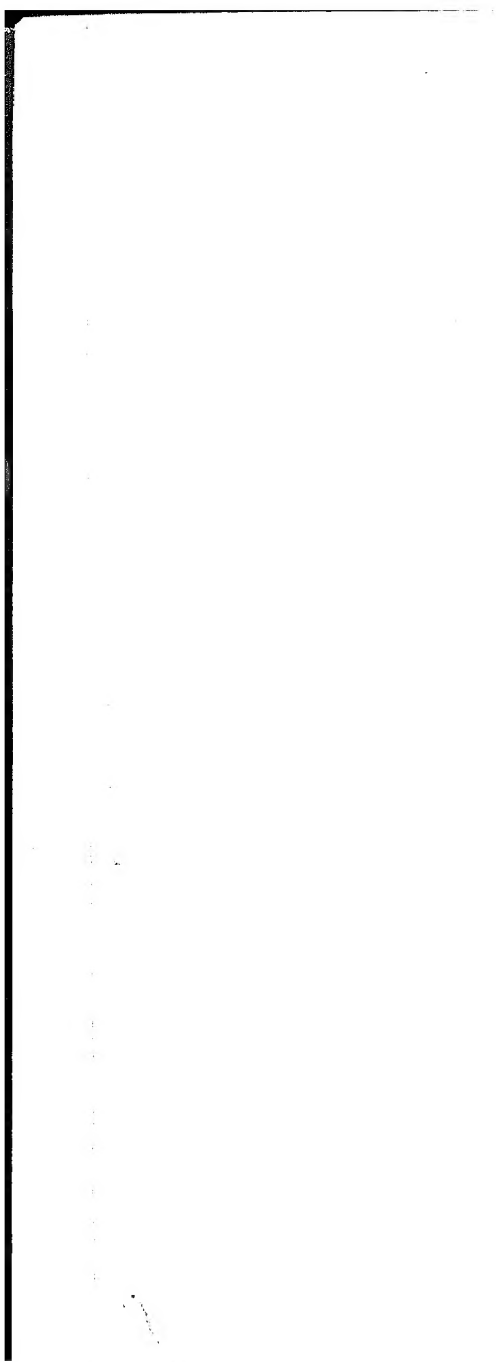
القسم الثاني :

الرحالة المسلمون في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية

- ١ - السمعاني ٢٢٣
- ٢ - أسامة بن منقذ ٢٤٥
- ٣ - السائح الهروي ٢٦٥
- ٤ - ابن جبير ٢٨٣
- الخاتمة ٣٢٥
- قائمة باختصرات ٣٣١

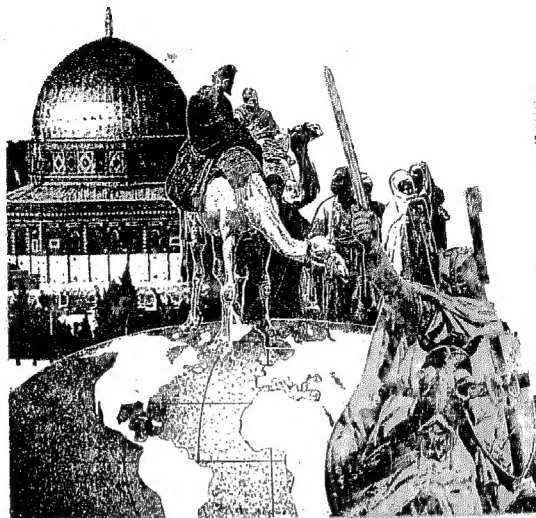
رقم الإيداع ٩٥ / ٣٠٧٣

I. S. B. N. 977 - 5487 - 26 - 9



مطابع الهداية
والعربي انور سيد - البراميل - الجزائر

الجهاد في زمن والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية



للدراستات والبحوث الانسانية والاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES